



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

معهد الآثار

جامعة الجزائر 02

مدارس التعليم في بلدان المغرب الإسلامي خلال العهد العثماني دراسة نموذجية تاريخية أثرية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية

إشراف الأستاذ:

د: علي بوتشيشة

إعداد الطالب:

مراد حديبي

أعضاء لجنة المناقشة

| الإسم واللقب | الرتبة | الصفة | المؤسسة الأصلية |
|-----------------------|-----------------|----------------|-----------------------|
| أ.د/عبد الكريم عزوق | أستاذ | رئيساً | جامعة الجزائر 2 |
| د/ علي بوتشيشة | أستاذ محاضر - أ | مشرفاً ومقرراً | جامعة الجزائر 2 |
| أ.د/ اسماعيل بن نعمان | أستاذ | ممتحنا | جامعة الجزائر 2 |
| د/ عثمان مفتاح | أستاذ محاضر - أ | ممتحنا | جامعة الجزائر 2 |
| أ.د/ سعيد بوزرينة | أستاذ | ممتحنا | المركز الجامعي بالبيض |
| د/ علي خيدة | أستاذ محاضر - أ | ممتحنا | جامعة قسنطينة 2 |

السنة الجامعية: 1443-1442هـ / 2021-2022م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



كلمة شكر

الحمد والشكر لله على جميل إنعامه وتوفيقه، شكري الخالص
وتقديري الكبير إلى أستاذي الفاضل الدكتور علي بوتشيشة على
تكرمه وقبوله الإشراف على هذا العمل، احترامي لأعضاء لجنة
المناقشة الأكارم على تصحيحاتهم وتصويباتهم وشكري موصول
لأخي وصديقي يوسف عزوز على مساهمته في اتمامه وإخراجه إلى
ما هو عليه...

حديبي مراد



الإهداء

أهدي ثمرة جهدي إلى

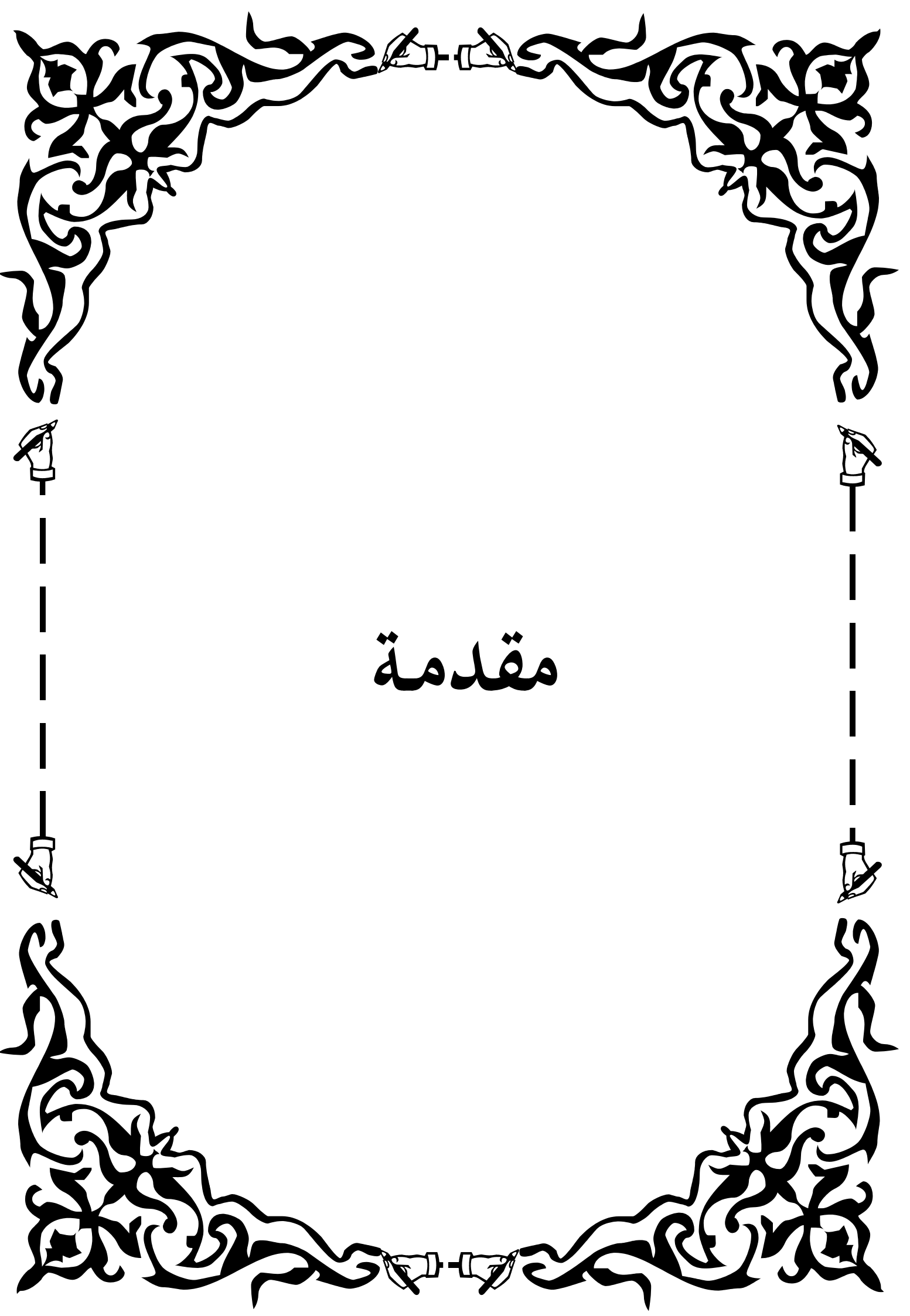
الوالدين العزيزين، إلى عائلتي الكبيرة

كل باسمه....

إلى عائلتي الصغيرة، زوجتي وولداي

لينة وإسكندر....

حديبي مراد



مقدمة

مقدمة:

إذا كان علماء الآثار وتاريخ الحضارات يعتمدون في دراساتهم على مخلفات الأمم من التحف المنقولة من الصناعات والأدوات وما إليها، ليتعرفوا بها على أحوالها وعاداتها وما كانت عليه في حياتها ومعيشتها اليومية، وقيسوا بها درجاتها من التقدم والتخلف، أو من الأصالة والتقليد ومبلغ اتصال هذا كله بالقدرة على تجويد الصناعة وتنويع حاجات المعيشة وحسن الفطنة والذوق السليم والمهارة الفنية.

وإذا كانت التحف المنقولة لها هذا القدر عند جمهور المهتمين بقضايا تاريخ وأثار الحضارات، فليس من شك في أن التحف الثابتة - العماير والمباني - لها قدر أكبر في استنباط الحقائق الثابتة التي لا تهاب ولا تحابي، ومن ثم فقد أضحت العمارة وما يماثلها من آثار قائمة في مقدمة ما يحرص عليه المختصين في الآثار على استنطاقها والاستماع إليها، والوقوف على ما تخفي وما تعلن عند تدوينهم تراث الأقدمين.

إذن تعتبر العمارة هي السجل الكامل الذي نعرف من خلاله تاريخ العصور السابقة بما فيها من تقدم وازدهار أو تدهور أو تخلف، ومن هنا سجلت لنا العمارة سواء الدينية منها أو المدنية أو العسكرية تاريخ عمارة العصور المتعاقبة وأعطتنا صورة صادقة عن منسئها.

وقد كان لدراستي في مرحلة الماجستير عن العمارة الإسلامية وبالضبط موضوع الزوايا التجانية بالجنوب الجزائري أثرا كبيرا في استكمال دراستي في نفس المجال - أي مجال العمارة - في مرحلة الدكتوراه، ولهذا وقع اختياري على دراسة موضوع مدراس التعليم في بلدان المغرب الإسلامي خلال الفترة العثمانية دراسة نموذجية في كل من الجزائر وتونس، خاصة وان هذا الموضوع لم يبحث في شكل مستقل وواف لكن نراه مبعثرا في بعض المصادر القديمة وبعض المراجع والدراسات الحديثة رغم الروابط التاريخية والسياسية والعلمية الكبيرة التي كانت تربط إيالات بلاد المغرب في العهد العثماني.

كما أن المدارس تعتبر إحدى المنشآت المعمارية المهمة في دراسة الحضارة الإسلامية كمؤسسات علمية وثقافية لعبت دورا كبيرا في تقدم العلوم والمعارف وتطور الحضارة، فهي تقوم شاهدا ماديا ودليلا واضحا على وسائل التعليم وأماكنه وكذا مكانته خلال الفترة العثمانية بالمنطقة، وتعتبر تلك المباني عن نمط معماري خاص بما احتوت عليه من مكونات معمارية وتعدد في مواد بنائها، لذلك سنقوم في هذه الدراسة بتشخيص الطراز المعماري والفني الذي تتميز به المدارس من خلال النماذج المختارة في كل من الجزائر وتونس، ومحاولين في الوقت ذاته البحث عن أصولها المعمارية

ومظاهر التأثير والتأثر فيما بينها، كما ارتأينا أن لا نعوص في الكثير من الجوانب المرتبطة بعمارة المدرسة كمناهج التدريس المعتمدة من حيث أنواعها وموادها ومحتواها وبرامجها وطرقها وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالمستويات العلمية وعمر الطلبة وغيرها، وذلك حتى نحصر العمل في إطاره الأثري المعماري من جهة وحتى لا نفتح فروعاً أخرى من المواضيع التي قد نثقل بها على البحث، ومنه انطلقنا في دراستنا من خلال صياغة الإشكالية التالية:

- ماهي الخصائص المعمارية التي تمتاز بها مدارس التعليم العثمانية في كل من الجزائر وتونس، كتلة وتخطيطاً وأقساماً وكمنظومة معمارية فنية متكاملة؟

ومن زاوية متصلة وكأسئلة فرعية نطرحها:

- هل الطراز المعماري الذي عرفت به المدرسة في بلاد المغرب خلال الفترة العثمانية هو استمراراً للطراز الذي كان سائداً قبل هذه الفترة في مدارس الحفصيين والزيانيين تحديداً أم أنها حملت تقليداً جديداً وافداً ولو في بعض النواحي التخطيطية أو المعمارية أو الفنية؟

- ما مدى تأثير الروابط الثقافية والعلمية التي كانت تربط إيالتي الجزائر وتونس خلال هذه الفترة على مراكز التعليم عموماً وعلى عمارة المدارس خصوصاً تجسيدا لهذا التواصل.

- هل الطراز أو الطرز التي سادت في تخطيط المدرسة في الجزائر وتونس في العهد العثماني يمكن أن يكون ممثلاً لطراز المدرسة العثمانية عموماً، سواء في المدن التركية أو في مدن أخرى في مصر أو الشام أو غيرها، وسواء كان ذلك من ناحية التخطيط أو الشكل العام أو في توزيع العناصر المعمارية وأيضاً في التفاصيل الفنية الزخرفية أم لديه خصوصية معمارية تميزه عن الطرز السابقة؟

هذه الأسئلة والتساؤلات هي مثار البحث التي سنحاول أن نجيب عنها عبر مراحلها وفصوله، وذلك بالنظر إلى ما استطعنا تحصيله من مادة علمية وما اجريناه من أعمال ميدانية ارتأينا أن نقسم الموضوع إلى خمس فصول مع مقدمة وخاتمة.

- **الفصل الأول:** تطرقنا في المحور الأول منه إلى تعريف المدرسة ونشأتها في الإسلام أما المحور الثاني فتحدثنا فيه عن المدرسة ونشأتها في بلاد المغرب الإسلامي والأندلس وظروف وعوامل نشأتها والطرز المعمارية المتعددة في

تخطيطها والنظريات المتعلقة بهذه الطرز، وختمنا الفصل بموضوع العلاقة بين المدرسة والزاوية والمسجد والرباط من الجانبين الوظيفي والمعماري.

- الفصل الثاني: تناولنا فيه موضوع تطور المدرسة في بلاد المغرب الإسلامي حتى نهاية العهد العثماني وقسمناه إلى أربع محاور، تناولنا في الأول منها تطور المدرسة في تونس خلال العهدين الحفصي والعثماني، أما الثاني فتطور المدرسة في المغرب الأوسط خلال العهدين الزياني والعثماني، والمحور الثالث تطورها في المغرب الأقصى خلال العهد المريني ثم السعدي والعلوي، وفي الأخير تطور المدرسة في ليبيا خلال العهدين الحفصي والعثماني.

- الفصل الثالث: خصصناه لدراسة مدارس التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني وقسمناه إلى أربع محاور رئيسية، تناولنا في المحور الأول حوصلة شاملة عن تاريخ الجزائر في ظل الحكم العثماني، ثم في المحور الثاني وضعية التعليم في الجزائر خلال هذه الفترة، لنتقل بعدها إلى الدراسة الوصفية المعمارية في المحور الثالث وذلك في النماذج المختارة وهي أربع نماذج تناولناها حسب تاريخ تأسيسها من الأقدم إلى الأحدث، بدأً من المدرسة الناصرية بخنقة سيدي ناجي بيسكرة، ثم مدرسة مازونة الفقهية بغيليزان، وبعدها مدرسة خنق النطاح بوهران، ثم المدرسة الكتانية بقسنطينة، وقد تناولناها من حيث المكونات المعمارية وكتلتها وأقسامها ونظامها المعماري دون الغوص كثيراً في منظومتها الفنية والتقنية، لنتختم الفصل بالمحور الرابع الذي تناولنا فيه موضوع أهم المدارس المندثرة في الجزائر من حيث موقعها تاريخيها ودورها العلمي وبعض خصائصها المعمارية والفنية.

- الفصل الرابع: تطرقنا فيه لدراسة مدارس التعليم في تونس خلال العهد العثماني وقسمناه هو الآخر إلى أربع محاور كبرى، تناولنا في الأول منه موضوع تاريخ تونس العثماني وفي الثاني قدمنا فكرة موجزة عن وضعية التعليم في تونس خلال هذه الفترة لنتقل بعدها إلى الدراسة الوصفية المعمارية في المحور الثالث وذلك في النماذج المختارة وهي كذلك أربع نماذج تناولناها حسب تسلسل فتراتها الزمنية راعيناً في اختيارها عدة جوانب، منها مدى اصالتها وتنوع عناصرها ومرافقها المعمارية وراثتها الفني، وكذلك اختلاف فتراتها الزمنية بحكم أن هناك عشرات المدارس القائمة بذاتها التي تعود للعهد العثماني في مختلف مدن تونس عكس ما هو عليه الحال في مدارس الجزائر، بالإضافة إلى اختيار النماذج التي أمكن القيام بالدراسات الميدانية فيها، فكان لنا نموذجاً من فترة حكم الأسرة المرادية ممثلة في المدرسة المرادية في قابس وثلاث نماذج من فترة حكم الأسرة الحسينية إثنين منها في مدينة تونس تعود لمؤسس الأسرة حسين بن علي وهما مدرسة النخلة ومدرسة جامع الجديد، والنموذج الآخر لغريمه وابن أخيه وخليفته من بعده علي باشا

الأول ممثلا في المدرسة السليمانية بمدينة تونس، واعتمدنا على نفس طبيعة الدراسة في الفصل السابق وذلك من حيث دراسة المكونات المعمارية وكتلتها وأقسامها ونظامها المعماري دون الغوص كثيرا في منظومتها الفنية والتقنية، لأن هذه الأخيرة غنية جدا ومتنوعة تستحق أن تكون موضوعا منفصلا بذاته، وكما في الفصل السابق ختمنا الموضوع بأهم المدارس المندثرة في تونس خلال هذه الفترة.

- **الفصل الخامس:** قمنا فيه بدراسة تحليلية مفصلة لعماره المدارس في كل من الجزائر وتونس من حيث نظامها

التخطيطي ووحداتها المعمارية، مركزين على أوجه التشابه والاختلاف بين هذه العمائر وغيرها في مناطق أخرى.

- وختمنا هذا البحث بخلاصة فيها حوصلة لنتائج دراستنا، حيث حاولنا الإجابة على أهم الإشكاليات التي طرحت في المقدمة، وقد دعمنا البحث بأشكال وصور ومخططات للمدارس في النماذج المدروسة وغيرها.

وقد اقتضى منا هذا البحث بهذه الخطة دراسة واسعة ومستفيضة في ميدانين تلازم كل منهما مع الآخر تلازم وجهي العملة، أحدهما نظري أكاديمي والآخر ميداني تطبيقي.

تطلبت الدراسة الأكاديمية الاطلاع على الوثائق والمصادر التاريخية والمراجع العربية والمعربة وكذا الأجنبية وجمع ما تيسر لنا من المادة العلمية ذات الصلة بالموضوع، والحقيقة كذلك أن شهية البحث تزداد كلما غصنا في الجانب الميداني التطبيقي منه، سيما ما تعلق بالمخططات والصور الفوتوغرافية والمقاسات مع العناية الكبرى بالجانب التاريخي الذي ساعدنا في معرفة مسار رحلة التغييرات والتأثيرات المعمارية والفنية ورصد حركتها وذلك بتحديد تاريخ المدرسة ومؤسسها ودورها العلمي وأبرز أساتذتها وأهم التطورات التي طرأت عليها منذ ظهورها ومحاولة تحديد معالم وهوية هذه المدارس.

واعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج التاريخي الوثائقي المبني على دراسة المعلومة بالعودة إلى أصلها واتباعنا من خلاله على تقصي نشأة المدارس في المشرق وبلاد المغرب ومراحل تطورها حتى نهاية الفترة العثمانية، وإبراز تاريخ المدارس المعتمدة كنماذج ودورها العلمي والثقافي، يتخلله المنهج الوصفي الملائم في وصف واستقراء هذه العمائر، والمنهج التحليلي المقارن في استخلاص الخصائص المعمارية والفنية وذلك للتعلم في كشف أوجه التشابه والاختلاف بين مختلف الطرز والمرافق والعناصر المعمارية المشكلة لهذه المعالم.

هذا وقد كان الاعتماد على بعض المصادر والمراجع التي تناولت هذا الموضوع من زاوية أو من أخرى أمراً ضرورياً، منها المصادر المعاصرة للفترة العثمانية والتي سمحت لنا بالاستفادة من المعلومات عموماً حول الموضوع، ولعل أبرز المصادر التي تناولت موضوع التعليم والمنشآت التعليمية في غرب الجزائر في الفترة العثمانية كمازونة ومعسكر ووهران نذكر منها على وجه الخصوص ابن سحنون الراشدي في كتابه "الثغر الجمالي في ابتسام الثغر الوهراني" ومحمد بن يوسف الزباني من خلال كتابه دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران بالإضافة إلى الأغا بن عودة إسماعيل المزاري في كتابه "طلوع سعد السعود في أخبار وهران إسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر"، وابن ميمون الجزائري في كتابه "التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية".

وجميع هؤلاء المؤلفين عاصروا الفترة الثانية من الحكم العثماني حيث انطوت مؤلفاتهم على أهمية كبرى، خاصة وأنها تؤرخ لفترة هامة من تاريخ المنطقة الغربية، مست مختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والثقافية في بايلك الغرب الجزائري من حيث تضمنها للسيرة الذاتية للعديد من بايات الغرب ودورهم في تطوير الحياة الفكرية من خلال تأسيسهم للمؤسسات العلمية، إضافة إلى وصفها لبعض المدن والمنشآت المعمارية الموجودة بها.

ومن المصادر التي تناولت موضوع التعليم والمنشآت التعليمية في الشرق الجزائري وخصوصاً في قسنطينة وخنقة سيدي ناجي خلال الفترة العثمانية نذكر منها: كتاب "فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستلاتهم على أوطانها" والمعروف بتاريخ قسنطينة، للمؤرخ محمد الصالح بن العنتري، والتي كانت استفادتنا كبيرة منه خاصة في مجال تاريخ مدينة قسنطينة والبايات الذين حكموا بايلك الشرق والعلاقات السياسية والثقافية والعلمية التي كانت بينهم وبين البايات التونسيين، وكتاب "أم الحواضر في الماضي والحاضر" أو تاريخ قسنطينة، للمؤرخ شعيب محمد الهادي، والذي يتناول فيه تاريخ مدينة قسنطينة في الفترات المختلفة وركز الكاتب على الفترة العثمانية، كما تحدث عن المدرسة الكتانية وأهم المشايخ الذين درسوا فيها بعد إعادة فتحها من طرف الإدارة الاستعمارية الفرنسية، وكذا كتاب "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" لعبد الكريم الفكون وهو يحتوي على معلومات هامة حول الحياة الاجتماعية والثقافية والعلمية في مدينة قسنطينة خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين.

كما اعتمدنا على كتب الرحلات نذكرها حسب ترتيبها الزمني أولها رحلة ابن حمادوش المسماة "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، الذي يمثل الجزء الثاني من الرحلة ويقدم لنا فيها أخباراً هامة عن الوضع الثقافي والعلمي في الجزائر والمغرب.

أما رحلة الورثيلايني المعروفة بـ "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، فتعتبر أشهر رحلة في التراث الجزائري خلال الفترة الحديثة وقد ألف هذا العمل أثناء آدائه لرحلة إلى المشرق لأداء فريضة الحج، وقد كان له شعور قوي بالتاريخ، فعزم أن يكتب عملا ضخما يضاهاه أو يفوق به عمل العياشي فكتب هذا المؤلف الذي قدم فيه مسحا جغرافيا لكل اقطار المغرب التي مر بها، وقد كانت استفادتنا قيمة من هذا المصدر خاصة فيما يخص موضوع المدرسة الناصرية بمخنقة سيدي ناجي ومكاتها العلمية خلال العهد العثماني.

كما اعتمدنا على رحلة أبي راس الناصري (ت 1238هـ/1823م) الموسومة بـ "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، حيث افادتنا في تسليط الضوء على الحركة العلمية والعلماء في الجزائر والمغرب الأقصى كما احتوت على معلومات هامة حول حلقات ومناقشات ومجالس العلم آنذاك.

ومن أهم المصادر التاريخية التي استقينها منها المعلومات المتعلقة بالحركة العلمية ومدارس التعليم في تونس خلال العهد العثماني في فتراتها المبكرة نذكر كتاب "المؤنس في اخبار افريقية وتونس" لابن أبي دينار فهو المصدر الوحيد تقريبا الذي يتحدث عن أواخر فترة الحكم الحفصي وأوائل فترة الحكم العثماني لتونس وخصوصا عن الحكم المرادي بها، إذ يحدثنا ابن أبي دينار عن كل ما بناه الدايات والبايات 11هـ/17م، وهو أول مصدر يتحدث عن المدارس العثمانية في تونس خاصة مدرستي يوسف داي ومدرسة القائد مراد المندثرة كما تتمثل أهمية كتابات ابن أبي دينار في أنه أورد أخبارا عاصر حدوثها بنفسه.

ومن أهم المصادر كذلك كتاب "ذيل بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان" لحسين خوجة فهو يروي كل ما حدث أثناء الفترة المرادية وما شيد فيها من مدارس والشيخوخ الذين درسوا بها، كما تكلم عن مدارس مؤسس الأسرة الحسينية حسين بن علي وأهم علماء تونس خلال هذه الفترة.

وكتاب "المشعر الملكي في سلطنة أولاد علي تركي" للصغير بن يوسف الذي أمدنا بمعلومات قيمة عن مدارس بداية الفترة الحسينية إذ يذكر جميع ما بناه الباي حسين بن علي ثم علي باشا الأول خاصة وأنا أخذنا كل نماذج الفترة الحسينية من فترة حكم هذين الباين حيث كانت معلوماته هامة جدا في هذا الباب.

كتاب آخر لا يقل أهمية وهو كتاب "تحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان" لابن أبي الضياف والذي استقيناه منه الكثير من المعلومات خاصة منها الأجزاء الأول والثاني والسابع والثامن حول الكثير من المنشآت المعمارية للبايات الحسينيين وكذا تراجم لبعض علماء هذه الفترة خاصة في فترة الباي حمودة باشا 1782م، بالإضافة

الى العديد من المصادر الأخرى المهمة ككتاب "الخلاصة النقية في امراء افريقية" لمحمد الباجي المسعودي وكتاب "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية" لمحمد بن عمر مخلوف وغيرها من المصادر التي لا يسعنا المجال لذكرها جميعا. بالإضافة إلى ما سبق ذكره من المصادر، تم الاعتماد على مجموعة من المراجع العربية والمعرية وكذا بعض المراجع الأجنبية سواء المتعلقة بالجزائر او تونس، ففيما يخص الجزائر نذكر الموسوعة الثقافية للمؤرخ الكبير أبي القاسم سعد الله، الموسومة بـ "تاريخ الجزائر الثقافي" وهو مرجع مهم جدا استفدنا منه خصوصا فيما يتعلق بأهم الحواضر التي شهدت اشعاعا ثقافيا وعلميا، وكذا ابرازه للدور الكبير الذي قامت به مختلف المؤسسات العلمية من مساجد ومدارس وزوايا وكتاب المهدي البوعبدلي في كتابه الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، وكتاب مبارك المليي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، كما لا ننسى إصدارات الدكتور يحي بوعزيز مثل كتاب "أعلام الفكر والثقافة في بلاد الجزائر المحروسة"، وكتاب "الموجز في تاريخ الجزائر الحديثة"، وكتاب ناصر الدين سعيدوني، "دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر"، الفترة الحديثة والمعاصرة وغيرها من الإصدارات التي كانت عوننا لنا في الجوانب الثقافية والعلمية في الجزائر خلال العهد العثماني.

ومن أهم المراجع التونسية التي أثرت البحث وأوضحت الكثير من جوانبه نذكر منها كتاب "تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد" وكتاب "صفحات من تاريخ تونس" لمحمد بن البشير بن الخوجة، وكذا الدراسة التاريخية والأثرية القيمة التي قام بها الأستاذ محمد الباجي بن مامي الموسومة بـ "مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني" وهي الدراسة التي اعتنت بعدة جوانب تهم التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والفني والمعماري لتونس بصفة ومدينة تونس بصفة خاصة.

أما عن الدراسات الجامعية التي لها صلة بالموضوع البحث فنذكر بعضا مما يخص مدارس الجزائر مثل أطروحة الأستاذة خيرة بن بلة حول "المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني" واطروحة عبد الله بلجوزي، "حول آثار عمران حواضر بايلك الغرب في العهد العثماني، مازونة ومعسكر ووهران ومستغانم"، وكذا أطروحة الدكتوراه للدكتور علي بوتشيشة حول "العمارة الدينية والمدنية بمدينة وهران خلال العهد العثماني".

كما استخدمنا جملة من المقالات المنشورة في دوريات ومجلات علمية متخصصة في التاريخ والأثار نذكر منها:

- "بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني (1518-1830)" لأبو القاسم سعد الله المنشور بمجلة البصائر الصادرة بالجزائر.

- "المؤسسات الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار للدكتور" عبد الحميد مزبان، المنشور في مجلة الثقافة الجزائرية.
- "حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني" لمسعود العيد المنشور بمجلة سيرتا بقسنطينة.
- "بايات الأسرة الحسينية بتونس، تكوينهم العلمي وأثرهم في الحركة العلمية (1117-1229هـ/1705-1814م)" لفوزية لزغم المنشورة في مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية بجامعة تيارت.

كما كان الاعتماد ضروريا على بعض الموسوعات والمعاجم خاصة تلك المتعلقة بالعمارة وال عمران والفنون الإسلامية وأبرزها "موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية" لحسن الباشا وكذا "موسوعة الخط العربي" لكامل سليمان الجبوري ومعجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية للدكتور عاصم محمد رزق.

كما اعتمدنا على مراجع أخرى باللغة الأجنبية لعل أبرزها كتاب لوسيان غولفان (Lucien Golvin) الخاص بالمدرسة الإسلامية في الفترة الوسيطة "la madrasa médiévale" والذي افادنا في موضوع نشأة المدرسة وتطورها في بلاد المغرب الإسلامي في الفترة الزيانية والمرينية على وجه الخصوص، كما إستعنا بمؤلفات جورج مارسي (Marçais Georges) ولاسيما كتابه حول العمارة في الغرب الإسلامي "L'architecture musulmane d'Occident"، وهو الذي تناول العمارة الإسلامية بشتى أنواعها ببلاد المغرب والأندلس وصقلية من العهد الأغلي إلى نهاية الفترة العثمانية، كما اعتمدنا على كتاب رشيد بورويبة - رحمه الله - حول الفن الإسلامي في الجزائر "L'Art religieux musulman en Algérie"، خاصة فيما تعلق بالمدراس الزيانية بتلمسان.

أما عن الصعوبات التي واجهتنا في إنجاز البحث فلا يخفى على أحد ان الباحث في هذا المجال تعثره الكثير من الصعوبات والعراقيل خاصة فيما يخص الدراسات الأثرية الميدانية يمكن رصد بعضها فيما يلي:

- بالنسبة للجانب النظري أن المعلومات في المصادر التاريخية حول المدارس سواء في الجزائر أو في تونس قليلة جدا، بحكم أن المؤرخين ركزوا جهودهم خاصة في تدوين النشاط السياسي والعسكري وحتى الثقافي والاجتماعي، أما العمارة فلم يتم الإشارة إليها إلا في حالات نادرة، حيث لم تحظ الجوامع والمدارس وبعض المباني الأخرى في غالب الأحيان إلا بذكر أسماء مؤسسيها مع تاريخ بنائها وبعض التراجم للعلماء والفقهاء الذين مروا بها، وان اهتم أصحاب المصادر في بعض الأحيان بعدد ما بني من مساجد ومدارس وزوايا وأوقاف حبست عليها، فهي لم تتجاوز في ذلك عملية الإحصاء دون إعطاء معلومات أخرى كالحالة التي كانت عليها أو الترميمات والتجديدات التي أدخلت عليها أو

وصف المعالم وما تحويه من مرافق، ضف إلى ذلك قلة الدراسات الحديثة التي تناولت الجانب الأثري لمدراس التعليم في بلاد المغرب خلال الفترة العثمانية خاصة في الجزائر وتونس ما جعل الحصول على المادة العلمية يتطلب جهدا مضاعفا وتنقلا دائما ومستمرًا، على عكس بلدان المشرق التي بها عدة دراسات حول المدارس في مصر والعراق والشام وبلاد اليمن.

- بالنسبة للدراسة الميدانية كانت هناك صعوبات متعددة ومتشعبة سواء في المدارس الجزائرية أو التونسية، ففي بداية الأمر حالت الأوضاع السياسية والأمنية المتدهورة في ليبيا في السنوات الأخيرة من إتمام الفصل الخامس من البحث والمتعلق بالمدارس في إيالة طرابلس خلال العهد العثماني وذلك بسبب استحالة القيام بالعمل الميداني في النماذج المختارة وبالتالي تم الغاءه، ثم تبعه بعد ذلك الاضطرابات السياسية جراء الانتفاضات الشعبية في كل من تونس والجزائر، لتختتم الأمور بانتشار وباء كورونا في السنوات الأخيرة وما تبع ذلك من إجراءات صحية قاسية حدت من التنقل والاحتكاك في مختلف المرافق والمصالح التي لها علاقة بالعمل الميداني، خاصة في تونس الشقيقة، وحتى في الأوقات التي كان لنا فيها حظ للدراسة في المعالم اصطدنا بواقع صعب تعيشه هذه المنشآت، ففي تونس التي اخترنا منها أربع نماذج تمثل فترتين مختلفتين من الفترة المرادية والفترة الحسينية وجدنا أن جل المدارس الأثرية فيها تقريبا تشغلها مؤسسات وهيئات حكومية وخاصة، مثل المدرسة المرادية بقابس التي استغلت كمتحف جهوي للفنون والتقاليد الشعبية والمدرسة الحسينية بالقيروان التي تعتبر مقرا لدائرة القيروان والسليمانية بتونس مقرا لرابطة جمعيات الأطباء التونسيين والنخلة دار للحرفيين وغيرها من المدارس والهيئات مما صعب عملية الاطلاع على مختلف مرافقها ناهيك عن عمليات القياس والتصوير والرسم وغيرها، أما في الجزائر فإننا أخذنا أربع نماذج هي تقريبا النماذج الباقية في الجزائر إضافة الى مدرسة سيدي لخضر بقسنطينة التي تعذر علينا دراستها بسبب وضعها الكارثي جراء فشل عمليات الترميم وتعطلها لسنوات فتحولت لهيكل بلا روح وهو المشكل الذي اصطدنا به كذلك في المدرسة الكتانية المجاورة لها وكذلك المدرسة الناصرية بخنقة سيدي ناجي ببسكرة ناهيك عن التغييرات والتجديدات الكثيرة التي طرأت عليها وعلى المدرستين الأخرتين، مدرسة مازونة بغيليزان وخنق النطاح بوهران للأسف الشديد.

الفصل الأول:

المدرسة ونشأتها في بلاد المغرب الإسلامي

أولا. تعريف المدرسة ونشأتها في الإسلام

1. تعريف المدرسة

2. نشأة المدرسة وانتشارها في المشرق الإسلامي

ثانيا. نشأة المدرسة في بلاد المغرب الإسلامي

1. نشأة المدرسة في تونس

2. نشأة المدرسة في المغرب الأقصى

3. نشأة المدرسة في المغرب الأوسط

4. نشأة المدرسة في ليبيا

5. نشأة المدرسة في الأندلس

ثالثا. ظروف وعوامل نشأة المدارس

رابعا. الطرز المعمارية في تخطيط المدارس الإسلامية

خامسا. النظريات المتعددة حول أصل تخطيط المدرسة

سادسا. العلاقة بين المدرسة والزاوية والمسجد والرباط

أولاً. تعريف المدرسة ونشأتها في الإسلام

1. تعريف المدرسة:

أ. المعنى اللغوي:

لكلمة مدرسة في معاجم اللغة معان كثيرة، وهي من الفعل درس، بمعنى قرأ، كما ورد في القرآن الكريم في قوله الله تعالى ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾¹ ودرسوا ما فيه بمعنى قرأوا ما فيه، وقوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَدِينًا وَنُبَيِّنُهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾²، فدرست، أي قرأت، فنقول درس الكتاب بمعنى قرأه، وأقبل عليه ليحفظه ويفهمه، وتدارس الكتاب ونحوه، درسه وتعهده بالقراءة والحفظ لثلاثين سنة، كما أن الحلقات الفقهية التي تقام في المساجد تعرف بالدرس، ويطلق أحياناً على معلم الفقه لقب مدرس، وهو ما يذهب إليه المقرئ في تعريفه اللغوي للمدرسة، أنها مشتقة من الفعل درس، ودرس الكتاب يدرسه درساً وكتابةً، إذ كره للتمكين منه، والمدرس هو الموضوع الذي يدرس فيه³.

ب. المعنى الاصطلاحي:

المدارس هي الأماكن والمباني المنظمة التي يقصدها طلاب العلم، ويتولى التدريس فيها معلمون وأساتذة وعلماء يكونون متفرقين لقاء أرواق (مرتبات)، تُدار عليهم من الدولة أو منظمات أو جمعيات، يختارون بشروط علمية وتربوية، ويدرس فيها مختلف العلوم الدينية والدنيوية كالفقه الإسلامي والتفسير والحديث والرياضيات والصرف والنحو والآداب ومجمل العلوم الإنسانية كالفلسفة والتاريخ، كما يمكن أن تدرس بها علوم الطبيعة والطب وما إلى ذلك، وهي بهذا التعريف ذات اختصاص ولها منهاج محدد، والدراسة فيها منضبطة⁴.

1. سورة الأعراف، الآية 169

2. سورة الأنعام، الآية 105

3. تقي الدين المقرئ، المواظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار في مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من الأخبار، ج3، دار التحرير للطبع والنشر، 1967-1968م، ص313-314.

4. كريز كلوس وآخرون، معجم العالم الإسلامي، ترجمة ج. كتورة، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1998، ص589.

ت. المعنى المعماري الأثري:

المدرسة معماريًا، مؤسسة تضم بيتًا للصلاة والدراسة في أن واحد، حيث تعرف عادة باسم القبّة، كما تحتوي أيضًا على صحن مكشوف واسع، وسكنى للطلبة من طابق أو طابقين بهما غرف ومرافق أخرى إلى جانب مكتبة، وتعريفها هذا مستمد من البيوت المخصصة لسكنى الشيوخ والفقهاء والطلبة¹، ولهذا السبب نجد أن البناء قد راعى تلك المسألة عند قيامه بتخطيط المدارس، في وجود بيوت للعاملين والدارسين والمدرسين، بالإضافة إلى قاعات الدراسة وجميع المرافق الأخرى.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور أحمد فكري "اتخذت المدرسة وظيفتها الرئيسية من كونها أعدت لسكن الفقهاء"² فالمدارس الإسلامية اعتمدت على مواصفات، منها جدار القبلة الذي يعتبر كقاعدة لتخطيط البناء، وحدودها الداخلية تنتظم في مستطيل أو مربع قائم على خط هذا الجدار، واعتمدت أيضًا على وجود بيت صلاة في كل مدرسة، ويكون موقعه دائمًا في الجهة القبليّة من المدرسة وهو من أهم قاعاتها وأوسعها³.

وبعد أن عرضنا التعريفات السالفة الذكر للمدرسة يستحسن بنا التطرق إلى تاريخ نشأة المدارس في الإسلام بصفة عامة، وذلك حتى نكون على بينة من ظروف تأسيسها وانتشارها واستخداماتها ووظيفتها وأهدافها، وحتى يساعدنا ذلك على فهم المدرسة معماريا وفنيا.

2. نشأة المدرسة وانتشارها في المشرق الإسلامي:

إن نشأة المدرسة في الحضارة الإسلامية تعود في الأساس إلى نشأة المسجد، في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فدور المسجد كان شاملا فكريا ودينيا وسياسيا وروحيا واقتصاديا واجتماعيا⁴، موجها لعامة الناس، فكان يقوم بدور المدرسة في تلقين تعاليم الدين الإسلامي، وكذا تعلم الكتابة والقراءة وتحفيظ القرآن الكريم، إلا أن تطور الحضارة العربية الإسلامية أدى إلى تطور العلوم واتساع المعارف، ولم يعد المسجد بشكله المعروف يستوعب هذا

1. خيرة بن بلة، المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية،

معهد الآثار، الجزائر 2، 2007 - 2008، ص 117

2. أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ج2 دار المعارف، مصر، 1961، ص 109

3. كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية، نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسي، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1995، ص22

4. إسماعيل سامي، معالم الحضارة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 312

التطور، فكان لابد من إيجاد نمط توسيعي أو حل لتلبية الحاجات التعليمية المتزايدة فكانت المدرسة¹، التي تضاربت الآراء والأقوال حول نشأتها وانتشارها سواء في المشرق أو المغرب الإسلاميين.

وقد عرف المشرق الإسلامي هذا النوع من المرافق التعليمية لأول مرة في مدينة نيسابور، وذلك بتشيد المدرسة البيهقية، في أوائل القرن 5هـ/11م، يقول المقرئزي " والمدارس مما حدث في الإسلام، ولم تكن تعرف زمن الصحابة والتابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربعمئة من الهجرة، وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور، فبنيت بها المدرسة البيهقية²."

لكن مع هذا كله أجمعت الدراسات التاريخية على أنّ الإنشاء الحقيقي للمدارس واهتمام الدولة بها، لم يكن إلا على يد الوزير السلجوقي نظام الملك (456-485هـ/1064-1092م)³ الذي بنى سلسلة من المدارس في إيران عرفت باسمه فسميت المدارس النظامية، منها مدرسته النظامية في نيسابور⁴، كما بنى عدّة مدارس في كلّ من بغداد والبصرة والموصل وبلخ وهراة ومرو واصبهان وغيرها، وعُرفت جميعها بالنظامية لأنها أول مدرسة قُررَ فيها للفقهاء رواتب و أجور معلومة⁵، وهو ما ذهب إليه ابن خلكان في قوله "الوزير السلجوقي نظام الملك قد

1. حسين أمين، المدارس الإسلامية في العصر العباسي وأثرها في تطوير التعليم، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، مؤسسة

شباب الجامعة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1983، ص 103

2. تقي الدين المقرئزي، مصدر سابق، ص 363

3. هو الوزير قوام الدين أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس المعروف بنظام الملك الطوسي، ولد في نواحي طوس في بلدة نوقان سنة 408هـ، تنقل في طلب العلم بين أصفهان، بغداد ونيسابور، ثم رحل إلى غزنة وعمل في الديوان السلطاني السلجوقي زمن السلطان ألب أرسلان، ثم دخل في خدمة الوزير أبي علي بن شاذان بإخلاص وفاعلية، وبعد وفاة هذا الأخير عينه السلطان ألب أرسلان وزيراً، ولما توفي السلطان نجح نظام الملك في التغلب على خصوم ملكشاه وتثبيتته في السلطنة، وبقي الوزير في منصبه عشرين سنة أمضاها في إدارة شؤون الدولة، وبناء المدارس ونشر العلم وخدمة أهله، انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 10، دار صادر، بيروت، لبنان، 1966 ص 207 - 209، ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون، ط 1، ج 11، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1985 ص 149.

4. محمد الزركشي، أعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي، ط 3، القاهرة، 1992، ص 32

5. ابي عبد الله الزركشي، تاريخ الدولتين (الموحدية والحفصية)، تحقيق وتعليق، محمد ماضور، ط 2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966، ص 23 - 32.

بنى المدارس والربط والمساجد، وهو أول من أنشأ المدارس، فاقتدى به الناس، وشرع في عمارة مدرسته ببغداد سنة سبع وخمسين وأربع مائة¹.

وقد ذهب القزويني إلى القول بأن فكرة انشاء المدارس هي فكرة عارضة، طرأت على ذهن نظام الملك في محاولته لتبرير موقف طلاب بسطاء مر بهم السلطان ألب أرسلان في مدينة نيسابور، ولم يقدموا له فروض الطاعة، فاستغرب واستفسر نظام الملك عنهم، فقال له "هؤلاء طلبة العلم وهم أشرف الناس نفسا، ولا حظ لهم في الدنيا، ويشهد الله على فقرهم فلو أذن السلطان لبنيت لهم موضعا، وأجريت لهم رزقا، ليشغلوا بطلب العلم والدعاء لدولة السلطان، فأذن له ببناء المدارس في جميع مملكة السلطان، وأن يصرف عشر مال السلطان الذي هو مختص بالوزير في بناء المدارس².

ويرى السيوطي أن دوافع انشاء المدارس النظامية لا تقتصر على سبب واحد، بل هناك عدة دوافع مجتمعة دفعت بنظام الملك إلى الاقتناع بالفكرة والاسراع في بناء المدارس في المشرق الإسلامي، وهذه الأسباب كانت عقديّة بالدرجة الأولى، لمناهضة المذاهب الشيعية التي انتشرت بكثرة في تلك الفترة³.

انتقل نظام المدرسة من العراق إلى الشام وخراسان وما وراء النهر وبلاد الجزيرة وديار بكر، فبالنسبة لمناطق الشام بدأت مرحلة بناء المدارس على يد نور الدين محمود زنكي، وقلده فيها أقاربه وأمراءه ورجال دولته، وشملت تلك الحركة مذاهب السنة الأربعة (الحنفي، المالكي، الشافعي، الحنبلي)، وكذا جميع الدراسات المعروفة آنذاك من قرآن وحديث وشريعة وطب⁴، ثم انتشرت فيما بعد انتشارا كبيرا خاصة في دمشق وحلب فحين زار ابن جبير

1. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، مج2، دار الثقافة، بيروت، 1971م، ص129.

2. القزويني، أثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، لبنان، ص 412

3. جلال الدين السيوطي حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج2، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1998، ص223

4. عبد العزيز لعرج، المدارس الإسلامية، دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها، مجلة دراسات إنسانية، العدد الأول، دار الحكمة، الجزائر، 1421هـ/2001م، ص117

مدينة دمشق عاصمة الأمويين، قال عنها "ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين محمود¹ رحمه الله وهي قصر من القصور الأنيقة"².

ومن المعروف أيضا أن المدارس قد وجدت طريقها إلى مصر أواخر العصر الفاطمي، فشيدت في الإسكندرية أول مدرسة لتدريس المذهب المالكي على يد وزير الخليفة الفاطمي الحافظ بن رضوان بن ولحشي سنة 532هـ/1137م ثم تلتها المدرسة الشافعية في نفس المدينة بناها الوزير سيف الدين بن السلار سنة 544هـ/1149م³.

وبعد أن اعتلى صلاح الدين الأيوبي الوزارة في عهد آخر خليفة فاطمي العاضد بالله أمر ببناء مدرستين وهما الناصرية بجانب جامع عمرو بن العاص سنة 566هـ/1170م والقمحية بجوار نفس الجامع سنة 572هـ/1177م⁴.

وفي العصر الأيوبي عمل صلاح الدين على بناء المدارس وانتشارها بمصر، إذ حاول القضاء على المذهب الشيعي الفاطمي وانعاش المذهب السني، وذلك ببناؤه للمدارس، حيث استقطب العلماء والفقهاء وأغراهم بالحضور إلى دولته في سبيل هذا، وامتد الأمر كذلك طيلة العهدين الأيوبي والمملوكي (569هـ، 923هـ/1123م، 1517م) وتسابق إلى إنشاءها السلاطين والأمراء و الوزراء ورجال الدولة والأغنياء والمدرسون، حيث بلغ عددها مع نهاية العصر حوالي 24 مدرسة، منها 22 بالقاهرة، ومدرستان بالفيوم واحدة للمذهب الشافعي والأخرى للمذهب

1. هو نور الدين زنكي، يلقب بالملك العادل وهو الابن الثاني لعماد الدين زنكي، حكم حلب بعد وفاة أبيه الملك العادل أبو القاسم نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي (569 - 511هـ/1118 - 1174م)، قام بتوسيع إمارته بشكل تدريجي، كما ورث عن أبيه مشروع محاربة الصليبيين، شملت إمارته معظم الشام، وتصدى للحملة الصليبية الثانية، ثم قام بضم مصر لإمارته وإسقاط الفاطميين والخطبة للخليفة العباسي في مصر بعد أن أوقفها الفاطميون طويلا، وأوقف مذهبهم، للمزيد أنظر، محمد ابن عثمان الذهب، سير اعلام النبلاء، ج22، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1822 هـ / 2001م، ص 531.

2. ابن جبير، تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الإسفار المعروفة بـ "رحلة ابن جبير"، دار صادر، بيروت، 1785م، ص 265، وللوقوف على المدارس ببلاد الشام، أنظر: عبد القادر بن محمد النعيمي، المدارس في تاريخ المدارس، مراجعة إبراهيم شمس الدين، ط1، ج1، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.

3. سامح كمال الدين، العمارة الإسلامية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983م، ص 22

4. حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994م، ص 13

المالكي وواحدة بالإسكندرية، أشار إليها جميعًا المقرئزي¹، ولم يتبق منها سوى مدرستان هما المدرسة الصلاحية بجوار قبر الإمام الشافعي، ودار الحديث الكاملية بجوار المشهد الحسيني².

ويظهر مدى اهتمام صلاح الدين الأيوبي بصفة خاصة بالتعليم وإنشاء المدارس، فكان لذلك أثر بالغ في نشر المذاهب السنية، ومناهضة المذهب الشيعي الإسماعيلي، وفي هذا يقول المقرئزي " فلما انقضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، أبطل مذاهب الشيعة من ديار مصر، وأقام بها مذهب الإمام الشافعي ومذهب الإمام مالك واقتدى بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، فإنه بنى بدمشق وحلب واعمالها عدة مدارس للشافعية والحنفية، وبنى لكل من الطائفتين مدرسة بمدينة مصر"³، ويظهر مما أورده المقرئزي مدى تأثير الأيوبيين بالسلاجقة في الإقبال على تشييد المدارس لنشر المذهب السني.

أما في العصر المملوكي فقد أقبل المماليك إقبالا عظيمًا على تشييد المدارس والأضرحة والمساجد، يرجع الفضل في ذلك إلى رعاية السلاطين وتشجيعهم للعلماء ووقفهم الأوقاف العظيمة للمؤسسات العلمية.⁴

كان لإنشاء المدارس في مصر في العصر المملوكي، أثر كبير في إرساء النهضة العلمية والثقافية في ذلك العصر، وكان من المعتاد طوال عصر المماليك ان يكون من آثار السلطان مدرسة أو أكثر، وينسجم هذا القول على معظم سلاطين المماليك بداية بالمعز أيك وانتهاءً بالسلطان الغوري، كما لو كانت هذه المدارس مظهرًا من مظاهر السلطة وشعارها⁵، وقد وصف الرحالة ابن بطوطة مدارس مصر في ذلك العهد بقوله "وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها"⁶.

1. تقي الدين المقرئزي، مصدر سابق، من ص 437 إلى ص 476

2. محمد حمزة إسماعيل الحداد، *المجمل في الآثار والحضارة الإسلامية*، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2006، ص 554

كذلك، حسن عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 13

3. تقي الدين المقرئزي، مصدر سابق، ص 437

4. محمد العناقرة، *المدارس في مصر في عصر دولة المماليك*، دراسة تاريخية من خلال الوثائق والوقفيات والحجج، (648هـ،

923هـ/1250م - 1517م)، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2015، ص 125

5. محمد العناقرة، المرجع السابق، ص 125

6. ابن بطوطة، *رحلة ابن بطوطة*، تحقيق عبد الهادي التازي، مج1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1997، ص 203

ومن أهم المدارس التي كانت موضوع عناية واهتمام سلاطين وأمراء المماليك نذكر، المدرسة الظاهرية التي أنشأها السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري، والمدرسة المنصورية التي تنسب إلى مؤسسها السلطان المنصور قلاوون، والمدرسة الظاهرية البرقوقية أولى مدارس دولة المماليك الجراكسة والتي أنشأها السلطان الظاهر برقوق¹. ويظهر مما سبق أن للسلاجقة الدور الهام لنشأة نظام المدارس، وخاصة في إيران والعراق، فكانوا أبطال هذه الحركة في المشرق الإسلامي، وهم سنة أرادوا مواجهة المذهب الشيعي والتصدي له، خاصة الوزير السلجوقي نظام الملك رائد هذه الحركة، ومنها امتدت إلى جميع مناطق العالم الإسلامي، فبنيت سلسلة من المدارس وانتشرت في العراق وسوريا ومصر، في مختلف الفترات التاريخية، حتى وصلت بلاد المغرب الإسلامي والأندلس.

ثانيا. نشأة المدرسة في بلاد المغرب الإسلامي:

لا يكاد المؤرخون يتفقون على تاريخ محدد يخص ظهور نظام المدارس في المغرب الإسلامي، فتشير بعض النصوص التاريخية إلى وجود المدارس في مناطق مختلفة من بلاد المغرب الإسلامي، منذ عهد حكم الخليفة الموحي يعقوب المنصور (555 - 595 هـ/1160 - 1189 م)، فيذكر ابن أبي زرع في كتابه الأنيس المطرب، عن الخليفة الموحي "انه كان عالما بالحديث و الفقه و اللغة، مشاركاً في كثير من العلوم النافعة للدين و الدنيا، محبا للعلماء، معظما لهم صادرا عن رأيهم"²، كما يواصل ابن أبي زرع في فقرة أخرى، متحدثا عن الأعمال العمرانية لهذا الخليفة في قوله: "...و حصن البلاد و ضبط الثغور و بنى المساجد و المدارس في بلاد المغرب و افريقية و الأندلس، و بنى المارستان للمرضى و المجانين، و أجرى المرتبات على الفقهاء الطلبة على قدر مراتبهم و طبقاتهم"³، وقد جعل نظام التعليم إجباريا على كل من انضوى تحت لواء الدولة، و بنى مدرسة بمدينة المهدي سماها باسمها،

1. للمزيد حول هذه المدارس وأخرى أنظر ابن دقماق، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، دراسة وتحقيق، سمير طباره، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، 1999، ص40، والقلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق وتعليق، محمد حسين شمس الدين، ط1، ج3، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1987، ص449، والمقريزي، المصدر السابق، ص467، والسيوطي، المصدر السابق، ص231، وكذا محمد العناقرة، المرجع السابق، من ص125، إلى ص141

2. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، المغرب، 1999، ص268

3. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص286

كما شيد أخرى بمدينة سالا المغربية، وفي عهد ابنه الخليفة الناصر (ت 610هـ/1313م)، شيدت عشرون مدرسة بالمغرب والأندلس¹.

ويدعم هذا القول فريق من الباحثين، معتبرين أن المدارس قد وجدت بمدينة فاس منذ عهد المرابطين أي بعد ثلاث سنوات فقط من ظهورها في العراق، وأن الأمير يوسف ابن تاشفين هو الذي بناها بعد دخوله المدينة في حدود سنة 462هـ/1069م وكان الطلاب يقصدونها ويتوافدون عليها من سائر الأصقاع، وأنهم ساهموا في مدافعة الموحدين عند دخولهم المدينة، وقاوموهم مقاومة شديدة، وصبروا في ذلك حتى قتلوا جميعاً، فسميت تلك المدرسة **مدرسة الصابرين**، وأطلالها مازال قائمة إلى اليوم².

لكن هناك فريق من الباحثين يرى أن ما ذهب إليه ابن أبي زرع يفتقر إلى المصدقية لانعدام الأدلة القاطعة والحجج الساطعة، وأن ابن أبي زرع يخلط بين العهد الموحيدي، والعهد الذي يليه³، وسندهم في ذلك ما جاء في بعض المصادر التاريخية مثل ما ذكره ابن مرزوق في كتابه المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، إذ يقول: "إن إنشاء المدارس كان في المغرب غير معروف حتى أنشأ مولانا المجاهد الملك العابد أبو يوسف يعقوب المريني **مدرسة الحلفائيين** بمدينة فاس وبعده القرويين منها"⁴.

كما أشار التجاني في رحلته إلى أن أول مدرسة انشأت في بلاد المغرب كانت "المدرسة المستنصرية" التي بنيت بطرابلس الحفصية، بين سنتي (630 - 658هـ/ 1234 - 1260)، بقوله " أحسنها المدرسة المستنصرية التي كان بناؤها فيما بين سنة خمس وخمسين إلى سنة ثمان وخمسين"⁵، واعتبرها القاعدة لانطلاق بناء بقية المدارس

1. عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ص 118

2. عبد العزيز لعرج، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر2، معهد الآثار، 1999، ص 307، أنظر كذلك محمد الكحلاوي، المدارس المغربية، دراسة أثرية معمارية، مجلة العصور، مج6، ج1، دار المريخ للنشر، لندن، إنجلترا، جانفي، 1991، ص 73

3. عبد العزيز لعرج، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، المرجع السابق، ص 306

4. ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 405

5. أبو محمد عبد الله التجاني، رحلة التجاني، المطبعة الرسمية، تونس، 1754م، ص 251

التي أشار إليها من قبل، بحيث أن المستنصر الحفصي الذي ولي الحكم سنة 646هـ/1248م، والذي تلقب بلقب الخلافة سنة 650هـ/1252م، قد اخذ التقرب من المالكية في افريقية عن طريق تأسيس مدرسة¹.

إن هذا التباين في الآراء و الاختلاف في وجهات النظر ما هو إلا سبب لغياب الشواهد الأثرية وذلك لاندثار المباني التعليمية التي ترجع إلى الفترة السابقة عن المرينيين، وعليه فإن استعمال مصطلح المدرسة في المصادر قد يكتنفه الغموض، وقد يستخدم دون التدقيق في معناه ودلالته و أبعاده، هذا من جهة، ومن جهة أخرى جل النصوص في المصادر التاريخية التي تعرضت للمؤسسات التعليمية هي نصوص يرجع تاريخها إلى العصر المريني الزياني والحفصي، باستثناء نص واحد موحدي استعمل لفظ المدرسة في وثيقة تجبيل تخص مدرسة كانت بقصر مراكش، باسم الخليفة أبو حفص عمر المرتضى الموحدية (646 - 665هـ/1248 - 1266م)، الخليفة الموحدية ما قبل الأخير، وأهمية هذا النص تكمن في أنه صادر عن جهة رسمية ممثلة في البلاط الموحدية²، ومن ثم فإنه من دون شك أن ظهور المدرسة ببلاد المغرب كان موجودا منذ العهد الموحدية، إلا أن انتشارها بصورة واسعة ومعروفة لم يكن إلا في العهد المريني الزياني الحفصي، والذي تنسب إليهم العديد من المدارس التي لا يزال عدد كبير منها قائما إلى يومنا هذا، بفاس وتلمسان وتونس، وغيرها من المدن.

1. نشأة المدرسة في تونس:

يجمع جل المؤرخين على أن ظهور المدرسة في تونس (إفريقية - المغرب الأدنى)، كان خلال الحكم الحفصي (625. 941هـ/1218 - 1534م)، في عهد السلطان أبي زكرياء عبد الواحد الحفصي³، الذي بنى قصبة

1. محمد القبلي، قضية المدارس المرينية، ملاحظات وتأملات ضمن كتاب في النهضة والتراكم، دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 1987، ص 51

2. يرجع الفضل في التعريف بهذه الوثيقة، إلى الأستاذ الجليل الباحث والمؤرخ المغربي خبير المخطوطات والبحث المصدري السيد محمد بن عبد الهادي المنوبي، الذي نشرها ضمن تعاليقه القيمة في مجلة البحث العلمي، العدد الأول، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1964م، ص 147، أنظر كذلك حول هذه الوثيقة، محمد محمد الكحلوي، العمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي، عمائر الموحدين الدينية في المغرب، دراسة أثرية معمارية، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، كلية الآثار، جامعة القاهرة، 1986م، ص 121 - 122.

3. هو السلطان أبو زكريا عبد الواحد الحفصي، (626هـ - 1129م) أول من خرج عن طاعة سلطة الموحدين في المغرب الأقصى، وبعدها أعلن عن قيام الدولة الحفصية في تونس وعمره لا يتجاوز 27 سنة أظهر نضج سياسي مبكر ومهارة إدارية فذة، فقد سبق له أن حكم منطقة إشبيلية ثم قابس خلال فترة الموحدين، وسع حدود إمارته شرقا من مدينة طرابلس حتى

عرفت بقصبة الموحدين، وشيد بها مسجدا ومدرسة عرفت بالمدرسة الشماعية، خصصها لتدريس مذهب التوحيد، مذهب الإمام المهدي بن تومرت وهو المذهب الرسمي للدولة¹، ولسنا ندرى على وجه الدقة متى تم ذلك، لكن إنشائها تم على كل حال قبل 22 رجب سنة 647 هـ / 1249م، وهو تاريخ وفاة هذا الأمير².

وبذلك تكون المدرسة الشماعية أول مدرسة أسست بتونس الحفصية، وتوالى بعد ذلك بناء المدارس لتدريس العلوم الدينية والفقهية منذ النصف الثاني من القرن 7 هـ / 13م، حتى فاق عدد المدارس 10 مدارس في القرن 8 هـ / 14م، منها ما اندثر ومنها ما ضل قائمًا³.

2. نشأة المدرسة في المغرب الأقصى:

بعد ثلاثين سنة من تأسيس المدارس في تونس الحفصية، انتقل نظام المدارس بطابعه ووظيفته المعروفة إلى مدينة فاس المرينية، واختصت بعلوم الشريعة والفقه على المذهب المالكي، وتعتبر الدولة المرينية بالمغرب الأقصى أكثر دويلات المغرب الإسلامي حيوية ونشاطا في مجال التشييد العمراني بصفة عامة، خاصة وأنها كانت تمتاز بالأبهة والفخامة⁴.

اتخذ المرينيون من حركة بناء المدارس مظهرا لسياستهم الدينية والعلمية للتأثير السياسي في رعاياهم للرضا بهم، والقبول بمخططاتهم الهادفة إلى إعادة توحيد المغرب الإسلامي، فكانت أول المدارس المرينية مدرسة الشهداء التي

مدينتي فسنطينة وبجاية غربا، عمل على كسب محبة سكان إمارته فأحسن معاملتهم وخفف عنهم الضرائب، وعمل على تحسين أحوال البلاد، وراقب الولاة والعمال، وكرم الفقهاء والعلماء وقربهم إليه، توفي بمدينة عنابة سنة 647 بعد 22 سنة من الحكم ودفن بجامعها، للمزيد أنظر عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج6، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1976، ص 400، وكذا ابن الشماخ، الأدلة البيئية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر العموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص 176.

1. عبد العزيز الدولاتلي، مدينة تونس في العهد الحفصي، تعريب محمد الشابي وعبد العزيز الدولاتلي، دار سراس للنشر، تونس، 1981م، ص 78.

2. خيرة بن بلة، مرجع سابق، ص 125.

3. عبد العزيز لعرج، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، مرجع سابق، ص 119.

*. سنتطرق لهذه المدارس في موضوع تطور المدارس الحفصية وانتشارها في الفصل الثاني من هذه الدراسة

4 . Marçais (G.), l'architecture musulmane d'occident (Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Socile), arts et métiers graphiques, paris, 1954. P.285.

بناها أبو يوسف يعقوب بمكناس عام 674هـ / 1275م، ثم مدرسة الصفارين، أو الحلفائين بفاس الذي بناها أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق، (657 - 685هـ / 1258 - 1286م)، في أواخر القرن 7هـ / 13م¹، وقد أسند مهمة الإشراف على بناءها إلى قاضي القضاة في حضرته، أبو أمية مفضل بن الدلائي، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد تم في الشهور الأخيرة من سنة 679هـ / 1281م، إذ عين القاضي في تلك الوظيفة في وسط شوال من تلك السنة².

وبعد ذلك أنشئت مدارس أخرى في دولة بني مرين، ليس فقط في فاس، بل وأيضا في مراكش وسلا ومكناس، وتازا، وسلا، وطنجة، وأزمور، وسبتة خلال القرن الرابع عشر الميلادي، بل أسس بنو مرين مدرسة في تلمسان سنة 1347م³.

3. نشأة المدرسة في المغرب الأوسط:

أما بالنسبة لظهور المدارس بالمغرب الأوسط (الجزائر) فقد تأخر ظهورها عن بلاد المشرق بنحو قرنين من الزمن، وعن جارتها إفريقية، والمغرب الأقصى بنحو نصف قرن⁴ إلى غاية العقد الأول من القرن 8هـ / 14م، حين قلد بنو زيان بتلمسان، سلاطين بني مرين وبني حفص في تشييد المدارس والاعتناء بها، والإشراف الشخصي عليها كتعيين المدرسين فيها⁵.

1. Bel Alfred, **Inscription arabes de Fès**, extrait du journal asiatique, 1917-18 Imprimerie national, paris, 1919, p.93

2. الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمان بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987، ص 351

3. حول المدارس المغربية في عصر بني مرين أنظر: محمد محمد الكحلأوي، مرجع سابق، ص 74 - 167، محمد السيد محمد أبو ريجاب، **المدارس المغربية في العصر المريني**، دراسة آثاره معمارية، تقديم محمد عبد الستار عثمان، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية 2011م، عبد العزيز لعرج، **النظام المعماري لمدارس المغرب**، مرجع سابق، ص 87، ومحمد المنوني مدخل إلى تاريخ الفكر الإسلامي في العصر المريني الأول، مجلة دار الحديث الحسنية العدد الأول، الرباط، 1979، ص 267 - 294،

Hassar ben Slimane et Abdelaziz Touri, **les madrasas Marinides de Fès**, thèse de Doctorat Nouveau Art et Archéologie islamique, institut D'art et d'archéologie, Université de paris, Sorbonne, Année Universitaire 1995.1996

4. ابن خلكان، مرجع سابق، مج 1، ص 8.

5. عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج 2 المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 2002، ص 325.

ولما كانت تلمسان عاصمة الزيانيين، فقد حظيت بقدر أوفر من العناية من طرف سلاطينها وأمراءها في البناء والتشييد، غير أن الصراع بين الزيانيين وجيرانهم خاصة المرينيين، كان غالبا ما ينتهي بحصار تلمسان، وتهديم بنايات والمنشآت والتنكيل بالسكان والأهالي وملاحقة الأمراء ورجال الدولة، فانشغل الحكام عن التعمير بتأمين وجودهم، ففي هذا الصدد يقول شارل أندري جوليان: " ولم يكن بنو عبد الواد، وبنو مرين على اتفاق رغم انحدارهم من أصل واحد.....قضى أبو سعيد عثمان الزياني ملكه في المعارك"¹، وبالرغم من ذلك كله، فإن السلاطين الزيانيين لم يدخروا جهدا في الظهور بمظهر الحكام المولعين بالعلم، والمقدرين للعلماء، كلما سمحت الظروف بذلك، سعيا لنشر التعليم والثقافة من جهة، وتوجيه الرعاية من أجل وحدة السياسة المذهبية التي كانوا يسرون عليها والمتمثلة في نصره المذهب المالكي من جهة أخرى، لذي كانت المدارس إحدى الوسائل لتحقيق هذه الغاية².

وكانت أول مدرسة بنيت في عهد الزيانيين، تلك التي بناها السلطان أبو حمو موسى الأول³ (707 - 718هـ / 1308 - 1318م) في تلمسان، للعالمين الجليلين الفقيهين أبي يزيد عبد الرحمن وأبي موسى عيسى المعروفين بابني الإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الله، سنة 710هـ / 1310م⁴.

وجاء ذكر المدرسة في كتاب البستان لابن مريم (ق 10هـ / 16م)، حيث قال: "...وهذان الأخوان فأوصلهما إلى أبو حمو وأثنى عليهما، فاغتنبتهما أبو حمو واختط لهما بتلمسان المدرسة المسماة بهما الآن، داخل باب كشوط.."⁵ وهو ما يدل بقاء المدرسة حتى ق 10هـ / 16م.

1. شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة، ط2، ج2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978، ص 203 - 204.

2. ما قبله، ص 325 - 326.

3. هو السلطان أبو حمو موسى الأول بن السلطان أبي سعيد عثمان بن يغمراسن بن زيان، ولد 665هـ / 1266م وبويع بتلمسان يوم وفاة أخيه السلطان أبي زيان الأول الأحد 21 شوال 706هـ / 26 أبريل 1307م وكان شجاعا شديدا في غير قساوة لينا في غير ضعف، حازما صارما، وهو أول من أحدث في الدولة مراسيم الملك ومصطلحات تنظيمات القصر وتشريفاته.

أنظر: عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1947، ص 44

4. أحمد أبو جعفر البلوي، ثبت البلوي، دراسة وتحقيق عبد الله العمراني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م، ص 265.

5. ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، ص 126

وإذا كانت المدارس في بلاد المشرق قد وجدت في البداية من أجل المذهب الشافعي، ثم تطورت إلى أن شمل التنافس المذاهب السنية الأربعة، وكذا مواجهة المذهب الشيعي والتصدي له، فإن مدارس تلمسان خاصة وبلاد المغرب عامة، وجدت من أجل المذهب المالكي، واطراح بدعة الموحدين ومذهبهم في الاعتقاد¹، وأن المدارس التلمسانية، كانت مدارس حكومية رسمية تابعة كلها للدولة والتي ظلت تشرف عليها بالتمويل وتعيين الأساتذة والمدرسين².

لكن الملفت للانتباه أنّ حركة إنشاء المدارس بالمغرب الأوسط واجهها بعض العلماء بالانتقاد وعلى رأسهم شيخ العلماء أبي عبد الله الأبلي³، الذي رأى في المدرسة مُجَرِّدَ إغراءات تُقدِّمها الدولة للطلبة ورجال العلم حتى يتسنى تبعيتهم لها⁴.

4. نشأة المدرسة في ليبيا:

أما عن ظهور نظام المدارس في ليبيا فنستطيع القول أن مدينة طرابلس الغرب، قد واكبت الحركة العلمية الإسلامية التي كان من نتيجتها إنشاء المدارس، وأول مدرسة أنشئت في طرابلس الغرب هي المدرسة المنتصرية أو المستنصرية التي أنشأها الفقيه محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا بين سنتي 655 - 658 هـ/

1. محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1987، ص 69

2. الفرد بل، مرجع سابق، ص 354

3. هو الأبلي هو أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن أحمد الأندلسي الأصل، من مدينة آبلّة، شمال مجريط أو مدريد، وهي من مدن الثغور العليا في الأندلس، التي تدفقت منها أحقاد الصليبيين، فكان ضمن حركات الهجرة نحو بلدان المغرب العربي، وممن قصدوا في هجرتهم مدينة تلمسان، فاتخذها موطناً له، ومجالاً لأسباب عيشه، وفي كنف أميرها إذ ذاك يغمراسن بن زيان، يقول عنه صاحب بغية الرواد المؤرخ يحيى بن خلدون، "كان طالبا للعلم، جماعا للكتب... إلى أن فاق أهل زمانه في العلوم العقلية بأسرها، حتى إنني لا أعرف بالمغرب وإفريقية فقيها كبيرا إلا وله عليه مشيخة"، للمزيد أنظر يحيى بن خلدون: بغية الرواد في ذكر

الملك من بني عبد الواد، ج 1، مطبعة بيبير فونتانا، الجزائر، 1903، ص 120

4. أحمد بابا التنبكي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، تحقيق، علي عمر، مج ح، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، لبنان، 2004، ص 66.

1257 - 1259م، والتي اندثرت نتيجة لتدميرها في القرن 10هـ/16م ولم يبق لها أثر قائم الآن، إلا أن موقعها يكاد يكون معروفا غير أنه ليس محددًا.

مما ذكره الرحالة والمؤرخون أن هذه المدرسة (المستنصرية) كانت تقع بالقرب من قوس ماركوس أوريليوس¹، القريب من جامع مصطفى قرجي، وقد ذكر هذه المدرسة الرحالة العبدري أثناء زيارته لطرابلس سنة 688هـ/1289م، فيقول: "ولم أر بها (يعني طرابلس) ما يروق العيون، وسما عن أن يقوم بالدور، سوى جامعها ومدرستها فإن لهما من حسن الصورة نصيبا ومن إتقان الصنعة سهما مصيبا، وما رأيت في الغرب مثل مدرستها المذكورة لولا أن محاسنها مقصورة على الصورة"².

5. نشأة المدرسة في الأندلس:

تشير بعض النصوص التاريخية إلى أن نظام المدارس عرف في الأندلس في الفترة الموحدية، حيث ذكرها ابن فرحون في الديباج المذهب عندما ترجم للفقير أبي علي ابن سكره، المعروف بالصدفي (ت 514هـ/1120م)، "بعد أن تلقى تعليمه في الأندلس، ارتحل إلى المشرق لطلب العلم، ثم عاد إلى الأندلس، واستقر بمدرسة مرسية"³. لكن هذا النص قبله نص آخر موجود عند ابن شكوال في كتابه الصلة، "ووصل إلى الأندلس في صفر من سنة ستة وتسعين وأربعمائة، وقصد مرسية فاستوطنها وقعد يحدث الناس بجامعها"⁴.

ورغم ما شهدته الأندلس في الفترة الموحدية من ازدهار الحركة العلمية والفكرية إلا أن المدارس - حسب جل الباحثين - لم تعرف طريقها إليها إلا في عصر دولة بني نصر أو بني الأحمر في غرناطة، والتي بنى فيها السلطان

1. سعيد على حامد، المعالم الإسلامية بالمتحف الإسلامي بمدينة طرابلس، مصلحة الآثار، الإدارة العامة للبحوث الأثرية والمحفوظات التاريخية، طرابلس، 1978، ص 35

2. محمد العبدري، الرحلة المغربية، تقديم سعد بوفلاحة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007، ص 120

3. ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق وتعليق، محمد الأحمد أبو النور، ج 1، دار التراث، القاهرة، (د.ت) ص 331.

4. ابن شكوال، الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، ج 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989م، ص 236

أبو الحجاج يوسف الأول بن الأحمر أول مدرسة في الأندلس وأوروبا، وهي المدرسة اليوسيفية، أو النصرية بقرنطة وكان ذلك حسب اللوح التأسيسي الرخامي شهر محرم سنة 750هـ/1349م¹.

كما ذكرها لسان الدين ابن الخطيب في كتابه الإحاطة في أخبار قرنطة أن رضوان النصرى الذي كان حاجبا (وزيرا) في دولة يوسف الأول ملك الدولة الناصرية و هي دولة بني الأحمر "أحدث مدرسة بقرنطة ولم تكن بما بُعِدُ وسبب إليها الفوائد و وقف عليها الرباع المغلّة وانفرد بمنقبها فجاءت نسيجة وحدها بحجة وصدرا وظرفا وفخامة وجلب الماء الكثير إليها من النهر، فأبد سقيه عليها، وأدار السور²" ثم ما لبث الأمر أن فشا وشاع وأصبح الناس يتنافسون في بناء المدارس المسجدية سواء في المغرب أو في مصر أو في الشام وغيرها من بلاد الإسلام وذلك وفقا لما هو معروف من أن الناس في كل زمان ومكان على دين ملوكهم و أولي الأمر فيهم³.

ثالثا. ظروف وعوامل نشأة المدارس

ثمة عوامل متعددة ودوافع شجعت السلاطين على انشاء المدارس، يأتي الدافع العلمي على رأسها، وذلك أن الحاجة كانت ماسة إلى مثل هذه المؤسسات، حيث نعلم أن التدريس قبلها كان يتم في المساجد والكتاتيب⁴ في حلقات، ولما اتسعت هذه الحلقات وازداد عدد الدارسين بها لم يعد في مقدور المسجد استيعاب هذا الحشد من الدارسين والطلبة وتصنيفهم عن غيرهم من العامة، إذ أنهم في أغلب الأحيان كانوا مختلطين، وقد كانت بعض الشوارع المتصلة بالجامع أو المدرسة تضيق من كثرة الازدحام⁵، كما كان ينبعث من كل حلقة صوت المدرس، والطلبة يتناقشون ويسألون مما أعاق أداء الصلاة على وجهها الصحيح، فاتضحت صعوبة احتمال المسجد للصلاة والتدريس معا، كما أن العلوم تطورت بتطور الزمن وأصبحت هناك مواد تستدعي دراستها الكثير من

1. محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، دراسة تاريخية أثرية، ط2، دار الخانجي للنشر، القاهرة، 1997م، ص 172

2. لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار قرنطة، مراجعة وتقديم وتعليق، بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر (د.ت)، ص 97.

3. طه الولي، المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1988، ص 84

4. الكتاتيب مؤسسات تعليمية ظهرت قبل الإسلام لتعليم القراءة والكتابة، وبعد الإسلام زيد عليها تحفيظ الأطفال القرآن الكريم وتعليمهم الدين الإسلامي والخط والحساب ومبادئ اللغة، وتعد النواة الأولى لإتقان أبجديات التعلم، أنظر محمد بن عثمان الحشايشي، العادات والتقاليد التونسية، دراسة وتحقيق، الجيلالي بن الحاج يحيى، سراس للنشر، تونس، 1994، ص 8

5. حيدر كامل، مرجع سابق، ص 29

الحوار والنقاش والجدل كعلم الكلام والمناظرات، ومثل هذه المواد تتنافى طبيعة تدريسها مع ما يجب أن يكون عليه رواد المساجد من هدوء وجلال¹.

كما أن هناك ثمة **دوافع دينية واجتماعية**، فنحن نعلم أن الدين الإسلامي يتميز عن باقي الديانات الأخرى من حيث نظرتة الشاملة للحياة، وما تشمل عليه من مضامين علمية وفكرية².

وبما أن المسجد مؤسسة جماعية، فإن العلوم كانت مسؤولية الجماعة التي تحتضنها وترعاها، وكانت مهمة العلماء والفقهاء والمدرسين، خدمة للدين ومصالح المسلمين، وكان ذلك كله باعثا على تطور الحركة العلمية والثقافية في العالم الإسلامي وازدهارها حتى بلغت ذروتها في القرن 4هـ/10م³.

ومن **الأسباب الدينية** أيضا أن نظام المدرسة ارتبط بنظام الوقف الذي اعتبر وجها من وجوه البر والتقوى، واعتبر الوقف على المدارس يعادل الجهاد في سبيل الله، مما دفع ببعض المسلمين الموسرين إلى تشييد المدارس والإنفاق عليها خدمة للعلم، وتقربا إلى الله تعالى، فكثر المدارس الإسلامية حتى أصبح في كل مدينة واحدة منها⁴.

وهناك من يجد أن الأسباب الأساسية لنشأتها هي أسباب سياسية خاصة أن مؤسس المدرسة كان يحتفظ بإدارتها ويوجه نظام التدريس فيها بما ينسجم مع مصالحه السياسية بعيدا عن سلطة الخليفة الذي لم يكن له سلطة مباشرة على المدرسة، في الوقت الذي كان فيه المسجد والقائمين عليه من مسؤولية الخليفة⁵، فقد رأى نظام الملك أن السيطرة على السياسة التعليمية تمكنه من شن الحرب على مذهب الدولة البويهية⁶، والمذاهب الأخرى التي كانت

1. خيرة بن بلة، مرجع سابق، ص 119

2. عبد العزيز لعرج محمود، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيرية، مرجع سابق، ص 113

3. عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ص 171

4. حيدر كامل، مرجع سابق، ص 30

5. نفس المرجع، ص 28

6. البويهيون أو آل بويه قوم من الشيعة الذين يعودون في أصولهم إلى الفرس، ويتنسبون إلى أبيهم أبي شجاع بويه، من الديلم سكان المنطقة الجبلية في مقاطعة جيلان من بلاد فارس (إيران)، حكموا رقعة من العالم الإسلامي، وأقاموا دولة كبيرة عرفت بالدولة البويهية وضمت بلاد فارس والعراق، ابتدأت من عام 321هـ في فارس و334هـ في العراق، وانتهى حكمهم بعد 113 عاما بسيطرة السلاجقة على ممتلكاتهم ودخولهم بغداد سنة 447هـ، أنظر: محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، (الدولة العباسية)، ط8، ج6، المكتب الإسلامي، بيروت، 2000، ومحمد الحضري بك، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، بيروت، 2003.

سائدة كالمعتزلة والباطنية، فسعى لإنشاء المدارس ورسم لها سياسة كفاح تلك المذاهب، ولعل هذا ما يفسر السبب الذي جعل المدارس تقتصر في البداية على العلوم الدينية واللغوية¹.

ومع مطلع القرن 5هـ/11م، استجدت الأحداث السياسية والدينية والاجتماعية في العالم الإسلامي، ففي غربه سقطت الخلافة الأموية بالأندلس سنة 422هـ/1030م، وقسمت البلاد بين أمراء ضعاف متنافسين، متعاونين مع عدوهم، بعضهم ضد بعض².

ففي المشرق قامت خلافة فاطمية شيعية اتخذت من مصر مركزا لها، وامتدت للشام والجزيرة والعراق، كما تحولت الخلافات السياسية بين الشيعة والسنة إلى تناحر مذهبي شديد، استغل فيها الشيعة ضعف الدولة العباسية في العراق، وكذا نفوذ الأجنبي فيها، خاصة البويهيين المتشيعين³.

كما أن الموحدين في بلاد المغرب عملوا على إنشاء المدارس بهدف بث الدعوة الموحدية والانتصار للعقيدة الأشعرية وتخريج الموظفين وتكوين الأطر الإدارية جريا على العادة المألوفة في العموم، فإن كل دولة جديدة تؤسس مركزا حديثا لإخراج موظفيها حتى تثق بسلوكهم العملي والإداري⁴، وانطلاقا من هذا الأساس أقدم الحكام الأوائل على بناء هذا النوع من المؤسسات التعليمية، خاصة أن الدولة الحفصية قامت في بدايتها على الدعوة الموحدية والانتصار للمذهب الموحد⁵، رغم فشلهم في ذلك بسبب المقاومة التي وجدوها من قبل رجال الدين المالكية الذين حافظوا على قوتهم في إفريقية، ونظرا لاتباع جل العامة لهذا المذهب، لهذا رأوا أنفسهم مجبرين من جهة على التعامل مع فقهاء المالكية ومن جهة أخرى سعوا هم الآخرون مسعى الدولة الموحدية في تخريج الموظفين الأكفاء الصالحين للقيام بشؤون الدولة وأعباءها⁶.

1. خيرة بن بلة، مرجع سابق، ص 119

2. عبد العزيز لعرج محمود، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، مرجع سابق، ص 175

3. عبد العزيز لعرج محمود، المدارس الإسلامية، مرجع سابق، ص 114

4. عثمان الكعك، مراكز الثقافة في المغرب من ق 16 إلى ق 19، معهد الدراسات العربية العالمية، جامعة الدول العربية (د.ت)، ص 55

5. بوية مجاني، المدارس الحفصية نظامها ومواردها، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 12، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 1999، ص 158

6. محمد الباجي بن مامي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني (7هـ/13م)، المعهد الوطني للتراث، تونس، 2000، ص 41

فضلا عن ذلك بداية انتكاس المجتمع الإسلامي، وخمول النشاط الفكري لديه، وخمول حركة الجهاد فيه، مما أدى إلى طمع الدولة البيزنطية العدو للددود للإسلام آنذاك، حيث كانت العلاقة بين المسيحية والإسلام في تأزم واضح منذ القرن 5هـ/11م، فالأوضاع السياسية والعسكرية بينهما منذرة بحدوث صدام، بدأت خطوته تتجلى منذ استيلاء الإسبان على طليطلة في الأندلس سنة 487هـ/1085م، وسقوط صقلية في يد المسيحيين النورماند سنة 1068م ووصول الطلائع الأولى للصليبيين من القسطنطينية عازمين على الاستلاء على الشام، ونزع بيت المقدس من المسلمين سنة 490هـ/1096م، كما حاول القيصر رومانوس الرابع¹، الدخول لبغداد غازيا إياها بقوة عظيمة لو لم يوقفه آلب أرسلان السلجوقي في معركة ملاذكرد سنة 1071م، وكانت هذه الأخطار المحدقة بالإسلام مشرقا ومغربا، والتحديات الكبيرة التي تنتظره دفعت بالمسلمين إلى إعادة النظر في مسيرتهم الدينية والسياسية، والتنظيمية، وكان لابد أن يتولى عقلاء الأمة وحكامها من العلماء والفقهاء والمخلصين، البحث عن سبل جديدة للإصلاح والسعي إلى تجنب نتائج وخيمة².

ولم يكن الوضع الداخلي للمسلمين بأقل خطر من أوضاعهم الخارجية، فالدعوة الشيعية الموجهة ضد السنة بلغت شأنا عظيما في المشرق في إيران والشام والجزيرة، وحتى بغداد، يزرعون الفتن ويكثرون الفوضى، فأثر ذلك على المسيرة الاقتصادية والعلمية والاجتماعية للمسلمين³.

وأمام ذلك كله اتجهت أنظار العلماء للإصلاح والتجديد والتصدي لهذا الانحراف الديني والتشتت الاجتماعي والصراع المذهبي دفاعا عن الإسلام، وابتدت تلك الحركة الإصلاحية ثمارها عن اجتماع الأمة ووقوفها كتلة واحدة في مواجهة الغزو المسيحي الصليبي لبلاد المشرق والمغرب وافشاله على يد الإمارة الزنكية والدولة الأيوبية في مصر والشام وعلى يد الدولة المرابطية والموحدية ثم المرينية في الأندلس، وقد ساهمت الأمة في انجاز تلك الحركة

1. الإمبراطور رومانوس هو أحد القياصرة البيزنطيين والمعروف بليكانيوس رومانوس الرابع، حكم بين عامي 1068 و1071م، كان أحد أعضاء الأرسطراطية البيزنطية المحاربة، وتبوأ العرش عقب زواجه من الإمبراطورة ايدوكيا مكرمبولتيسا، أرملة الإمبراطور قسطنطين العاشر، حاول رومانوس الرابع عقب توليه العرش إنقاذ الجيش البيزنطي من الاضمحلال الذي آل إليه، وإيقاف تغلغل الأتراك في أراضي الإمبراطورية، غير أنه لقي هزيمة حاسمة على أيدي السلاجقة بقيادة السلطان آلب أرسلان في معركة ملاذكرد سنة 1071م، التي انتهت بإبادة جيشه وأسرته، أنظر بطرس البستاني، دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص58

2. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980، ص187

3. نفس المصدر، ص188

الإصلاحية، باستحداث مؤسسات جديدة في هياكلها، ووظائفها وأهدافها، تعاون العلماء والأثرياء والحكام على تأسيسها والإنفاق عليها، فظهرت بذلك المدارس لتدريس وتلقين العلوم المختلفة¹.

رابعاً. الطرز المعمارية في تخطيط المدارس الإسلامية:

كان لإنشاء المدارس في بلاد العالم الإسلامي بداية عهد جديد في تطور العمارة الإسلامية خاصة العمائر الدينية كالمساجد والمدارس من جهة وفي ازدهار الحركة العلمية وتطورها من جهة أخرى والحديث عن طرز تخطيط المدارس الإسلامية بصفة عامة دار حوله العديد من الآراء والمناقشات بين العلماء والباحثين من حيث مصادرها وأصولها، ولما كان المقام لا يتسع لذكر كل الآراء والنظريات سنحاول فقط عرض أهم وأشهر الطرز التي صممت على أساسها عمارة المدارس في الأقطار الإسلامية المختلفة:

1. العراق:

من المعروف أن المدرسة انتشرت في العراق بدرجة كبيرة والتي تذكر عنها المصادر التاريخية على نحو ثلاثين مدرسة² لم يبق من هذه المدارس سوى القليل لذا يتعذر تتبع تطور عمارة المدرسة نظراً لاختفاء آثار المدارس المبكرة خاصة المدارس النظامية التي أسسها نظام الملك³، وإن كان قد أمكن في الوقت الحالي ترميم المدرسة المستنصرية⁴ التي تمثل في الواقع أوج التطور المعماري للمدرسة العراقية، ذلك أنها كانت أولى المدارس التي جمعت فيها المذاهب الأربعة، بالإضافة إلى علوم أخرى⁵، ولكن السمات الرئيسية التي تميز طراز عمارة المدارس العراقية بصفة عامة من خلال النماذج المتبقية هي على النحو التالي:

1. حيدر كامل، مرجع سابق، ص 143

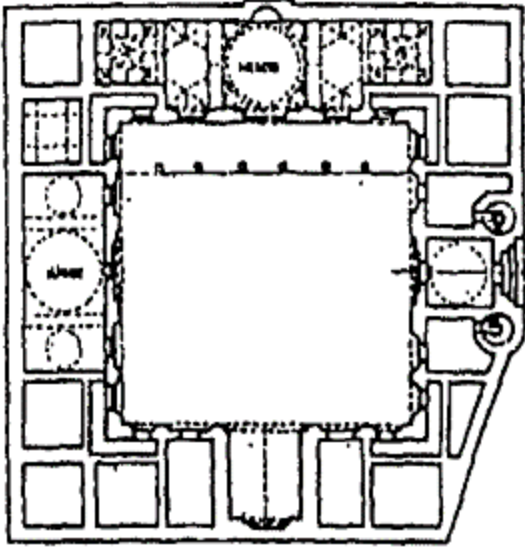
2. ابن جبير، مصدر سابق، ص 283

3. حسن الباشا، مدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1990، ص 125

4. المدرسة المستنصرية، نسبة إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله، كانت من أعظم المدارس في الحضارة الإسلامية في عمارتها وزخرفتها وفي عدد طلابها وفقهاءها وأوقافها، فضلاً عن كونها أول مدرسة خصصت لتدريس المذاهب السنية الأربعة في تاريخ الحضارة الإسلامية، عن المستنصر بالله أنظر، خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ص 211، وعن المستنصرية أنظر: حسين أمين، المدرسة المستنصرية، مطبعة شفيق، بغداد، 1960م وكذا خالد خليل الأعظمي، المدرسة المستنصرية في بغداد، المؤسسة العامة للآثار والتراث، بغداد، 1981م.

5. حسن الباشا، مرجع سابق، ص 126

- **النمط المربع:** الذي يكون فيه الصحن مكشوفاً يشغل ضلعه القبلي مسجد المدرسة ويقابله إيوان رئيسي¹ واحد يرتفع إلى ما يوازي الطابقين ويتمثل في كل من **المدرسة الشرايية** المعروفة بالقصر العباسي 1230م و**المرجانية** 1356م ببغداد²، أما في **مدرسة الأربعين**³ في تكريت فلا نجد هذا الإيوان المقابل للمسجد، بل نجد



المخطط رقم 1: مخطط المدرسة المرجانية ببغداد

(عن الحداد)

إيوانين صغيرين متقابلين في الضلعين الآخرين للصحن وهما الإيوان الشرقي والغربي، وفي المدرسة الشرايية رواق يحيط بالصحن من ثلاث جهات عدا جهة القبلة، وتوجد خلف الرواق حجرات الطلبة وتعلوها غرف في الطابق الأول ويناهاز عدد هذه وتلك الأربعين حجرة وغرفة⁴.

كما تتميز بعض النماذج من هذا النمط بوجود المدافن ذات القباب ملحقة بالمدارس، مثلما هو الحال في مدرسة الأربعين بتكريت، أو بوجود مئذنتين على جانبي كتلة المدخل الرئيسي مثل ما نجده بالمدرسة المرجانية ببغداد.

- **النمط المستطيل:** ويتمثل في المدرسة المستنصرية ببغداد 1233م وهي عبارة عن مساحة مستطيلة تمتد من الشرق إلى الغرب، وتشتمل هذه المساحة في ضلعها القبلي على مسجد المدرسة ويقابل المسجد إيوان المدخل

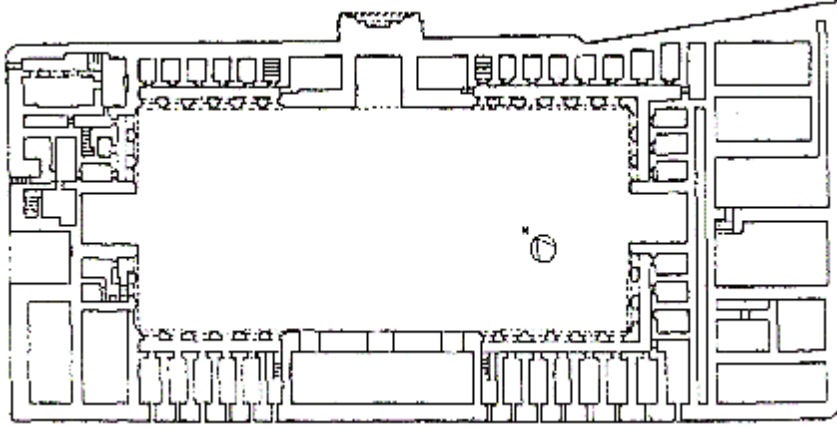
1. الإيوان: لغة هو البيت المرتفع بناءه طويلاً، غير المسدود الوجه، جاء ذكره بالنسبة لمدارس التعليم في أوصاف مؤرخين ورحالة من القرن 8 و 9 و 10هـ/14 و 15 و 16م، مثل ابن بطوطة، وابن الفوطي، وابن دقماق، والمقريزي والنعمي، ولم يرد ذكره في كتب المؤرخين والرحالة من القرنين 6 و 7هـ/12 و 13م، مثل ابن جبير والإدرسي والحموي، وعبد اللطيف البغدادي، وابن الأثير وابن خلكان مع أن هؤلاء كانوا يشاهدون المدارس تنشأ ومنهم من زار العديد منها ووصفها مثل ابن جبير، وهذا يدل على أن لفظ الإيوان كمحل للدرس لم يكن معروفاً قبل القرن 8هـ/14م، وإنما أشير إليه فيما بعد ذلك، أحمد فكري، مرجع سابق، ص 180

2. كامل حيدر، مرجع سابق، ص 74.

3. يرى بعض العلماء أن المشهد المعروف بمزار الأربعين في تكريت إنما هو مدرسة يرجح أنها أنشئت في أواخر القرن 11م، أو في الربع الأخير من القرن 12م، أنظر حميد عبد العزيز، **عمارة الأربعين في تكريت**، مجلة سومر، مج 21، ج 1، بغداد، 1965م، ص 123، كذلك كامل حيدر، مرجع سابق، ص 35، أحمد فكري، مرجع سابق، ص 101

4. محمد حمزة إسماعيل، مرجع سابق، ص 561

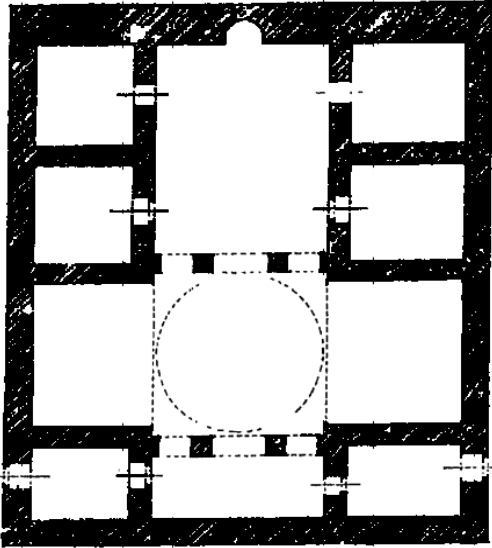
أما الضلعين القصيرين للصحن فيشتملان على إيوانين صغيرين هما الإيوان الشرقي والغربي، وتشغل حجرات المدرسة المساحات المحصورة بين الإيوانات والمسجد وتعلوها غرف في الطابق الأول، ومن الملاحظ أن حجرات الطابق الأرضي تفتح على الصحن مباشرة بينما يتقدم غرف الطابق الأول رواق مسقوف¹.



المخطط رقم 2: مخطط المدرسة المستنصرية ببغداد (عن إسماعيل الحداد)

مما سبق يمكن القول انه إذا كانت المدارس العراقية قد صممت وفق الطراز الإيواني سواءً إيوان واحد أو أكثر، إلا انها قد عولجت بطريقة محلية مما اكسبها شخصية مستقلة وطابعا مميزا لها.

2. سوريا:



انتشرت في سوريا المدارس انتشارا كبيرا خاصة في مدينتي دمشق وحلب، وكانت في معظم الأحيان تخصص لمذهب واحد ونادرا ما تخصص لمذهبين، هما الشافعي والحنفي، وفي حالة المذهب الواحد كانت المدرسة تشمل على مصلى وصحن مربع بواجهته ثلاث بوائك، وفي وسطه نافورة، وقلما وجد في جهات الصحن أكثر من قاعة واحدة متسعة أو إيوان كما أنه من النادر اشتمالها على مئذنة مثل ما هو الحال في المدارس المصرية مثل ما سنرى².

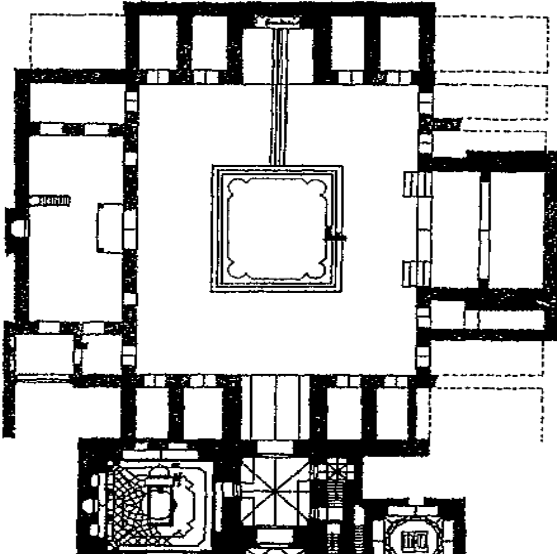
المخطط رقم 3: مخطط مدرسة كمشتكين ببصرى الشام

(عن إسماعيل الحداد)

1. محمد حمزة إسماعيل الحداد، مرجع سابق، ص 562

2. حسن الباشا، مرجع سابق، ص 126

أما في حالة المذهبين فكانت المدرسة تشمل على إيوانين متقابلين يحف بهما من الجانبين غرف للطلبة¹، وأقدم مدرسة باقية في سوريا هي مدرسة كمشتكين² في بصرى 530هـ/1135م، والتي تعد كذلك أقدم مدرسة باقية حتى الآن في العمارة الإسلامية على الإطلاق، والتي كان لها أثرها الكبير على عمارة المدارس السلجوقية في الأناضول، خصصت للمذهب الحنفي وهي عبارة عن صحن أوسط مربع مغطى بقبة، تحيط به أربعة أواوين



المخطط رقم 4: مخطط المدرسة النورية بدمشق

(عن إسماعيل الحداد)

أكبرها وأعمقها الإيوان القبلي وبصدره المحراب وعلى جانبه أربع حجرات بواقع حجرتان بكل جانب، يتوصل إليهما من أربعة أبواب بالضلعين الجانبيين للإيوان بواقع بابان بكل ضلع، ويطلع الإيوان على الصحن بالبائكة ذات ثلاث عقود (أفواس)، أوسطها أوسعها وإذا كان الإيوان القبلي يغلب عليه الاتجاه العمودي (المحور الطولي)، فإن الإيوان المقابل بكل ضلع، ويطلع الإيوان على الصحن بالبائكة ذات ثلاثة عقود أوسطها أوسعها، وبالضلعين الجانبيين للإيوان بابين، والحق أنه لا يوجد في سوريا نموذج آخر صمم على غرار هذه المدرسة³.

أما المدارس السورية الأخرى التي ترجع إلى العصرين الزنكي والأيوبي فتكاد تتشابه في التخطيط والشكل العام مع المدارس العراقية، من حيث اشتغالها على الصحن الأوسط المكشوف والإيوانات ومسجد وقبة الدفن إلا أنها عولجت بطريقة محلية، مما أكسبها طابعاً مميزاً بها، ولعل أهمها المدارس التي أنشأها نور الدين محمود زنكي في دمشق، وحلب وحماة وبعلبك وحمص والرقعة والبصرة ومنبج⁴ خاصة المدرسة النورية في دمشق

1. حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج3، دار النهضة العربية، القاهرة، 1966م، ص 1055

2. تقع هذه المدرسة في منطقة حوران، وبالضبط في مدينة بصرى الجنوبية ترجع لعهد الأتابكة (1127. 1250م) أنشأها القائد السلجوقي التركي كمشتكين بن طايلو عام 530هـ/1135م لتدريس المذهب الحنفي، طبقاً للكتابة الموجودة على الواجهة الشمالية فوق باب صغير، وهي بذلك تعتبر النموذج الأقدم للمدارس السورية، أنظر، صلاح الدين الصفدي، الوافي

بالوفيات، تحقيق أبو عبد الله جلال الأسيوطي، ج19، دار الكتاب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص 31

3. محمد حمزة إسماعيل الحداد، مرجع سابق، ص 562

4. حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج3، مرجع سابق، ص 1054.

(567هـ/1172م)، التي صارت تقليدا لكل المدارس السورية الأخرى من حيث اشتغالها على ضريح مؤسس المدرسة، والتي صارت بدورها من التقاليد المتبعة في عصر المماليك ومن بعدهم العثمانيين¹.

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول أن الطراز الإيواني في المدارس السورية قد عولج بطريقة محلية مما أكسبها شخصية مستقلة، وطابع خاص بها على أن أهم ما يميز المدارس الحلبية على الدمشقية هو أن المساجد الأولى مغطاة بقبة في الوسط وقبوين جانبيين غالبا، أو ثلاث قباب، أكبرها أوسطها، أما مساجد المدارس الدمشقية فالغالب عليها الأسطح المسطحة وأحيانا أفبية، وكذلك فإن غالبية المدارس السورية لا تشمل على مئذنة وإن وجدت فيها فإنها لا ترجع إلى عصر الإنشاء وإنما إلى عهود لاحقة².

3. في مصر:

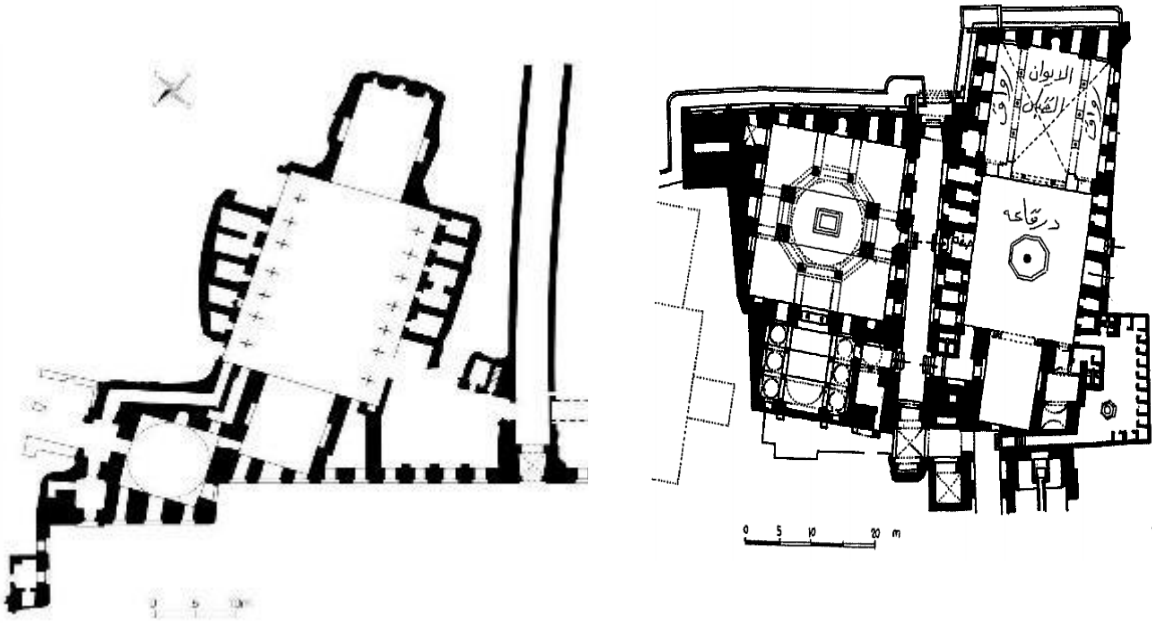
أما في مصر فكانت معظم المدارس الأيوبية التي بدأ بتأسيسها صلاح الدين مخصصة لتدريس مذهب واحد، وكانت في الغالب تشتمل على إيوانين متقابلين بينهما فناء ويرتبطان معا بواسطة غرف متصلة ومن المحتمل أن الإيوان القبلي كان يستعمل كمسجد إذا كانت المدرسة بمذهب واحد في حين يستخدم الإيوان الآخر للتدريس، أما إذا كانت المدرسة لمذهبين فكان الإيوان القبلي يستخدم كمسجد عندما يحين وقت الصلاة فقط وكقاعة للدرس بين مواعيد الصلوات، وعلى عكس المدارس السورية اشتملت المدارس المصرية على مئذنة تعلو مدخل المدرسة³.

1. نفس المرجع، ص 1055

2. محمد حمزة إسماعيل الحداد، مرجع سابق، ص 563

3. خيرة بن بلة، مرجع سابق، ص 124

وبتأسيس المدرسة الصالحية¹ في سنة 641هـ/1243م لتدرس بها المذاهب الأربعة لأول مرة في مصر صارت المدرسة تشتمل على أربعة إيوانات، خاصة في عهد المماليك، مما أدى إلى ظهور المدارس ذات الإيوانات المتعامدة، كما هي الحال في مدرسة السلطان حسن ومدرسة زين الدين يوسف، إذا صارت المدرسة تشتمل على أربعة إيوانات متقابلة تكون تخطيطا متعامدا، وكان إيوان المحراب هو أكبر هذه الإيوانات، في حين كان الإيوانان الجانبيان هما أصغرهما، وكان يتوسط الإيوانات صحن مكشوف به قبة الفسقية، وكان يلحق بها مدفن



المخطط رقم 5: مخطط مدرسة ضمن المجموع المعماري المخطط رقم 6: مخطط المدرسة الصالحية للسلطان نجم للسلطان قلاوون بالقاهرة (عن إسماعيل الحداد بتصريف) الدين أيوب بالقاهرة (عن إسماعيل الحداد بتصريف)

1. تعتبر المدرسة الصالحية التي أسسها سبع سلاطين الدولة الأيوبية الصالح نجم الدين أيوب، أول مدرسة لتعليم المذاهب الأربعة في مكان واحد، تقع بحي النحاسين على شارع المعز لدين الله الفاطمي، على جزء من القصر الشرقي الفاطمي، قامت شجرة الدر زوجة السلطان نجم الدين بإضافة ضريح دفن فيه عام 648هـ/1250م، وتكون بذلك مجمعا معمارية أيوبيا في قلب القاهرة الفاطمية، وهو نهج جديد وأسلوب معماري متكامل أتبعه السلاطين المماليك بعد ذلك في إنشاء مجمعاتهم المطلة على شارع المعز الذي شكل القصبنة الرئيسية لمدينة القاهرة مثل مجمع قلاوون، إلا أن المدرسة الصالحية كانت تشتمل على مدرسة للمذاهب السنية الأربعة وضريح، قبل تطور نظام المجمعات في العصر المملوكي أنظر حسن عبد الوهاب، بين الآثار الإسلامية،

مكتبة الإسكندرية، (د.ت)، ص 11

مؤسس المدرسة على نمط المدارس السورية، وسبيل يعلوه كتاب بالإضافة إلى مساكن للطلبة كما ألحق بها بيمارستان مثلما هو الحال في مدرسة السلطان قلاوون، ومن أشهر مدارس المماليك على هذا النمط كذلك، مدرسة السلطان برقوق، ومدرسة قايتباي¹.

4. مدارس إيران:

إن إيران من الأقطار الإسلامية الأولى التي ظهرت فيها عمارة المدارس قبل القرن 10م ومنذ العصر السلجوقي وما تلاه انتشرت المدارس في إيران انتشارا كبيرا، ويستحسن بنا أن نشير بادئ ذي بدء إلى أن المساجد الصفوية قامت أيضا بوظيفة المدرسة سواء كان تخطيطها يتبع طراز المسجد القبة مثل مسجد الشيخ لطف الله بأصفهان، أو كان يتبع طراز التخطيط الذي يجمع بين الإيوانات والأروقة السابق ذكرها².

أما المدارس فقد بنيت إما مفردة أو ملحقة بالمساجد أو بالمنشآت التجارية ومن أمثلة هذه وتلك المدرسة السليمانية، والمدرسة الناصرية بمسجد الشاه بأصفهان، ومدرسة مادر شاه بأصفهان، ومدرسة معز الدولة في طهران³.

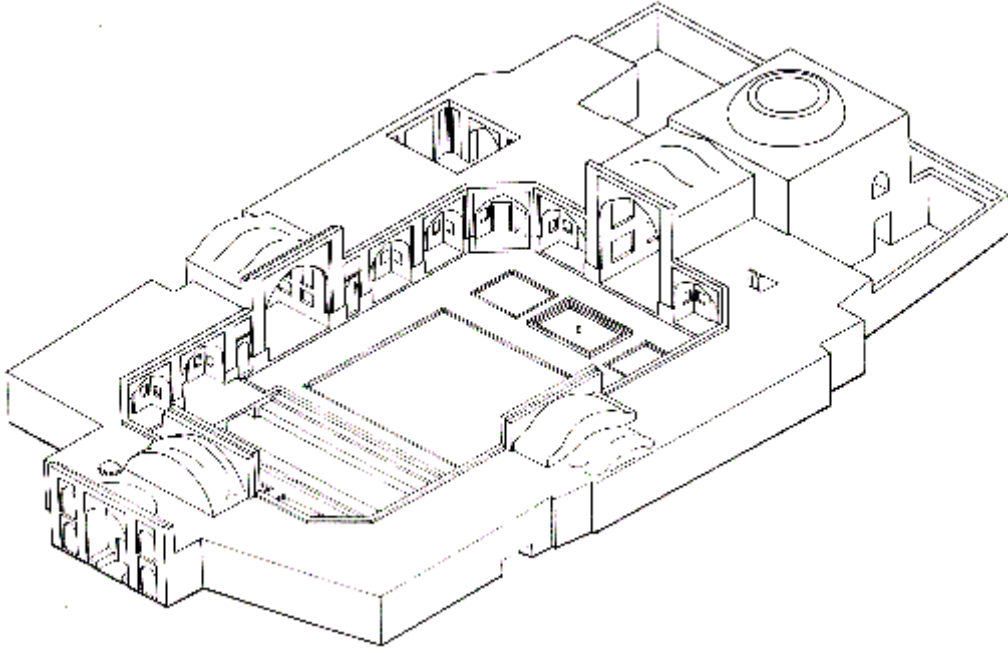
وعن التخطيط العام لهذه المدارس فإنه من الملاحظ أن غالبيتها قد صممت وفق الطراز الإيواني، إلا أنها قد عولجت بطريقة محلية خاصة، مما أضفى عليها شخصية مستقلة قائمة بذاتها فضلا عن الخصائص المعمارية والسماط الفنية التي يتميز بها الطراز الإيراني خلال العصر الصفوي، وبصفة خاصة المداخل والعقود والقباب والإيوانات والمحاريب والنقوش الزخرفية والكتابية وغير ذلك، وبعض هذه المدارس عبارة عن صحن أوسط

1. حسن الباشا، مدخل إلى الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ص 128

2. محمد حمزة إسماعيل الحداد، مرجع سابق، ص 574

3. حول مدارس أصفهان بإيران ومدارسها، أنظر: غادة عبد المنعم إبراهيم الجميعي، مساجد أصفهان في العصر الصفوي، ج1، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، كلية الآثار، قسم الآثار الإسلامية، جامعة القاهرة، 1423هـ/2002م، ص 176، 205، 210.

مكشوف تحيط به أربعة إيوانات ويوجد خلفه إيوان القبلة كما هو الحال في مدرسة مادر شاه (جهار باغ 1118هـ / 1706)¹، وتتوزع بيوت الطلاب فيها بين الإيوانات.



المخطط رقم 7: تصميم مدرسة مادر شاه (جهار باغ 1118هـ / 1706) بأصفهان
(عن إسماعيل الحداد)

5. طراز مدارس المغرب الإسلامي:

أما عن طراز مدارس المغرب الإسلامي التي نشأت في ظل حكم الأسر الزناتية الثلاث، بنو حفص في إفريقية تونس، وبنو زيان في المغرب الأوسط بتلمسان، وبنو مرين بالمغرب الأقصى في فاس² فيمكن أن نخصرها في نمطين رئيسيين وهما:

1. مدرسة جهار باغ، والتي تعني بالفارسية أربع حدائق، ويطلق عليها أكثر من اسم منها مدرسة سلطاني، ومدرسة مادر شاه بنيت في فترة حكم السلطان الشاه حسين، آخر السلالة الصفوية، عمارتها شاهدة على تطور الفن المعماري الصفوي في القرنين 17 و18م، تتميز هذه المدرسة بالتصاميم الفريدة للأقواس والتناسق بين الجدران والصوامع والقباب.

2. سنعود بنوع من التفصيل للحديث عن تطور المدرسة ببلاد المغرب الإسلامي حتى نهاية العهد العثماني في الفصل الثاني من

النمط الأول: وهو النمط المحلي حسب وصف الأستاذ عبد العزيز لعرج ويجمع بين المسجد والمدرسة¹، ويقوم نظامه المعماري على نواة مركزية هي الصحن الأوسط المكشوف، يحيط به أروقة يفتح عليها في الجانبين حجرات الطلبة، وبالجبهة الجنوبية يقوم المصلى وهو قاعة الدرس نفسه².

ومن الملاحظ أن هذا النمط كان هو الغالب والسائد خلال العصر المريني الزياني والحفصي، لذلك لم تزود كل المدارس بمنبر أو مئذنة باستثناء مدرسة الصفارين بفاس القديمة 1276م فهي الوحيدة التي زودت بمئذنة تعلو كتلة المدخل الرئيسي بالواجهة الشمالية للمدرسة³، كما يمكن رؤية المئذنة ذات التصميم المربع على النظام المغربي في مخطط المدرسة التاشفينية بتلمسان الذي أسسها الأمير الزياني أبي تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو موسى الأول ما بين سنتي (718-737هـ/1318-1336م)⁴.

هذا وتتميز مدارس هذا النمط بصغر مساحتها وبساطة تخطيطها فهي عبارة عن صحن أوسط مكشوف يشغل ضلعه الجنوبي غالباً قاعة الصلاة والدرس، وتخطيطها قد يكون مجرد مساحة مستطيلة مسقوفة تحتوي فقط على المحراب، ومن الجانبين بائكتان متقابلتان تحملان طابقيين من حجرات منفصلة خصصت لإقامة الطلاب، مثل مدرسة أبي الحسن المريني بمكناس 1275م⁵ والمدرسة التاشفينية بتلمسان وقد تكون مساحة مربعة تحتوي على محراب مثل مدرسة الصفارين، أو مساحة مربعة لا تحتوي على محراب كما هو الحال في المدرسة المصباحية بفاس القديمة 1346م وذلك راجع إلى أن بيت الصلاة، يقع بالجبهة الشمالية للصحن، ومن ثم فإن جدار القبلة في الجدار الجنوبي الشرقي أصبح هو الذي يطل على الصحن ولذلك استبدل المحراب بفتحة باب الدخول التي تصل القبة بالصحن⁶.

1. يقصد بها تلك المدارس التي وقفت للدراسة والتعليم وخصصت كذلك لأداء الصلوات الخمس، ومن ثم لا يسمح لغير طلبتها من الدخول إليها والانتفاع بمراقبتها كالمسجد والميضأة أنظر: محمد حمزة إسماعيل الحداد، مرجع سابق، ص 577

2. عبد العزيز لعرج، النظام المعماري لمدارس المغرب، دراسة أثرية تحليلية، مجلة آثار، ع 8، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2009م، ص 87

3. محمد حمزة إسماعيل الحداد، مرجع سابق، ص 578

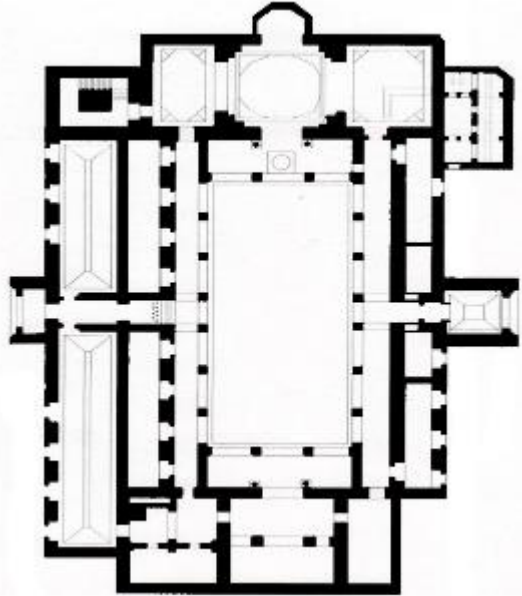
4. عبد العزيز لعرج، النظام المعماري لمدارس المغرب، دراسة أثرية تحليلية، مرجع سابق، ص 99

5. محمد محمد الكحلوي، المدارس المغربية، مرجع سابق، ص 60

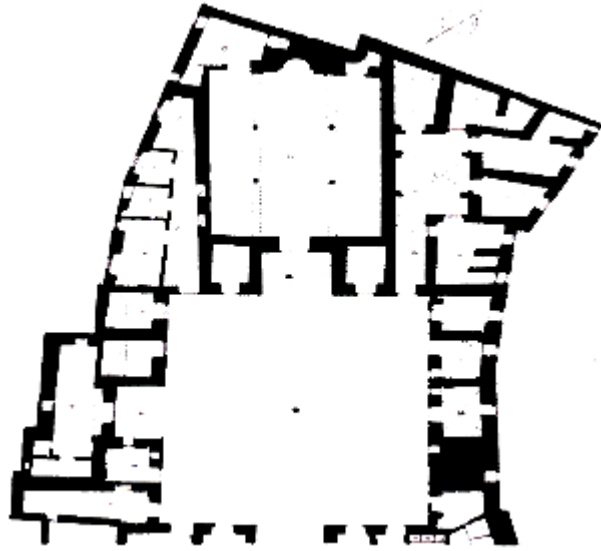
6. محمد حمزة إسماعيل الحداد، مرجع سابق، ص 578

النمط الثاني: وهو نمط المدارس المتأثرة بمظاهر معمارية خارجية، أو نمط المدرسة الجامع، ويقصد بها تلك المدارس التي خصصت للدراسة والتعليم ووقفت مسجدا جامعاً مباحاً لعموم المسلمين، ومن ثم زودت بمنبر ومصلى جنازتي وميضأة خارجية بخلاف الميضأة الداخلية، وأهم نموذج لهذا النمط من التخطيط، المدرسة البوعنانية بفاس القديمة التي أسسها السلطان المريني أبي عنان فارس المتوكل سنة 1355م، والمدرسة الشماعية التي بناها الأمير الحفصي أبو زكريا يحي الأول في تونس سنة 636هـ/1238م¹.

أهم ما يميز مدارس هذا النمط هو كبر حجمها وعظمتها وفخامة وثراء نقوشها الزخرفية، وروعة التخطيط فيها، المكون من صحن أوسط كبير يتقدمه من الجهة الجنوبية بيت الصلاة ويحفه من الجانبين إيوانان متقابلان خصصا للتدريس، وتقع خلوات الطلاب بالضلع الشمالي المقابل لبيت الصلاة².



المخطط رقم 9: مخطط المدرسة الناشفينية الزيانبة بتلمسان (عن لعرج)



المخطط رقم 8: مخطط المدرسة المصباحية المرينية بفاس (عن لعرج)

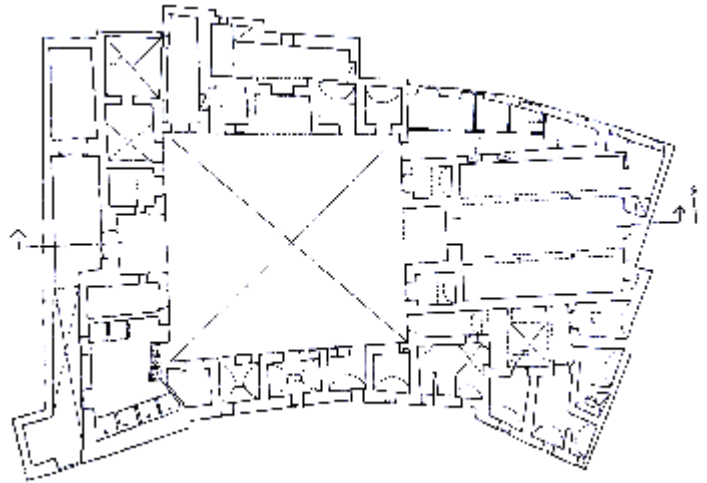
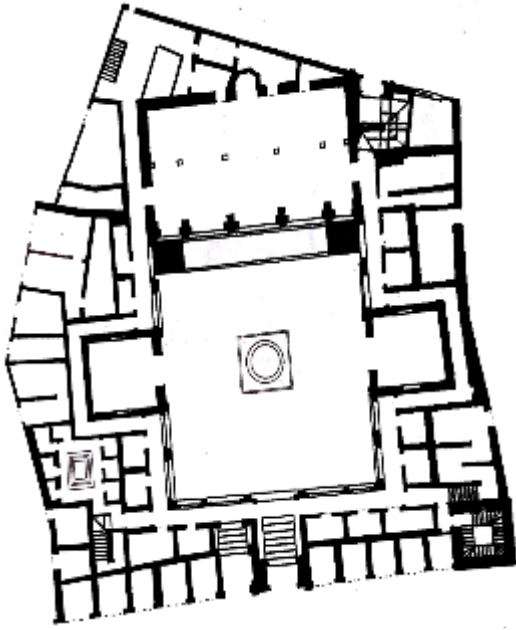
وليس من الضرورة أن يكون لهذه الأواوين وظائف غير وظيفة بيوت الطلبة، أو تستخدم في التدريس إذا كثرت عدد الطلاب والمدرسين وتنوعت المواد الدراسية، وفي كل الأحوال فإن هذه الأواوين ظاهرة معمارية وافدة على

1. عبد العزيز لعرج، النظام المعماري لمدارس المغرب، دراسة أثرية تحليلية، مرجع سابق، ص 99

2. محمد محمد الكحلوي، المدارس المغربية، مرجع سابق، ص 60، 61

بلاد المغرب من المشرق خاصة من مصر والشام¹، ولكن في المقابل نجد أنها تختلف عنها من حيث عدم احتواءها على ضريح².

وعموما ما يمكن أن نقوله عن الطراز المعماري في تخطيط المدارس في بلاد المغرب أنها تقوم على صحن مركزي وما يحيط به أو يفتح عليه من حجرات وغرف، وهو نظام كان معروفا في الأربطة منذ فترة مبكرة، أي أنه نظام محلي مغربي خالي من أي تأثيرات خارجية، وهو ما تمثله المدرسة التاشفينية بتلمسان والمدارس المرينية عامة باستثناء المدرسة البوعنانية، ولكن بعض المدارس الأخرى شهدت في العهد الحفصي والمريني دخول مظاهر خارجية عليها، تلقت فيها موجة من التأثيرات المشرقية لأسباب وعوامل عديدة، منها أن بلاد المغرب بصفة عامة وتونس الحفصية على وجه الخصوص كانت على صلة دائمة وقوية بالمشرق عبر مصر، وخاصة في العهد المملوكي فكانت المؤثرات المشرقية أظهر فيها من غيرها من مناطق المغربين الأوسط والأقصى³.



المخطط رقم 10: مخطط المدرسة البوعنانية المرينية
بفاس (عن أبو رحاب)

المخطط رقم 11: مخطط المدرسة المنتصرية الحفصية
بتونس (عن ابن مامي)

1. عبد العزيز لعرج، النظام المعماري لمدارس المغرب، دراسة أثرية تحليلية، مرجع سابق، ص 102

2. حسن الباشا، مدخل إلى الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ص 129

3. عبد العزيز لعرج، النظام المعماري لمدارس المغرب، دراسة أثرية تحليلية، مرجع سابق، ص 109

وبالرغم من وجود نموذجين لعمارة المدرسة المغربية فإن تخطيطها قد تأثر بتدريس المذهب الواحد، وهو مذهب الإمام مالك الذي يعد المذهب الرئيسي السائد لدى جميع المغاربة، والذي كان له أعظم الأثر في توحيد معظم العناصر المعمارية المكونة لتخطيط المدرسة المغربية بشكل عام¹.

خامسا. النظريات المتعددة حول أصل تخطيط المدرسة:

إن من أهم مظاهر تطور العمارة الإسلامية هو بداية نشأة وظهور المدارس التي أضافت نوعا من التخطيط والتكوين المعماري والزخرفي الذي أثار انتباه عدد كبير من علماء الآثار المستشرقين والعرب، وعملوا على إيجاد تفسيرات لأصول التخطيط المتبع في عمارة المدارس حيث تعود أولى هذه المحاولات إلى أوائل القرن 14هـ /19م وحتى يومنا هذا، مما أدى إلى تضارب الآراء والنظريات حول أصل تخطيط المدرسة، فمنهم من يرى أن أصل تخطيطها مستمد من المباني الدينية المخصصة للعبادة كالكنائس والمساجد، ومنهم من يرى أن أصل تخطيطها يرجع لبيوت السكن، ومنهم من يرى أن أصلها يعود للمنشآت العمومية التجارية، وسنحاول أن نتطرق إلى هذه الآراء وأصحابها ومصادر اعتمادها بإيجاز:

01: نظرية أصل التخطيط المستمد من المباني الدينية: وتنسب هذه النظرية أصل تخطيط المدرسة إلى أماكن العبادة ولها رأيان أساسيان:

الأول وهو رأي المستشرق السويسري **فان برشم**²، القائل بأن النظام المتعامد المكون من أربعة أواوين متقابلة يتوسطها صحن، والمنتشر استخدامه في عمارة المدرسة مستمد من الكنائس البيزنطية السورية المماثلة لهذا التخطيط³، كما يرى أن استخدام المدرسة لمثل هذا التخطيط نابعا عن صلاحية الأواوين للتدريس حيث يكون لكل مذهب أيوان خاص به.

1. محمد محمد الكحلوي، المدارس المغربية، مرجع سابق، ص 85.

2. فان برشم، مستشرق سويسري متخصص في النقوش العربية الإسلامية بوجه خاص، كان له الفضل في تكوين أرشيف هام جدا من الصور الفوتوغرافية لمعالم إسلامية اندثرت، خاصة النقوش والكتابات التي تزخر بها المساجد والقبور والمدارس والأضرحة والحصون والجسور، ورافقها بدراسات وتحليل تاريخية قيمة، خاصة في مصر وسوريا وفلسطين والعراق، وقد حملت ابنته **مارغريت فان برشم** لواء البحث الأثري المتخصص، فكان لها الفضل في إبراز المدينة الأثرية سدراته بولاية ورقلة بين عامي 1950 و1952، للمزيد أنظر: عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين**، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1993، ص 90.

3. كامل حيدر، مرجع سابق، ص 36

أما الرأي الثاني فهو ما يذهب إليه الباحث أحمد فكري¹ الذي يرى أن أصل تخطيط المدرسة يرتبط بالعمارة الدينية، ولكن ليس بعمارة الكنيسة كما يرى فان برشم وإنما بعمارة المساجد، إذ يقول في هذا الصدد " المدارس التي أنشئت كانت في الوقت نفسه مساجد، وكانت تؤدي في معظمها صلاة الجمعة"² وفي فقرة أخرى المدرسة..... هي المسجد الجامع الذي أقيمت في حرمه بيوت لسكنى فريق مختار من الفقهاء أو الطلاب ورتب لتدريسهم فيه مدرسون بأجر معلوم ووفرت للجميع فيه سبل البحث والدراسة والمعيشة وأجريت عليهم الجرايات.."³.

ولكي يثبت رأيه هذا بادر إلى إيراد الأدلة التي حصرها في جانبين أساسيين هما:

- ارتباط دور المدرسة ووظائفها منذ نشأتها بدور المسجد والدليل على ذلك إطلاق اسم مدارس على الحلقات التعليمية الموجودة في الجوامع الكبيرة، كما كان الحال في الجامع الأموي بدمشق، والتي ذكر منها عددا كبيرا إضافة إلى ما ورد في حجج الوقف وكذا على وجوب توفير الأئمة والخطباء والمؤذنين في العديد من المدارس الإسلامية.

- أما الجانب الثاني فهو يتعلق بالشواهد المعمارية التي تمكننا من إثبات الأصل المستمدة منه المدرسة لتخطيطها وهو المسجد الجامع، حيث اتضح له من خلال دراسته للمدارس المتبقية من القرن 5، 7هـ/11، 13م، وجود صفات معمارية مشتركة بينها وبين المسجد الجامع خاصة في بلاد المغرب الإسلامي، الذي لم يطرأ عليها تغييرا كبيرا يباعدها عن التخطيط الأصلي للمسجد الجامع، كما احتفظت بجميع العناصر الرئيسية للمسجد الجامع⁴. كما حاول أحمد فكري نفي وجود أي صلة بين نظام الأواوين والمدارس، فالأواوين حسبه أدخلت على عمارة المساجد كتطور لعمليات التسقيف على عكس الرأي القائل بأنها وجدت من قبل في المدارس ثم انتقلت منها إلى عمارة المساجد من بعد ذلك، كما أنه رفض فكرة وجود علاقة بين نظام الأواوين والتعليم في المدارس وحسبه

1. خصص عالم الآثار المصري أحمد فكري خمسة فصول كاملة في كتابه مساجد القاهرة ومدارسها في جزئه الثاني المتعلق بالفترة الأيوبية، للحديث عن المدارس الإسلامية ونشأتها ووظائفها ونظم تخطيطها، مبرزا النظريات المتعددة في ذلك ومقدما فيها رؤية جديدة حول هذه النظم أنظر: أحمد فكري، مرجع سابق، ج2، ص 49 إلى ص 183

2. أحمد فكري، مرجع سابق، ص 49

3. أحمد فكري، مرجع سابق، ص 192

4. أحمد فكري، مرجع سابق، ج2، ص 186

في ذلك أن الإيوان كمحل للدرس لم يعرف قبل القرن 8هـ/14م إذ لم يذكر فيما سبق هذه الفترة في المصادر التاريخية، كما يضيف أن الأواوين غير ملائمة لمهنة التعليم بحكم أتمها مفتوحة، وتكون عرضة لتغيرات الفصول (الصقيع، المطر، الحرارة، الرياح)، مما سيعيق العملية التعليمية فيها¹.

02: نظرية أصل التخطيط المستمد من المباني السكنية: وتدرج تحتها مجموعة من الآراء، كل منها يحاول إسناد أصل التخطيط المدرسي إلى أحد طرز عمارة المساكن السائدة في العالم الإسلامي، وأقدم هذه الآراء رأي المستشرق المجري ماكس هيرتز²، الذي اعتبر تخطيط المدارس مشتق من تخطيط البيوت الفارسية³، ويستدل في ذلك على بعض البقايا الأثرية للمساكن، مكتشفة في فارس وخرسان تتبع النظام المتعامد في تخطيطها، التخطيط المتبع في عمارة المدارس الإسلامية، وهي حسبه من التأثيرات الفارسية على الحضارة الإسلامية ككل، وقد طورت بما يناسب الظروف التعليمية في المدرسة ومن هنا ظهرت مدارس ذات إيوان وأكثر، وهو نفس الرأي الذي يذهب إليه كل من الباحثين ريشموند وهرتزفلد وهوتكور⁴ الذين يرون بأن تخطيط المدارس في مصر والشام قد تأثر بتخطيط العمارة المحلية للمسكن، والمستمد تخطيطها من عمارة المساكن الفارسية، التي كانت سائدة في العصر العباسي الأول⁵.

1. نفس المرجع، ص 184

2. ماكس هيرتز باشا، مؤرخ ومهندس معماري مجري، كبير مهندسي لجنة حفظ الآثار العربية القديمة، الذي لعب دوراً مهماً في حماية الآثار القبطية والإسلامية بداية من الفترة من 1890 وحتى نهاية عام 1914 أنظر:

Nasser Rabbat: The formation of the Neo-Mamluk style in modern Egypt. In: The education of the architect. Historiography, urbanism, and the growth of architectural knowledge. Essays presented to Stanford Anderson. Ed. Martha Pollak. MIT Press, Cambridge, Massachusetts, 1997, pp. 363-386.

3. حيدر كامل، مرجع سابق، ص 40

4. أرنست ريشموند، عالم آثار اسكتلندي عني بفن العمارة الإسلامية خاصة آثار فلسطين والقدس، عمل في المتحف البريطاني سنة 1931 من أهم أعماله مصنف النقود العربية ودراسات عن الكتابات الكوفية في مصر الفاطمية للمزيد أنظر: نجيب عقيقي، المستشرقون، ط3، دار المعارف، مصر، 1964، ص 570، أرنست إميل هرتزفلد 1879. 1948، مستشرق ألماني مسيحي من أصل يهودي درس علم الآثار بجامعة برلين قام بأسفار عديدة في بلدان الشرق الأوسط تركيا، وإيران، والهند، وأفغانستان، وسوريا، والعراق، ومصر، قام بدراسات هامة على العمائر الإسلامية والنقود والنقوش كما قام بحفائر عديدة في

سامراء وأشور بالعراق وحفائر بمصر وإيران وغيرها أنظر، عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص 605

5. أحمد فكري، مرجع سابق ص 133

ويفترض هرتزفيلد أن نظام الملك استخدم بناءة من بلاد فارس، لبناء مدارسه العديدة في العراق وإيران، وأن هؤلاء البناءة استطاعوا أن يوقفوا بين الأساليب المعمارية التي كانت متبعة من القدم في المساكن والبيمارستانات والأربطة وبين مقتضيات المدرسة الضرورية لتشكيل نظام البناء الجديد وتصميمه¹.

ومن الآراء التي تعيد كذلك أصل تخطيط المدارس إلى عمارة البيوت السكنية، رأي المستشرق الإنجليزي كامبرون كريزويل²، الذي يجزم بأن التخطيط المتعامد لمدارس التعليم في مصر مستمد من قاعات المساكن المصرية ولا علاقة له لا بعمارة المساكن الفارسية مثلما ذهب إليه هيرتز، ولا بالنظام الصليبي أو الشبه الصليبي من مصدر سوري مثلما ذهب إليه فان برشم، حيث ظهر هذا التخطيط لأول مرة في مصر وليس في شرق العالم الإسلامي، مؤكداً أن هناك فرقا بين البحث عن نظام التخطيط المتعامد في العمارة عموماً وبين نظام التخطيط المتعامد في مدارس التعليم³.

ولكي يثبت كريزويل صحة نظريته قدم دلائل تاريخية أثرية تمثل في مساكن جرى تحويلها إلى مدارس، فذكر خمسة عشر مثالا، ثمانية منها في القاهرة لم يبق منها إلا اثنتان، وستة في دمشق وواحدة في حلب، وبين أن هناك علاقة وطيدة بين المساكن والمدارس، وأن النظام المعماري المتعامد يقوم على دمج قاعتين مع بعضهما البعض لخلق إيوان يدرس فيه تخصص من التخصصات⁴.

ويقترّب رأي الباحث عباس حلمي مع رأي كريزويل في أصل تخطيط المدرسة ولكن يبتعد عنه في صفة الإقليمية حيث حصرها كريزويل في مدارس مصر دون غيرها من البلدان، وأشار عباس إلى أن المدارس الإسلامية بصفة عامة تأثرت بعمارة المساكن وحجته في ذلك التعليم في البيوت كان معروفا منذ بداية الدعوة المحمدية، وقد كان ظهوره في الحجاز ثم انتقل منها إلى سائر أرجاء الدولة الإسلامية، ومع تأسيس المسلمين للمدارس

1. خيرة بن بلة، مرجع سابق، ص، 20، 21

2. كامبرون كريزويل سنة 1879، من أشهر علماء الآثار الإسلامية في العالم إذ يعتبره العلماء مرجعا في العمارة الإسلامية أسس سنة 1931 قسم الفن والعمارة الإسلامية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ونشر أكثر من سبعين بحثا علميا عن الآثار الإسلامية أنظر نجيب عقيقي مرجع سابق، ص 569

3. خصص الباحث أحمد فكري فصلا كاملا في كتابه عن مساجد القاهرة ومدارسها للحديث على النظام الصليبي في بناء المدارس من حيث ظهوره وأشهر نماذجه أنظر: أحمد فكري، مرجع سابق، ص 155 وما بعدها

4. أحمد فكري، مرجع سابق، ص 128

كمؤسسات متخصصة بالتعليم، اقتبسوا النظم التعليمية والتخطيطية التي كانت متبعة في الدور أين يدرس العلماء، وهو ما يؤكد تحويل العديد من الدور إلى مدارس¹.

03: نظرية أصل التخطيط المستمد من المباني التجارية: ويذهب أصحاب هذه النظرية إلى اعتبار أن أصل تخطيط المدارس مقتبس من تخطيط الخانات² أبرزهم الباحث **جورج مقدسي**، الذي يرى أن إنشاء الخانات بجوار المساجد في مشرق العالم الإسلامي لكي ينزل بها الطلبة، أدى بمرور الوقت إلى ظهور النشاط التعليمي فيها، وتحولت بعد ذلك إلى ما يعرف بالمدارس³، ويؤيده في هذا الرأي الباحث التركي **أوقطاي أصلان** أبا، الذي يرى بأن هناك تشابهاً معمارياً كبيراً بين المدارس والخانات باستخدامها لأسلوب الأواوين المتعامد في التخطيط⁴.

وبغض النظر عن هذه النظريات وآراءها، هناك آراء أخرى متعددة لباحثين وكتاب يرجعون أصل التخطيط المتعامل إلى ابتكار المعماري المسلم مع استفادته من طرز العمارة السائدة في عصره، أهمها رأي الباحث **حسن باشا**⁵ الذي اقتصرته دراسته عنها إلا في مصر ويرى أن أساس الابتكار نشأ من عناصر ثلاث وهي وظيفة المدرسة (الدراسة، الصلاة، السكن)، والطرز، والبيئة المعمارية السائدة فيها⁶.

1. حيدر كامل، مرجع سابق، ص

2. الخانات جمع خان كلمة فارسية الأصل بمعنى منزل مؤثث أو نزل مفروش مهياً للطعام والشراب والنوم يقصده المسافرون والتجار والحجاج والرحالة وغيرهم للإقامة المؤقتة نظير أجر معلوم، ويقام عادة على طرق القوافل المختلفة بين المدن أو عند مداخل أسوارها للمزيد أنظر: عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000م، ص 91

3. جورج مقدسي، نشأة الكليات، معاهد العلم عند المسلمين في الغرب، ترجمة محمود سيد محمود، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، 2015، ص 77

4. أوقطاي أصلان أبا، فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد محمد عيسى، ط1، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، 1987، ص 313

5. الدكتور حسن الباشا باحث وأكاديمي مصري متخصص في الآثار والفنون الإسلامية وتاريخ الفن، صاحب أهم موسوعة في العمارة الإسلامية ولد سنة 1919 بالقاهرة، تحصل على دبلوم في تاريخ الفن من جامعة لندن سنة 1950 ودكتوراه الآثار الإسلامية من جامعة القاهرة 1943، له مؤلفات كثيرة قيمة في التاريخ والفنون والعمارة الإسلامية للمزيد أنظر دعاء جميل، حسن الباشا، وجوه مشرقة، مجلة آثارنا اليوم، العدد 7، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة 2001، ص 31

6. حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، ط1، مج1، دار أوراق شرقية للطباعة والنشر، بيروت، 1999،

وآخر من خاض في هذا الموضوع الأستاذ محمد الكحلاوي¹ الذي أطلق عليه اسم التخطيط الداخلي للمدارس، أي أن جميع مدارس التعليم في العالم الإسلامي، تلتقي عند نمط معماري مشترك يقوم على نظام الفناء الأوسط الذي تطل عليه أربع واجهات وتلتف حوله جميع عناصر المبنى، وبالتالي من الصعب جدا تحديد نموذج معماري معين يكون الأصل الذي استمدت منه المدرسة تخطيطها، نظرا لوجود تنوع كبير بين أنظمة التخطيط التي أتبعته في عمارة المدارس في مختلف أرجاء العالم الإسلامي².

وعموما ما يجدر الإشارة إليه حول هذه النظريات والآراء المختلفة والمتعددة حول أصل تخطيط المدارس الإسلامية أن معظمها تعرض للنقد والاعتراض مما يصعب على الباحثين قبولها كحقيقة مجردة بدون تعديل أو رفض إذا اقتضى الأمر ذلك.

كما أن هذه النظريات ركزت على نظام تخطيطي واحد ألا وهو النظام المتعامد، وأعتمده 25 سنة على أنه أصل تخطيط كل مدارس التعليم الإسلامية، رغم أننا نجد أن هناك أنظمة تخطيط متعددة ومتنوعة في المدارس، مثل نظام الرواق، ونظام الحجرة الواحدة، وبالتالي طغيان النظام المتعامد على الأنظمة الأخرى، ومحاولة التعرف على أصل تخطيطه، لأن المدرسة بأنظمة تخطيطها المتعددة كيان واحد متكامل ومترابط شأنها في ذلك شأن أي منشأة معمارية أخرى.

سادسا. الفرق بين المدرسة والزاوية والمسجد والرباط:

يبدو الاختلاف واضحا بين العديد من المؤرخين في الفرق بين مفاهيم الرباط والزاوية من جهة وبين المدرسة والمسجد من جهة أخرى فنجد ابن مريم يدمج بين عمارتي الزاوية والمدرسة، فيذكرها تارة زاوية، وتارة مدرسة، وتارة أخرى مدرسة الزاوية³.

1. محمد محمد الكحلاوي، من أشهر دكاترة مصر والعالم الإسلامي في مجال الإنتاج العلمي والمشروعات البحثية المتخصصة في العمارة والفنون الإسلامية، تقلد مناصب علمية عليا أبرزها مستشارا لوزير التربية المصري من سنة 1997 إلى 2001 وكذا أميناً عاما لاتحاد الآثاريين العرب ومدير تحرير مجلتها إلى الآن، كما عين خبيرا لليونسكو بشأن الآثار العراقية والفلسطينية، وممثلا لآثار القدس من جامعة الدول العربية وغيرها من الأدوار التي لا يمكن حصرها في بضعة أسطر

2. محمد محمد الكحلاوي، المدارس المغربية، مرجع سابق، ص 83

3. ابن مريم، مصدر سابق، ص 23، 33، 35

أما عبد الرحمن بن خلدون، وابن أبي زرع فيختلفان في التعبير الاصطلاحي للمبنى الذي شيده أبي يوسف يعقوب سنة 684هـ/1285م، فابن خلدون يسميه رباطاً¹، في حين ابن أبي زرع يطلق عليه مصطلح زاوية².

ومن هنا يبدو أنه من اللائق بعد أن تعرفنا على مصطلح المدرسة أعلاه أن نتساءل عن معاني المصطلحات الثلاث الأخرى (المسجد، الزاوية، والرباط).

المسجد: وجمعه مساجد، وهو كل مكان يسجد فيه وهو من الألفاظ الإسلامية التي لم تعرفها الجاهلية، فالاسم والمسمى جاء مع الدين الخاتم ودالا على مصلى الجماعة، ويعتقد أن المسجد الأول في الإسلام هو مسجد قباء خارج المدينة المنورة، والذي بني بتوجيه من الرسول صلى الله عليه وسلم، قبل الهجرة، ولكن لم يصلنا ما يدل على تخطيطه³، أما مسجد النبي فقد بناه في العام الأول للهجرة باللبن على أسس من الحجارة، وجعل سواربه جذوع النخيل، وسقفه من الجريد⁴، وكان عبارة عن صحن أوسط مكشوف فرشت أرضه بالحصباء، تحيط به أربع ظلال أكبرها ظلة القبلة، وصار ذلك التخطيط ذو الصحن والأروقة - مع بعض التعديلات أحيانا - هو النموذج الذي اتبعه كل مساجد المسلمين عامة حتى ظهر التخطيط ذو الإيوانات الذي ارتبط أساسا بنشأة المدرسة في العمارة الإسلامية، وسار التخطيطان معا كأساس لكل مسجد ومدرسة تم بناؤهما فيما بعد⁵.

ومع تطور فن عمارة المساجد ظهرت عناصر أخرى جديدة، أخذت أهمية كبرى لاعتمادها في المساجد كلها، فالحراب يتوسط جدار القبلة، وبقربه المنبر ويكاد لا يخلو مسجد من المئذنة التي لم يعرفها مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصبحت من العلامات المميزة للمسجد⁶.

1. عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ص 435

2. ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص 257

3. عاصم محمد رزق، مرجع سابق، ص 282

4. نزار عبد الرزاق بليhle، القيم الجمالية للعناصر الأساسية في عمارة المساجد، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التربية الفنية، كلية التربية جامعة أم القرى، السعودية، 1415هـ/1994م، ص 22

5. عاصم محمد رزق، مرجع سابق، ص 282

6. عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، مطبعة جروس برس، بيروت، 1993، ص 381

اعتنى المسلمون بالعمارة المسجدية وعمروها وجعلوها مراكز لمدنهم الجديدة ودورا يتعلمون فيها وذلك لأن القرآن الكريم حث المؤمنين على تعمير بيوت الله مصداقا لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ... ﴾¹.

وقد تعددت حلقات التعليم فيها، فكان العلماء يقصدونها لتعليم الناس أمور دينهم وديانهم، حيث اشتهرت العديد من المساجد في هذا المجال منها، مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة، الجامع الأموي بدمشق، جامع المنصور في بغداد، الجامع الأزهر بالقاهرة، جامع القيروان بتونس، جامع القرويين في فاس، وجامع أغادير في تلمسان وغيرها من المساجد.

أما الزاوية فيقصد بها عند المتصوفة² الموقع الذي نلتزم فيه العبادة³، تطلق على المسجد الصغير أو المصلى، كما تطلق على المسجد الخاص بطائفة من الصوفية، أو ضريح لأحد الأولياء، يتصل بها غالبا مقبرة يدفن بها بعض من لهم علاقة بالطريقة، أو قرابة بالولي تخصص لاستقبال الضيوف والمنقطعين للعبادة⁴.

وتعرف أيضا على كونها مركزا للنشاط الديني، ومدارس وملاجئ دينية وبيوت لعمل الخير⁵، تشبه الدير أو المدرسة، نجد بها عادة غرفة للصلاة بها محراب، وضريح لأحد المرابطين، أو وليا من الأشراف تعلوه قبة، وغرفة أعدت لتلاوة القرآن، وغرفا مخصصة لضيوف الزاوية وللحجاج والطلبة والمسافرين، كما يلحق بها عادة غرفا بها قبور أولئك الذين أوصوا في حياتهم أن يدفنوا بها⁶.

1. سورة التوبة، الآية 19.

2. المتصوفة هم المتبعون للتصوف، وهو حسب ابن خلدون علم من العلوم الشرعية، وأصله أن طريقة القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين من بعدهم، وهي طريق الحق والهداية، انظر: ابن خلدون، المقدمة، دار ومكتبة الحكمة، بيروت، لبنان، 1991، ص 172.

3. ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص 409.

4. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي الديني والثقافي والاجتماعي، ط1، ج4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1967، ص 423.

5. توكي رايح، التعليم القومي للشخصية الجزائرية، ط2، الجزائر، 1981، ص 237.

6. محمد نسيب، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، ط1، دار الفكر، الجزائر، (د.ت)، ص 27.

ويذكرها ابن مرزوق بقوله والظاهر أن الزوايا عندنا بالمغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاجين من القاصدين¹.

ويرى جورج مارسى² أن تطور الزاوية ارتبط بتطور الحركة الصوفية في بداية القرن 7هـ/13م³، ويذكر أيضا بأن الزاوية في المغرب الإسلامي، ماهي إلا أربطة فقدت وظيفتها الحربية، وتمسكت بالجانب الديني التعبدي⁴ أما الرباط فيقصد به بالمفهوم الأثري المعماري، نوع من الثكنات والأبنية العسكرية التي كان يربط فيها المجاهدون على حدود الدولة وثغورها لحمايتها من الأعداء، مصداقا لقوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾⁵، وقوله عز وجل، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁶.

وقد اعتادت الدول الإسلامية إنشاء هذه الأربطة على حدودها وثغورها ليكون كل منها بمثابة حصن وبرج مراقبة واتصال ومنارة ومحطة بريد ترسل منها الأخبار العاجلة، والإنذارات في حال تعرض الدولة للخطر⁷، وبمرور الزمن وبعد استتباب الأمن والسلم أخذت تلك الأربطة تفقد مهمتها الحربية شيئا فشيئا، وصارت بيوتا للعبادة يسكنها الزهاد وأهل الصوفية ممن رغبوا في مجاهدة النفس لنيل المقامات ثم تحولت بعد ذلك إلى سكن للبطلان والغرباء والفقراء وأهل الطريق الواردين من الجهات المختلفة⁸.

1. ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص 413

2. جورج مارسيه، عالم آثار فرنسي ولد سنة 1876، درس الفنون الجميلة في باريس، وكان أول من حصل على شهادة عليا في علم الآثار الإسلامية من جامعة الجزائر عام 1929، وعين أستاذا بكلية الآداب، أقام زمنا طويلا في تونس، زار مارسيه مدينة تلمسان عام 1902، ورسم وصور أهم آثار المدينة التاريخية، والتأثيرات الإسبانية والعثمانية عليها، ونظرا لإمامه واطلاعه على الفنون الإسلامية وآثارها في الجزائر، عينته السلطات الفرنسية في منصب مدير متحف الآثار والفنون الإسلامية، كما عُيِّن عام 1935 مديرا لمعهد الدراسات الشرقية في الجزائر للمزيد أنظر: نجيب عقيقي مرجع سابق، ص 261.

3. Marçais. (G), L'art musulman, presses, Universitaire de France, paris, 1962, p129.

4. Marçais. (G), l'architecture musulmane d'occident, Op.cit., p284.

5. سورة الأنفال، الآية 60.

6. سورة آل عمران، الآية 200.

7. تقي الدين المقرئ، مصدر سابق، ج1، ص174.

8. عاصم محمد رزق، مرجع سابق، ص 116.

وأكثر ما نشأت هذه الأربطة في شمال إفريقيا، لصد محاولات الغزو البحري الأوروبي وإعداد حملات المجاهدين، وأقدم الرباطات كانت بتونس، منها رباط مدينة سوسة الذي تم إنشائه سنة 205هـ/821م على يد دولة الأغالبة كما عرفت عند المرابطين الذين اتخذوها حصونا ونشروا دعوتهم منها، ومن ثم جاءت تسميتهم مشتقة من الرباط والمرابطة، ليستمر بعدهم الموحدون في تشييدها والاهتمام ببنائها¹.

وقد خصص ابن مرزوق الخطيب (710هـ/781هـ) الباب التاسع والثلاثين من كتابه المسند الصحيح الحسن للحديث عن الربط التي أنشأها السلطان أبو الحسن المريني على طول السواحل المغربية والجزائرية، وكانت الربط تمتد من آسفي جنوب المغرب إلى تونس، إذا أوقدت النار في إحداها تصل في الليلة الواحدة إلى رباط الفتح، بل إلى آخر رباط وعلى مسافة تسير فيها القوافل نحو من شهرين².

مزج المسلمون بين الطبيعة الحربية للرباط والوازع الديني، وذلك لطبيعة الحرب التي يقودونها، فالجهاد يحتاج إلى جانب الجيش دعاة وفقهاء للمواعظة وتقوية العزائم، فصارت الأربطة تجمع بين القوة المادية (الجيش) والقوة الروحية (الفقهاء).

ومما أورده ابن جبير عند حديثه عن دمشق بقوله "وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر"³.

يستدل من هذا النص المهم على أن مصطلح الخانقاه بدمشق يرادف مصطلح الرباط في بلاد المغرب، وهذا المصطلح الأخير ظل شائعاً ومتداولاً هناك حتى أواخر القرن 6هـ/12م، ثم سرعان ما حل محله مصطلح آخر جديد هو مصطلح الزاوية⁴، ويؤكد ذلك ما ورد في المصادر التاريخية مثل ما أورده ابن بطوطة في حديثه عن مصر بقوله "وأما الزوايا بمصر فكثيرة وهم يسمونها الخوانق، والأمرء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا، وكل زاوية

1. حسن إبراهيم حسن، مرجع سابق، ج1، ص437.

2. ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص397.

3. ابن جبير، مصدر سابق، ص199.

4. محمد حمزة إسماعيل الحداد، المدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية، ط3، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة،

2008، ص24.

بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرها الأعاجم، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب أمورهم عجيب..¹.

وبناء على ما ورد في هذا النص فإن مصطلح الخانقاه بمصر يرادفه مصطلح الزاوية في بلاد المغرب وأن هذا الأخير حل محل مصطلح الرباط الذي كان شائعا ومتداولاً قبل القرن 6هـ/12م كما سبق القول.²

وتتميز المدرسة عن الزاوية بفروق منها:

أن الزاوية - وهي بديل متطور للرباط في العصور الأولى للإسلام - انتشرت في الجبال والسهول والواحات، حيث نمت وكتب لها الاستمرار في مناخ اجتماعي ملائم لا تتوفر لها في المدينة، أما المدرسة فهي مؤسسة علمية أنشئت أساساً في المدن.

كما أن الزاوية مؤسسة حرة بينما تصطبغ المدرسة بشكل أو بآخر بالصبغة الحكومية، فالزاوية تقوم على أساس ما يسمى بالتعليم الحر، أما المدرسة فتلتزم بالاتجاه السياسي للدولة، ومن الفوارق أيضاً، أن الزاوية تعتمد في مواردها على الأوقاف التي حبسها عليها أهل الخير، وعلى الصدقات التي تجمع من الأتباع والمريدين، سواء كانت الزوايا مرابطية أو طرقية، أما المدرسة فتعتمد في مواردها على الأوقاف التي حبسها عليها الحكام، وتديرها الدولة بشكل مباشر أو غير مباشر، ومنها أن الزاوية تضطلع - إلى جانب وظيفة التعليم - بنشاطات أخرى في مختلف نواحي الحياة، بينما تقتصر المدرسة على التعليم فقط.³

ويبدو مما سبق أن العلاقة بين المؤسسات الثلاث وطيدة من حيث الوظيفة والنظام المعماري، باعتبار أسبقية الرباط في الظهور، لتليه الزاوية ثم المدرسة التي تعتبر تطورا للزاوية وظيفياً ومعمارياً، غير أنه يرجح أن ذلك التحول كان تدريجياً وهو ما تدل عليه الربط القديمة كرباطي المنستير وسوسة بتونس⁴، مما أدى إلى اختلاط الأمر على

1. ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 33.

2. محمد حمزة إسماعيل الحداد، المدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية، مرجع سابق، ص 24.

3. مسعود العيد، حركة التعليم في الجزائر في العهد العثماني، مجلة سيرتنا، العدد 03، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، ماي 1980م. ص 69.

4. رباط المنستير بين سوسة والمهدية بني في عهد دولة العباسيين (فترة حكم الولاة ببلاد المغرب) لحماية ثغور إفريقية من الغارات البحرية التي كان يقوم بها الروم، بناه هرثمة بن أعين والي إفريقية من قبل هارون الرشيد سنة 180هـ/796م، أما رباط سوسة فهو يقع على خليج قابس، قريب الشبه برباط المنستير ولكن أجمل منه من الناحية الهندسية بناه زيادة الله ابن الأغلب

المؤرخين والدارسين، فأطلقوا اسم الزاوية على الرباط، وتساوت أسماؤهما مثلما كانت عليه الحال في زاوية سيدي شيكر المعروفة برباط شاكرا أو رباط سيدي عقبة بالقرب من مراكش¹.

وكذلك زاوية أو رباط تافراطست المرينية بمكناس²، في حين نجد أن عمارة المدرسة تتميز عن عمارة المسجد في نقاط متعددة منها الوظيفية ومنها الإنشائية التخطيطية أشارت إليها الدكتورة خيرة بن بلة في دراستها عن العمائر الدينية في الجزائر، كما تطرق إليها عديد الباحثين ممن سبقوها إلى هذا الموضوع أمثال الدكتور أحمد فكري، ومحمد الكحلأوي، وحيدر كامل وغيرهم ممن ذهب إلى اعتبار أن عمارة المدرسة الإسلامية قد تطورت حتى غلب تخطيطها على تخطيطات المساجد منذ القرن 7هـ/13م وأصبح من الصعب على أي باحث أن يفصل بين عمارتي المدرسة والمسجد، لا سيما وأن العمارتين كانتا تشملمان عادة على نفس العناصر المعمارية والتأثيرية التي اشتمل كل منهما³، ولا أن يفصل بين وظيفتيهما لأن المدرسة وإن اقتصت بتدريس علوم الدين أصلا فإنها كانت مسجدا لإقامة الصلاة، وان المسجد وان اقتص بالصلاة أصلا فإنه كان مدرسة لتدريس علوم الدين وغيرها، وجازت من ثم إمكانية إطلاق التسميتين على أي منهما، لأن المدرسة كانت قد استمدت كيانها ونظامها من المسجد الجامع الذي تطورت عمارته وعناصر تخطيطه تطورا منطقيا اقتضته أولا عملية تطور نظم البناء فيه وطريقة تسقيف إيواناته، واقتضته ثانيا إضافات بنائية استلزمها الوظائف الجديدة لهذا المسجد الجامع،

سنة 206هـ/821م، وتاريخ الإنشاء مسجل على لوحة من الرخام اعلى مدخل المنار، أنظر: أبو عبيد الله البكري، المسالك والممالك، تحقيق أدريات وأندري فيري، ج2، مؤسسة بيت الحكمة، تونس، 1992، ص32، كذلك ابن وردان، تاريخ مملكة الأغالبة، تحقيق وتعليق محمد زينهم، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988م، ص39، 40.

1. هو أول رباط إسلامي على طول المحيط الأطلسي بالمغرب الأقصى بناه شاكرا بن عبد الله الأزدي صاحب عقبة بن نافع الفهري لما غزى مدينة نفيس (أسفي) وبنى بها مسجدا سنة 62هـ، ويعرف رباط شاكرا أيضا برباط عقبة، وهو الآن يضم زاوية سيدي شيكر وبها مسجد وضريح شيكر وسيدي دحمان، أنظر أبو عبيد الله البكري، مصدر سابق، ص160، وكذا أبي العباس السبتي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد توفيق، ط2، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1997، ص51.

2. بناها يعقوب المنصور المريني سنة 684هـ/1285م، بعد رجوعه من المرور الرابع له للأندلس على قبر والده عبد الحق واخوه إدريس في رباط تافراطست بمكناسة، واللذين قتلا في معركة واجرهان سنة 614هـ/1217م ضد أبناء عمومتهم بنو عسكر وبنو رياح، أنظر: ابن أبي زرع، الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، تحقيق محمد بن أبي شنب، مطبعة جول كربونل، الجزائر 1920 ص33 وكذا عبد الله طويلب، الروابط الثقافية بين الدولة المرينية ودولة بني نصر في الأندلس القرن 7، 10هـ /

13، 16م، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة تلمسان، 2009، 2010، ص58، 59.

3. عاصم محمد رزق، مرجع سابق، ص273.

وهكذا أمكن القول أن المدرسة في العمارة الإسلامية هي المسجد الجامع الذي أقيم في حرمه بيوت لسكنى الفقهاء والدارسين ممن رتبت إقامتهم فيه، ووفرت لهم سبل البحث والدراسة وأسباب المعيشة¹، ومن أمثلة العناصر المعمارية التي تلتقي فيها عمارة المدرسة مع عمارة المسجد نجد:

أن العنصر الأول من عناصر تخطيط المسجد الرئيسية، جدار القبلة، وهو قاعدة التخطيط وبمناوبة المحور الذي يقوم عليه تخطيط المدرسة الإسلامية²، ولا تقتصر أهميته على امتداد بيت الصلاة واستطالة الصحن أو تربيعة مثل ما يحدث في تخطيط المساجد، بل إن جميع أقسام المدرسة الأخرى وبيوتها تستند عليه، فقد روعي في تخطيط المدارس جميعا وبدون استثناء، أن يكون في كل بيت من بيوتها، وفي كل قاعة من قاعاتها، جدار يوازي جدار القبلة ويعين اتجاهها³.

أما العنصر الثاني فهو بيت الصلاة الذي يحتل أهمية كبرى في المسجد ويتصدره، يمتد في موازاة جدار القبلة طولا أكثر من امتداده عرضا، ونجده يحتل نفس الأهمية في أبنية المدارس ويتصدرها وهو أكبر أبنية المدرسة مساحة، إلا أنه أصغر حجما مما هو عليه في المسجد بسبب إدخال نظام الأواوين على نظام تخطيط المدرسة، بالإضافة إلى تطور طرق تسقيف بيوت الصلاة فيها واختفاء الأعمدة والدعامات الرافعة للسقوف الخشبية، وهي التي كانت تقسم بيت الصلاة إلى أساكيب وبلاطات⁴.

فقد تطلب بناء القباب والأقبية في الأواوين أن يرتكز السقف على دعائم أو جدران ضخمة، فصغرت مساحات بيوت الصلاة من جهة وقل امتدادها من جهة أخرى في موازاة جدار القبلة⁵، بالإضافة إلى ذلك

1. أحمد فكري، مرجع سابق، ص 189.

2. أحمد فكري، مرجع سابق، ص 183.

3. نفسه، ص 183.

4. البلاطة والأسكوب من المصطلحات المتعلقة بالتخطيط الداخلي للجوامع، فالشائع والمتداول عند أغلب الباحثين أن البلاطة هي الممر أو الفراغ الموجود بين بائكتين في بيت الصلاة والممتد عموديا أو طوليا من جدار القبلة باتجاه الصحن، والأسكوب هو الممر أو الفراغ الموجود ما بين بائكتين في بيت الصلاة والممتد أفقيا أو عرضيا على جدار القبلة وموازيا له، حول الآراء المتعلقة بمهذين المصطلحين أنظر، محمد حمزة إسماعيل الحداد، المدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية، مرجع سابق، ص 42 وما بعدها.

5. يرى الباحث أحمد فكري أن هذه الظاهرة اقتضت على مدارس سوريا ومصر، وأن مدارس بلاد المغرب ظلت محافظة على نفس نظام البناء المعروف في المساجد الجامعة هناك، كجامعي الجزائر وتلمسان، وجامع القرويين بفاس وجامع الكتبية بمراكش،

زودت معظم المدارس بأضرحة مجاورة لبيت الصلاة مما اقتطع جزءا من امتداده¹، ولكنه مع ذلك بقي يتسع للقائمين في عليها²، بل ويستطيع أن يستوعب هو والصحن والأواوين أضعاف عددهم³.

أما العنصر الأساسي الثالث من عناصر تخطيط المسجد وهو **الصحن المكشوف الفسيح** فنجدته متبعا في تخطيط المدرسة ولا تخلو أية مدرسة من هذا الصحن، أو البهو كما يسميه أحمد فكري وهي تؤدي نفس الغرض الذي تؤديه في المساجد، أي إدخال الضوء والهواء، إضافة إلى استخدامها مكانا للصلاة عند الحاجة.

أما العنصر الرابع لتخطيط المسجد وهو **وجود الجنبات والمؤخر**، فقد اتبع أيضا في تخطيط المدرسة، ولكن تطور نوعا ما، فبعد أن كانت ممرات مسقوفة مؤدية إلى بيت الصلاة في المساجد تزودها بمظلات إضافية لوقاية أكبر عدد من المجتمعين فيها لأداء صلاة الجمعة، ضعفت أو زالت أهميتها بالنسبة للمدارس لأن عدد المجتمعين فيها قليل⁴، فاستبدلت بها غرف وقاعات وأواوين في المدارس، وذلك انسجاما مع طبيعة المدرسة ووظيفتها، وبالإضافة إلى ما تقدم فإن المسجد عموما يمتاز بجدران ضخمة وسميكة وعالية وكذلك المدرسة فإن جدرانها ضخمة وسميكة وعالية⁵.

كما أن مظاهر الشبه بين المسجد والمدرسة تتمثل في صلة **الضريح** بكليهما⁶ مما يبرز الطابع الديني للمدرسة وللمسجد، فمنذ منتصف القرن 5هـ/11م أدخلت على نظم المساجد مواضع لبناء أضرحة أثرت على سعة

إذ لم يدخل عليها أنظمة السقف المقبب، وظلت البوائك من عقود مرفوعة على أعمدة أو دعائم مطلة على الصحن، وحتى من الجانب التخطيطي والعناصر الرئيسية ظلت نفسها، مثلما هو عليه الحال في مدارس بني مرين في فاس (الصهريج والبوعنانية) وبالتالي تطور المسجد الجامع إلى مدرسة في بلاد المغرب، اقتصر على اقتطاع أروقة من جنبات الصحن لتزويد المبنى بغرف الطلاب، وفيما عدا ذلك احتفظت المدارس بجميع العناصر الرئيسية للمساجد الجامعة، أحمد فكري، مرجع سابق ص 195.

1. أحمد فكري، مرجع سابق، ص 184.

2. خيرة بن بلة، مرجع سابق، ص 121.

3. حول هذا الموضوع بالتفصيل أنظر أحمد فكري، مرجع سابق، الصفحة 88 وما يليها.

4. أحمد فكري، مرجع سابق، ص 185.

5. خيرة بن بلة، مرجع سابق، ص 121، 122.

6. ظهر **المجمع الديني** الذي يشمل المسجد الجامع والمدرسة والضريح والسبيل والخانقاه في العصر المملوكي، وكان الهدف من ذلك التقرب من الشعب والحصول على رضى وبركة رجال الدين، لإضفاء الشرعية والمصادقية على حكمهم واكتساب ولاء

بيت الصلاة فيها، حيث انتشر في سوريا خلال العهد الأيوبي بناء الأضرحة داخل المدارس ، أو كبناء مكمل لها، ولكن لا يشغل جزءا مهما من أجزائها¹، مثلما هو الحال في ضريح نور الدين محمود زنكي، ضمن مدرسته النورية في دمشق (563هـ/1167م)، وضريح أمين الدين مرجان ضمن مدرسته المرجانية ببغداد (758هـ/1356م)، وأصبحت ظاهرة دفن مؤسس المدرسة تحت قبة داخلها في العصر المملوكي شيئا طبيعيا²، واستمرت كذلك خلال العهد العثماني.

ومن خلال ما تقدم يتبين لنا أن الرسوم التخطيطية للمدارس كان تطورا لنظام المسجد الجامع، وأنها احتفظت بالعناصر الرئيسية لهذا النظام، فبالرغم من حالة التطور التي طرأت على الكثير من المدارس، إلا أنها بقيت تعتمد على هذه العناصر الأساسية في مخططاتها.

وهكذا يمكننا القول بأن النظام التخطيطي والمعماري للمدرسة هو مستمد أصلا من نظام المسجد الجامع، وتطورت عمارته وتخطيطه تطورا منطقيا بحكم الضرورة، وفق متطلبات المدرسة من إقامة بيوت لسكن فريق من الأساتذة والطلاب وتوفير سبل البحث والدراسة والمعيشة لهم³، كما يمكننا القول بأن المدرسة لم تختلف عن المسجد لا في بنائها ولا في وظيفتها أو الغرض منها، إلا أنها كانت أكمل وأوفى بأغراض الدراسة المتصلة بها، ووجود حجرات وغرف لسكنى الطلبة والأساتذة⁴.

الشعب، حول الموضوع أنظر، مي أحمد محمد الحواس، تأثير المذاهب على العمارة الإسلامية للمساجد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2018، ص 207.

1. مي أحمد محمد الحواس، مرجع سابق، ص 207.

2. غازي رجب محمد، وظيفة العمارة العربية الإسلامية: استجابة الشكل إلى المضمون، الفن العربي الإسلامي ج1، المداخل، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1994م، وكذا خيرة بن بلة، مرجع سابق، ص 122.

3. خالد عزب، التراث العمراني للمدينة الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، 2013م، ص 86.

4. غازي رجب محمد، مرجع سابق، ص 133.

الفصل الثاني:

تطور المدرسة ببلاد المغرب الإسلامي حتى نهاية القرن 19

أولاً. تطور المدرسة في تونس حتى نهاية العهد العثماني

1. تطور المدرسة في العهد الحفصي

2. تطور المدرسة في العهد العثماني

ثانياً. تطور المدرسة في المغرب الأوسط حتى نهاية العهد العثماني

1. تطور المدرسة في العهد الزياني

2. تطور المدرسة في العهد العثماني

ثالثاً. تطور المدرسة في المغرب الأقصى حتى نهاية العهد العلوي

1. تطور المدرسة في العهد المريني

2. تطور المدرسة في العهد السعدي

3. تطور المدرسة في العهد العلوي

رابعاً. تطور المدرسة في ليبيا حتى نهاية العهد العثماني

1. تطور المدرسة في العهد الحفصي

2. تطور المدرسة في العهد العثماني

أولاً. تطور المدرسة في تونس حتى نهاية العهد العثماني:

كانت تونس منذ الفتح الإسلامي مركزاً علمياً كبيراً، واستمرت كذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر بسقوط آخر رموز الخلافة الإسلامية في المنطقة، واشتهرت بمدارسها العلمية والفقهية منذ نهاية العهد الموحد، وبداية العهد الحفصي على غرار ما ظهر بالمشرق العربي وقد تم تأسيسها لخدمة الدعوة الموحدية ولتخريج الموظفين الأكفاء واستمر إنشاء المدارس بعد ضم تونس إلى الدولة العثمانية.

1. تطور المدرسة في العهد الحفصي:

شهدت مرحلة حكم بني حفص الممتدة من (626-981هـ/1229-1574م) ففزة كبيرة للعلم ورجالاته، بفضل رعاية الدولة لها وما أنشأت من مدارس شارك فيها المهاجرون الأندلسيون إلى تونس، ولا يمكننا أن نحصر عددها وذلك لندرة ذكرها، فقد تباينت المعلومات من مدرسة لأخرى، ويمكن إرجاع هذا إلى أهمية المدرسة أو لمؤسسها، ولكن يجمع جل المؤرخين أن أول مدرسة بنيت بالمغرب الإسلامي تعود إلى العهد الحفصي، بناها الأمير أبو زكريا يحيى الأول في تونس سنة 636هـ/1238م، وسميت بالمدرسة الشماعية¹، لتلقين تعاليم الدين الإسلامي وفق المذهب المالكي الذي عمل الموحدون على طمس معالمه² وأصبحت تلك قاعدة اتبعتها مدارس المغرب عامة، لذا قيل عن المدرسة في المغرب أنها كانت كما في المشرق مدرسة حكومية نسبية تنشر المذهب الذي ارتضته الدولة وتعد للتأهيل لكل الوظائف العامة الدينية والشرعية القضائية³.

ويبدو أن تأسيس المدرسة الشماعية قد عاصر فترة استقلال بني حفص عن الدولة الموحدية في حدود سنة 633هـ/1237م، أي بعد أن أتم أبو زكرياء بناء جامع القصبه وصومعته بتونس، وقد أسسها قرب الجامع في سوق العطارين، ولا زالت هذه المدرسة قائمة إلى الآن في زنقة الشماعين⁴.

1. انفرد ابن الشماخ بذكر مؤسس المدرسة الشماعية وهو الأمير أبو زكرياء يحيى الأول، أنظر: ابن الشماخ، الأدلة البيئية

النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تقديم الطاهر بن محمد العموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984م، ص 56.

2. Lucien, Golvin, la madarsa médiévale, Paris, p 175.

3. نجاح القابسي، المعاهد والمؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي، مجلة المؤرخ العربي، العدد 19، بغداد، 1981م ص 189.

4. ابن الشماخ، مرجع سابق، ص 56.

ومن أشهر علمائها ومشايخها أبو القاسم ابن البراء وأبو علي عمر بن قداح الهواري، وأبو القاسم القسنطيني، وأبو البحيري، ويذكر الأستاذ محمد ابن الخوجة¹ أن جراية المدرس بها في الدولة الحفصية عشرة دنانير في الشهر².

توالى بعد ذلك بناء المدارس في إفريقية (تونس) لتدريس العلوم الدينية والإنسانية كالفلسفة والمنطق والجدل والتاريخ والفرائض والأدب والتراجم منذ منتصف القرن 7هـ/13م، حتى نهاية القرن 8هـ/14م³.

وفي حوالي 647هـ/1249م، أنشأت الأميرة الحفصية عطف أم الأمير أبي عبد الله محمد المستنصر وزوجة أبي زكرياء يحي الأول المدرسة التوفيقية المعروفة بمدرسة الهواء⁴، وهي ثاني المدارس الحفصية في تونس⁵، والمدرسة ملاصقة للجامع الذي يحمل نفس الاسم، والذي بنته عطف نفسها في الطرف الشمالي للمدينة⁶ بين رجة الغنم والصور الخارجي الذي ازيل فيما بعد، وهي الوحيدة من مدارس تونس الحفصية التي بنيت بالقرب من الجدار الخارجي، ومما يؤسف له ان هذه المدرسة اندثرت مع بداية القرن 10هـ/16م عند دخول الإسبان

1. هو الباحث التونسي محمد ابن الخوجة من مواليد 1869 بتونس العاصمة، ساهم في الحياة العلمية والثقافية التونسية، عين مترجماً بالأمانة العامة للحكومة التونسية، سنة 1887م، كما كان من أبرز المؤسسين لأول جريدة عربية تونسية غير رسمية سنة 1888م، كما شارك في تأسيس الجمعية الخلدونية وكان أبرز أعضائها سنة 1896م، تقلد العديد من المناصب منها مديراً للمطبعة الرسمية التونسية من سنة 1902 إلى غاية 1915م، له إصدارات عديدة في التاريخ والثقافة منها كتاب صفحات من تاريخ تونس، وكتاب تاريخ معالم التوحيد وغيرهما، أنظر ترجمة عنه في كتاب محمد بن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي والجيلالي بن الحاج، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص 11.

2. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، ط2، تحقيق وتقديم الجيلالي بن الحاج يحي، وحمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1985م، ص 287.

3. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 57.

4. أطلق عليها هذا الاسم لارتفاع موقعها وامتيازها بهواء الجيد والنقي وقد ذكرها القلقشندي بهذا الاسم في كتابه صبح الأعشى وهو دليل على أنها اشتهرت بهذا الاسم مدة طويلة من الزمن، أنظر القلقشندي، مصدر سابق، ج5، ص 102.

5. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 397.

6. روبر بارنشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ج1، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988م، ص 386.

مدينة تونس¹، ولكن أعيد بناءها في الفترة العثمانية حسب المؤرخ ابن عبد العزيز حمودة الذي ذكر في كتابه الباشي أن الأمير علي باي الحسيني أوقف على المدرسة التوفيقية أوقافا نافعة، لما وقع في أوقافها من الاختلال² ومن شيوخها عمر ومحمد القلشاني، وابن سيد الناس الأديب الشاعر والحافظ الراوية، ومحمد بن نصر البسكري، والفقهاء والمحدث محمد الأبي شارح صحيح مسلم³، وأبو عبد الله محمد المسراقي إمام الجامع الأعظم⁴.

أما المدرسة الثالثة التي تأسست في تونس الحفصية فهي المدرسة المعرضية التي بناها الأمير أبو زكرياء يحيى بن أبي إسحاق إبراهيم في حدود سنة 683هـ/1284م مكان فندق سيء السمعة بتونس (خمارة) بإزاء دار الغوري بسوق الكتبيين، وحبس عليها حبوسا كثيرة، من ماله مع كتب نفيسة في كل فن من فنون العلم⁵.

وقد عرفت هذه المدرسة باسم آخر وهو مدرسة الكتبيين لموقعها بسوقهم، إذ ذكرها البلوي في رحلته بهذا الاسم⁶، وتحدث عنها صاحب كتاب المؤنس وقال بأنها توجد بين نهج الكتبية وسوق البلاط في الجهة المقابلة لمدرستي النخلة والباشية⁷، ويذكرها أيضا عبد الرحمن ابن خلدون فيقول: اختط المدرسة للعلم بإزاء دار الأقوري، حيث كان سكنه بتونس⁸، كما أن ابن بطوطة نزل بها وحضر دروسها، ووصفها ابن قنفذ بأنها نموذج واضح لمدارس هذه الحقبة لما تمتعت به من تأنق رائع حيث استعمل في بنائها زجاج جميل الشكل بديع المنظر، وقد ضمت مسجدا ومسكن للطلاب وأوقف عليها وفقا يغطي مصاريفها لتكون نموذجا واضحا عن مدارس

1. يذكر المؤرخ التونسي السراج الذي عاش في القرن 11هـ/17م ان المدرسة اندثرت خلال الفترة التي كان يكتب فيها موسوعته المعرفة بالحلل السندسية، أنظر: ابو عبد الله محمد السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج1، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، تونس، 1970، ص 1027.

2. ابن عبد العزيز حمودة، الكتاب الباشي، تحقيق محمد ماضور، تونس، 1970، ص 302.

3. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، مرجع سابق، ص 288.

4. محمد الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تعليق وتحقيق محمد ماضور، تونس 1966م، ص 141.

5. محمد الزركشي، مصدر سابق، ص 43.

6. خالد بن عيسى البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ج2، تقديم وتحقيق الحسن السائح، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، (د.ت)، ص 92.

7. ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط3، دار المسيرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1993م، ص 172.

8. عبد الرحمن ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص 699.

هذه الدولة¹، ويذكر الزركشي أن أبا زكرياء قد جهزها بما تحتاج إليه من الكتب النفيسة التي تتناول شتى ألوان العلم².

ومن أوائل مدرسيها أبو عبد الله محمد بن عبد الستار 718هـ/1318م، الذي كان من أشهر علماء النصف الأول من القرن 8هـ/14م وأبو عبد الله محمد الزنديوي³، كما تولى التدريس فيها أبو العباس أحمد الغرناطي صاحب كتاب "المشرق في علماء المغرب"، والذي قدم إليها من بجاية أين كان مدرسا بجامعة الكبير⁴.

ورابع المدارس الحفصية التي أسست في تونس هي **المدرسة العنقية** أو مدرسة عنق الجمل التي أسستها الأميرة فاطمة⁵ أخت السلطان أبي يحيى أبي بكر سنة 1341-1342م، وتوجد في نهج عنق الجمل الحالي في المدينة العتيقة⁶.

ومما لا شك فيه أن مدرسة عنق الجمل قد تخرج منها نخبة من العلماء، أمثال محمد الواصلي والعلامة أبو العباس أحمد السلاوي ومحمد ابن عرفة وأبو عبد الله الرصاع وغيرهم⁷، غير أن المصادر التاريخية سكنت عن هذه المدرسة ولم تذكرها، وربما يعود ذلك لأن المدرسة غير معروفة ومشهورة مثل غيرها من المدارس كالمشاعية والتوفيقية، واللذان كانتا من المدارس الأولى في عهد الدولة الحفصية، وكانت لهما عناية خاصة من قبل المؤرخين، ولم تبقى هذه المدرسة على شكلها الأول، حيث أجريت عليها تعديلات جوهرية خلال الفترة العثمانية خاصة

1. أحمد ابن قنفذ، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تقديم محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد الترك، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م، ص 155.

2. محمد الزركشي، مصدر سابق، ص 51.

3. خير الدين شترة، **الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900-1956م**، ج 1، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 680.

4. محمد الزركشي، مصدر سابق، ص 51، أنظر كذلك أحمد الغبريني، **عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق رابح بونار، الجزائر 1970، ص 301.

5. والدها الأمير أبو زكريا يحيى صاحب **المدرسة المعرضية** وأمها أملح الناس وهي رومية الأصل، وسميت مدرستها بالعنقية نسبة إلى الزقاق الذي بنيت فيه وهو زقاق عنق الجمل وسمي كذلك لطوله وانحرافه أنظر: محمد الزركشي، مصدر سابق، ص 66.

6. روبرت برنشفيك، مرجع سابق، ج 1، ص 382.

7. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 179.

في فترة حكم الداوي أحمد خوجة (1640، 1647)، الذي قام بإصلاحات جذرية عليها بسبب ما أصابها من الخراب، فكان هذا الداوي يقطن بالقرب من المدرسة ويصلي فيها أحيانا نتيجة بعده عن المسجد¹.

ويبدو أن بناء المدارس في تونس الحفصية لم يقتصر على السلاطين ونسائهم، وإنما شمل أيضا رجال السياسة وأهل العلم، فظهرت المدرسة العصفورية والمرجح أنها منسوبة إلى الشيخ ابو علي بن موسى المعروف بابن عصفور الاشبيلي (ت 666 هـ / 1267م)² صاحب كتاب "المقرب في النحو" ولم تذكر المصادر تاريخ تأسيسها بدقة يذهب ابن مامي أنها تأسست سنة 747هـ / 1342م، ودليله على ذلك اعتماده على ما عثر عليه برنشفيك من مصحف محبس على هذه المدرسة يرجع إلى هذا التاريخ³.

ومع مرور الزمن تلاشت عمارة المدرسة التي كانت تقع بزققة سوق العطارين، بين كل من معهد ابن خلدون والمدرسة الحمزية، بما يشكل مركبا تعليميا مكتملا وتابعا لجامع الزيتونة، الذي لا يبعد عنها إلا ببضعة أمتار، وقد وجدت عمارتها كليا سنة 1308هـ / 1890م وجعلت مدرسة لترشيح المعلمين، وبعدها ضمت لمعهد ابن خلدون لتدريس علوم الرياضيات والجغرافيا والنحو والصرف وغيرها وأبدل اسمها بالمدرسة الخلدونية نسبة إلى عبد الرحمن بن خلدون⁴.

لكن المصادر لم تذكر اسم أي مدرس عين بها في تلك الفترة، ويحتمل أن سبب عدم اهتمامهم بذلك كونها ليست من تأسيس السلاطين، لذلك لم يهتموا بها⁵.

والظاهر أن رجال الدولة من الأغنياء بذلوا جهدا في المشاركة في ازدهار حركة النهضة العلمية وتشبيد المدارس حيث يشير الزركشي أثناء حديثه عن وفاة الحاجب أبي عبد الله ابن تافرجين أو تافراكين (ت،

1. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 288.

2. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، مرجع سابق، ص 289.

3. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 403.

4. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، مرجع سابق، ص 290.

5. صفية ديب، التربية والتعليم في تونس الحفصية، (القرن 7، 10 هـ / 13، 16م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2011، 2012، ص 181.

766هـ/1363م) أنه دفن في مدرسته الكائنة بقنطرة ابن ساكن داخل باب السوق¹، (نحج سيدي ابراهيم حاليا) ويرجح ابن مامي أنها تأسست بعد سنة 759هـ/1356م² إضافة إلى حمام أوقفه عليها يعرف بحمام القائد بن الحكيم³.

والظاهر ان ابن تافراكين أدخل إلى بلاد المغرب عامة نوعا جديدا في نظام بناء المدارس، ذات تأثيرات مشرقية أتت عن طريق مصر والمتمثلة في دفن المؤسس بمدرسته أو مسجده، اذ عاش ابن تافراكين مدة من الزمن في الإسكندرية، ما بين سنتي 749هـ - 751هـ/1348 - 1350م وجلب معه هذا النوع من التقاليد التي لم تعرفها البلاد التونسية من قبل⁴.

ومن ناحية أخرى قام هذا الحاجب بدور مهم في الاهتمام بالعلم وتشجيع طلابه عن طريق الأوقاف العديدة التي أوقفها على مدرسته بتونس، والتي كانت مقصدا للطلاب والعلماء على سواء⁵ ومن أشهر مدرسيها، نذكر أبا القاسم البرزلي وأبا البركات محمد بن محمد بن عصفور وأبا عبد الله محمد الغافقي ومن أبرز طلابها الشيخ أبو الحسن علي العلوي الذي كان يعد من بين أولياء الله الصالحين، وكذا الشيخ أبو العباس أحمد بن سعيد بن محمد⁶.

1. يذكره الزركشي وغيره باسم تافرجين، في حين يذكره ابن خلدون باسم ابن تافراكين، وهو الوزير الحاجب أبو محمد عبد الله بن تافراكين من ذوي الجاه والنفوذ في عصر الدولة الحفصية، تقلب في العديد من المناصب حتى تولى الوزارة، عين حاجبا للسلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي سنة 744هـ ثم وزيرا لابنه أبي إسحاق ابراهيم سنة 751هـ، وساهم في الحركة المعمارية للمدارس في تونس إلى أن توفي بها سنة 766هـ/1363م، ودفن بالمدرسة التي كان قد شرع في تشييدها قبل وفاته بجوار مسكنه داخل قسبة تونس، وخصصها لجمع العلم أنظر: محمد الزركشي، مصدر سابق، ص 101، وعبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص 548.

2. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 188.

3. أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل لإفريقية والأندلس والمغرب، ج6، أخرجه جماعة من الفقهاء، بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص 98.

4. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 188.

5. كمال السيد أبو مصطفى، دراسات مغربية وأندلسية في التاريخ والحضارة، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، 2007، ص77.

6. صفية ديب، مرجع سابق، ص 182.

وازداد تشييد المدارس في تونس خلال القرن 9هـ/15م، ليتعدى عددها الستة، بناها سلاطين وقادة الدولة الحفصية، وألحقت ببعضها زوايا أو مساجد، أو أسبلت فظهر بذلك نمط معماري جديد للمدارس، هو المدرسة الزاوية، مثل مدرسة باب البحر التي شيدها أبو فارس عبد العزيز سنة 799هـ/1396م¹، وكذا المدرسة الجاسوسية نسبة للولي الصالح أبي حفص عمر الجاسوس² التي تقع بنهج باش حامبة وسط العديد من المعالم الدينية والمدرسة المرجانية نسبة للشيخ أبو محمد عبد الله المرجاني والتي تقع بدرب باب الخضراء بالربض الشمالي من المدينة القديمة والمدرسة المغربية ومؤسسها أبي عبد الله محمد المغربي³ وموقعها بنهج تربة الباي احد الممرات الرئيسية بالمدينة العتيقة.

ومما لا شك فيه أن تشريك المدارس مع الزوايا في نفس المكان دليل على حسن العلاقات بين دولة المماليك في مصر والدولة الحفصية، خاصة في عهد السلطانين المملوكي برفوق والحفصي أبي فارس عبد العزيز إذ يبدو واضحا أن هذا النوع من المباني هو من التأثيرات الشرقية عامة والمصرية خاصة⁴.

ويشير المؤرخون إلى وجود مدرسة أخرى هي المدرسة المنتصرية نسبة إلى السلطان محمد المنتصر الحفصي الذي شرع في بنائها بسوق النحاس إلا أنه توفي قبل إتمامها وأتم بناءها أخوه السلطان أبو عمرو عثمان سنة 841هـ/1437م⁵، وكان المنتصر شغوفاً بالعلم وأهله متصدقا على المؤسسات التعليمية من

1. يصفها الزركشي بأنها مدرسة وزاوية في آن واحد فيقول "في سنة 801هـ/1398م أمر السلطان بدم الفندق الذي كان بباب البحر... وأمر ببنائه زاوية ومدرسة لطلبة العلم" ويصفها ابن قنفذ بالزاوية فيقول "هدم الفندق التي كانت الخمر تباع فيه بباب البحر من تونس، وبنيت في موضعه زاوية عجيبة البناء" وهو نفس الوصف الذي ذهب إليه ابن أبي دينار إذ قال " فأبو فارس عبد العزيز قد قطع القبالة التي كانت خارج باب البحر وبنى مكانها زاوية"، وأما ابن الشماع لم يذكرها باسم المدرسة ولا الزاوية ولكن قدم وصفا بنوعية وظائف المبنى الذي يتوافق ووظائف المدرسة فيقول ".....قطعه للقبالة التي كانت خارج باب البحر وبنائه في موضعها موضعا للصلاة ولتدريس العلم وقراءة القرآن وسكنى للطلبة، وأوقف عليها وقفا مؤبدا... وجعل فيها سباطا جاريا للمقيمين بها والواردين عليها..". أنظر: محمد الزركشي، مصدر سابق، ص 116، أحمد ابن قنفذ، مصدر سابق، ص 196، ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 155، ابن الشماع، مصدر سابق، ص 145.

2. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 169.

3. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، مرجع سابق، ص 291.

4. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 409.

5. عبد العزيز لعرج، النظام المعماري لمدارس المغرب، مرجع سابق، ص 311.

مدارس وزوايا¹ وكانت هذه المدرسة تحتوي على 366 بيتا ويدل هذا العدد من البيوتات على ضخامة بنائها وكثرة عدد الوافدين عليها من الطلبة، فقد بلغت هذه المدرسة أهمية كادت تضاهي أهمية المدرسة الشماعية²، إذ وقف عليها أوقافا واسعة، ورتب بها دروسا للعلم وعين فيها شيوخا للتدريس من خيرة علماء تونس والأندلس³، نذكر منهم محمد الزنديوي، ومحمد بن عقاب، وأحمد القسنطيني قاضي الأنكحة، وأحمد القلشاني⁴ وغيرهم، ويذكر بن أبي دينار أن المدرسة تلاشت أحوالها بعد الألف، فوقع تجديد عمارتها سنة 1090هـ/1679م، وهذا التاريخ يوافق فترة حكم الأمير علي باي المرادي، غير أن هذه التجديدات لم تغير من تصميمها الأصلي وشكلها العام⁵.

والظاهر كذلك أن هناك مدارس كثيرة أخرى ظهرت في العهد الحفصي وليست لها معلومات كافية ولا مصادر شافية، سوى بعض الإشارات الطفيفة نذكر منها **المدرسة الحكيمية**⁶، نسبة إلى محمد بن علي النحوي المعروف بابن الحكيم، وممن درس فيها أحمد وهو من تلامذة ابن عرفة وابن خلدون، أخذ عنه الرصاع، له عدة مؤلفات من بينها "شرح المدونة" و"شرح على الجمل في المنطق" وله تقييد على تفسير ابن عرفة ومدرسة القائد نبيل بوقطاية الذي فرغ من بنائها سنة 850هـ/1447م، وتقع بجوار المدخل الجنوبي للقصبية، جهة حوانيت عاشوراء وممن تولى التدريس فيها إبراهيم الأخضر، وهي أول مدرسة ينجزها قائد عسكري⁷.

وخلاصة القول عن مدارس التعليم الحفصية في تونس أنها انقسمت إلى قسمين: مدارس ذات طابع رسمي وأخرى يمكن أن نعتها بكونها خاصة أو حرة، فالأولى أسست من قبل أشخاص ينتمون إلى النظام

1. ابن الشماع، مصدر سابق، ص 120.

2. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 198.

3. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، مرجع سابق، ص 295.

4. ابن الشماع، مصدر سابق، ص 727، محمد الزركشي، مصدر سابق، ص 136، محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد

في القديم والجديد، مرجع سابق، ص 295، محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 202.

5. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 204.

6. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 407.

7. نسبة إلى قائد جيوش السلطان أبي فارس عبد العزيز، إذ كان يصاحبه في حروبه، وكان أبو فارس يعول عليه في أمور كثيرة، فعمل قائدا لجيوشه عند محاصرته لتلمسان سنة 834هـ/1430م، كما عمل مع السلطان المنتصر الحفصي أين عينه على حماية مدينة قسنطينة أنظر: محمد الزركشي، مصدر سابق، ص 129، 133.

الحاكم كالسلاطين والأمراء والأميرات، أما الثانية فهي مؤسسة من قبل بعض الخواص، من بينهم بعض المتصوفين وقواد الجيش وغيرهم¹، كما أنها تنوعت من حيث تعدد الخدمات المقدمة لطلبتها في ذلك العصر وأنها كانت تضاهي ما تقدمه الجامعات والمعاهد في عصرنا الحال، وهذا ما يدل على درجة الرقي والتحضر التي وصلت إليها الحياة العلمية والثقافية بصفة عامة.

كما نجد أيضا تأثيرات مشرقية في هندسة بعض المدارس الحفصية، كالشماعية والعنقية والمنتصية المتمثلة في وجود إيوانين في كل من شماعية والعنقية وثلاثة أواوين في المنتصية، ومما يذكر عن تلك المعالم العلمية أنه لم تبق أية مدرسة من تلك المدارس الحفصية على حالها القديمة إلى الآن، والمدارس التي تمكنت من اجتياز القرون بسلا، وهي شماعية والتوفيقية والعنقية والمنتصية، قد رمت بنائها وكماها في العصور الحديثة². لم ينصب اهتمام السلاطين الحفصيين ببناء المدارس بمدينة تونس فحسب، بل قاموا على نشرها في طول البلاد وعرضها وفي سائر الأمصار الإفريقية التابعة لها، مثل الجريد وباجة والكاف وسوسة وصفاقس والقيروان والمهدية والمنستير وغيرها³ التي تعتبر من المراكز الكبرى في المغرب منذ القرن 7هـ/13م⁴.

2. تطور المدرسة في العهد العثماني:

شهد القرن السادس عشر الميلادي في تونس تفكك الوحدة السياسية للدولة الحفصية، وهذا التّفكك لم ينعكس فحسب على مستوى تقلص نفوذ الدولة جغرافيا، بل يكاد يحصل إجماع حول حقيقة التدهور الفكري بحالة التفكك الداخلي من جهة، وبتأثير التدخّل الإسباني المسيحي من جهة أخرى، ومع مجيء العثمانيين وضع حد لحالة عدم الاستقرار، فمنذ عام 982هـ/1574م ألحقت تونس بالخلافة العثمانية بشكل رسمي⁵، فعرفت تونس معطيات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية جديدة.

1. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 284.

2. روبرت برنشفيك، مرجع سابق، ج1، ص 387.

3. الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1967م، ص 76.

4. صفية ديب، مرجع سابق، ص 184.

5. استطاعت الجيوش العثمانية بقيادة والي الجزائر سنة 1569 م، دخول تونس وطرد السلطان الحفصي منها، لكن الإسبان اغتتموا الوضعية الناجمة عن انتصار ليبانت (Lépante) على الأسطول العثماني فاستولوا على تونس من جديد بقيادة شقيق ملك إسبانيا دون جوان النمساوي (Don Juan D'Autriche) في صائفة 1573م، وأقاموا فيها حكما مشتركا إسبانيا حفصيا، ودامت تلك الوضعية الشاذة في نظر المسلمين في ذلك العصر عشرة أشهر حتى قدوم الأسطول العثماني بقيادة

ففي عهد الدايات¹، انتعشت الحياة الثقافية وخرجت شيئاً فشيئاً من حالة الجمود والسبات التي أدخلتها فيها أزمة القرن 10هـ/16م، فنشطت الدراسات الدينية بتونس وبمختلف جهات البلاد كالقروان وسوسة وصفاقس، وكثر عدد العلماء من مالكية محليين ومن المنتمين إلى المذهب الحنفي، هذا المذهب الجديد الذي جاء به العثمانيون وأصبح أحد رموز العلم بتونس².

وقد تعزز هذا المذهب بتوفير المراكز والمؤسسات لنشره وتعليمه، إذ عمل الدايات على تجديد المدارس الحفصية القديمة كالمدرسة الشماعية والعصفورية وغيرها³، كما شهدت الفترة ظهور بعض المدارس الجديدة في مناطق مختلفة أهمها المدرسة اليوسفية بسوق البشامقية في مدينة تونس في عهد يوسف داي (1610م-1019هـ/1637-1047هـ) وكان الشيخ رمضان أفندي أول من درس بها، وأول من أفتى فيها بمذهب الإمام أبي حنيفة سنة 1611م، كما درس بها الكثير من العلماء والمشايخ الذين لهم قيمة علمية لا يستهان بها، بحكم أنها أول مدرسة حنفية أسست في تونس لذلك أهتمت بها جل المصادر التي عاصرت الفترة، فيذكرها ابن أبي دینار بقوله "...أيام يوسف داي، (1610 - 1637م)..... بني الجامع المشهور به، وجعل إمامه من الطائفة الحنفية، وبني الجامع بإزائه مدرسة تعرف به... وبها مدرس من مذهب الإمام أبي حنيفة"⁴، إضافة إلى ذلك تعتبر اليوسفية من بين أكبر المدارس العثمانية في تونس إذ بلغت مساحتها الإجمالية حوالي 657م²،

سنان باشا الذي استرجع تونس، فوضع بذلك حدا لحضور الإسبان بتونس وللدولة الحفصية بإفريقية في سبتمبر 1574م، انظر: محمد عبد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، ط3، تعريب محمد الشاوش، ومحمد عجيلة، دار سراس للنشر، تونس 1980م، ص 66.

1. عهد الدايات في تونس من أواخر القرن 16م ومنصف القرن 17، كان فيه الدايات وهم ضباطا من أصل تركي، قد استولوا على الحكم بفضل عسكر الإنكشارية، أو كتل منه وأصبحوا يفرضون سلطتهم على الممثلين الرسميين للحكم العثماني بتونس مثل الباشا، أبرزهم عثمان داي ويوسف داي، أنظر محمد عبد الهادي الشريف، مرجع سابق، ص 70.

2. محمد عبد الهادي الشريف، مرجع سابق، ص 76.

3. حسين خوجة، ذيل بشارت أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1975م، ص 47.

4. ابن أبي دینار، مصدر سابق، ص 194.

ذات شكل شبه مربع، رغم التجديدات والترميمات الكثيرة التي أجريت عليها فقد حافظت على تخطيطها الأصلي حتى السنوات الأخيرة أين تم تجديدها كلياً¹.

كما تعتبر المدرسة الأندلسية من أوائل المدارس التي أنشئت في تونس في العهد العثماني، غير أنها لم تكن مبادرة من الدولة وإنما من جالية معروفة بارتفاع مستواها الثقافي والاجتماعي، وعلى رأسها نقيب شرفائهم أبو الحسن علي بن عبد الله النوني المعروف بابن السراج بمشاركة محمد بن محفوظ الشريف ومحمد بن عبد الكريم وكانت تسمى أيضاً باسم مدرسة الشيخ شعبان الأندلسي، وكذا مدرسة الفتح، كما عرفت كذلك بمدرسة سيدي العجمي، نسبة إلى تربة سيدي العجمي القريبة منها².

وقد أعقبت فترة حكم الدايات، بفترة حكم البايات عندما تمكن أحد البايات وهو مراد باي من تولي الحكم عام 1637م، والتي اعترفت به الدولة العثمانية ومنحته لقب الباشا³ ونجح في تأسيس أسرة حاكمة تحمل اسمه "المرادية" التي ظلت تتوارث حكم تونس حتى عام 1702م⁴.

كانت الفترة المرادية⁵ نقطة تحول كبيرة في تاريخ تونس الحديثة وأحوالها السياسية، والاجتماعية والاقتصادية، خاصة فيما أصبح يعرف بالجهاد البحري، الذي تبنته الجزائر وتونس في حوض البحر المتوسط، وكان لهذا

1. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 219.

2. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، مرجع سابق، ص 297.

3. الباشا، لقب فخري في الدولة العثمانية يمنحه السلطان العثماني لحكام الولايات، على رتب متعددة عسكرية ومدنية منذ النصف الثاني من القرن 19م، أنظر: مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب، القاهرة، 2000م، ص 52.

4. أحمد زكرياء الشلق، العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة 1916-1516م، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2002، ص 133.

5. المراديون، أسرة حاكمة في تونس ما بين 1631م و1702م، تنسب لمؤسسها مراد بك الكورسيكي الذي كان يدعى جاك سانتي عندما كان في دين النصرانية، ولما اعتنق الإسلام تمذهب بالمذهب الحنفي، تولى الحكم من سنة 1612م وارتقى لمنصب الباشا، وجعل منصبه وراثياً في أفراد أسرته، الذين تسموا كلهم بلقب مراد تيمنا باسم السلطانين العثمانيين المعاصرين لتلك الفترة، مراد خان الثالث ومراد خان الرابع، أنظر: محمد بن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، مرجع سابق، ص 48.

التحول أثره في الجانب الثقافي الذي شهد تراجعاً كبيراً إذا ما قورن بما كانت عليه أيام الحفصيين، وذلك ربما راجع لانشغالات القادة بالفتن الداخلية والحروب الخارجية.

وعلى الرغم من أن المراديين كان اهتمامهم الأكبر بالمجال السياسي والعسكري، إلا أنهم لم يغفلوا عن الوضع التعليمي بالإيالة، فشيّدوا عدداً كبيراً من المدارس في تونس وجربة وقابس وغيرها من المدن، خاصة في عهد محمد باي ابن مراد باي الثاني (1086هـ/1675م)، أين انتعشت الحركة المعمارية للمدارس وانتعش معها الاهتمام بالعلم والدين، وفي هذا يصف ابن أبي الضياف أهم مآثر هذا الباي العلمية فيقول: "...ومنها مدرسة للعلم، والمسجد بالكاف، ومدرسة الجامع للحنيفة بباجة، والمدرسة والمسجد بقفصة، ومدرسة بتوزر، ومدرسة بقابس مجاورة لمقام السيد الصحابي أبي لبادة الأنصاري رضي الله عنه، ومدرسة وجامع للحنفية بالقيروان، بناهما أيام تخليه بها، وأوقف على آثارهم أوقافاً نافعة"¹.

كما قام مراد باي الثاني بن حمودة باشا بن مراد (1662، 1675م)، بتهديم فندق كانت تقطنه طائفة من جند الترك بسوق القماش في قسبة تونس، غربي جامع الزيتونة، وشرق المدارس الثلاث السلিমانية والنخلة والباشية²، وابتنى مكانه مدرسة سميت بالمدرسة المرادية سنة 1673م³ وحبسها على المالكية، وعين عليها الشيخ محمد بن شعبان⁴، كما سميت هذه المدرسة التي لا تزال قائمة إلى اليوم باسم مدرسة التوبة لأنها كانت مسكننا للجنود قبل بنائها يقع فيه الفجور، فغير مراد باي رسمها الأول وجعلها لتلاوة كتاب الله والعلم، وبها مدرس وعدة بيوت للطلبة القاطنين بها ولهم فيه مرتبات⁵.

1. أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان في أخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ط2، ج2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1977، ص 77.

2. مدارس السلیمانية والنخلة من النماذج التي تناولناها بالدراسة الأثرية المفصلة في الفصل الرابع من هذا البحث بالإضافة إلى المدرسة المرادية بقابس، ومدرسة جامع الجديد بمدينة تونس.

3. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، مرجع سابق، ص 299.

4. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 244.

5. ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 248.

بانقضاء العهد المرادي، يظهر الحسينيون¹ على الساحة السياسية في نفس ظروف من سبقهم، وبتبعيتهم لسلطة الباب العالي، وتستمر معهم المدرسة في الظهور والتطور، لتضرب موعداً مع أول البايات الحسينيين، الباي حسين بن علي الذي بدأ حكمه سنة 1117هـ/1705م ببنائه لثلاث مدارس داخل الحاضرة تونس وأخرى خارجها، وكانت أول مدرسة أسسها هي المدرسة الحسينية الصغرى المعروفة بمدرسة ساباط العجم سنة 1710م²، في منطقة تربة الباي بمقربة من دار أسطا مراد باي تونس، ومقابلة للمدرسة الحسينية الكبرى التي أسسها علي بن حسين بن علي.

ويذكر أحمد بن أبي الضياف - المؤرخ الذي عاش في الفترة الحسينية - أنه رأى في رسم وقفيتها أن حسين بن علي اشترى داراً وطاحونة وداراً لصنع الصابون، قرب دار الباي أسطا مراد وهدمها جميعاً وبنى مكانها هذه المدرسة والتربة المجاورة لها، وجعل للمدرسة 10 بيوت وحبسها على الطلبة المالكية الواردين عليها، وشيخ عليهم الفقيه المفتي أبا عبد الله محمد جعيط³.

وثاني مدرسة بناها حسين بن علي في مدينة تونس، هي مدرسة النخلة في الجهة الجنوبية الشرقية من جامع الزيتونة سنة 1714م⁴، بعد فترة وجيزة من بنائه للمدرسة الحسينية الصغرى، وذلك بنهج الكتبيين، في نفس المكان الذي كانت فيه المدرسة المعرضية التي بناها الأمير الحفصي أبو زكرياء يحيى بن إسحاق، وقد استمدت اسمها من وجود نخلة في المكان الذي تأسست فيه⁵.

1. الأسرة الحسينية تنسب إلى مؤسسها الحسين بن علي، الذي حكم ما بين 1705م و1735م، واستمر حكم الحسينيين إلى غاية إعلان قيام الجمهورية التونسية في 25 جويلية 1957م، في فترة زمنية امتدت ما يربو عن القرنين ونصف، من أشهر حكامها، محمد الرشيد باي (1756.1759م)، وحسين باي الثاني (1824.1835م)، ومحمد الأمين باي (1934-1957)، أنظر حمادي الساحلي، *فصول في التاريخ والحضارة*، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م، ص 142.

2. اختلفت المصادر والمراجع في ذكر المدرسة الأولى التي بناها حسين بن علي، فمنهم من يرى أن الحسينية الصغرى هي أول مدرسة، ومنهم من يذهب إلى أن مدرسة النخلة سبقت زمنيًا بناء الحسينية الصغرى، للاطلاع على هذه الآراء وأصحابها وحججهم أنظر: محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 260، 261.

3. أحمد بن أبي الضياف، مصدر سابق، ص 125.

4. Ahmed Saadaoui, *Tunis, ville ottomane, trois siècles d'urbanisme et d'architecture*, Centre de Publication Universitaire, Tunis 2001, p 142.

5. محمد بن الخوجة، *تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد*، مرجع سابق، ص 307.

رغم أن النخلة أصغر من المدرستين المحاذيتين لها، الباشية والسليمانية، فهي تغطي مساحة تقدر بحوالي 520م²، وتشبه واجهتها واجهة المدرسة المرادية، إذ تحتلها بعض الدكاكين التي كانت محبسة عليها، التي أول من اشتغل بالتدريس فيها كان العلامة أبو عبد الله محمد بن محمد الحضراوي سنة 1126هـ/1714م¹.

وآخر المدارس الثلاث التي أسسها حسين بن علي في مدينة تونس العتيقة هي مدرسة الجامع الجديد بنهج الصباغين، وتشكل جزءا من مركب معماري يتكون بالإضافة لها من جامع وتربة، وهذه المدرسة هي الوحيدة التي تحتل صحن الجامع، حيث أن هذين العنصرين مستقلان عن بعضهما بالنسبة لبقية الجوامع والمدارس المحاذية لها، وهي تعد بذلك مثالا فريدا ونوعا خاصا في هذه المدينة².

ويذكر صاحب بشائر أهل الإيمان أن مدرسة الجامع الجديد قد تأسست عام 1136هـ/1723، وأن أول صلاة بجامعها كانت صلاة ظهر يوم الأحد 14 شعبان 1139هـ/16 أفريل 1727م³، وقد أطلق عليها اسم الجامع الجديد مجاورتها له واشتراكها معه في نفس البهو، أقيمت على أرض كان بها ثلاث خمارات هدمها، وبني مكانها دورا للسكن، بالإضافة إلى الجامع والصومعة والمدرسة والتربة التي أعدها لنفسه⁴، وكان من بين أوائل المدرسين فيها الفقيه أبا العباس أحمد المعروف بيرانار صاحب كتاب الشهب المحرقة⁵، كما قام حسين بن علي بإنشاء مدارس أخرى خارج الحاضرة تونس، منها مدرسة بصفاقس، وأخرى بالقيروان، ونفطه، وسوسة وفي هذا الصدد يقول شارل أندري جوليان "...وأعلى حسين الباي سور القيروان وأعطاه شكله الحالي، وبني عدة مدارس" ⁶.

1. حسين خوجة، مصدر سابق، ص 56.

2. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 279.

3. حسين خوجة، مصدر سابق، ص 57، 58.

4. حسين خوجة، مصدر سابق، ص 58.

5. محمد سعادة، قرّة العين بنشر فضائل الملك حسين، مخطوط غير منشور بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم 7129،

الورقة 75، كذلك حسين خوجة، مصدر سابق، ص 93.

6. شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ج2، ص 382.

بعد فترة حكم حسين بن علي استولى على السلطة ابن أخيه علي بن محمد باشا¹ المعروف بعلي باشا الأول (1153هـ-1740م/1169هـ-1756م)، الذي لأسس بمفرده أربع مدارس هامة في مدينة تونس، وهي المدارس المعروفة باسم المدارس الباشية، خصص معظمها لطلبة العلم على المذهب المالكي². وأول مدرسة أسسها هذا الباي هي **المدرسة العاشورية**، التي استمدت اسمها من الحي الذي تقع فيه بتونس العاصمة والمسمى **بجي حوانيت عاشوراء**، في القسم الجنوبي الشرقي لموقع مدرسة ابن تافركين، كان ذلك عام 1160هـ/1746م³.

وتعد هذه المدرسة من اجمل المدارس التي بناها علي باشا الأول، وأكبر المدارس الموجودة في تونس على الإطلاق إذ تبلغ مساحتها 900م²، تشتمل على مدخل فسيح ومصلى وميضأة، ويبلغ عدد غرفها 24 غرفة كانت مخصصة لإقامة الطلبة، أضيفت إليها بعض الغرف في إطار عمليات التوسعة في الطابق العلوي، ولعل خاصية هذه المدرسة أنها الوحيدة من بين مدارس تونس العاصمة التي توجد بها مئذنة بطرازها المغربي الأندلسي⁴، كما رتب فيها الباي كتاب وخزانة للكتب بها أكثر من 353 مخطوط، مع أوقاف كافية للقيام بشؤون المدرسة⁵، وأول من تولى التدريس بها هو الشيخ أبا محمد عبد السوسي سنة 1763م وبقي مدرسا بها

1. **ثار علي باشا على عمه حسين بن علي** سنة 1140هـ/1727م مما أدى قيام حرب أهلية، كانت بدايتها لصالح حسين بن علي، مما دفع علي باشا باستنجد بالجيش الجزائري الذي تدخل ورجح الكفة لصالح علي باشا فاستولى على مدينة تونس سنة 1735م، ولم تنتهي الحرب إلا بعد موت حسين بن علي سنة 1740م، ثم ما لبث أن حدثت عداوة بين علي باشا وباي قسنطينة، هاجم علي إثرها جند الجزائر البلاد التونسية لمؤازرة أبناء حسين بن علي، ولما تمت لهم الغلبة، قبض علي علي باشا وسلم لباي قسنطينة الذي أمر بقطع رأسه في آخر ليلة من ذي الحجة سنة 1169هـ/1756م، وتعيين محمد بن حسين بن علي بايا على تونس، بالنسبة لهذه الحوادث وما جرى في الحرب الأهلية الحسينية أنظر: محمود مقيدش، **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، ج2، تحقيق علي الزواوي، ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م، ص160 كذلك، الصغير بن يوسف، **المشروع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي**، ج1، تقديم وتحقيق أحمد الطويلي، منشورات دار بوسلامة، تونس، 1998م، ص34 وما بعدها.

2. أحمد بن أبي الضياف، مصدر سابق، ص382.

3. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص307.

4. نفسه، ص307.

5. محمد بن الخوجة، **تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد**، مرجع سابق، ص313.

حتى فترة حكم الباي علي بن حسين بن علي¹، بالإضافة إلى العاشورية شيد الباي علي باشا عام 1166هـ/1752م مدرسة ثانية تحمل اسمه هي المدرسة الباشية، حبسها على طلبة المذهب الحنفي وهي تقع بنهج الكتبيين بمحاذات مدرستي النخلة والسليمانية، إذ تمثل هذه المدارس مع بعض كتلة معمارية متلاحمة ويقابلها حمام القشاشين².

تحتوي هذه المدرسة على 13 بيتا لسكنى الطلبة الحنفية القاطنين بتونس أو الوافدين عليها من الآفاق³، وأول من درس بها الشيخ أبو القاسم محمد المحجوب الحنفي ومن بعده محمد بن حسين بيرم⁴. كما تحتوي المدرسة على مسجد هو الأكبر، قياسا بمساجد مدارس الفترة العثمانية في تونس وربما السبب في ذلك حسب المؤرخ التونسي الصغير بن يوسف، أن علي باشا أنجز الضريح والمدرسة والجامع⁵، ومن الممكن أن هذا المسجد أستعمل للصلاة من قبل أهل الحي القاطنين قرب المدرسة.

تحولت وظيفة المدرسة الباشية منذ تأسيسها سنة 1752 من مدرسة للتعليم إلى مبيت لطلبة جامعة الزيتونة، حيث كان يقيم بها الطلبة ويتقاضون منحا من أوقافها⁶، وبعد إلغاء التعليم الزيتوني بعد الاستقلال تم غلق المدرسة الباشية، ثم وقع ترميمها في ثمانينات القرن العشرين بمساعدة وزارة التكوين المهني والتشغيل التي جعلت بها مركزا للتعليم المهني إلى يومنا هذا.

بعد مضي سنتين أسس علي باشا مدرسة أخرى بين سوق الكتبية وسوق القشاشين أطلق عليها اسم المدرسة السليمانية تخليدا لذكرى ابنه سليمان الذي قتله اخوه بالسهم، وكان ذلك سنة 1168هـ/1754م⁷، أي قبل سنة فقط من إبعاده من الحكم وقتله من قبل باي قسنطينة حسين بن زرق عينو، المدرسة ملاصقة لضريح علي باشا ولا يربط بينها وبين المدرسة الباشية إلا جدارها الجنوبي، وتضم قاعة للصلاة مزينة ببذخ

1. محمود مقيدهش، مصدر سابق، ص 162، 163.

2. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، مرجع سابق، ص 316.

3. نفسه، ص 318.

4. أحمد بن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 7، ص 16.

5. الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ص 241.

6. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، مرجع سابق، ص 318، 319.

7. نفسه، ص 320.

و18 غرفة للطلاب جاءت في أبي حلة، يذكر الصغير بن يوسف أن علي باشا حبس عليها أملاكاً وعقارات ما يكفيها ويكفي شيخها وطلبتها¹.

وأول من تولى التدريس في السلیمانية أبو عبد الله محمد بن خليفة الغرياني وفق المذهب المالكي، كما يفيدنا ابن الخوجة أن الشيخ أحمد بن حسين القمار تولى التدريس بها خلال القرن 13هـ/19م².

وقد كانت المدرسة مبيتاً للطلبة القادمين من كل حدب وصوب من تونس ومن خارجها للدراسة في جامع الزيتونة، ومن أقاموا بها العلامة بن باديس والبشير الإبراهيمي والعربي التبسي، عند دراستهم في الجامع على يد شيوخه، أمثال الشيخ محمد المكي بن عزوز صاحب كتاب "عقيدة التوحيد الكبرى"، وكانت تُعطى لهم مجاناً من أحباس أهل الخير والبر والإحسان³.

آخر مدرسة أمر ببنائها علي باشا الأول هي مدرسة بئر الأحجار، التي توفي قبل إنجازها، فأتمها صهره رجب بن مامي سنة 1170 هـ / 1756م⁴، وتوجد حالياً بنهج الباشا قبالة نّحج الحفصية وتعد المدرسة الوحيدة بالجهة المذكورة بعد أن أصبح نّحج الباشا في الفترة الحسينية أحد الممرات الرئيسية للمنطقة، وهناك تشابه كبير بين مداخل العاشورية والحسينية الكبرى وبئر الأحجار.

من أبرز التلاميذ الذين درسوا بمدرسة بئر الأحجار أحد أهم أعلام تونس في القرن 19م، ألا وهو الشيخ إبراهيم الرياحي الذي قدم إلى مدينة تونس من بلدة تستور في بداية ذلك القرن، ودرس بمدرسة حوانيت عاشور أولاً ثم انتقل منها إلى مدرسة بئر الأحجار⁵.

1. الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ص 441.

2. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، مرجع سابق، ص 320.

3. مازن صلاح مطبقاني، عبد الحميد بن باديس، العالم الرباني والزعيم السياسي، ط2، دار القلم، دمشق، 1999م، ص31.

4. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، مرجع سابق، ص 320.

5. Ahmed Saadaoui, Op. Cit, p 181.

وتظهر أهمية المدرسة ومكانتها من خلال المطالب العديدة التي كان يتقدم بها الشيخ للحصول على منصب مدرس بالحسينية الكبرى، ولتعيين أحدهم وجب إجراء مناظرات بين العديد منهم، رغم أن المصادر لا تذكر إلا أسماء قليلة ممن تولى التدريس فيها¹.

ويبدو أن علي باشا الثاني قبل وفاته تخلى عن الحكم لابنه حمودة باشا (1196، 1228هـ/ 1782، 1814م)²، الذي بنيت في عهده المدرسة الطابعية، بالتزامن مع الجامع الذي يحمل اسم مؤسسه الوزير يوسف خوجة³ الملقب بصاحب الطابع، والذي بناها سنة 1808م، وتعتبر آخر المدارس الكبرى التي أنشأت في الفترة الحسينية بمدينة تونس، ويوجد هذا المركب الديني التعليمي بنهج سيدي العلوي، قرب منزل المؤسس يوسف صاحب الطابع، وفي نفس المنطقة عدة مؤسسات دينية أخرى، كالزاوية البكرية شمالا، وزاوية سيدي شيحة غربا، وزاوية وسبيل سيدي عبد السلام جنوبا.

من أوائل من تولى التدريس بهذه المدرسة الشيخ محمد الفاسي، والشيخ إبراهيم الرياحي، وممن قطن بها الأديب محمد العروسي المطوي، وآخر من أسندت إليه إدارتها في الخمسينات الشيخ عمر شاشية الذي اشتغل واليا على القيروان ونابل⁴.

1. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 372، 374.

2. أحمد بن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص 11، 88.

3. اشتراه والي صفاقس من إسطنبول وأهداه للباي حمودة باشا في يوم مبايعته بالحكم، وكلفه سيده بمهمة طبع المكاتب لهذا اشتهر باسم صاحب الطابع، تصفه المصادر بأنه كان تقيا عفيفا ذو أخلاق عالية، محبا للعلم والعلماء والصالحين، ومن أهل البر والمعروف، وبغض النظر عن بناءه للمدرسة والجامع المذكورين، أسس العديد من المنشآت الأخرى منها مخازن وحمامات، كما أعاد بناء الجامع المعروف بجامع العبيدي وأحدث به صومعة كما بنى العديد من الكنائس القرآنية، وبنى أيضا قنطرة على واد مجردة، وبرج باب الخضراء ومارستان للمرضى بصفاقس، ما جعل ذكره خالدا بين أهالي تونس إلى اليوم، أنظر: أحمد بن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 89.

4. أحمد بن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص 88.

ثانيا. تطور المدرسة في المغرب الأوسط حتى نهاية العهد العثماني:

كان للنهضة الفكرية التي عرفتها المغرب وتونس أثرها على الجزائر، حيث شهدت هذه الأخيرة منذ العهد الزياني اهتماما كبيرا بالعلماء، وتجسد ذلك في بناء وتشبيد مدارس عبر جل حواضرها، واستمر الأمر كذلك في عهد العثمانيين وعلى نطاق أوسع.

1. تطور المدرسة في العهد الزياني:

لم يدخر ملوك الزيانيين جهدا في الظهور بمظاهر الحكام المولعين بالعلم والمقدرين للعلماء، وترجم اهتمامهم ذلك ببناء بعض المدارس، وبعث الحياة الفكرية والثقافية والدينية على مذهب الإمام مالك¹ حتى أصبحت تلمسان - كما يقول ابن خلدون - قبلة طلبة العلم ومقصدتهم².

وقد بزرت في الفترة الزيانية والمرينية مدارس حظيت بشهرة كبيرة، منها خمسة بتلمسان وأخرى ببجاية وقسنطينة، وهي مزدانة بزخارف الفسيفساء³.

وتلمسان باعتبارها عاصمة الزيانيين ومستقر أمرائها وسلاطينها، قد حظيت بنصيب أوفر، وبقيت أكبر، واهتمام أبلغ في مجال العلم ومراكزه، فكان تأسيس أول مدرسة بها في عهد السلطان أبي حمو موسى الأول الزياني (707 . 718 هـ / 1308 . 1318 م)، سنة 710 هـ / 1310 م⁴، عين للتدريس فيها ابني الإمام أبي زيد عبد الرحمن (ت 183 هـ / 1382 م) وأبي موسى عيسى (ت 187 هـ / 1387 م)، وهما من قرية برشك قرب

1. المذهب المالكي، نسبة لمالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، ولد بالمدينة المنورة ودفن بالقيع، (-93 179 هـ / 795-711 م)، وهو فقيه ومحدّث مسلم، وثاني الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب المالكي في الفقه الإسلامي، اشتهر بعلمه الغزير وقوة حفظه للحديث النبوي وتنبه فيه ويُعدُّ كتابه "الموطأ" من أوائل كتب الحديث النبوي وأشهرها وأصحّها، أنظر الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق، ج 22، ص 120.

2. عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر، مصدر سابق، ص 50.

3. مسعود العيد، مرجع سابق، ص 65.

4. أحمد أبو جعفر البلوي، مرجع سابق، ص 265.

تنس، فصارت تعرف باسمهما، أي مدرسة أولاد الإمام، كما عرفت باسم المدرسة القديمة، وكان موقعها بالقرب من باب كشوط¹ غرب مدينة تلمسان².

يذكر المستشرق الفرنسي بروسلار، Brosselard أن الأمير الزياني كان يكلف الأخوين بمهام دبلوماسية تكلفت بالنجاح، فبني لهما مدرسة، ومنازل خاصة لهما ولعائلتهما وقاعات كبيرة لاستقبال الطلبة والضيوف، والحق بالمدرسة مسجدا للصلاة وزاوية للطلبة الأجانب عن تلمسان شكرا لهما وكان ذلك في السنة الرابعة من ملكه³.

وبعد مدرسة "ابني الإمام" السالفة الذكر، جاء دور المدرسة التاشفينية التي أسسها الأمير الزياني أبي تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو موسى الأول ما بين سنتي (718-737هـ/1318-1336م) وهي بذلك ثاني مدرسة زيانية أسست بالمغرب الأوسط⁴، وسميت بالمدرسة الجديدة تمييزا لها عن مدرسة أولاد الإمام الأقدم منها⁵.

ورغم أن المصادر التاريخية لا تتعرض بالتفصيل لظروف تأسيس المدرسة التاشفينية، إلا أن هناك إشارات في البعض منها، مثل كتاب تاريخ بني زيان ملوك تلمسان لأبي عبد الله محمد التنسي، الذي ذكر موقعها بجوار جامع أغادير⁶ الذي أسسه إدريس الأول خلال النصف الثاني من القرن 2هـ/8م، وكتاب نفع الطيب للمقري

1. كان لمدينة تلمسان خمسة أبواب رئيسية معروفة، شيدت على جانبي كل واحدة منها مراكز حراسة على شكل أبراج صغيرة مربعة الشكل لمراقبة حركة الداخلين إلى المدينة والخارجين منها وكذلك الضواحي والأماكن المجاورة والأراضي الزراعية القريبة منها يذكر يحيى بن خلدون هذه الأبواب فيقول: "للمدينة خمسة أبواب قبلة باب الجياد، وشرقا باب العقبة وشمالا باب الحلوي وباب القرمدين وغربا باب كشوط، أنظر يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق.

2. يحيى بن خلدون، بغية الرواد، مصدر سابق، ج1، ص، 132.

3. Brosslard (Charles), « les inscriptions Arabes de Tlemcen » (revue Africaine ,1859 ou 1862).

4. المقري، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ج5، دار صادر، بيروت، 1388هـ/1968م ص.223-224.

5. عبد العزيز لعرج، النظام المعماري لمدارس المغرب، مرجع سابق، ص 91.

6. بو عبد الله محمد التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعباد، الجزائر، 1985، ص 141.

الذي وصفها بأنها من بدائع الدنيا¹، لذا تعد المدرسة التاشفينية من أفخم وأهم المدارس في المغرب الأوسط حسب ما ذكره المؤرخون، حيث جهّز أبو تاشفين لبنائها أمهر البنائين، وكان يوم افتتاحها يومًا مشهودًا حضره السلطان و أعيان و مشايخ تلمسان وأدباءها، وظلّت هذه المدرسة تؤدّي وظيفتها التعليمية طيلة العهد الزياني²، إلى أن هُدمت عام 1875م، من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي، لكن قبل التدمير قام المهندس Duthoit مع الرسام Danjoy بالرفع المعماري والفني، حيث رسمت لها بعض من فسيفسائها، وإحدى واجهاتها.

ويعتبر تخطيط المدرسة التاشفينية ذو ميزة لا تشاركه فيه أية مؤسسة أخرى، فهو فريد من نوعه حتى في المغرب الإسلامي، وإذا كان هناك من تخطيطات لبيوت الصلاة في المدارس المرينية في فاس قريبة الشبه بتخطيط المدرسة التاشفينية فهي مدرسة أبي الحسن في سلا، فان تنظيمها المعماري يختلف عن أي تنظيم لأي مدرسة مرينية أخرى³.

وفي عهد أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ/1358-1388م) بنيت المدرسة اليعقوبية الزيانية ما بين سنتي (763-765هـ/1361-1365م)⁴، وسمّاها اليعقوبية تخليدًا لذكرى والده أبي يعقوب يوسف، الذي كان حاكمًا بمدينة الجزائر و المتوفّي سنة 763هـ/1362م⁵، و دام بناؤها حوالي سنة ونصف، وعُيّن للتدريس فيها العالم الجليل أبو عبد الله الشريف (ت 771هـ/1370م)، كما أسّس إلى جانبها زاوية و مقبرة مخصّصة لآل زيان، تضم ضريح أبي يعقوب والد السلطان أبي حمو موسى الثاني وعميه أبي سعيد عثمان وأبي ثابت، الذين تولوا حكم مدينة تلمسان في الفترة السابقة⁶.

وقد وصفها صاحب زهرة البستان في قوله "أقيمت مدرسة مليحة البناء وواسعة الفناء بنيت بضروب من الصناعات ووضعت في أبداع الموضوعات، سمكها بالا صبغة مرقوم، وبساط أرضها بالزليج مرسوم غرس بإزائها

1. المقري، مصدر سابق، ج6، ص 47.

2. بو عبد الله محمد التنسي، مصدر سابق، ص 141.

3. Golvin (L): La madrasa medieval, edisud, 1995, p 2,3.

4. عبد العزيز لعرج، النظام المعماري لمدارس المغرب، مرجع سابق، ص 91.

5. عبد الحميد حاجيات: مرجع سابق، ص 58.

6. أحمد بن يحيى الونشريسي، مصدر سابق، ج3، ص 175، أنظر كذلك، يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ج1، ص 203،

التنسي، مصدر سابق، ص 276.

بساتين وصنع فيها صهريجاً مستطيلاً وعلى طرفيه من الرخام خصتان يطردان مسيلاً فياها من بنية ما أبهجها....¹.

وتضاف إلى هذه المدارس الثلاث التي تركها الزيانيون في تلمسان، مدرستان بناها بنو مرين في تلمسان هما: مدرسة "العباد"، ومدرسة "سيدي الحلوي".

لكن المؤسف في كل هذا هو اندثار وزوال جل المدارس المذكورة، والتي لم يبق منها سوى مدرسة العباد التي أنشأها السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان المريني سنة (747هـ/1347م)² في القرية المسماة العباد³، لتكون مركزاً علمياً ثقافياً راقياً يستطيع أن يزاحم ما تواجد آنذاك من مدارس علمية معرفية، كما عرفت المدرسة أيضاً باسم سيدي بومدين وهذا لتخليد ذكرى العالم الجليل الذي ذاع صيته في جميع أنحاء بلاد المغرب الإسلامي وهو أبو مدين شعيب بن الحسن الأنصاري دفن في تلمسان (ت 594هـ/1197م)⁴، وسميت كذلك بالمدرسة الخلدونية في فترة لاحقة، لعل هذا تأكيداً على تعلم عبد الرحمن ابن خلدون بها⁵.

1. مجهول، زهرة البستان، مخطوط، مكتبة ريلاندز، مانشيستر، لندن، رقم 283، ورقة 84، نقلا عن صالح بن قرية، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007، ص 152، 153

2. عن منجزات أبي الحسن بالعباد أنظر: ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص 400 وما بعدها، أيضاً عبد العزيز لعرج محمود، مرجع سابق، ص 233، 235.

3. وصفها الحسن الوزان بقوله العباد قرية عتيقة تقع في الجنوب الشرقي من تلمسان، وهي كثيرة الازدهار، وافرة السكان والصناع... وبها دفن ولي كبير ذو صيت شهير.... وهناك أيضاً مدرسة جميلة جدا... أسسها بعض ملوك فاس من بني مرين، انظر: الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج 2، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983، ص 24.

4. العربي لقريري، مدارس السلطان أبي الحسن علي، مدرسة سيدي أبي مدين نموذجاً، دراسة أثرية وفنية، رسالة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2001/2000، ص 55، 84.

5. William et Georges (Marçais), les monuments Arabes de Tlemcen, librairie Thorin, Paris 1903, p274

ولقد عبر ابن مرزوق عن جمال مدارس أبي الحسن المريني قائلا: "... وكلها، قد اشتمل على المباني العجيبة والصنائع الغربية والمصانع العديدة والاحتفال في البناء والنقش والجص والفرش على اختلاف أنواعه من الزليج البديع والرخام المجزع والخشب المحكم النقش والمياه النميرة¹ ".

كما يصف النميري في رحلته مدرسة العباد فيقول: "... وتتصل بالزاوية من ناحية الجوف، مدرسة متعددة البيوت، رفيعة السموت، بديعة النعوت، وبها أبواب تشرع إلى ديار كاملة المنافع ..."².

وما يؤسف له عن مدرسة العباد في وقتنا الحالي أنها قد فقدت الكثير من زينتها وزخرفتها الأصلية التي اندثرت بفعل الترميمات والإصلاحات التي أدخلت عليها على مر العصور فأفقدتها كثيرا من أصالتها³، رغم أنها لا تزال تحتفظ بميكلمها و تخطيطها العام الذي هو شبيه بتخطيط المسجد إلا أنها تختلف معه في الوظيفة، فهي تتكون من قاعة للصلاة وغرف لسكنى الطلبة وتتوسطها ساحة، إضافة إلى المكتبة ومرافق عامة، وهي تتكون من طابقين، ومن هنا يمكن القول بأن تصميم مدرسة العباد جاء مزدوج المعالم فهي عبارة عن مسجد ومدرسة للتعليم، وذلك تماشيا مع دورها العلمي الذي تمثل في إلقاء القرآن الكريم وتدریس العلم إحياءاً لتقاليد المذهب المالكي و فروع⁴.

وبالإضافة إلى مدرسة العباد التي كانت أول مدرسة تعليمية جامعية أسست ملاصقة للجامع، فإن السلطان أبي عنان فارس المتوكل على الله (749هـ - 1348م / 759هـ - 1358م)، أنشأ هو الآخر مدرسة بجوار ضريح الولي الصالح المتصوف أبي عبد الله الشوزي الاشبيلي المعروف بسيدي الحلوي⁵ سنة 754هـ / 1353م⁶، ويكون بذلك قد حذا حذو والده أبي الحسن في هذا المجال، فلما تربع السلطان الابن على عرش

1. ابن مرزوق: مصدر سابق، ص 303.

2. إبراهيم ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق محمد ابن شقرون، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص 279.

3. عبد العزيز لعرج محمود، مرجع سابق، ص 317، 318.

4. صالح بن قربة، مرجع سابق، ص 175.

5. يحيى ابن خلدون، مصدر سابق، ج1، ص 127، 128، أيضا ابن مريم، مصدر سابق، ص 68 - 70، عبد العزيز لعرج، النظام المعماري لمدارس المغرب، مرجع سابق، ص 232 - 235.

6. إبراهيم ابن الحاج النميري، مصدر سابق، ص 279، كذلك، ابن مريم، مصدر سابق، ص 68، 70، أيضا:

بني مريم، سار على نهج أبيه في تعظيم الصلحاء والعلماء، وكذا بناء المدارس ودور العلم والثقافة، فأُنجز مركزا دينيا وعلميا وثقافيا ضخما يتضمن المسجد والمدرسة والزاوية والضريح معا¹، بالحلي السكني بمحاذات أسوار تلمسان الشمالية الشرقية التي يتوسطها باب الزاوية² وزوده بالمرافق الضرورية من خزانة للكتب وبيوت لسكنى الطلبة وفرض جرايات لهم و للمدرسين³.

ومن دون شك أن تشييد المدارس لم يكن مقتصرًا على عاصمة الدولة الزيانية بل كانت هناك من المدن المهمة مثل: الجزائر ووهران ومليانة وبجاية وقسنطينة ومستغانم من كانت تتوفر على مدارس⁴، إلا أن المصادر لم تسعفنا بمعلومات عنها، وربما ذلك راجع إلى أن شهرتها لم تتعد الإطار الجغرافي للمدينة التي تتواجد بها، عكس مدارس تلمسان التي تحطت شهرتها حدود المدينة، بل وحتى حدود الدولة، وأخذت حيزا هاما من الكتابات التاريخية على حساب باقي المدن الخاضعة لها.

وعلى العموم فالمدارس مهما كان مدى صداها وحجمها إلا أنها شاركت جميعها في إخصاب الحقل الثقافي والمعرفي لبلاد المغرب الأوسط خلال هذه الفترة بتصديرها لعلماء أجلاء ساهموا في بناء الدولة الزيانية وتفوقها في مجالات عدة كما دعموا صمودها في وجه المخاطر لعدة قرون.

Victor Piquet, Autour des monuments musulmans du Maghreb, Algérie.-Maroc, Volume 1 de Autour des monuments musulmans du Maghreb: esquisses historiques, G.-P. Maisonneuve, 1948, p165.

1. Marçais (G), L'architecture, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile, Volume 2, Manuel d'art musulman, métier graphiques, A. Picard, Nouv.éd, 1, paris, 1926-1927, p278

2. William et Georges (Marçais), op.cit, p285.

3. ذكر ابن مريم في ترجمته للفقيهين سيدي أحمد بن عيسى الورنيدي المعروف بأبركان وأحمد بن الحسن الغماري (ت 894

هـ/1489 م) أن الزاوية والمدرسة كانتا قائمتين حتى أوائل القرن 10 هـ/16 م أنظر ابن مريم، المصدر السابق، ص 262

4. هناك إشارات موجزة عن مدارس جزائر بني مزغنة كالمدرسة العنانية ومدرسة ابن السلطان ومدرسة ابن الملك، ومدرسة

السلطان أبو الحسن المريني التي كانت عبارة عن مجمع لإيواء الطلبة حيث يقيمون فيه مدة دراستهم، ويأخذون مختلف العلوم عن أساتذتها، أنظر كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510 - 1541، ترجمة جمال حمادنة،

ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1991، ص 12، وكذا مفدي زكريا، النشاط العقلي و التقدم الحضاري للجزائر، مجلة

الأصالة، العدد 26، السنة 1975م، ص 166، بالإضافة إلى مدارس وهران التي إنفرد بذكرها حسن الوزان دون التطرق

إليها بالتفصيل، أنظر: حسن الوزان، مصدر سابق، ج 2، ص 30.

2. تطور المدرسة في العهد العثماني:

ما كاد يهل القرن السادس عشر، ويسط ظلاله على ربوع الجزائر، حتى أخذت حركة التعليم والثقافة منحي جديدا، فلم تعد مراكز التعليم محصورة في الحواضر، وإنما أخذت تنتقل إلى الريف، وتنتشر في كافة أنحاء البلاد، في الجبال والسهول والصحاري، فتأسست الزوايا العلمية والدينية، والمدارس الفقهية والعلمية ويقول المهدي البوعبدلي في هذا الصدد: "...إن العصر العثماني امتاز في الجزائر بانتقال المراكز الثقافية من المدن إلى الجبال والقرى، واشتهرت عدة معاهد إذ ذاك في كامل القطر، كمعاهد بني يعلى العجيسي وعبد الرحمان اليلولي... ثم معاهد الراشدية ومازونة، والونشريس، واليعقوبي..."¹.

لقد كثرت المدارس في الجزائر حتى كاد لا يخلو منها حي من الأحياء في المدن ولا قرية من القرى في الريف، بل إنها كانت منتشرة حتى عند أهل البادية الجبال النائية وهو ما جعل الكثير ممن زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينتبهون لكثرة المدارس بها وانتشار التعليم، وندرة الأمية بين السكان، وقد عد بعضهم العشرات من هذه المدارس في البايك الواحد².

وبالرغم من كثرة المدارس في الجزائر في تلك الفترة إلا أنها كانت تفتقر لمؤسسة للتعليم العالي، رغم أن فونتير دي برادي (Venture De.P.) يشير إلى وجود ثلاث جامعات بها³، إلا أنها في الواقع لم تكن بها جامعة بالمعنى الصحيح، لأنه لم يكن يوجد بها مدرسة للتعليم العالي تضاهي الأزهر والقرويين والزيتونة، غير أن دروس جوامعها الكبيرة كانت تضاهي بل تفوق أحيانا دروس الأموي بدمشق والحرمين الشريفين لتنوع الدراسات فيها وتنوع الأساتذة عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي⁴.

والمدارس كانت على نوعين، منها الابتدائية وتسمى بالكتاب لتعليم الكتابة والقراءة وتحفيظ القرآن الكريم، ومنها المدارس العليا لتعليم الآداب والفقهاء المالكي والحنفي والتوحيد⁵ وغيرها من العلوم.

1. المهدي بوعبدلي، الثقافة والتوجيه بالجزائر، في أشغال مؤتمر الفكر الإسلامي، الجزائر، 1970، ص 07.

2. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج1، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 274.

3. Venture (De. P), Alger au 18 eme siècle, Fagnan, Alger, 1898, p254 .

4. أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 273.

5. عبد القادر حليمي، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830م، ط1، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972م، ص 272.

وقد وجدت المدارس في مختلف حواضر الجزائر، ففي مدينة الجزائر تضاربت الآراء والأقوال حول عددها في الفترة العثمانية، ويرجع أبو القاسم سعد الله ذلك إلى أن البعض كان يدخل الزوايا والمساجد في عدد المدارس والبعض الآخر لا يفعل ذلك¹، كما اشارت الباحثة "إفون ثوران (Yvonne Turin) صاحبة كتاب "مجاهبات ثقافية الى عدد المدارس بحوالي 229 مدرسة وبها 5583 تلميذ² من أشهرها المدرسة القشاشية التي أشاد بها أبو بوراس الناصري واعتبرها مركزا للتعليم العالي³ كما نجد كذلك مدرسة الجامع الكبير التي ذكرها ابن حمادوش في رحلته⁴، والتي نزل بها الشيخ أحمد الوززي التطواني في منتصف القرن 18م/12هـ⁵، كما تعد المدرسة الحسينية بالعاصمة من أهم المدارس في الفترة العثمانية، وكان من علمائها الشيخ محمد بن القاضي، الذي عرف بغزارة علمه، وتبحره في الفقه وعلوم الحديث، وبها كانت وفاته سنة 1242هـ/1730م، أما مدرسة سيدي رمضان فقد خرجت عن عادة مدارس عهدها بتخصصها إلى جانب العلوم الدينية، في العلوم الرياضية كالحساب والفلك والهندسة والفرائض وغيرها⁶.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، هناك مدرستين اشتهرتا في العهد العثماني هما مدرسة الأندلسيين ومدرسة شيخ البلاد وقد وصفنا بمستواهما العالي، خاصة الأولى باعتبار الأندلسيين عرفوا بمنهجهم في التدريس وحسن التربية ومراعاة التطور العقلي للتلاميذ، أما مدرسة شيخ البلاد فيشير اسمها إلى اسم الحي الذي تقع فيه، كون مؤسسها هو الحاج محمد خوجة في أواخر القرن 12هـ/18م⁷.

1. أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 276.

2. Turin Yvonne, *Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale (1830-1880)*, F. Maspero, Paris, 1971, p.130

3. الناصري أبوراس، *عجائب الأسفار ولطائف الأخبار*، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1632، ص 91.

4. ابن حمادوش الجزائري، *لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال*، تحقيق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 121.

5. أبو القاسم سعد الله، *محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)*، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 164.

6. عبد الرحمان الجيلالي، *تاريخ الجزائر العام*، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1965م، ص 538.

7. أبو القاسم سعد الله، *تاريخ الجزائر الثقافي*، مرجع سابق، ص 282.

أما مدارس قسنطينة عاصمة بايلك الشرق فلم تكن تقل أهمية عن مدارس مدينة الجزائر، إذ عرفت هي الأخرى المدارس بنوعها الابتدائية والثانوية، فالابتدائية بلغت حوالي 90 مدرسة في أواخر الفترة العثمانية، يتمدرس فيها حوالي 1350 تلميذ¹.

أما التعليم الثانوي والعالي فقد أحصيت سبع مدارس، منها مدرسة ابن الفكون ومدرسة ابن أفوناس، والمدرسة الكتانية التي كانت تعتبر من أهم المدارس الجزائرية في تلك الفترة، والتي تأسست في عهد صالح باي سنة 1190هـ/1776م²، والذي يعد أزهري عصور العلم والثقافة، لما أعطاه من أهمية بالغة لهذا المجال، فأسس كذلك مدرسة سيدي لخضر عام 1193هـ/1779م، لتعليم مختلف الفنون، وجعل لها نظاما خاصا ومحكما وهي ما تزال قائمة إلى يومنا هذا³، كما قام بتشيد مدارس أخرى في عنابة والقل وجيجل وكان يلحق بكل منها جامعا وكتابا ودار كتب⁴.

وفي الغرب الجزائري اشتهرت مدينة مازونة بمدرستها التي تعتبر أقدم المدارس الجزائرية في الفترة العثمانية، إذ تعود لأواخر القرن 16م، والتي يقول عنها أحد تلامذتها وهو أبوراس الناصري: "ولما ذكر لي طلبة مازونة وكثرة مجالسها ونجابتها وقرىحتها وأشياخها، وكنت أقرأ في النهار وأتسول في الليل، فلقيت في المشي على صغري مشقة، لكن ذلك شأن أهل السفر للعلم، ثم انصرفت من مازونة بعد ثلاث سنوات، وتمكنت من معرفة وإتقان الفقه"⁵.

اهتم الباي محمد بن عثمان الكبير باي وهران عاصمة بايلك الغرب بتشيد دور العلم، من مساجد ومدارس وزوايا، حيث بنى المدرسة المحمدية بمعسكر بجانب الجامع الأعظم سنة 1196هـ/1781م، والتي وكانت مجهزة بمكتبة وقاعات للمطالعة وغرف صغيرة لمبيت الطلبة، وكان بها النظام الداخلي والخارجي، وتقوم بإعداد الإطارات، كالمفتي والقاضي والمدرس، وكانت تشتهر بتدريس العلوم الدينية، والطلبة كانوا يتحملون

1. أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص 163.

2. عبد الرحمان الجيلالي، مرجع سابق، ص 537.

3. نتناول مدرستي سيدي الكتاني بقسنطينة وكذا مدرستي مازونة وخنق النطاح بالغرب الجزائري وخنقة سيدي ناجي بمنطقة بسكرة بالدراسة الأثرية في الفصل الثالث من بحثنا هذا.

4. مسعود العبد، مرجع سابق، ص 65.

5. الناصري أبوراس، مصدر سابق، ص 82.

المشاق والأتعاب والوحدة والاعتراب، قادمين إليها من جبال الظهرة والونشريس، ندرومة ووجدة، المدينة، تيهرت، والبليدة وغيرها، وكان جلهم من الأوساط الفقيرة¹.

وكان محمد الكبير بايا على معسكر ثم وهران، ومعاصرا لصالح باي، باي قسنطينة، وهما من أبناء العثمانيين الذين تزوجوا نساء جزائريات فأطلق عليهم اسم "الكراغلة" وكان من مواليد الجزائر والعارفين بمتطلبات العلماء ورجال الدين، وقد ركز في حكمه على فتح وهران واستعادتها من الإسبان، وجند من أجل ذلك العلماء ورجال الدين، فكانوا يدرسون بالليل ويحاربون بالنهار عند جبل المائدة المطل على وهران²، وإرضاء للعلماء، اهتم بالمدارس والمساجد، فبنى المدرسة المحمدية بمعسكر ومدرسة خنق النطاح بوهران سنة 1207هـ/1793م، وذلك بعد استرجاع مدينة وهران، كبادرة جلييلة لإعادة الطابع الإسلامي للمدينة الذي انطفأ طيلة التواجد الإسباني الذي قضى على كل رموز الهوية الإسلامية³.

وكانت مدرسة خنق النطاح تضم أربعة مدرسين، وعددا كبيرا من الطلبة، أفرد لها المؤرخ أحمد بن سحنون ومؤسسها الباي محمد الكبير، كتابا سماه "الثغر الجماني" وابن زرفة كتابا "الرحلة القمرية"، كما أثنى عليه المؤرخ أبو راس في كتابه "عجائب الأسفار"⁴ وأفادنا الزباني في "دليل الحيران" بنص عنها قائلا "وبنى المدرسة العظيمة بخنق النطاح التي بها ضريحه وتعرف للآن بالمدرسة"⁵، كما يورد صاحب طلوع سعد السعود في هذا الشأن "وكان محبا للطلبة، ولذلك بنى لهم المدرستين، الأولى بمعسكر والثانية بوهران"⁶.

1. ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص 138.

2. أبو القاسم سعد الله، بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني (1518-1830)، مجلة البصائر، العدد 83، الجزائر، فيفري 2002، ص 13.

3. ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 96.

4. أبو القاسم سعد الله، بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني مرجع سابق، ص 14.

5. محمد بن يوسف الزباني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص 267.

6. المزاري، طلوع سعد السعود، ج 1 تحقيق يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 296.

وتعد مدرسة الشيخ مصطفى الشيخ بن المختار الراشدي التي تخرج منها حفيد الأمير عبد القادر مركزا علميا وثقافيا بحق، والتي تأسست في أواخر القرن 12هـ/17م وأصبحت تسمى بمعهد القيطنة¹.

أما مدارس تلمسان فقد بلغ عددها أواخر العهد العثماني حسب الباحث إيمريت (Emerit) 50 مدرسة ابتدائية مخصصة لـ 12 ألف أو 15 ألف نسمة²، بالإضافة إلى مدرستين للتعليم العالي وهما مدرسة الجامع الكبير ومدرسة أولاد الإمام يتردد عليها حوالي 2600 تلميذ³، وقد استفادت هذه المدارس من إصلاحات الباي محمد الكبير وذلك من أجل إعطاء نفس جديد للتدريس بها⁴.

وكانت مدرسة توات بأدرار سنة 1224هـ/ 1810م هي الحاملة لراية العلم بالصحراء الشاسعة، إذ قصدها طلبة العلم من منطقة الساورة والواحات ووهران، وحتى من الدولة المالية، وكان بالمدرسة ما يزيد على 400 طالب، والكل يتعلم ويأكل ويشرب وينام في ظروف عادية بسبب دخل المدرسة، الذي يصلها من المحسنين بدون انقطاع⁵ بالإضافة إلى المدرسة الناصرية بخنقة سيدي ناجي بمنطقة الزاب، التي قامت بنفس الدور في نواحي الزاب الشرقي والاوراس، انتشر صيتها إلى الجهة الشرقية والبلاد المجاورة، وكان الطلبة الغرباء عن البلدة يلقون التكفل من شيوخ الزاوية وأقربائه وبعض من أهالي الخنقة قدر المستطاع، ويصبح الطالب فرد من أفراد العائلة إلى أن يتم دراسته بها.

1. ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ - العهد العثماني-، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 228.

2. Emerit (M.), l'Algérie à l'époque d'Abd-El Kader la Rose, Paris, 1951, p 4 .

3. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 27.

4. لواليش فتيحة، الحياة العلمية ببايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 1994م، ص 147.

5. عبد العزيز بن علي المهداوي، قطف الزهرات من أخبار علماء توات، الجزائر، 1985م، ص 12.

ثالثا. تطور المدرسة في المغرب الأقصى حتى نهاية العهد العلوي:

1. تطور المدرسة في العهد المريني:

تعتبر المرحلة المرينية¹ (616هـ-1219م/831هـ-1426م) أزهى فترات المغرب الأقصى علميا وثقافيا، لما شهدته من نقلة نوعية في مجال الفكر والدين، فما زال التاريخ يسجل إنجازات هذا العصر صنعها ملوك وأمراء وقادة، بذلوا جهدا في سبيل العلم ورجالاته، وما المراكز والمؤسسات العلمية والثقافية الممثلة بالزوايا والمدارس والجوامع إلا دليلا ساطعا وبرهانا قاطعا على مظاهر رقيها الفكري والحضاري، حيث كانوا يسلكون طريق نشر العلم كمبدأ لازم دولتهم منذ بداية فاستحقت بذلك لقب دولة العلم، وعرفت ظاهرة انتشار المدارس و بالتالي يجدر بنا تسمية هذا العصر بعصر بناء المدارس²، ويقول في ذلك الباحث جورج مارسيه أن الدولة المرينية هي أكثر دويلات بلاد المغرب نشاطا وحيوية في مجال التشييد العمراني، سيما فيما اتصل ببناء المدارس، حيث ظهرت بعدد أوفر و جمال أروع³، وكانت أولى مدارس سلاطين بني مرين التي أنشأت بالمغرب الأقصى مدرسة الشهداء أو القاضي بمكناس⁴ التي أنشأها السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق حوالي عام 674هـ/1275م⁵، بقصبة مكناسة بجوار جامعها الكبير، وسميت هذه المدرسة بمدرسة القاضي أبي الحسن

1. المرينيون، أو بنو مرين بطن من بطون قبيلة زناتة الأمازيغية، التي يرتفع نسبها حسب المؤرخين إلى أصول عربية قامت دولتهم في المغرب الأقصى بعد سقوط دولة الموحدين، حكمت ما بين سنتي 616هـ، 831هـ/1319م، 1244م، 1465م أنظر عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص 132، ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص 278، 279، القلقشندي، مصدر سابق، ج5، ص 194.

2. عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج4، (عصر الدولة المرينية ودولة بني وطاس)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1993ص191.

3. Marçais (G.), op, cit, p 285.

4. مكناس (مكناسة)، بكسر الميم وسكون الكاف، إحدى مدن المغرب الأقصى جنوب غرب مدينة فاس، سميت باسم قبيلة مكناسة البربرية التي اختطتها، وقد ازدهرت هذه المدينة في عهد بني مرين واشتهرت بزراعة الزيتون، لذلك سميت نسبة إليه، مكناسة الزيتون، أنظر ياقوت الحموي، مصدر سابق، مج5، ص 181، كذلك لسان الدين ابن الخطيب، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، ج2 مؤسسة شباب الجامعة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، 1983، ص 109.

5. محمد السيد محمد أبو ربحاب، المدارس المغربية في العصر المريني، مرجع سابق، ص 98.

بن عطية الونشريسي (ت 781هـ/1379م)، والذي كان يدرس بها¹، كما عرفت باسم المدرسة الفيلايلية² نسبة لمن كان يسكنها من طلبة أهل تافيلالت³.

ولم تشر جل الدراسات التي تناولت المدارس المرينية إلى هذه المدرسة مطلقا بل أن بعض الباحثين خلط بينها وبين مدرسة أبي الحسن القريبة منها، لولا أن بعض المصادر منها الروض الهتون لابن غازي الذي تطرق إلى تأسيس هذه المدرسة من قبل مؤسس الدولة المرينية لما شرع في بناء قسبة مكناسة⁴.

ثاني مدرسة، مدرسة الحلفاويين أو الصفارين التي يرجع تاريخها إلى حكم السلطان المريني الثاني أبو يعقوب ابن عبد الحق (656-685هـ/1240-1254م) في أواخر القرن 7هـ/13م⁵ وأوقف عليها أوقاف منها الكتب التي حصل عليها مقابل الهدنة التي أبرمها مع ملك قشتالة⁶.

وتوجد المدرسة بساحة الصفارين مقابلة لخزانة القرويين، وورد ذكر هذه المدرسة تحت تسمية مدرسة الحلفاويين لتواجدها بسوق تباع فيها الحلفاء، أما تسميتها بالصفارين فيما بعد فنسبة إلى نقل سوق صناعة النحاس إلى جانبها⁷ الذي تفتتح عليه بواسطة بوابة يعلوها قوس منكسر ومتجاوز.

1. ابن غازي المكناسي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط 1964م، ص 64.

2. محمد السيد محمد أبو ريجاب، مدارس المغرب الأقصى في عصر بني مرين، (668 - 869هـ / 1269 - 1464م)، رسالة الماجستير في الآثار الإسلامية، كلية الآداب بسوهاج، جامعة جنوب الوادي، 1999، ص 259.

3. تافيلالت مدينة في جنوب المغرب الأقصى، مجموعة من الواحات تتبع مقاطعة الرشيدية، تعتبر من المناطق التاريخية الأكثر أهمية في المغرب، فهي وريثة مدينة سجلماسة التاريخية التي لم يبق من إشعاعها الحضاري سوى خرابها الذي يمتد على مساحات شاسعة في المنطقة، أنظر، لسان الدين ابن الخطيب، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ج4، مصدر سابق، ص 113.

4. ابن غازي المكناسي، مصدر سابق، ص 64.

5. علي الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1991م ص 82.

6. مزاحم علاوي الساهري، الحضارة العربية الإسلامية في المغرب (العصر المريني)، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، الأردن (د.ت) ص 212.

7. عثمان عثمان إسماعيل، مرجع سابق، ج4، ص 208.

بعد مدرسة الصفارين يمكن تصنيف المدارس التي ظهرت إلى ثلاثة مجموعات حيث كل مجموعة تعود لعهد معين ضمن النطاق التاريخي لمؤسسها¹.

- المجموعة الأولى: في عهد السلطان أبي سعيد عثمان بن يعقوب (710-732هـ / 1310-1331م).

حيث أنشأ هو وابنه الأمير أبو الحسن مجموعة من المدارس وهي: مدرسة فاس الجديد أو مدرسة دار المخزن وذلك سنة 720هـ-1320م، كان موقعها خارج أسوار قصر السلطان، ثم أصبحت داخل أسوار القصر بعد الإضافات المعمارية²، ثم نجد مدرستين أسستا في عهد أبي سعيد عثمان مباشرة ولي عهده أبي الحسن وهما مدرسة الصهريج (الكبرى) سنة 721هـ/1321م³، التي درس بها القاضي إبراهيم عبد الرحمن التسولي التازي (ت 747هـ/1346م) صاحب كتابي التهذيب والرسالة⁴، وتقع هذه المدرسة في مدينة فاس القديمة على مقربة من جامع الأندلسيين في الجهة الغربية.

ويذكر ابن أبي زرع الفاسي عن بناءها مايلي: "وفي سنة إحدى وعشرون وسبعمائة أمر الأمير أبو الحسن علي... ببناء المدرسة غربي جامع الأندلس بفاس وبنى حولها شعابه ودار وضوء وفندقا لسكنى طلبة العلم⁵.

ومدرسة السبعين التي تعرف في الوثائق القديمة بمدرسة الأسانيد وهي المدرسة الصغرى الملحققة بمدرسة الصهريج⁶، وسميت بمدرسة السبعين لأنها كانت خاصة بالطلبة الذين يقرؤون القرآن بالقراءات السبع⁷.

أنشئت بالقرب من جامع الأندلس وهي متصلة بشرق مدرسة الصهريج ومعاصرة لها أيضا، وكذلك مدرسة تازا التي شيّدت في نفس الفترة بإشراف الأمير أبي الحسن وسميت باسمه المدرسة الحسنية، حسب ما يؤكد ابن

1. Marçais (G.), op.cit, p 272.

2. عثمان عثمان إسماعيل، مرجع سابق، ج4، ص 208.

3. Yassir Benhima, **La madrasa Asshrig de Fès**, mémoire de fin D'études de cycle, institut national des sciences d'archéologie et du patrimoine, Université de Mohamed _V, de Rabat, Année Universitaire 1995_1996, P35.

4. أحمد ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، مج1، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط، 1973 ص 85.

5. ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص 412.

6. محمد السيد محمد أبو ريجاب، المدارس المغربية في العصر المريني، مرجع سابق، ص 255.

7. Terrasse(h), **Madrasa du Maroc**, Moranée, Paris (S.D), 1927, p, 20.

مرزوق التلمساني بقوله عن أبي الحسن أنه أنشأ بمدينة تازا قديما مدرستها الحسنية¹، وقد ورد اسمه في النقش التأسيسي للمدرسة في بيتين شعريين منقوشين على لوحة خشبية بالخط المغربي.

ولعل أشهر مدارس هذه الفترة في فاس وفي المغرب كله هي مدرسة العطارين التي شيدها هذا السلطان فيما بين سنتي 723 - 725 هـ / 1321 - 1325 م قرب جامع القرويين²، ووضع حجر أساسها أبو سعيد بنفسه مع جماعة من الفقهاء، وقد سميت بالعطارين لأنها تقابل سوق العطارين³.

وصفت هذه المدرسة بأعجوبة مدينة فاس، حيث فيها تظهر روعة الفن المغربي في الخطوط والنقوش والتراكيب المعمارية، كما تعد المدرسة محل رياضة وتخصص لدراسة علوم الفقه والنحو خصص لها أحسن الفقهاء لتدريس العلم وحبس عليها عدة أملاك حسب رخامة التحسيس المثبتة في الجدار⁴.

كما أسس الأمير أبي الحسن مدرسة الوادي بمصمودة أسفل جامع الأندلس التي بناها حسب ما جاء به الجزائري سنة 725 هـ / 1324 م، وسميت بالوادي لأنها لا تسمح للطلاب أن يداوم فيها ما لم يكن يحفظ صحيح مختصر الحاجبي⁵ وهي المدرسة المرينية الوحيدة بفاس التي تغيرت معالمها في عهد العلويين أيام السلطان محمد الرابع⁶.

- المجموعة الثانية: في عهد السلطان أبي الحسن (732-749 هـ / 1331-1348 م)

تضم مجموعة المدارس التي أنشأها السلطان أبو الحسن الملقب بالسلطان الأكلحل أو كلف بها ولي عهده أبا عنان فارس المتوكل، فأبي الحسن بن سعيد بن يوسف يعد بحق الرائد الأول في إنشاء المدارس حيث أظهر ولعا كبيرا بعمارة المدارس منذ أن كان وليا للعهد في فترة حكم والده السلطان أبي سعيد، فشارك والده في بناء

1. ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص 403.

2. هجيرة تمليكشت، مدرسة السلطان أبي عنان فارس المتوكل، مجلة آثار، عدد 13، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2015 م، ص 120.

3. عبد الهادي التازي، جامع القرويين، المسجد والجامعة بمدينة فاس، ط2، مج2، دار نشر المعرفة الرباط، 2000، ص 358.

4. عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 358.

5. مزاحم علاوي الساهري، مرجع سابق، ص 184.

6. عثمان عثمان إسماعيل، مرجع سابق، ج4، ص 214.

المدارس، وزاد عليه بأنه عمم المدارس في كل من المغرب الأقصى والأوسط فقد ذكر المؤرخ ابن مرزوق المعاصر للسلطان أبي الحسن أنه أنشأ في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى و الأوسط مدرسة "فأنشأ بمدينة تازا قديما مدرستها الحسنية، وبلاد مكناسة وسلا و طنجة وسبتة واسفي وأزمور وأغمات ومراكش والقصر الكبير والعباد بظاهر تلمسان، وبالجزائر مدارس مختلفة الأوضاع بحسب اختلاف البلدان¹.

وتشمل هذه المدارس **المدرسة الجديدة بمكناس** التي تسمى خطأ بالبوعنانية أنشأها أبو الحسن سنة 736هـ/1336م²، وكان من بين أساتذتها المشهورين أحمد بن القاسم الجذامي الفاسي الشهير بالقباب (ت 779هـ/1377م)، واشتهر بتدريسه كتاب التهذيب وله شرح على قواعد عياض وبيوع ابن جماعة³.

و**المدرسة الطالعة بسلا** التي شيدت سنة 742هـ/1341م، ملاصقة للجامع الأعظم، وهي أحد أجمل المدارس المرينية بالمغرب الأقصى بفضل هندستها وزخارفها الحصية والخزفية والخشبية التي تميز طابعها المعماري، وصفها صاحب الإستقصا بقوله "ومنها المدرسة العظمى بطالعة سلا... بناها رحمه الله على هيئة بدیعة وصنعة رفيعة وأودع جوانبها من أنواع النقش وضروب التخريم ما يجير البصر، ويدهش الفكر"⁴.

كما تعتبر المدرسة أصغر مدرسة أنشأها المرينيون على الإطلاق إذ لا تتجاوز مساحتها 180م²، حبس عليها أبو الحسن أحبا سا كثيرة تصرف منها أجور الأساتذة والمقيمين عليها ودرس بها مختلف العلوم كأصول الدين والأدب والفلسفة والطب، ومن أشهر أساتذتها لسان الدين ابن الخطيب وعبد الله مغيث واحمد بن عاشر⁵.

ثم بعد ذلك أنشأ أبي الحسن **المدرسة المصباحية** بفاس القديمة سنة 747هـ/1346م التي عاصرت تاريخ تأسيس **مدرسة سيدي بومدين** بالعباد بتلمسان⁶، وهي تقع بمحاذاة جامع القرويين في فاس القديمة، سميت

1. ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص 403.

2. محمد السيد محمد أبو ربحاب، المدارس المغربية في العصر المريني، مرجع سابق، ص 256.

3. أحمد ابن القاضي المكناسي، مصدر سابق، مج 1، ص 123.

4. الناصري السلاوي، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج 3، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954م، ص 175.

5. محمد السيد محمد أبو ربحاب، المدارس المغربية في العصر المريني، مرجع سابق، ص 386.

6. وداد القاضي، نبذة عن المدرسة في المغرب حتى أواخر القرن التاسع الهجري في ضوء كتاب المعيار للونشريسي مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، ماي 1981، ص 67.

بالمصباحية نسبة لأول أستاذ درس بها وهو مصباح بن عبد الله الياصلوتي (ت750هـ/1349م)¹ كما عرفت أيضا باسم **مدرسة الرخام** نسبة للحوض الرخامي الكبير الذي جلبه أبي الحسن من مدينة المرية بالأندلس والذي لا يزال يتوسط صحنها على اليوم².

كما بنى السلطان أبو الحسن **المدرسة العظمى بمراكش** سنة 747هـ/1346م³، والتي كانت تقع بجوار جامع علي بن يوسف المرابطي المندثر حاليا⁴، وتعد تحفة مراكش بعد جامع الكتبية، حيث قال عنها بن أبي زرع: "ومن وقف على هذه المدرسة وتأمل تنجيدها وتنميقها قد قدر هذا السلطان وعلم عظم همته ومحبته للعلم وأهله⁵، حقا إن عمارتها التي تفوق الوصف وضخامتها وفخامة زخارفها تؤكد كلها على أصالة الفن المغربي⁶، وهو أسلوب تتميز به كل مدارس أبي الحسن لذلك يصعب على الباحث أن يفرق بين مدرسة وأخرى بل لا يمكن المقارنة بين مدارس هذا السلطان ومدارس غيره من السلاطين ليس في بلاد المغرب فحسب بل في العالم الإسلامي ككل⁷، ربما باستثناء **المدرسة البوعنانية** بفاس التي أنشأها أبنة السلطان أبي عنان فارس المتوكل، والتي تعد أجمل مدرسة في المغرب من الناحية المعمارية والفنية، وذروة الفن المعماري المغربي كما أنها تعد آخر المدارس العظيمة التي شيدت في بلاد المغرب⁸.

وتمتاز مدرسة مراكش أيضا عن مدارس عصرها بكبر مساحتها التي تبلغ ضعف مساحة مدرسة العطارين والصهريج⁹.

- المجموعة الثالثة في عهد السلطان أبو عنان فارس المتوكل (732-749هـ/1348-1357)

1. أحمد ابن القاضي المكناسي، مصدر سابق، مج1، ص 336.

2. علي الجزنائي، مصدر سابق، ص 27.

3. محمد محمد الكحلوي: مرجع سابق، ص 103.

4. الناصري السلاوي، مصدر سابق، ص 175.

5. ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص 103.

6. Deverdum(G), **Inscription Arabes de Marrakech Rabat**, Edition, Techniques Nord-Africain, Paris, 1956, p24.

7. محمد محمد الكحلوي، مرجع سابق، ص 103.

8. Terrasse (Charles), **Madrassa du Maroc**, Paris, Morance, S.D, p28.

9. محمد حضيف، **مدرسة ابن يوسف بمراكش**، مجلة المتحف العربي، الكويت، مارس 1989، ص 52.

قام بعدة إنجازات في مجال التعليم أبرزها أنه أتم المدرسة التي أنشأها أبو الحسن بمراكش وذلك سنة 751هـ/1350، كما شيد مدرسة بسلا التي تعرف بالمدرسة العجيبة تحولت إلى محكمة، ومدرسة سيدي الحلوي بتلمسان، وأهم إنجاز على الإطلاق تشييده للمدرسة البوعنانية بالطالعة الكبرى من فاس القديمة سنة 756هـ/1355م¹.

عرفت هذه المدرسة منذ إنشائها باسم المدرسة المتوكلية نسبة إلى لقب منشئها المتوكل كما عرفت بالبوعنانية نسبة إلى كنيته²، وقد أنفق عليها المتوكل أموالا طائلة إذ يذكر الوزان عن ذلك قوله أن السلطان أبو عنان عندما تم بناء المدرسة أراد أن يطلع على سجل النفقات، وما إن تصفح بضع صفحات حتى وجد مجموعا يقارب 40 ألف مثقال، فأخذته الدهشة ولم يتابع القراءة ومزقه والقى به في القناة التي تخترق المدرسة³.

امتازت هذه المدرسة بعظمتها وكبر مساحتها وفخامة زخارفها، فهي إحدى روائع الفن المعماري حتى أن عمارتها بمرت الرحالة والمؤرخين منهم ابن بطوطة الذي قال عنها لا نظير لها في المعمور اتساعا وحسنا وإبداعا وكثرة ماء وحسن وضع ولم أرى في مدارس الشام ومصر والعراق وخرسان ما يشبهها⁴، وهو نفس الرأي الذي يذهب إليه الكتاني في كتابه سلوة الأنفاس فيقول: دخلت كثيرا من مدارس الشام ومصر الحجاز والمغرب فلم أرى من حيث ضخامة البناء والوسع والعلو من هو أضخم من المدرسة العنانية هذه⁵.

2. تطور المدرسة في العهد السعودي:

اكتفى السعوديون⁶ (915هـ، 1069هـ / 1510م، 1658م) بما أنشأه أسلافهم المرينيون من مدارس، استمرت تؤدي وظيفتها كمنشأة تعليمية طول فترة حكمهم فعنوا بترميم ما تداعى منها، فألى السلطان عبد

1. محمد السيد محمد أبو ريجاب، المدارس المغربية في العصر المريني، مرجع سابق، ص 410.

2. الحسن الوزان، مصدر سابق، ج1، ص 371.

3. الحسن الوزان، مصدر سابق، ج1، ص 226.

4. ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 664.

5. الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثه الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، المطبعة الحجرية الفاسية، د.ت، ص 255.

6. السعوديون: تأسست دولتهم على يد أسرة علوية من الأشراف، وامتدت من 1549-1654، وبلغت أوج قوتها في عهد المنصور الذهبي، عام 1603م، ووصلت جنوبا إلى دولة صنغاي في غرب إفريقيا... للمزيد أنظر الموسوعة العربية العالمية، ج3، ط2، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، 1999، ص 261.

الله الغالب بالله السعدي (ت981هـ/1574م) يرجع فضل إعادة بناء مدرسة أبي يوسف بمراكش سنة 972هـ/1564م، والتي سميت باسم المدرسة الغالبية وتقع وسط مراكش القديمة¹.

وقد حظيت مدينة مراكش في العصر السعدي مثلما حظيت به نظيرتها فاس في العصر المريني، حيث اهتم السعديون، بمراكش أيما اهتمام وعناية، لكونها دار ملكهم، فشيّدوا بها المدارس الكبرى مثل مدرسة قسبة مراكش، ومدرسة جامع باب الدكالة الكبير التي شيّدتها مسعودة بنت أحمد الوزكيتي الوززاتي زوجة السلطان محمد المهدي، ووالدة السلطان أحمد المنصور كملحق للمسجد الذي شيّدته بحي باب دكالة بمراكش فيما بين عامي 965هـ، 995هـ/1557م، 1586م².

ومدرسة حومة ابن صالح بولعبادة بمراكش، ومما شيّد في مدينة تارودانت مدرسة على يد السلطان محمد المهدي بن محمد القائم المتوفي في 964هـ/1557م، ومدرسة المواسين أو مدرسة جامع الأشراف التي شيّدها ابنه السلطان عبد الله بن محمد المهدي الملقب بالغالب بالله وكانت تقع بجوار الجامع الأعظم بحي المواسين سنة 970هـ/1562م³.

مدرسة أخرى شيّدها السلطان عبد العزيز بن أحمد المنصور وهي المدرسة العباسية كملحقة للجامع الذي شيّده بحي باب تاغزوت بمراكش إلى جوار ضريح الصوفي الشهير أبي العباس السبتي حوالي 1012هـ/1603م لذا حملت المدرسة هذا التسمية⁴، كما شارك العامة حكام السعديين في بناء وإقامة المدارس، حيث بنوا مدرسة

1. اختلفت الآراء حول كون هذه المدرسة هي نفسها التي أنشأها السلطان أبي الحسن المريني وقام بتجديدها السلطان السعدي عبد الله الغالب، أو أن مدرسة أبي الحسن التي تفنن في مدحها المؤرخون قد اندثرت، وأن المدرسة الحالية من إنشاء السلطان السعدي، هذه الآراء والأدلة المادية والتاريخية حول تأسيس المدرسة، أثارها الأستاذ محمد السيد أبو ريجاب في دراسته حول العمائر الدينية في عهد الأشراف السعديين، أنظر محمد السيد أبو ريجاب، العمائر الدينية والجنائزية بالمغرب في عصر الأشراف السعديين، دراسة أثرية معمارية، دار القاهرة، 2008م ص 313.

2. محمد السيد أبو ريجاب، العمائر الدينية والجنائزية بالمغرب في عصر الأشراف السعديين، المرجع السابق، ص 337.

3. محمد الكحلوي: مرجع سابق، ص 79.

4. أنظر محمد السيد أبو ريجاب، العمائر الدينية والجنائزية بالمغرب في عصر الأشراف السعديين، مرجع سابق، ص 341.

أقا المنسوبة إلى الشيخ محمد بن مبارك المتوفي سنة 920هـ/1514م، ومدرسة الحسن ابن علي التاملي بتيوت قرب تارودانت ومؤسسها تلميذ الونشريسي¹.

3. تطور المدرسة في العهد العلوي:

شهدت الفترة العلوية² من تاريخ المغرب الأقصى، فترة حروب وصراعات، وربما كانت عاملاً أساسياً في العزوف عن البناء والتشييد، نظراً للظروف السياسية والتحويلات التي كانت شهدتها المنطقة، خاصة في ظل التحرش الجزائري، والحملات العسكرية الغربية، وظهور حركات داخلية مناهضة للقصر.

ففي الجانب العلمي حافظ العلويون على ما توارثوه عن أسلافهم من مدارس وزوايا ومساجد، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البناء والتشييد إلا القليل، رغم أن السلطان مولاي الرشيد (1666-1672) مؤسس الدولة العلوية، كان يشجع العلماء ويحضر المجالس العلمية بالقرويين ويحب مناقشة العلماء ويغدق عليهم من العطايا كما كان يشجعهم على التبحر في المعرفة والتأليف، ففي عهده شهدت فاس بناء مدرسة الشراطين على أنقاض مدرسة قديمة على نحو بديع ليسكنها الطلبة ويتعلموا فيها، وقد ابتدأ العمل بها سنة 1081هـ/1670م، ولم ينته منها إلا عام 1089هـ/1678م أيام حكم أخيه مولاي إسماعيل وتضم ثلاث طوابق بها 130 غرفة تفتح أبوابها في ممرات داخلية متصلة بالممر الرئيسي وقبة الصلاة³.

1. محمد محمد الكحللاوي، مرجع سابق، ص 78.

2. العلويون، تأسست دولتهم عام 1640م، وتمكنوا من إعادة وحدة البلاد بعد تفككها في عهد السعديين يتصل نسبهم بمحمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وقد استقروا بينوع النخيل بالحجاز قبل أن ينتقل فرع منهم إلى المغرب خلال القرن 13م ويستقر بمنطقة سجلماسة (تافيلالت) وقد أكسبهم نسبهم الشريف احترام السكان، ساعدتهم ذلك في السيطرة على الطرق التجارية والقضاء على منافسيهم من باقي القوى المحلية وإخضاع المغرب عسكرياً، ويعتبر المولى رشيد هو المؤسس الفعلي للدولة العلوية، التي لا يزال فرعهم يحكم في المغرب إلى اليوم ومنهم الملك محمد السادس بن الحسن الثاني، أنظر أحمد بن عبد العزيز العلوي، الأنوار الحسينية في نسبة من بسجلماسة من الأشراف المحمدية، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، لجنة إحياء التراث القومي، وزارة الأبناء المغربية، الرباط، 1966م، ص 27 وما بعدها، كذلك محمد الصغير المراكشي، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، مطبعة أنجي، فرنسا، 1888م.

3. محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، (1075، 1311هـ/1664، 1894م)، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1977، ص 68، 69.

أما مولاي إسماعيل (1672-1717م) فقد أعاد بعث المدرسة البوعنانية الجميلة التي بنيت في أواسط القرن 14¹، كما تم إنشاء مدرسة باب قيرة في عهد سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790م)².

رابعا. تطور المدرسة في ليبيا حتى نهاية العهد العثماني:

1. تطور المدرسة في العهد الحفصي:

تعتبر المدرسة المنتصرية نسبة إلى السلطان محمد المستنصر الحفصي بتونس، أول مدرسة أنشئت في طرابلس الغرب والتي أنشأها الفقيه محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا الذي كانت بينه وبين السلطان الحفصي علاقة ود أثمرت بإنشاء هذا الصرح العلمي في قلب المدينة القديمة ما بين سنتي 655 - 658 هـ / 1257 - 1259 م، والتي اندثرت نتيجة لتدميرها في القرن 10 هـ / 16 م، ولم يبق لها أثر قائم الآن³ ولكن حسب وصف المؤرخ الحشائشي أنها كانت قرب مسجد قرجي عند مدخل باب البحر، ولا يفصل بينها وبينه إلا قوس ماركوس أديلوس الروماني الذي لاتزال أطلاله باقية منه إلى اليوم⁴.

ومما ذكره الرحالة والمؤرخون أنه كانت هناك مدارس كثيرة في طرابلس الغرب، منها ما ذكره الحسن بن محمد الوزان بقوله "كان في هذه المدينة قديما جوامع كثيرة وبعض المدارس والبيمارستانات لإيواء الغرباء والمساكين"⁵ والرحالة التجاني لما زار طرابلس ما بين سنتي 706 - 708 هـ / 1306 - 1308 م، يقول عنها: "وبداخل البلد مدارس كثيرة، أحسنها المدرسة المنتصرية... وهذه المدرسة من أحسن المدارس وضعاً، وأظرفها صنعا"⁶.

1. شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ج2، ص 303.

2. شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ج2، ص 311.

3. الهمامي مفتاح الهمامي، الوقف في ولاية طرابلس، منشورات جامعة 7 أكتوبر، ليبيا، 2010، ص 172.

4. محمد بن عثمان الحشائشي، رحلة الحشائشي إلى ليبيا، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، تقديم وتحقيق علي مصطفى المصراحي، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1965، ص 43.

5. الحسن الوزان، مصدر سابق، ج2، ص 98.

6. أبو محمد عبد الله التجاني، مصدر سابق، ص 251 - 252.

ويخمن الشيخ الزاوي صاحب المعجم، أن تكون هذه المدرسة هي التي وصفها ابن رشيد¹ حين مر بطرابلس في رحلته التي قام بها سنة 685هـ بقوله: "وبها مدرسة حسنة الوضع، رائعة الصنع، والمدينة بجملتها حسنة البناء متسعة الشوارع... اجتزت تلك الليلة... بشارعها الأكبر ولم أكن عرفت المدرسة فنفحني نسيم عاطر... فأقدمت على الدخول فوافيت وسطها روضة مخرقة من خدي احمر، قد استوى على سوقه، وناجى بعضه بعضا في بسوقه"².

2. تطور المدرسة في العهد العثماني:

ما يؤسف له أن كل المدارس التي بنيت في العهد الحفصي، التي أشار إليها الرحالة والمؤرخون اندثرت وحتى المدارس التي أنشئت في طرابلس في العصر العثماني الأول (1711/1551م) لم يبق منها سوى مدرسة عثمان باشا الساقزي³، المشهورة التي أسسها والي طرابلس عثمان باشا خلال فترة حكمه الممتدة من 1060، 1083هـ / 1649، 1672م وبالضبط سنة 1064هـ، 1654م رفقة العديد من المنشآت المعمارية المدنية والعسكرية في المدينة القديمة كسوق الربع، والحمام الكبير، والفندق الجديد، وبعض الاستحكامات العسكرية كالقلاع والأبراج، المدرسة المعروفة باسم مدرسة الشيخ عمر الجنزوري وهو من كبار علماء ليبيا وأحد أهم من درسوا بها⁴.

1. عالم أندلسي قام برحلته إلى المشرق سنة 658هـ، ودخل طرابلس يوم 13 ربيع الثاني من هذه السنة ورحل عنها من غده ووصف منها ما شاهده في ذلك اليوم، توفي سنة 725هـ أنظر: الطاهر أحمد الزاوي، معجم البلدان - الليبية، مكتبة النور، طرابلس، ليبيا، 1388هـ/1968، ص 304، 305.

2. الطاهر أحمد الزاوي، مصدر سابق، ص 305.

3. كان من المفروض أننا نتناول بالدراسة كل من مدرسة عثمان باشا الساقزي من الفترة العثمانية الأولى ومدرستي الكاتب وأحمد باشا من الفترة القرية مانلية كنماذج في فصل السادس من هذه الدراسة ولكن الظروف الأمنية غير المناسبة للعمل الميداني أدت إلى إلغاء هذا الفصل للأسف الشديد.

4. مسعود رمضان شقلوف وآخرون، موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا، ج1، تحقيق علي مسعود البلوش، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1980، ص 81.

في عصر الأسرة القره مانلية (1123، 1250هـ/1711، 1835م)، وعلى الرغم من حالة الركود الثقافي، فقد ظهرت العديد من الشواهد العلمية، تُمثّلت في نمو عدد من المدارس والزوايا والمساجد، فعرفت البلاد إنتاجا علميا طيبا.

فبالنسبة لأشهر المدارس نذكر مدرسة أحمد باشا القره مانلي (1123هـ/1711م) التي تقع بسوق المشير والملحقة بجامعه والتي كانت تضم عددا من الحجرات بلغ عددها 34 غرفة مخصصة لمبيت الطلاب الوافدين إلى المدرسة من المناطق الواقعة خارج محافظة طرابلس كما خصص لها مكتبة وحجرات للتدريس وبعض الحجرات المخصصة للمدرسين وأوقف أحمد باشا القرمانلي على هذه المدرسة أوقافا كثيرة جدا منها 173 حانوتا، ومقهى ومنزل، إيرادات هذه الأوقاف يتم إنفاقها على المدرسة، غير أن تلك الإيرادات انخفضت وأصبحت لا تغطي النفقات التي تصرف على المدرسة والسبب في ذلك راجع إلى الأعباء الكثيرة من قبل الولاة العثمانيين لتلك المؤسسات الفكرية وللحركة التعليمية الثقافية¹.

ومن شارك من العامة في بناء المدارس في طرابلس الشيخ مصطفى بن قاسم المصري الأصل الطرابلسي المولد والنشأة والوفاة، اشتهر بالكاتب وبالخوجة، بنى مدرسة ملحقة بالمسجد والمكتبة سنة 1183هـ/1769م، وعرفت باسم مدرسة الكاتب نسبة إليه² وأوقف عليها أوقافا عديدة تعتبر إيرادا للمدرسة تُمثّلت خصوصا في عدد من الحوانيت، وهي تقع داخل مدينة طرابلس القديمة.

ومما لا شك فيه أن هذه المدرسة كانت تعتبر من أكبر المدارس في مدينة طرابلس بما احتوته مكتبتها من مخطوطات وكتب مهمة جدا في مختلف أنواع المعارف، في التاريخ والطب والنحو والأدب والفقه والتفسير وغيرها من الكتب التي كانت تعتبر مرجع لكل دارس، ولحسن الحظ أن تبقى لنا هذه المدارس من عصر الأسرة القره مانلية في مدينة طرابلس، إلى جانب مدرسة زاوية عمورة في جنزور والتي أنشئت خلال عصر الأسرة القره مانلية أيضا.

مدرسة أخرى أنشأها مصطفى خوجة كبير الكتاب لدى والده الحاكم علي باشا القره مانلي عام 1183هـ/1769م³ وكسبت شهرة كبيرة، لدورها في تعليم أبناء المسلمين العلوم الدينية واللغة العربية، تقع بالقرب

1. عبد الله محمد الشريف ومحمد احمد الطوير، دراسات في تاريخ المكتبات والوثائق والمخطوطات الليبية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، ليبيا، 1987م، ص 101.

2. الطاهر أحمد الزاوي، أعلام ليبيا، مؤسسة الفرجاني، طرابلس، 1971م، ص 417.

3. عبد الله محمد الشريف ومحمد احمد الطوير، مرجع سابق، ص 69.

من مخزن الرخام في منطقة باب البحر بالمدينة القديمة، وتعتبر من ملحقات المسجد¹، وهي مشابهة لمدرسة أحمد باشا القرماني، وتشرف على شارعين هما شارع الكواشي والزنقة الضيقة.

وقد قام مصطفى خوجة بمهمة جليلة بعد إتمام بناءها وهي وقف مخطوطاته الخاصة بمكتبة المدرسة لتكون ملكاً للجميع، وبذلك حفظ بعض المخطوطات من الضياع وأعطى وصفا لكل كتاب حتى يمكن الرجوع إلى الوقف عند حدوث أي إشكال².

وفي سنة عام 1213هـ/1798م أنشأ الحاج سالم أبو الهول البغدادي مدرسة البخاخبة أو مدرسة الباروني³، نسبة لأحد أغنياء المنطقة الذي كان ينفق عليها، والتي لعبت دوراً ثقافياً بارزاً في نشر العلم والمعرفة وتحفيظ القرآن الكريم والعلوم النقلية والعقلية والعربية عبر تاريخها الطويل⁴، وهذه المدرسة تخرج منها العديد من طلاب العلم ومن أبرزهم الشاعر والعالم والفقير عمر بن عيسى التدميري⁵.

وهناك مدارس أخرى لا يقل دورها أهمية في مجال التعليم الديني خاصة خارج مدينة طرابلس، نذكر منها مدرسة أم يحيى بالرحيبات، التي تعد من المدارس الأولى لتعليم البنات حيث اشتملت على أقسام داخلية وأخرى إليها الفتيات القادمات من أماكن بعيدة ومن المناطق النائية وأقسام خارجي تحضر إليه الفتيات القريبات لتلقي العلم ثم يرجعن إلى أهلهن⁶، كذلك توجد مدرسة عمر بن أمكش بقرية فاطمان إحدى قرى الرحيبات وتعد هذه المدرسة أول مدرسة تم إنشاؤها في الجبل الغربي، ويعد مؤسسها من البارزين خلال تلك الفترة⁷.

1. سعيد علي حامد، مدارس طرابلس من الفتح العربي حتى 1911م، مجلة تراث الشعب، العدد 14، طرابلس، 1394هـ/1984م، ص 61.

2. عبد الله محمد الشريف ومحمد محمد الطوير، مرجع سابق، ص 70.

3. محمد سعيد البوجديدي، لمحات عن الحياة الثقافية بالجبل الغربي، مجلة البحوث التاريخية، السنة، العدد 02، طرابلس جوان 1998م، ص 108.

4. عمر أحمد مختار، النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي، 1971، ص 112.

5. كوستينان برنيا، طرابلس 1510 - 1850، ترجمة خليفة محمد التليسي، دار الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1969، ص 268.

6. عمر أحمد مختار، مرجع سابق، ص 113.

7. نفس المرجع، ص 112.

الفصل الثالث:

مدارس التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني

أولا. الجزائر في ظل الحكم العثماني

ثانيا. التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني

ثالثا. أهم مدارس التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني

1. مدرسة مازونة الفقهية بغيلزان

2. مدرسة خنق النطاح بوهران

3. المدرسة الناصرية بخنقة سيدي ناجي بيسكرة

4. مدرسة سيدي الكتاني بقسنطينة

رابعا. أهم المدارس العثمانية المندثرة بالجزائر

1. المدرسة القشاشية في العاصمة

2. مدرسة الأندلسيين بالعاصمة

3. مدرسة شيخ البلاد بالعاصمة

4. المدرسة المحمدية بمعسكر

5. مدرسة القيطنة بمعسكر

6. مدرسة جامع الكبير بالعاصمة

أولاً. الجزائر في ظل الحكم العثماني (1518-1830م):

1. الفتح العثماني للجزائر:

من المعلوم عند العام والخاص أن الدولة العثمانية وقفت كسور منيع في طريق التوسع الأوروبي في العالم الإسلامي طوال أربعة قرون من الزمن، كما عملت الدولة العثمانية على توحيد صفوف المسلمين في العديد من الدول، هذا ما جعل الدول الغربية تتخوف من وحدة المسلمين وتكاتفهم من جهة وتحقد على الدولة العثمانية من جهة أخرى، ولهذا يعتبر العثمانيون في نظر الدول العربية بمثابة أبطال ساعدوا الدول العربية الضعيفة، مقارنة بأوروبا على التخلص من هيمنة الأوروبيين وتفضيلهم على الغزاة المحتلين لأراضيهم¹.

أ. دوافع التواجد العثماني بالجزائر:

لم يكن ليوجد الأتراك في الجزائر لولا غزو الإسبان لها ولم يتوصل الإسبان إلى احتلال بعض أجزائها إلا باستغلال الضعف والانحطاط الذي عرفته الجزائر في أواخر عهد الدولة الزيانية، فدخل أمراؤها في صراع على العرش، ولم تعد تملك هذه الدولة من النفوذ إلا تلمسان وبعض أجزاء المناطق العربية، فعجزت عن مقاومة الغزاة وأجبرت على عقد الصلح مع الإسبان سنة 1512م اعترفت فيه باستيلاء الإسبان على عدة موانئ في غرب الجزائر (احتلال الإسبان للمرسى الكبير في شهر أكتوبر 1505م، ومدينة وهران في شهر ماي 1509م، وبجاية يوم 6 جانفي 1510م، ومستغانم 1511م)، كما فرض الإسبان الجزية (الضرائب) على سكان هذه المدن الساحلية وإجبارهم على تمويل حروبهم الاستعمارية².

ومن هذا المنطلق نخلص إلى أن لظهور الأتراك بالجزائر كان له دور فعال في إنقاذ هذا البلد من احتلال اسباني واقع لا محالة، لذلك قبل السكان بالانضواء تحت لواء الخلافة العثمانية بإسطنبول، وما من شك أن رابطة الدين هي التي كانت الدافع الرئيسي للاستنجاد بالأخوين عروج وخير الدين وتلبيتهما النداء³، خاصة وأن الصراع آنذاك كان على أشده بين المسلمين والصلبيين - كما سبق الذكر - وعليه فقد بذل العثمانيون

1. عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997م، ص 51.

2. أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492 - 1792م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 1965م، ص 163.

3. عمار عمورة، موجز في تاريخ الجزائر، ط1، دار ربحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م، ص 88.

جهودا تحفظ لهم في التاريخ من أجل حماية الجزائر من التحديات الاستعمارية طوال ثلاثة قرون، كما ساهموا في إنقاذ تونس وليبيا من الاستعمار الفرنسي لفترة أطول من الجزائر¹.

ب. إلحاق الجزائر بالخلافة العثمانية:

قبل وصول العثمانيين إلى المنطقة، تعرض المغرب العربي عامة والجزائر بخاصة إلى التهديد الإسباني بعد أن تمكنوا من إنهاء الحكم الإسلامي في الأندلس سنة 898هـ/1492م، واحتلوا أجزاء واسعة ومهمة من الجزائر بين سنتي 910، 918هـ/1505-1513م، وأدخلوا تحت سيطرتهم عددا من المدن الساحلية الواقعة على البحر المتوسط من بينها مدينة الجزائر ووهران والمرسى الكبير وجيجل وتلمسان وبجاية، إذ لم تكن بالمنطقة أي قوة بوسعها التصدي لهم وإيقافهم²، فبلاد القبائل الكبرى كانت تحت حكم زاوية بلقاضي، ومدينة الجزائر تحت سلطة الثعالبة، والقبائل الصغرى تحت نفوذ بني عباس، وبجاية وقسنطينة تحت الحكم الحفصي، أما الصحراء ومناطق الأوراس.

فكانت إمارات مستقلة، ونفس الحال ينطبق على مناطق تنس والشلف ومليانة، وتلمسان ووهران تحت الحكم الزياني³، حتى مجيء الإخوة عروج وخير الدين اللذين كانا يقومان بنشاطهما البحري في بحري إيجه والمتوسط حتى وصلا إلى الجزائر وبوصلهما بدا عهد جديد من تاريخ الجزائر والمغرب العربي على السواء⁴.

تولى عروج وجنوده مهمة الدفاع عن الجزائر إلى غاية استشهاده سنة 923هـ/1518م إثر معركة دارت بينه وبين الإسبان خارج تلمسان وبالتحديد بواد المالح بنواحي عين تموشنت⁵، جعل خير الدين الذي كان إثرها متواجدا بمدينة الجزائر يعلن عزمه على السفر من أجل الغزو ومواصلة الجهاد ضد الكفار، ما جعل جمع من أهل

1. نادية محمود مصطفى وآخرون، *خبرة العصر العثماني: من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية*، ج1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996م، ص 44.

2. مؤيد محمود حمد المشهداني ومحمد سلوان رشيد رمضان، *أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني*، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 16، مجلد05، كلية الآداب، جامعة تكريت، العراق، أبريل 2013م، ص 415.

3. عمار عمورة، مرجع سابق، ص 88.

4. أحمد توفيق المدني، *هذه هي الجزائر*، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1984م، ص 69.

5. مارمول كرنخال، *إفريقيا*، ج2، ترجمة محمد حجي وآخرون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، 1988م، ص 364.

الجزائر من العلماء والصلحاء يطلبون منه البقاء من أجل مساعدتهم في صد الهجمات الإسبانية¹، لكن خير الدين وضح مجموعة من الشروط من أجل بقاءه، وافق عليها أعيان وسكان الجزائر، قائلاً لهم أنتم رأيتم ما وقع من الملاعين الكافرين ولا يؤمن عواملهم، وقد ظهر لي من الرأي أن نصل يدنا بطاعة السلطان الأعظم مولانا سليم الأول، فيمدنا بالمال والرجال وجميع ما نحتاج إليه من آلة الجهاد، ولا يكون إلا بصرف الخطبة إليه وضرب السكة عليه².

بعد هذا أرسل أعيان الجزائر وثيقة³ (الصورتين 1 و 2) إلى السلطان سليم يعرضون فيها رغبتهم في ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية يحملها وفد ذهب إلى إستانبول على رأسهم الفقيه أبو العباس أحمد بن القاضي، فأحسن السلطان استقبالهم، ثم أرسل فرماناً يعلن فيه قبوله لعرض الجزائر، وبعث إلى خير الدين بفرمان تعيينه بايلربايا على الجزائر، كما بعث إليه بالخلعة السلطانية، والراية مع 2000 جندي وهكذا أصبحت الجزائر إيالة تابعة للدولة العثمانية، وقرأت الخطبة منذئذ باسم السلطان العثماني سليم الأول⁴.

وبتعيين خير الدين كأول حاكم تركي على الجزائر من طرف السلطان العثماني صار يلقب بـ "بايلرباي" (أمير الأمراء)، وتحول من مجرد أمير البحر إلى رئيس دولة مرتبطة بالإمبراطورية العثمانية ومتحالفة معها ضد إسبانيا زعيمة العالم المسيحي، وقوة يحسب لها حساب كبير على المستوى الدولي⁵.

1. خير الدين بربوس، المذكرات، ط1، ترجمة محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص 117.
2. ابن رقية التلمساني، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، ط1، تحقيق خير الدين سعيد الجزائري، مؤسسة أوراق ثقافية للنشر والتوزيع، جيجل، الجزائر، 2017م، ص 107.
3. قام الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي التونسي بترجمة هذه الوثيقة المحفوظة في دار المحفوظات التاريخية بإستانبول، (متحف طوب قابي سيبري)، تحت رقم 4656، هذه الوثيقة المؤرخة في أوائل شهر ذي القعدة عام 925هـ، في الفترة من 26 من شهر أكتوبر إلى 3 من شهر نوفمبر عام 1519م، وكتبت بأمر من خير الدين إلى السلطان سليم بعد عودته من مصر والشام إلى إستانبول، وكان الغرض من تلك الرسالة ربط الجزائر بالدولة العثمانية، أنظر: عبد الجليل التميمي، رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1915م، المجلة التاريخية المغربية، العدد 5، مطبعة الاتحاد العام للشغل، تونس، 1976م، ص 95، أنظر كذلك فحوى الوثيقة من خلال الملحق المرفق أسفله.
4. عمار بوحوش، مرجع سابق، ص 53.
5. عزيز سامح أتر، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، ط1، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1989م، ص 72.

رسالة اهالي الجزائر الى السلطان سليم النول (1519م)

ترجمة رسالة القاضي والخطيب والقهاء والأئمة والتجار والامناء وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة:

اتنا ندعوا بوسعنا والتصبر لمقام السلطنة العلية، دعاء تهلته أقصى الامقي، معبرين لمقامكم العلي بالاجلال والتعظيم ابدا، وان رسالتنا هذه لا تستطيع ان تستعرض كل الأسرار، ان سعادت ايامكم هي فرحتنا ونحن نراكم اموركم وطاعتكم مستبشرين وعلينا لا محالة اعتمادنا، فلما خارتنا مخلص لكم أولا واخرا فقد اطلعنا امركم و"خادمكم" وهم ليس لهم غير جنابكم برقعون اليه غاية الاجلال والتقدير وليس لهم من قصد غير شريف مقامكم العلي.

لقد مرت حوادث جليلة وايها اخبار طويبة في تصير المؤمنين و هزيمة اعداء الله، ومفادها ان طغفة الطاغية لما استولت على بلاد الاندلس، انتقلوا منها الى قنعة وهران للاعتماد على سائر البلاد، غير انه بعد استيلائهم على بجاية و طرابلس بقيت الجزائر (بين الكفار) كالثقلبة في وسط البادية ، وبقينا لذلك حيارى محتلسين بخلنا الكفار من كل جانب ولكن تمسكتا بحبل الله المتين والكلنا عليه، غير ان طغمة الطاغية شددت علينا الغلاب هدية ادخلتنا تحت نتمته (مسلطته) ، و قد نظرتا في الامر و رابنا ان المحن والشدة تشدك وان الضرورة تقضي بحسن دماء انفسنا وخوفنا على حريمنا و اموالنا و اولادنا من السبي والتفريق، تصالحنا مع الاهل الكليلث و انا لله و اتنا اليه راجعون.

و بعد هذه المضايقة والحصر دخل الكفار الى وهران و بجاية و طرابلس و كان قديمهم ان يتوا بسقيهم ويستولون علينا و يأسرونا و يقتلون شمتنا فجاء، انذاك قدم ناصر الدين و حامي المسلمين المجاهد في سبيل الله "عروج باي" مع ثمة من "نقرا"، فقاتلناه بغير و الاكرام و استغنا، لثنا كنا في خوف (من صونا) فخلصنا بفضل الله، و "عروج باي" المشرف اليه جاءنا من تونس ليقظ بجاية من يد الكفار و تاهلها بالمسلمين، فلما وصل الى القلعة و حاصرنا مع المجاهد الفقيه الصالح ابو العباس احمد بن القاضي زلزوا اركانها و خدموا ببناتها، و شاهد الكفار عنما دخل المسلمون و هاجمهم و استولوا غوة

على برج منها، اختلال بنيتهم و قرب حقتهم هرب بعض الكفار الموجودين بالقلعة و قتل الباقون منهم.

لقد حارب المسلمون الكفار اثناء الليل و اطراف النهار من طلوع الشمس الى غروبها، و على الرغم من ترك بعض من جماعة عروج القتل، بقي المشرف اليه يقتل الكفار مع جماعة قليلة، و كان قد عزم على لقائنا غير انه وقع شهيدا في حرب ثلمسان رحمه الله، وقد حل مكانه اخوه المجاهد في سبيل الله ابو التقي "خير الدين" و كان له خير خلف، فقد دافع عنا و لم نعرف منه الا العدل و الإنصاف و اتباع الشرع النبوي الشريف، و هو ينظر الى مقامكم العلي بالتعظيم و الاجلال و يكرس نفسه و ماله للجهاد لرضاء رب العباد و اعلاء كلمة الله و مناهة آياته سلطنتكم العلية مظهرا لاجلالها و تعظيمها، على ان محبتنا له خالصة و نحن معه ثابتون،

و كيف لا نحبه و هو العشر من ساعد الجد و الإقدام، و يقود الجهاد معنا في سبيل الله بنية خالصة و قلب صادق متفق الكلمة معنا في الشدة و الرخاء لأعلاء كلمة الله، فالعقيدة الإيمانية كوكب و هاج و دليل واضح المنهاج، و مفاد ما يريد "خادمكم" اعلامه لمقامكم العلي هو ان "خير الدين" كان قد عزم قصد جنابكم العلي إلا ان عرفاء البلدة المذكورة رفعت ايديها "متمصرة" اليه حتى لا يرحل خوفا من الكفار إذ هفهم هو "التليل منا" و نحن على غاية الضبط و البلاء، و لهذا ارسلنا الي بايكم العلي الفقيه العالم المدرس سي ابو العباس احمد بن علي بن احمد و نحن و اميرنا خدام اعبابكم العلية و اهالي اقليم بجاية و القرب و الشرق خدمة مقامكم العلي و ان المذكور حامل المکتوب سوف يعرض لحضرتكم ما يجري في هذه البلاد من حوادث و السلام . اول ذي القعدة 925هـ .

و قد ارسل أيضا المنزوي و المعتكف بجامع الأعظم بمدينة الجزائر عبيد الله و خدام قراء أهل السنة محمد بن منصور بن علي الحنفي، رسالة يذكر فيها بضعف القوم في أرض غريته، أنهم على وشك الهلاك عندما قدم خير الدين و قد وقعوا في المحن المرة تلو الأخرى ايام الاضطرابات و أنهم يقفون على الدعاء بدوام ايام دولة السلطان.



الصورة رقم 1 : الرسالة الأصلية التي توجت إلى اللغة العثمانية

وهي ما زالت موجودة بالأرشيف العثماني. عن التميمي

الصورة رقم 2 : ترجمة إلى العربية للرسالة قام بها

ونشرها الباحث التونسي عبد الجليل التميمي.

الجدير بالذكر أن تحالف خير الدين مع العثمانيين مكنه من أن يغير مجرى الأمور بشمال إفريقيا، ويوحد هذه البلاد بحيث تمكنت القوات الجزائرية والعثمانية من إخراج الأسبانيين من تونس وطرابلس في القرن 16، كما ساعد خير الدين فرنسا على تحرير ميناء نيس من القوات الأسبانية المرابطة به وذلك سنة 1543م¹.

كما استطاع خير الدين أن ينتصر على الأسبانيين في هجومهم العنيف على مدينة الجزائر سنة 1519م، كما تمكن من تخطيط برج الفنار (البنيون) في 16 ماي 1529م، الذي كان كابوسا جاثما على صدور سكان مدينة الجزائر مدة 19 سنة²، وبعد أن حطم البرج أقام على أنقاضه رصيف طوله 200م وعرضه 25م وارتفاعه 4 أمتار، وربط الجزيرة بالشاطئ وصار للمدينة ميناء يحمي سفنها الراسية من الرياح الشمالية الغربية³.

وقد اتخذ خير الدين من مدينة الجزائر عاصمة له بعدما أبرم معاهدة سلام مع سلطان قبائل كوكو بن القاضي عام 932هـ / 1526م⁴، وبسط سلطانه في مدة قصيرة على معظم البلاد، بعد القضاء على الثورات التي كانت تدبر ضده من الداخل، ونجح في الاستيلاء على المدن المتبقية من الجزائر (القل وقسنطينة عام 1521م، عنابة 1522م والحضنة والقبائل ومتيجة عام 1525م)⁵.

يذكر أن السلطان العثماني سليمان الأول (القانوني) استدعى خير الدين عام 941هـ / 1535م إلى القسطنطينية وعينه قائدا عاما للأسطول البحري التركي، ووضع تحت تصرفه البوارج الحربية والمعدات العسكرية التي كسرت شوكة الإسبان في تونس وطرابلس والجزائر، وبقي في هذا المنصب حتى وافته المنية عام 1546م عن سن يناهز 80 سنة، وفي الوقت الذي تغيب فيه خير الدين عن أرض الجزائر وانشغاله بتنظيم البحرية التركية قام بتعيين ابنه حسن باشا قائدا للجزائر⁶.

1. محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس، 1512-1543م، ط1، تصدير ناصر الدين سعيدوني، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص180.

2. يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، الجزائر الحديثة، ط2، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009م، ص69.

3. Henri Delmas de Grammont, **Histoire d'Alger sous la domination turque**, Edition Leroux, Paris, 1887, p 35.

4. كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1830م، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص41.

5. محمد دراج، مرجع سابق، ص227.

6. خير الدين بربروس، مصدر سابق، ص122، كذلك ابن رقية التلمساني، مصدر سابق، ص110.

2. مراحل النظام السياسي في الجزائر خلال الحكم العثماني:

استمر الحكم التركي للجزائر من عام 923هـ/ 1518 إلى غاية تاريخ الاحتلال الفرنسي عام 1245هـ/ 1830م، حيث مر بأربعة عهود أو فترات مختلفة، وكل مرحلة تميزت بأسلوب معين في تسيير شؤون البلاد، لكن قبل الخوض في طبيعة وخصائص كل حكم لا بأس أن نشير إلى نقطتين مهمتين:

- الجزائر كانت بعيدة عن القسطنطينية وبالتالي كانت تسيير من طرف بعض العناصر القوية في مدينة الجزائر.

- كانت هناك فئتين أو طبقتين سيطرت على الجزائر طيلة الحكم التركي بها، ففي المرحلة الأولى منه كانت الطبقة الحاكمة بالجزائر هي فئة الرياس البحرية¹، أما الفئة الثانية التي سيطرت على الجزائر لمدة طويلة فهي فرقة اليولداش المتكونة من الجيش البري (الانكشاريين)، وكان اليولداش لا يشعرون بالانتماء إلى الجزائر، والشيء المهم بالنسبة لهم هو السيطرة على البلاد وقتل كل من يعترض طريقهم، والحقائق التاريخية تؤكد أنهم كانوا يخلعون الحاكم الذي لا يرضيهم و يضعون بدله الشخص الذي يروق لهم، علما أن نفوذهم في الجزائر لم ينته إلا في سنة 1817م عندما قام الداوي علي خوجة بحملة ضدهم².

أ. عهد البايلربايات (أمير الأمراء 924هـ، 995هـ/ 1519، 1587م):

بدأت هذه المرحلة بعد استشهاد بابا عروج سنة 1519م فخلفه أخوه خير الدين بربروس، الذي تم في عهده ربط الجزائر رسميا بالدولة العثمانية وتعيينه بايلرباي عليها سنة 1519م وتمتد حتى سنة 1588م أي حوالي 70 سنة³، ويمثل هذا العصر أزهى عصور الحكم التركي في الجزائر، حيث ازدهرت البلاد في هذه الفترة من النواحي التعليمية والاقتصادية والعمرائية، وذلك بفضل التعاون بين فئة الرياس في القيادة وأبناء الجزائر⁴، وقد ساهم في تنمية البلاد وازدهارها مهاجرو الأندلس الذين وظفوا خبراتهم ومهاراتهم في ترقية المهن والبناء العمراني وتقوية الاقتصاد الجزائري⁵.

1. محمد ابن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، ط2 تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 42.

2. أحمد شريف الزهار، المذكرات، ط2، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.

3. أحمد السليماني، النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، مطبعة دحلب، حسين داي، الجزائر، 1993م، ص 10.

4. بسام العسلي، خير الدين بربروس والجهاد في البحر 1470-1547م، ط1، دار النفائس، بيروت، 1980م، ص 131.

5. علي محمد الصلاحي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الأمير عبد القادر تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، موسوعة كفاح الشعوب، ط1، دار المعرفة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2017م، ص 243.

ويمكن تلخيص عصر البايلربايات من خلال أبرز خصائصه وإنجازاته كالتالي:

- دام عهد البايلربايات مدة 70 سنة.
- يأتي قرار تعيين الحاكم في الجزائر من طرف السلطان العثماني.
- كانت السلطة في يد رياس البحر أو جنود البحرية.
- تحرير برج الفنار بمدينة الجزائر عام 935هـ / 1529م من الإسبان، وتحرير بجاية عام 962هـ / 1555م، وإنهاء الوجود الاسباني في تونس عام 981هـ / 1574م.
- ازدهرت الجزائر في هذه الفترة التي تميزت الحياة السياسية فيها بالاستقرار وتحالف الجميع ضد العدو الاسباني
- بداية بناء الأسطول الجزائري وتأسست فيها الوحدة الإقليمية للجزائر¹.

أهم الأحداث التي شهدتها فترة البايلربايات في الجزائر:

- على الصعيد الداخلي:

امتازت هذه مرحلة على المستوى السياسي الداخلي بالقوة وتوطيد ركائز الحكم، وتوحيد رقعة البلاد، حيث استطاع البايلربايات أن يحققوا الوحدة الإقليمية والسياسية للجزائر، التي امتد نفوذها وسيطرتها إلى كل الجهات شرقا وغربا وجنوبا، والقضاء على كل الإمارات المحلية: إمارة تلمسان، الإمارات الحفصية في قلعة بني عباس، قسنطينة وعنابة، وإمارة ابن القاضي في جبل كوكو بالقبائل²، ويعد صالح ريس البطل في تحقيق هذه الوحدة، لاجتهاده في مد نفوذ الأتراك إلى واحات الجنوب وقضى على الدولة الزيانية بتلمسان، وقام بفرض طاعة سلطة الجزائر على كل المناطق³.

وفيما يخص تنظيم البلاد إداريا فقد كان لجهود صالح ريس أثر في ذلك بعد أن امتد نفوذ السلطة التركية إلى معظم المناطق الشرقية والغربية والجنوبية للجزائر، حيث اهتم البايلرباي حسن باشا ابن خير الدين في ولايته الثانية بتنظيم إدارتها، إذ قسمها إلى أربعة بايلكات (عمالات):

1. عمار بوحوش، مرجع سابق، ص 58.

2. هو أبو العباس أحمد بن القاضي المدعو بوقطاش من الرجال الجزائريين السياسيين والعلماء كان في أول الأمر واليا على مدينة عنابة وعند استيلاء الإسبان على بجاية سنة 1510م أمره السلطان الحفصي بالالتحاق بعروج لطرده الأجنبي منها وأسس إمارة جبل كوكو سنة 1511م قتل من قبل جنوده سنة 1525م، أنظر: أبي راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، مصدر سابق، ص 32.

3. عمار عمورة، مرجع سابق، ص 93.

- بايلك الجزائر ومركزها مدينة الجزائر (دار السلطان).

- بايلك الشرق ومركزها مدينة قسنطينة.

- بايلك التيطري ومركزها مدينة المدية.

- بايلك الغرب ومركزها مدينة مازونة ثم معسكر ثم وهران¹.

أما على المستوى الاقتصادي والعمري، فقد اهتم البايبربايات بتشييد المساجد وسخروا الأوقاف الطائلة على مشاريع البر والإحسان، وشهدت مدينة الجزائر العاصمة خاصة حركة عمرانية كبيرة، بالإضافة إلى بناء الحصون، المدارس، القصور، حمامات، مستشفيات، وقلاع ضخمة لا تزال آثارها شاهدة إلى الوقت الحالي².

ومن الناحية الاقتصادية امتازت البلاد بغناها الاقتصادي الكبير مصدره الثروات الزراعية والحيوانية، وما يأتيها من أموال الزكاة على الماشية والحبوب والزيتون وأنواع المداخيل الأخرى من رسوم وضريبة الصادرات وخمس غنائم البحر التي كان يغنمها الرياس وأموال الجزية التي كانت مفروضة على الدول الأوروبية³، كما عرفت الصناعة تطورا كبيرا مثل: صناعة النسيج، البرانس، الزرابي، والحياك، العمائم، المناديل والأحزمة وصناعة المعادن، السفن، العربات والخناجر والبندق، وأدوات أخرى كالصوف والشمع والجلود والحلي وغيرها⁴.

- على الصعيد الخارجي:

كان ولاية هذا العهد كلهم أقوياء اثبتوا جدارتهم سواء في الداخل أو الخارج، وبفضل مركزهم ومكانتهم مدوا سيطرتهم على تونس، وتحكموا في تسييرها والوصاية عليها، بغرض ضمان مسايرة الحكام التونسيين للزعامة

1 . Mouloud Gaid, Chronique des beys de Constantine, Office des publications universitaires,

Alger, 1978, P13.

2. عائشة جميل، الجزائر والباب العالي من خلال الأرشيف العثماني 1520-1830م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2017-2018م، ص 62.

3. مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 3، مكتبة النهضة، الجزائر، 1964م، ص 128.

4. شالر وليام، مذكرات فنصل أمريكا (1816/1824)، ترجمة وتعليق العربي إسماعيل، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،

1982م، ص 93، 94.

الجزائرية ضمن الإطار العام للحكم العثماني، وبحكم لقبهم البايبراي كانوا يعينون باشاوات تونس وطرابلس، وذلك نيابة على الدولة العثمانية وكذا من يخلفهم بالجزائر عندما ينتقل أحدهم¹.

أما على مستوى العلاقات السياسية الخارجية فقد استطاعت الجزائر بفضل امتلاكها لأسطول قوي، أن تفرض إرادتها على الدول الأوروبية وإرغامها على دفع إتاوات مقابل ضمان الأمن والسلام لمراكبها في حوض البحر الأبيض المتوسط، حيث استفحل في تلك الفترة نشاط القرصنة في البحر المتوسط وبالتالي كانت علاقة الجزائر مع أوروبا في هذه الفترة علاقة القوي بالضعيف، وكانت الجزائر بطبيعة الحال هي القوية².

ومن جهة أخرى تنافست الدول الأوروبية على إقامة علاقات دبلوماسية وتجارية مع الجزائر، لكن هذا التفوق العسكري جعلها مستهدفة من طرف الدول الأوروبية التي عملت دون هوادة من أجل تكسير شوكتها وتقليص دورها ومكانتها الدولية، وهذا ما تم تجسيده في مؤتمر فيينا 1815م وايكس لاشابيل سنة 1818م³. وعلى صعيد آخر اشتدت في هذه الفترة الحملات الإسبانية على الموانئ الجزائرية، حيث شنت اسبانيا حملة ضخمة على مدينة الجزائر وهي حملة أندريا دوريا في 1530م⁴، وحملة شارلكان الشهيرة سنة 1541م، باءت كلها بالفشل⁵.

كما شهدت فترة البايبرايات بداية تسرب النفوذ الفرنسي إلى الجزائر، نتيجة للعلاقات الطيبة التي كانت تربط بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية، وبسبب عدااء الجزائريين والأتراك للإسبان، إضافة إلى تنافس فرنسا التقليدي حول وراثته مشاكل القارة الإفريقية⁶.

1. وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب عبد القادر زيايدة، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007م، ص 163.

2. عائشة جميل، مرجع سابق، ص 208.

3. مؤتمر إيكس لاشابيل تقرر فيه إقناع الايالات المغربية الثلاث بإلغاء القرصنة وإبطال استرقاق الأوروبيين، كما تقرر تكليف سفراء الدول المشاركة في المؤتمر (فرنسا، بريطانيا، روسيا وبروسيا والنمسا) في إستانبول للتفاوض مع الباب العالي لإقناع الايالات المغربية بالتخلي عن سياستها وإلا ستضطر إلى استعمال القوة، أنظر: خليفة إبراهيم حاش، العلاقات بين ايةال الجزائر والباب العالي من سنة 1798م إلى 1830م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1988م، ص 219.

4. عزيز سامح أتر، مرجع سابق، ص 94.

5. نفس المرجع، ص 163.

6. عائشة جميل، ص 167.

وتعود العلاقات الطيبة بين الدولتين إلى أيام السلطان سليمان القانوني وفرانسوا الأول، حيث حصلت فرنسا على امتيازات واسعة في أملاك الخلافة العثمانية عام 941هـ/ 1535م، ومن أهم هذه الامتيازات نذكر صيد المرجان بالسواحل الشرقية الجزائرية (القالا، عنابة والقل)¹، وقاموا بإنشاء حصن القالة الفرنسي سنة 968هـ/ 1561م، وتدعم ذلك الامتياز بعد توقيع معاهدة السلم والتجارة بين الطرفين في عام 1037هـ/ 1628م، مع العلم أن هذه الامتيازات تسببت في إحداث أضرار جسيمة للتجارة الجزائرية التي أصبحت موجهة لخدمة الأسواق الأوروبية، كما شارك الأسطول الجزائري الناشئ في الحرب الفرنسية ضد اسبانيا².

| اسم البايلرباي | فترة حكمه | اسم البايلرباي | فترة حكمه |
|--------------------------|------------|---------------------|------------|
| بابا عروج | 1515-1517م | خير الدين بربروس | 1517-1531م |
| حسن آغا | 1531-1545م | حسن بن خير الدين | 1545-1551م |
| صالح راييس باشا | 1551-1556م | محمد باشا تكا أوغلي | 1556م |
| حسن بن خير الدين الثانية | 1556-1561م | أحمد بستانجي باشا | 1561م |
| حسن بن خير الدين الثالثة | 1561-1567م | محمد باشا بن صالح | 1567-1569م |
| علي باشا | 1569-1571م | عرب أحمد | 1571-1574م |
| رمضان باشا | 1574-1577م | حسن باشا علج قبطان | 1577-1580م |
| جعفر باشا | 1580-1581م | علي باشا.. الثانية | 1581-1582م |
| رمضان باشا.. الثانية | 1582م | محمد باشا قلعج | 1582-1585م |

الجدول رقم 1: البايلربايات الذين حكموا الجزائر*

1. مبارك الميللي، مرجع سابق، ص 130.

2. Albert Devoulx, *Les Archives du consulat général de France à Alger*, Recueil de documents inédits concernant soit les relations politiques de la France, soit les rapports commerciaux de Marseille avec l'ancienne régence d'Alger, Marseille, 1863, p2.

*. اعتمدنا في سرد قوائم حكام الجزائر خلال الفترات الأربعة من الحكم العثماني في الجزائر على ما ورد في كتاب حسين ابن المفتي، تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، ط1، جمع وتحقيق فارس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر، 2009م، ص 39.

ب. عهد الباشاوات (995، 1069هـ/1587-1659):

قبل البدء في الحديث عن خصائص هذا العهد، وأهم الأحداث التاريخية التي جرت فيه، لابد من الإشارة إلى أسباب تغيير النظام السابق:

لقد كان ولاية البايبراي أقوياء وأصحاب نفوذ واسع، تحطت سلطتهم الجزائر إلى تونس وطرابلس حتى حدود مصر، بحكم أنهم أصحاب فضل في فتح هذين البلدين وإحاقهما بالدولة العثمانية التي كافأهم على ذلك بإعطائهم امتيازات واسعة¹، ولما كانت مدة حكم هؤلاء البايبرايات غير محدودة فكثيرا ما تمتد فترة الواحد منهم عدة سنوات في منصبه ويصبح صاحب مركز قوي ونفوذ واسع لدرجة أن الدولة العثمانية بدأت تشم رائحة التمرد ومحاولة الانفصال عنها، والاستقلال بهذه البلاد، فتقرر تقصير مدة حكم الوالي إلى ثلاث سنوات فقط وتخفيض امتيازاته السابقة واختصاصاته، وتغيير لقبه إلى الباشا².

ويذكر بعض المؤرخين أن الإنكشارية هي التي ظلت تثير تخوفات وشكوك الباب العالي في نية البايبرايات طوال فترة حكمهم، الأمر الذي جعل من رجال الدولة العثمانية يرون أن السلطة في الولايات الثلاث: الجزائر، تونس، وطرابلس تحت حكم رجل واحد قد يشكل خطرا على الإمبراطورية العثمانية، وبالتالي لابد من تقسيم الحكم وفصل الولايات عن بعضها البعض، وإسناد كل إدارة إلى باشا يحكم لمدة ثلاث سنوات، وذلك لإحكام السيطرة على البلاد ومنع حدوث أي تمرد ضدها³.

وعلى صعيد آخر فإن هذا التغيير (تغيير النظام السابق البايبرايات إلى الباشاوات) يعود إلى الصراع القائم بين طبقة الرياس وجنود الإنكشارية⁴، وذلك منذ نشأة الدولة الجزائرية التي قامت وتأسست على أكتاف رجال طائفة الرياس مثل خير الدين ومن خلفه، وعليه أراد السلطان العثماني أن يخفف حدة النزاع بين الفئتين وخاصة

1. أحمد السليماني، مرجع سابق، ص 10.

2. نفس المرجع، ص 12.

3. عزيز سامح أتر، مرجع سابق، ص 276.

4. شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ص 335.

أن فئة البيولداش (الإنكشارية) كانت مستاءة من تمتع فئة جنود البحرية بلقب البايلربايات أو أمير الأمراء، ولذلك قرر السلطان العثماني مراد الثاني، إلغاء هذه الرتبة وتعويضها برتبة أخرى هي رتبة الباشا¹.

وقد تميزت هذه المرحلة من مراحل الحكم العثماني في الجزائر بما يلي:

- تعيين باشا تركي في كل من الجزائر وتونس وطرابلس، بعد أن كان هناك حاكم واحد للمنطقة يوجد مقر حكمه بالجزائر.
- يقوم السلطان العثماني بتعيين باشا كل ثلاث سنوات يقوم بإرساله من تركيا ويستدعيه بعد انتهاء فترة تعيينه، على أن يقوم بإرسال باشا آخر² من هناك، وبالتالي أصبح كل باشا يشعر أنه ليس في حاجة إلى ولاء الشعب مادامت مدة ولايته محدودة، فأصبح همه الوحيد هو جمع أكبر قدر ممكن من الأموال طوال فترة حكمه، ومادام الحصول على الثروة هو الهدف الأساسي للباشاوات فقد أصبحت قضية الحكم مسألة ثانوية لا تهمهم فتفتشت ظاهرة شراء منصب الباشوية بالأموال والهدايا³.
- إن انصراف الباشاوات إلى السلب والنهب وجمع الثروة قبل عودته إلى القسطنطينية، دفع بالبيولداش أو رجال الجيش البري أن يثوروا عليهم ويضعفوا نظام الحكم في الجزائر.
- بدأت تظهر الخلافات والتناقضات بين جنود البحرية الجزائرية وجنود البحرية العثمانية، وخاصة عندما حاول الأتراك أن يخضعوا المصالح الجزائرية لمصالح الإمبراطورية العثمانية كما ظهر التصادم والتنافر بين جنود البحرية وجنود القوات البرية، وخاصة أن رجال البحرية كانوا يحصلون على غنائم كبيرة من جراء غاراتهم البحرية الناجحة على أساطيل القوات الأوروبية، وهذا الصراع هو الذي تسبب في إضعاف الدولة الجزائرية⁴.

1. الباشا معناها رئيس الرؤساء ومشتقة من "باد شاه" الفارسية وهي كلمتان باد تعني العرش وشاه صاحب أي صاحب العرش، استخدمت كلقب لحكام الولايات، كما أطلقت على رتب متعددة عسكرية ومدنية، كما أطلقت على العسكريين الحائزين على رتبة عليا كأمير، لواء، فريق ومشير، أنظر: محمود عامر، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، العددان 117، 118، قسم التاريخ، جامعة دمشق، حزيران 2012م، ص 368.

2. عمار عمورة، مرجع سابق، ص 97.

3. صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، 1514-1830م، ط2، دار هومة للنشر، الجزائر 2007م، ص 107.

4. عمار بوحوش، مرجع سابق، ص 58، 59.

- برزت قوة الرياس أو قوة رجال البحرية الجزائرية إلى درجة أن دول أوروبا أصبحت تخشى الجزائر وتسعى لإقامة علاقات تعاون معها¹.
- اعتلى الحكم خلال عهد الباشاوات ثلاثة وأربعون (43) حاكما كلهم من أصل أجنبي أي ليسوا جزائريين، ولكن تربطهم بهم رابطة الإسلام²، ومن بين أبرز الأحداث التي شهدتها الجزائر في عهد الباشاوات على الصعيد الداخلي والخارجي نذكر:

- على الصعيد الخارجي:

- عمل باشاوات الجزائر على وضع حد لامتيازات التجار الفرنسيين بسبب تأييد فرنسا لإسبانيا في عدوانها على الجزائر، حيث قام الباشا خضر بتحطيم المركز الفرنسي بالقالة وأسر رواده رغم معارضة إستانبول، وبالمقابل أخذ الفرنسيون يعتدون على السفن الجزائرية وكان رد الجزائر بالمثل، حيث أسر القنصل الفرنسي بالجزائر، وعلى إثر ذلك تعقدت العلاقات الدبلوماسية الفرنسية مع الجزائر من جهة ومع الخلافة العثمانية من جهة أخرى³، فاضطرت فرنسا إلى التفاوض وإبرام معاهدة بتاريخ 1628/09/19م نصت على ما يلي:

- إطلاق صراح الأسرى من الجانبين.
 - التوقف عن الأسر من الجانبين.
 - مسالمة البواخر الفرنسية في البحر.
 - تعيين قنصل فرنسي بالجزائر يتمتع بحصانة دبلوماسية وإعادة بناء المركز الفرنسي التجاري بالقالة.
- الجدير بالذكر أن فرنسا لم تحافظ على نصوص المعاهدة وقامت بالاعتداء المتكرر على السفن الجزائرية وشواطئها وقتلت الكثير من الجزائريين، وكان رد الجزائر بالمثل بتتبع مراكب فرنسا وأسر ما فيها⁴.

1. جون بابتيست وولف، الجزائر وأوروبا، 1500-1830م، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الرائد عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص 246.

2. أحمد السليماني، مرجع سابق، ص 13.

3. جون بابتيست وولف، مرجع سابق، ص 247، وقد أورد الباحث جمال قنان الامتيازات التي منحها العثمانيون للفرنسيين بالجزائر في 16 بند، وهي امتيازات خطيرة تعطي نفوذا واسعا للفرنسيين سواء في أرض الدولة العثمانية أو في الايالات التابعة لها، أنظر: جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830م، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1989م، ص من 56 إلى 59.

4. جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830م، المؤسسة الوطنية للنشر والاشهار، الجزائر، 2007م، ص 61

- سوء العلاقة السياسية بين الجزائر وتونس بسبب تدخل البايات التونسيين في شؤون شرق الجزائر، حيث كانوا يشجعون على قيام الاضطرابات، وتمت المصالحة بين البلدين بإبرام معاهدة صلح عام 1628م¹.

- شنت أوروبا حملة على مدينة الجزائر في أوت 1601م بقيادة الاسباني جان دوريا ومباركة البابا متكونة من سبعين سفينة حربية وعشرة آلاف جندي من فرنسيين وإيطاليين واسبانيين متبعة في ذلك خطة الكابتان الفرنسي روكس، لكنها باءت بالفشل².

- كثرة الغزوات البحرية الجزائرية ضد السواحل الأوروبية، وخاصة في عهد الباشا الأول أحمد باشا (دالي أحمد) الذي قاد بنفسه حملات عام 1588م، هاجم فيها شواطئ نابولي، وصقلية وكورسيكا واسبانيا.

- على الصعيد الداخلي:

- عرفت الجزائر العديد من التمردات والثورات امتد لحيبها إلى الأعماق الصحراوية وإلى منطقة القبائل الكبرى نتيجة إرهابهم بالضرائب، كثورات القبائل سنة 1643م التي اندلعت بسبب زيادة الضرائب على المناطق القبلية، وذلك ليتمكن الباشاوات من جمع المزيد من المال وبسرعة، وفي اعتقادهم أن القبائل لا تتور³.

بالإضافة إلى الثورة العارمة التي تزعمها رياس البحر من جهة والجنود الانكشاريين من جهة ثانية، حيث ثارت الفئة الأولى بسبب قيام الباشا إبراهيم بحرماتهم من المبالغ المالية التي خصصها لهم الباب العالي تعويضا عن خسائهم في منطقة البحر الأدرياتيكي، وقيامه بدفعها كرشاوي لرجال الدولة في القسطنطينية حتى يبقوه في منصبه، ومن أجل ذلك هاجم رياس البحر قصره واعتقلوه وأودعوه السجن، ثم بعد ذلك تم ترحيله إلى إزمير⁴، أما فئة الانكشارية فقد ثارت على نظام الباشاوات ككل بسبب تطلعها المستمر إلى السيطرة والحكم بشتى الوسائل فوجدوا هذا الحدث مناسبا، فقاموا بانقلاب مفاجئ وقضوا على سلطة الباشا الذي أصبح ممثل شرقي للباب العالي واتفقوا مع السلطة التنفيذية على تعيين "أغا" لفترة حكمه لا تزيد عن ثلاثة أشهر⁵، كما تم تحديد

1. محمد الصالح بن العنزي، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، مراجعة وتقديم وتعليق يحي بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991م، ص 49.

2. مبارك الميلي، مرجع سابق، ص 143.

3. صالح فركوس، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال (المراحل الكبرى)، ط1، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م، ص 126.

4. عائشة جميل، مرجع سابق، ص 64.

5. عمار عمورة، مرجع سابق، ص 99.

نفوذه وجرى حصر سلطات الآغا في تنفيذ مقررات الديوان ومجلس الحكومة¹، فأرغم السلطان العثماني على قبول هذا ولكنه اشترط أن يتولى الديوان دفع رواتب الجند التركي²، وبذلك انتهى عهد الباشوات، وظهر نظام جديد عرف بعهد الآغاوات.

| اسم الباشا | فترة حكمه | اسم الباشا | فترة حكمه |
|----------------------|-------------|--------------------------|------------|
| دالي أحمد باشا | 1586م-1589م | الحضر باشا..الأولى | 1589-1591م |
| شعبان باشا | 1591-1594م | مصطفى باشا..الأولى | 1594-1595م |
| الحضر باشا..الثانية | 1595-1598م | حسن باشا بوجقارجي | 1598-1599م |
| سليمان باشا علج | 1600م-1605م | الحضر باشا..الثالثة | 1605م |
| مصطفى كوسة..الأولى | 1605-1607م | رضوان باشا علج | 1607-1610م |
| مصطفى كوسة..الثانية | 1610-1611م | مصطفى باشا | 1611-1614م |
| حسين باشا قائمقام | 1614م-1616م | مصطفى باشا | 1616-1617م |
| سليمان باشا..الثانية | 1617-1618م | حسين باشا الشيخ | 1618-1619م |
| خسراف خوجة باشا | 1619-1621م | حسين باشا علج | 1621-1623م |
| مراد باشا الأعمى | 1623-1624م | إبراهيم باشا | 1624م |
| خسراف خوجة..الثانية | 1624-1626م | حسين باشا الشيخ..الثانية | 1627-1630م |
| يونس باشا | 1630-1632م | حسين باشا الشيخ..الثالثة | 1632-1634م |
| يوسف باشا..الأولى | 1634-1637م | علي باشا | 1637-1640م |
| يوسف باشا السرهواش | 1640م | يوسف باشا..الثانية | 1640-1644م |
| أحمد باشا | 1644-1647م | يوسف باشا..الثالثة | 1647-1650م |
| مراد باشا علج | 1650-1651م | محمد باشا البوشناقى | 1651-1653م |
| طوبال باشا | 1653-1655م | أحمد باشا توشان | 1655-1656م |

1. الديوان لفظ فارسي معرب، ومعناه في العربية "مجتمع الصحف" أي "الكتاب" أو "السجل"، أما تعريفه الاصطلاحي فهو - كما يقول الماوردي -: "موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها الجيوش والعمال، أنظر أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2006م، ص 297.

2. عبد الرحمان الجيلالي، مرجع سابق، ص 157.

| | | | |
|-----------|-----------------|-------|------------------------|
| 1657-1656 | الحاج أحمد باشا | 1656م | إبراهيم باشا البوشناقى |
| | | 1658 | إبراهيم باشا |

الجدول رقم 2: الباشاوات الذين حكموا الجزائر *

ت. عهد الآغاوات (1069، 1081هـ/1659م، 1671م):

تعتبر هذه الفترة من أقصر فترات الحكم العثماني في الجزائر، حيث عرفت فيها البلاد اضطرابات سياسية كبيرة في نظام الحكم، من انقلابات واغتيالات وفساد وتعرض الحكم التركي فيها لهزات عنيفة عجز فيها عن توفير الأمن والاستقرار الداخلي ما يجعلها أحلك فترة في تاريخ الحكم العثماني في الجزائر¹.

بدأت هذه المرحلة بإقدام قادة الجيش الإنكشاري (البري) على خلع الباشا وتعويضه بقائد آخر من فئتهم أطلق عليه اسم الآغا²، وفي الحقيقة أن هذا الانقلاب كان على الباشا المعين من طرف الباب العالي، والمدعوم من فئة الرياس (القوات البحرية)، ولكي لا يستأثر الآغا بالسلطة فقد تقرر أن يكون الحكم ديمقراطياً، أي يستعين الحاكم بالديوان الذي كان يضم في البداية أعضاء من الفرق البرية العسكرية، ثم توسعت العضوية فيه بحيث أصبح يضم ممثلين عن فئة الرياس وبعض كبار الموظفين ومفتي الجزائر³، وتماشياً مع هذه الخطة فإن الجيش البري هو الذي أصبح يعين الآغا حاكماً للجزائر لمدة سنتين، يترقى بعدها إلى رتبة آغا شرف ويحل محله آغا آخر،

*. تولى قيادة الجزائر في هذه الفترة التي دامت حوالي 72 سنة مجموعة من الباشاوات مع تكرار البعض فترات حكمهم كالخضر باشا، والباشا مصطفى كوسة وحسين باشا وأبو جمال يوسف باشا والباشا حسين الشيخ، أنظر: حسين ابن المفتي، مصدر سابق، ص 44 إلى ص 54

1. حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2008م، ص 134.

2. اسم آغا كلمة فارسية الأصل جمعها أغوات استعملها الأتراك كلقب شرفي بمعنى الزعيم والرئيس ويدخل في نطاق معناه الشيخ أو السيد، ولها دلالات كثيرة في اللغة العثمانية عبر تاريخهم الطويل للمزيد أنظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1996م، ص 12.

3. محمد إحسان الهندي، الحوليات الجزائرية، تاريخ المؤسسات في الجزائر من العهد العثماني إلى عهد الثورة فالاستقلال، العربي للإعلان والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 1977م، ص 43.

وكانت النتيجة هي انتشار الفوضى وانعدام الأمن، واستياء الدولة العثمانية من انفصال حكام الجزائر عنها وقطع كل المساعدات عنهم¹.

لذا يصف معظم المؤرخين عصر الآغاوات بالدموي وذلك لكثرة عمليات الاغتيال التي يرجعون سببها أساسا إلى طبيعة تعيين الآغا، المتمثلة في انتخاب آغا جديد من طرف الجند كل شهرين حسب الأقدمية من بين ضباط الإنكشارية²، وهو ما يشكل بحد ذاته خطرا على السلطة، انعكس بدوره سلبا على المجتمع، وبرغم قصر فترة نظام الآغاوات فقد تعاقب أربعة منهم على الحكم كلهم قضوا اغتيالا، حتى أن الجند لم يجدوا من يقبل بهذا المنصب الذي أصبح أقرب السبل للموت³.

ومن أهم خصائص هذا العهد نذكر:

- السلطة التنفيذية بيد أحد أعضاء الجيش الإنكشاري، أما السلطة التشريعية فيتولاها الديوان.
- أصبحت طائفة الرياس تحتل مكانة ثانوية في شؤون الحكم، وبالمقابل سيطرة الإنكشارية على السلطة.
- قرر ديوان الإنكشارية أن يتولى الآغا الحكم عن طريق الانتخاب، على أن يبقوا في الحكم لمدة شهرين اثنين فقط وبالتالي أصبح الديوان هو الذي يقوم بانتخاب الآغا المنتدب للحكم، بعدما كان الحاكم يعين من قبل السلطان العثماني خلال مرحلتي البايبربايات، والباشاوات⁴.
- اضمحلال نفوذ السلطان العثماني وغياب السيادة العثمانية في الجزائر، ونتج عن ذلك استياء تركيا من انفصال حكام الجزائر عنها وقطع كل المساعدات عنهم، وفي هذا الصدد أرسل الصدر الأعظم محمد باشا

1. عمار بوحوش، مرجع سابق، ص 59.

2. محمد الملي، عبد الله الشريط، الجزائر في مرآة التاريخ، ط1، مطبعة دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1965م، ص 125.

3. حنيفي هلايلي، مرجع سابق، ص 135.

4. عمار عمورة، الجزائر بوابة التاريخ من ما قبل التاريخ إلى 1962م، ط2، ج2، دار المعرفة، الجزائر، 2009م، ص 93.

- الكوبريللي¹ فرمانا إلى الجزائريين يخبرهم فيه " أخيراً لن نرسل إليكم والياً، بايعوا من تريدون... لدينا الآلاف من الممالك مثل الجزائر..."².
- وضع الاغتيال كقاعدة أساسية لكي يحل آغا جديد محل آغا قديم رفض التخلي عن السلطة وانتهت مدته، الأمر الذي جعل كل الآغاوات يقتلون عندما حاولوا عدم التخلي عن مناصبهم.
 - نجح اليولداش في قلب نظام الحكم والانفصال عن العثمانيين والحد من سلطة الرياس لكنهم فشلوا في انشاء نظام سياسي ديمقراطي ناجح.
 - كان الانقلاب على الباشوات عبارة عن انتقام من طائفة الرياس التي كانت كلمتها مسموعة غي عهد الباشوات³.
 - هذه الصراعات المحلية أدت إلى تدمير أبناء الشعب من الفساد السياسي وانتشار الفوضى في البلاد.
- أما فيما يخص أهم الأحداث التي شهدتها فترة حكم الآغاوات فنلخصها فيما يلي:

- على الصعيد الخارجي:

- برز الصراع بين فرنسا وانجلترا حول السيطرة على إفريقيا الشمالية.
- كثرت الغارات البحرية الفرنسية ضد الجزائر، ففي عام 1663م شنت فرنسا حملة عسكرية بقيادة الدوق دويوفور (Duc Beaufort) للاستيلاء على مدينة الجزائر، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل، فنظمت حملة أخرى انطلقت من ميناء تولون بفرنسا يوم 23 جويلية 1664 تحتوي على 83 سفينة و8000

1. محمد باشا الكوبريللي: هو مؤسس أسرة كوبرولو الألبانية العثمانية التي تألفت من وزراء ومحاربين ورجال دولة هيمنوا على الشؤون الإدارية في الدولة العثمانية خلال النصف الأخير من القرن السابع عشر، وهي الحقبة التي عُرفت بالحقبة الكوبريللية ولد محمد باشا عام 1575 تقريباً في مدينة كوبري وإليها نسب، وتوفي في 31 أكتوبر 1661م في أدرنة، ساهم محمد باشا في إعادة بناء قوة الدولة العثمانية عن طريق اجتثاثه للفساد وإعادة تنظيم الجيش العثماني، مما أدى إلى توسيع حدود الدولة بعد أن نجحوا في هزيمة المجريين، والبنادقة أنظر: نسبية عبد العزيز، دور آل كوبرولو في إصلاح الدولة العثمانية (1656-1702م)، ضمن أشغال المؤتمر العلمي السنوي الأول لكلية التربية الأساسية 23 ماي 2007، مجلة أبحاث، العدد 2، المجلد 6، كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، العراق، 2007م، ص 245.

2. حسان كشرود، رواتب الجند وعامة الموظفين وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية بالجزائر العثمانية (1659-1830م)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2007-2008م، ص 15.

3. عمار بوحوش، مرجع سابق، ص 60.

عسكري بقيادة كولبير (Colbert) والدوق دوفوفور ونزلت بجيجل، لكن سكانها و الأتراك أجبروهم على الرحيل بعد معركة دموية خسرت فيها فرنسا العديد من بواخرها وجنودها، فكرر ملك فرنسا لويس الرابع عشر عام 1665م هجوما آخر فاشلا على كل من مدن شرشال والقل وجيجل، ولم يعد السلم بين الدولتين إلا بإبرام اتفاقية جديدة مع فرنسا في 7 ماي 1666م التي نصت على اطلاق الأسرى من الجانبين ومسالمة سفن الجانبين في البحار، وبعد إبراهيم المعاهدة حصل هدوء نسبي بين البلدين لتدخل قوات أخرى في الصراع¹.

- قامت إنجلترا عام 1669م بشن هجوم على الجزائر والاعتداء على مراكبها في عرض البحر لكن المدفعية الجزائرية أجبرتها على العودة، وفي سنة 1671م هاجم الانجليز ميناء بجاية وأضرموا النار في اثني عشر مركب جزائري، كما هاجموا ميناء الجزائر وأضرموا النار في ثلاثة مراكب².

- دخل حلبة الصراع ضد الجزائر إلى جانب الفرنسيين والإنجليز كل من الاسبان والهولنديين، وكاد الأمر يتحول الى تحالف أوروبي ضد الجزائر، إلا أنها تفطنت وفوتت الفرصة فصالحت الهولنديين عام 1663م لمحاربة الفرنسيين، وصالحت الفرنسيين لتحارب الانجليز والهولنديين، وفي عام 1671م صالحت الانجليز لتعود الى الحرب مع فرنسا وهكذا³.

- على الصعيد الداخلي:

- الانفصال عن الخلافة العثمانية والاستقلال بالجزائر من الناحية الشكلية.
- امتنع الرياس عن تقديم الدعم الاقتصادي للانكشاريين " الطبقة الحاكمة" وكانوا يسعون إلى إثارة الاضطرابات ضد الآغاوات محاولة منهم لاستعادة السلطة التي سلبت منها.
- عدم رضا الأهالي عن الطبقة الإنكشارية.

1. عمار عمورة، موجز في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص 99.

2. مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مرجع سابق، ص 177.

3. حول هذه الأحداث أنظر: عبد القادر فكايير، علاقة الجزائر مع هولندا خلال العهد العثماني، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد الأول، جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر، الجزائر، ديسمبر 2009، ص 187.

- فشل الآغاوات في فرض نفوذهم على السلطة، كما نشبت عدة ثورات ضدهم في جهات كثيرة مثل العاصمة ومنطقة القبائل سنة 1668م، نالت من هيبتهم وجعلتهم عاجزين على القبض بزمام الأمور، الأمر الذي شجع طائفة رياس البحر لاستعادة مكانتهم¹.

وبعد اغتيال علي آغا عام 1671م، انتشرت فوضى كبيرة في الجزائر، فخلال ثلاثة أيام عين الجند خمسة أو ستة آغاوات، لكن هؤلاء امتنعوا عن قبول هذا المنصب الخطير، وسارعت ففة الرياس لانتزاع السلطة من الجيش وأتمت عهد الآغاوات وفرضت أحد زعمائها سنة 1671م حاكما للجزائر ليبدأ بذلك عهد جديد وهو عهد الدايات².

| اسم الآغا | فترة حكمه |
|--------------------|------------|
| بولوكباشي خليل آغا | 1660م |
| يورك رمضان آغا | 1660-1661م |
| شعبان آغا | 1661-1665م |
| علي آغا | 1665-1671م |

الجدول رقم 3: الآغاوات الذين حكموا الجزائر

ث. عهد الدايات (1081هـ، 1245هـ / 1671م، 1830م):

يمثل هذا العهد المرحلة الأخيرة من مراحل التواجد العثماني بالجزائر، ويعتبر نظام الدايات³ انتصارا لطائفة الرياس، كما يدل ذلك على اختيار الدايات الأربع الأولين من بين طائفة الرياس، ومن فترة 1671 إلى 1689م كان الدايات ينتخبون من طرف الرياس، ثم استرجع الأوجاق نفوذهم، فأصبح الدايات يختار من بين ضباط الإنكشارية⁴.

1. محمد خير الدين فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى بداية الاحتلال الفرنسي، ط1، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 1969م، ص 68.

2. حنيفي هلايلي، مرجع سابق، ص 135.

3. هي جمع داي والداي تعبير تركي يعني الحال، ولم تستخدم للدلالة على عمل وظيفي إلا في الجزائر وتونس، وكانت في بادئ الأمر لقباً شرفياً ثم استخدم لوظيفة عسكرية في الجيش الإنكشاري في الجزائر وتونس، واستعملت بمعنى الحاكم أو الرئيس، أنظر:

ناصر الدين سعيدوني، موظفو الدولة الجزائرية في القرن التاسع عشر (19م)، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، (د.ت) ص 09

4. Kaddache (M.), L'Algérie durant la période Ottomane, O.P.U, Alger, 1991, p 94.

وذلك بسبب الحملات الأوروبية على السواحل الجزائرية خلال عهد الدايات والتي ألحقت أضرارا كبيرة بالأسطول الجزائري وأضعفت مركز الرياس.

وتتميز فترة الدايات بالخصائص التالية:

- كان لفئة الرياس دورا بارزا في تأسيس حكم الدايات الذين عملوا على تقليص نفوذ الديوان وأصبحت سلطته وسلطة الباشا المرسل من إسطنبول شكلية¹، وبدخول الجزائر في عهد الدايات عرفت استقرارا سياسيا.
- تعتبر فترة الدايات من أهم الفترات التي مرت بها الجزائر، حيث دامت مدة 159 سنة وهي تعادل نصف تاريخ التواجد العثماني بالجزائر ويمكن أن نطلق على هذه المرحلة بمرحلة الاستقلال الحقيقي للجزائر عن الدولة العثمانية في تسيير شؤونها الداخلية والخارجية، حيث احتفظت تركيا لنفسها بسلطات شكلية في الجزائر تمثلت بصفة خاصة في الدعاء للسلطان العثماني في صلاة الجمعة والاعتراف بمراسيم التعيين والتعاون في مجال الحروب، بحيث تقوم الجزائر بتقديم المساعدة العسكرية للبحرية التركية في حالة تعرض تركيا للاعتداء خارجي كما حصل في معركة نافرين سنة 1242هـ / 1827م، وكذا في تقديم دايات الجزائر لهدايا أثناء المناسبات الدينية والسياسية، وبالتالي القاسم المشترك بين الدولتين دفع بالجزائر إلى الاعلان عن ولائها الروحي والتبعية الاسمية للدولة العثمانية وتحالفها معها كدولة².
- محاولات الدولة العثمانية المتكررة التدخل في شؤون الدولة الجزائرية من أجل استرجاع سلطتها ونفوذها السابق أيام حكم البايلربايات والباشاوات وتأثير ذلك على مركز الدايات، فحفزت القوى المعادية لهم على التمرد والعصيان.
- أصبح الدايات ينتخب من طرف الديوان العالي (المجلس) الذي صار بمثابة برلمان في عصرنا الحالي، والسلطان العثماني لا يلعب أي دور في اختيار دايات الجزائر وينحصر دوره في إصدار مرسوم (أو فرمان) لتثبيت اختيار الديوان العالي بالجزائر، وفي حالة شغور المنصب فإن الديوان العالي هو الذي يختار خليفته بنفس الأسلوب السالف الذكر³.

1. Bouabba (y.), *Les Turcs au Maghreb Central du 16ème au 19ème Siècle*, S.N.E.D, Alger, 1972, p39.

2. عمار بوحوش، مرجع سابق، ص 60.

3. نفسه.

- بحلول عام 1121هـ / 1710م دخلت الجزائر مرحلة هامة في نظامها السياسي، فأنتهت عهد ثنائية الحكم برفضهم الباشا المبعوث من طرف السلطان العثماني، حيث رفض الداوي علي شياوش استقبال شرقان ابراهيم باشا كمثل للسلطان العثماني بالجزائر، وبالتالي أصبح الداوي يجمع بين المنصبين (الباشا والداوي)، وهي مرحلة الاستقلال الفعلي عن الدولة العثمانية، وأكثر من هذا قاوم الدايات حتى وساطة الباب العالي في المشاكل الداخلية والخارجية للجزائر، ولم يعد بذلك السلطان العثماني أي نفوذ فيها¹.
 - يعين الداوي في منصبه مدى الحياة حيث كان هو المسؤول العسكري والسياسي للبلاد والقاضي الأعلى في أمور الحرب والسلم والمسؤول على الضرائب وعلى التوظيف، أي له صلاحيات غير محدودة فقد كان القتل هو الوسيلة للحد من صلاحياته².
 - أصبحت الدولة الجزائرية في عهد الدايات تتمتع بحرية العمل في المجال السياسي وبنيت جيشا قويا وعندها ميزانية مستقلة لا تقل أهمية عن ميزانية الدول القوية في تلك الفترة، كما كان الداوي يعقد المعاهدات (سلم وتجارة) باسم الجزائر ويبعث بقناصل الجزائر إلى الدول الكبرى ويوافق على اعتماد القناصل في الجزائر بدون مشاورة تركيا، ويعلن الحرب، ويستعمل العملة الخاصة بالجزائر، وهذه العوامل كلها تبين استقلالية القرار الجزائري³.
 - إن نفوذ الجيش البحري (الرياس) والدايات لم يخدم الأهالي ولم يستجيب لمطالبهم، حيث بقي أبناء الجزائر مهمشين ولم تكن لهم مشاركة حقيقية في قيادة البلاد.
 - توجه القوات العسكرية والسياسية لخدمة مصالحهم، حيث تحول الرياس من جنود مناضلين ومقاتلين ضد القوات المسيحية المعادية للإسلام إلى رجال يبحثون عن الغنائم لأنفسهم وللحكام، وبالمثل اهتم حكام الجزائر الدايات بجمع الثروة من العمليات الحربية، ولم يهتموا بتطور الدخل من الثروة الفلاحية وتوفير الغذاء للسكان⁴.
- أما فيما يخص أهم الأحداث التي عرفت فترة الدايات فنوجزها في النقاط التالية:
- تمكن حكام الجزائر في هذه المرحلة الأخيرة من القضاء نهائيا على الوجود الاسباني في الجزائر وبالتحديد في وهران والمرسى الكبير وكان ذلك في سنة 1207هـ / 1792م.

1. Chalem (M), "Histoire de l'Algérie des origines à 1830" in Algérie, Casbah, 2000, p25

2. Bouabba (y.), Op.cit, p43.

3. توفيق بن بابا علي، بناء الدولة والمجتمع في الجزائر، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية والعلاقات

الدولية، قسم التنظيم السياسي والإداري، جامعة الجزائر 03، 2013/2012م، ص 64.

4. عمار بوحوش، مرجع سابق، ص 61.

يذكر أن تحرير مدينة وهران من الاسبان تم على مرحلتين: حيث كان التحرير الأول عنوة عام 1708م على يد مصطفى بوشلاغم باي الايالة الوهرانية وصهره أوزن حسن، وفي عهد الداوي محمد بقطاش باشا، وذلك بعد أن مكث فيها الاسبان 205 أعوام، وعلى إثر هذا الانتصار نقلت عاصمة البايك من معسكر إلى وهران، ويسمى هذا الحدث بفتح وهران الأول، لكن الإسبان عادوا سنة 1732م واحتلوها مرة ثانية، إلى أن جاء عهد حسن باشا الذي شهد على يديه التحرير النهائي لمدينة وهران سنة 1207هـ / 1792م¹.

- من الأحداث المميزة لهذا العهد كثرة الغارات الأوربية على سواحل البلاد برغبة الانتقام من قوة الجزائر البحرية خاصة من طرف الإسبان، الإنجليز، والفرنسيين، حيث نظم الأميرال الفرنسي دوكين في عهد الداوي بابا حسن وبالضبط يوم 12 جويلية 1682 حملة عسكرية قوامها ثلاثون سفينة حربية لمهاجمة شرشال ومدينة الجزائر، لكن هذه المحاولة باءت كغيرها من الفشل²، وفي عام 1044هـ / 1684م أبرمت الجزائر معاهدة سلم مع فرنسا لمدة مائة سنة، لكنها نقضت عام 1190هـ / 1776م بسبب نشوب معركة بين السفن الفرنسية والجزائرية، ومرة أخرى تم الصلح بين الطرفين .

وفي عهد محمد عثمان باشا خاضت الجزائر حربا ضد الدنمارك وبالتحديد عام 1184هـ / 1770م، حيث قبلت الميناء الجزائري، لكن الجيش البحري الجزائري كان أقوى منها بكثير فتغلب عليها وأجبرها على التفاوض³.

- وفي عام 1770م شنت القوات الاسبانية حملة عسكرية ضد الجزائر بأمر من الملك شارل الثالث وبقيادة الدون بيدرو، ولم تكذ تنزل القوات الاسبانية على أرض الجزائر حتى تصدت لها قوات صالح باي قسنطينة وألحقت بهم شر الهزيمة، من بعدها حاول الملك شارل الثالث مصالحة الجزائريين لكن الداوي محمد عثمان باشا رفض

1. مبارك الميللي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مرجع سابق، ص 205.

2. بسام العسلي، الجزائر والحملات الصليبية، ط3، دار النفائس، بيروت، لبنان، ص 115.

3. قام الداوي محمد عثمان باشا بنقض معاهدات السلم والتجارة التي أبرمت في 10 ماي 1746م بين الداوي إبراهيم خوجة داي الجزائر، وكريستيان السادس ملك الدانمارك والنرويج، وجعل العداوة مع الملك ديل مارك، فجاءت 21 سفينة لمهاجمة البلاد، واستمروا حوالي 21 يوم يقنبلون فيها مدينة الجزائر، قبل ان ينسحبوا بعد الهجمات المعاكسة للأسطول الجزائري، وبعد خمسة أيام من المفاوضات اشترط الداوي عليهم ثمن الصلح، وتعويض تكاليف الحرب، والتي قدرت بمليونين ونصف المليون دولار، ودفع الغرامة كل سنة، وعليه وقعت الهدنة وأنزلوا القنصل، وضربوا المدافع وبعد مرور ثلاثة أيام، دفعوا فدية أسراهم وحتى العوائد لمستحقيها، أنظر حول هذه الحرب: أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 25.

لعدم ثقته في الاسبان، فكرر الاسبان هجماتهم عام 1199هـ/ 1784 على الجزائر بقيادة دون أنطونيو لكن كالعادة القوات البحرية الجزائرية أجبرتهم على الانسحاب، وبعد ذلك قبلت الجزائر الصلح مع الاسبان على شرط جلاء الحامية الاسبانية من وهران و المرسى الكبير، فقبل الاسبان هذا الشرط، لكن لم ينفذ فعليا إلا في عهد الداوي حسن باشا أي في سنة 1207هـ/ 1792م¹.

| اسم الباشا | فترة حكمه | اسم الباشا | فترة حكمه |
|-----------------------|------------|-------------------|------------|
| الحاج محمد التريكي | 1671-1681م | بابا حسن | 1681-1683م |
| الحاج حسين ميزو مورطو | 1683-1688م | إبراهيم خوجة | 1688-1688م |
| الحاج شعبان خوجة | 1688-1695م | قارة ابن علي | 1695-1699م |
| بابا حسن شاوش | 1699-1700م | بابا حاجي مصطفى | 1700-1705م |
| حسين خوجة | 1705-1707م | محمد بكداش | 1707-1710م |
| دالي إبراهيم | 1710-1710م | وزن بابا علي شاوش | 1710-1718م |
| محمد خزناجي | 1718-1724م | بابا كرد عبدي | 1724-1732م |
| بابا إبراهيم | 1732-1745م | إبراهيم خوجة | 1745-1748م |
| علي بوصبع | 1748-1755م | محمد بكير خوجة | 1755-1766م |
| بابا محمد بن عثمان | 1766-1791م | بابا حسن | 1791-1798م |
| بابا مصطفى | 1798-1805م | أحمد خوجة | 1805-1808م |
| علي بوجوالق | 1808-1809م | الحاج علي الشريف | 1809-1815م |
| الحاج محمد الخزناجي | 1815-1815م | بابا عمر | 1815-1817م |
| علي خوجة | 1817-1818م | حسين بن علي | 1818-1830م |

الجدول رقم 4: الدايات الذين حكموا الجزائر

1. أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792م، مرجع سابق، ص 434.

ثانيا. التعليم والمؤسسات التعليمية في الجزائر خلال العهد العثماني:

1. لمحة عن الحياة العلمية والعلماء في الجزائر:

كان الدين والتعليم في الجزائر العثمانية صنفين متلازمين، وكان التعليم قضية أهلية قلما تدخلت الحكومة فيها، وقد ورث العثمانيون هذه الحالة عن أسلافهم، وربما كان الفرق بينهم وبين من سبقوهم، أن هؤلاء كانوا من أهل الديار في إسهامهم في تشجيع المدارس وتقريب العلماء وتكريمهم واستقبال المادحين من الأدباء والشعراء، أما العثمانيون فلم يهتموا بذلك بقدر ما ساهموا في دفع التعليم برصد الأوقاف، وصيانة المساجد والزوايا وتشبيد المدارس وإرضاء رجال الدين¹، وأصبح التعليم بمرور السنين مقتصرًا تقريبًا على التعليم الديني والمتمثل في تحفيظ القرآن الكريم، وتعليم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والإنشاء وحفظ المتون الفقهية والنحوية والعروضية والفرضية².

هذه الميزة التي صبغت الحياة العلمية في الجزائر خلال العهد العثماني الذي تميز كذلك بعدم الاهتمام بالعلماء، الأمر الذي أدى إلى هجرة الراغبين في العلم إلى المشرق، منهم من عاد ومنهم من لم يعد كما انتشرت البدع وحلقات الذكر والأوراد وتعددت الطرق الصوفية³.

لقد سيطر على الحياة الثقافية بصفة عامة التصوف والدروشة والشروح على أعمال المتقدمين فابتعد بذلك التصوف عن مفهومه الذي يعني الصلاح، والتكشف إلى الدروشة، وقد شاع حتى بين الفقهاء والولاة أنفسهم فتحوّلت الزوايا من مركزها الثقافي العلمي إلى الخرافة والانزواء⁴، حتى كادت الحياة الثقافية تخلو من الإبداع والأصالة وسارت في مجاري التقليد والإتباع، حيث لم يكن يعني العلم عندهم اكتساب معارف جديدة، بقدر ما كان يعني التمكن إلى أقصى حد من اكتساب ما خلفه السلف، فاعتمدوا التقليد والحفظ وعدم تحكيم العقل وسعوا إلى تقليد من سبقهم⁵، وهذا دليل على الجمود والخمول و الاعتماد على النقل و التقليد الذي كاد

1. أبو القاسم سعد الله، بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني (1518-1830)، مجلة البصائر، العدد 81، الجزائر، 28 جانفي - 04 فيفري 2002م، ص 13.

2. نفسه.

3. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج1، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1991، ص178

4. نفس المرجع، ج3، ص 186.

5. بروكلمان كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية ترجمة نبيلة أمين فارس، منير البعلبكي، ط1، دار الملايين، بيروت، 1948، ص491.

أن يكون أعمى¹، وقد نتج عن هذا ضعف التعليم بكامل الجزائر وانتشار التصوف²، حيث كان من أبرز تصورات المتصوفة "التوكل على الله" الذي أدى إلى الخمول و الركون إلى القدرية هذا أدى حتما إلى انحطاط العلوم، فاقصر العلماء على شرح الحواشي وضع التقارير على المتون التعليمية، أما العلوم المساعدة كالنحو واللغة لا يتعلم منها إلا القدر الضروري لفهم القرآن، والعروض من أجل المنظومات الشعرية والصوفية، والبلاغة والمنطق للخطب والمواعظ والحساب لقسمة الموارث وتحديد أوقات الصلاة³، لذا نجد بعض الباحثين خاصة الأوربيين منهم يتعرضون إلى النواحي الضعيفة كالعلوم الطبية والرياضيات والعلوم العقلية⁴، وفي هذا الصدد يقول الباحث **شاو Shaw**: " أن الحياة الفكرية مازالت كما كانت منذ وقت طويل في حالة متدهورة، فالفلسفة والرياضيات والطبيعات والعلوم الطبية التي اشتهر بها العرب قديما أصبحت الآن من العلوم التي لا يعرف عنها أي شيء⁵"، أما القنصل **شارل Charles** فيقول: "إن العلوم غير موجودة و إن وجدت فهي ضئيلة فعلم الطب لا يوجد من يمارسه باستثناء المشعوذين وكتاب الحرور⁶"، لكن هذا لا ينفي وجود محاولة البعض تكوين فكرة عن العناصر الكيماوية لصنع البارود وكيفية تأثيرها⁷، إضافة إلى تفسير الحوادث الطبيعية تفسيرا علميا، لكن دون إبعادها عن الخرافات⁸، فابن حمادوش كان يحاول التجريب، حتى قال في رحلته أنه صار عشابا وصيدليا وطيبيا في بعض الأمراض⁹، كما تجلّى هذا الركود الثقافي والعلمي في قول أبو راس الناصري: "إذ في زمن عطلت فيه مشاهير العلم ومعاهده، وسدت مصادره وموارده، وخلت دياره ومواسمه، وعفت أطلاله ومعامله، لا سيما فن التاريخ والأدب، وأخبار الأوائل والنسب، قد طرحت في زوايا الهجران ونسجت عليها عناكب النسيان و استوطن

1. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج1، مرجع سابق، ص187.

2. التميمي عبد الجليل، "من أجل كتابة تاريخ الجامع الأعظم"، ص160.

3. الفرد بل، مرجع سابق، ص 408.

4. مزيان عبد الحميد، "المؤسسات الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار"، مجلة الثقافة، العدد 22، 1986م، ص 16.

5. Dr. SHAW, Voyage dans la régence d'Alger, trad de l'Anglais par J.Mac.Carthy 2ème ed. Bouslama, Tunis, 1980, p84.

6. شارل وليام، مصدر سابق، ص81.

7. ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 104.

8. نفس المرجع، ص 104.

9. سعد الله، "عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ورحلته لسان المقال" مجلة الأصالة، العدد 38، 1976، ص7.

فحولها زوايا الخمول... يتأسفون من انعكاس أحوال الأذكياء و الأفاضل¹ " كما جاء في بعض القصائد الشعرية نقدا لادعا للانحطاط الثقافي والفكري لدى العلماء، نذكر ما أورده الورثياني في رحلته:

وأود لو كانت مجالس بينهم بضحين في سبيل الهداية معلما

وشحا الحشا إن لم أجد من عالم يهدي الورى بها ومتعلما²

ويرجع شاو هذا الجمود الفكري إلى النظام الاستبدادي والفوضى السياسية من انقلابات و ثورات وهذا حسب رأيه مناف لانتشار العلوم و الثقافة التي تتطلب الاستقرار السياسي، إضافة إلى أن العثمانيون كان انشغالهم منصبا على التجارة وجمع المال وليس على العلوم³، فبعد استقرارهم بالبلاد عملوا على تعزيز الجيش لصد العدو و الاعتراف بسلطتهم من خلال خطب الجمعة التي كانت تقرا باسم السلطان العثماني، و دفع الضرائب للسلطة المركزية، لذا ركزوا اهتمامهم على القرصنة و الإتاوات و الاحتكارات التي أخذت الجانب الأوفر من العناية لما تدره عليهم من فوائد مادية⁴، فحال هذا دون إعطاء الجانب الحضاري الأولوية مقارنة بالجانب العسكري، إضافة إلى أن إسلام الأتراك كان هشاً فلم يعطوا أهمية للعقيدة و الثقافة إلا إذا كانت لها عواقب على سلطتهم⁵، كما أن عدم فهمهم اللغة العربية حال دون اهتمامهم بالأدباء كاهتمامهم برجال الحرب⁶، ضف إلى ذلك أن بعضهم كان يتعدى على الأوقاف المخصصة للتعليم حيث يقول الورثياني في هذا الصدد: " فأصبحوا يأكلون منها و ينتفعون بها كالأملاك الحقيقية وهي ليست لهم... ولكنهم تردوا و طغوا و جعلوا جميع الخطط الشرعية لهم ظلما وهذا بسبب إندراس العلم وأهله..."⁷.

وهذا لا ينطبق على كل الحكام، حيث تميز بعضهم بسياسة محكمة و عادلة و احترام الثقافة و العلم إلا أن نوعية الحكم المتوجهة أساسا إلى الجهاد البحري تركت الأمور الثقافية لمبادرات الفردية، الشيء الذي ساعد على

1. الناصري أبوراس، مصدر سابق، ص 03.

2. الحسن الورثياني، نزهته الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار تحقيق محمد بن شنب، فونتانا، الجزائر، 1907، ص 92.

3. Shaw, Op. cit, p86.

4. Ibid, p71.

5. قداش محفوظ، "الجزائر في العهد التركي" مجلة الأصالة، العدد 52، 1977، ص 11.

6. محمد ابن ميمون الجزائري، مصدر سابق، ص 56.

7. الحسن الورثياني، مصدر سابق، ص 92.

انتشار الجهل والخرافة التي أشاعها المرابطون بين الناس، خاصة في أوساط البدو الذين قبلوا على تصديق ما جاءوا به، فأدى هذا إلى الانحطاط الفكري الذي شهدته الجزائر طيلة العهد العثماني¹.

من جهة أخرى يجب أن نتساءل إذا ما كانت أوضاع الدولة العثمانية في عقر دارها أحسن؟ وهل مارست سياسة ثقافية تعليمية بالمغرب غير التي كانت بإسطنبول فالجواب على هذا الإشكال يكون بلا²، لأنها حتى في عقر دارها لم تكن لها سياسة تعليمية واضحة وبهذا "ففاقد الشيء لا يعطيه" والناس على دين ملوكهم"، لهذا لا يجب تحميل العثمانيون مسؤولية ظهور التصوف ولا تدهور الثقافة بالجزائر لكن سياستهم أعانت على الانحطاط³، فهم لم يكونوا حاملين مشروع ثقافي، ولم يشككوا في نفس الوقت عائقا في وجه استمرار الحياة الثقافية، بل كان بعض الحكام يحترمون العلماء ويوقفون الأوقاف لصالح العلم و مؤسساته فالعلوم الابتدائية من حفظ القرآن والكتابة ومبادئ الحساب كانت تدرس في نحو ثلاثة آلاف كتاب⁴.

لهذا قال بعض الفرنسيين بأن الأمية تكاد تكون منعدمة في الجزائر، فكل الناس تقريبا يعرفون القراءة رغم عدم عناية العثمانيين بالثقافة كعنايتهم بالحرب⁵، فبالرغم من فترة الانحطاط التي شهدتها الجزائر، فلم تمنع بعض علماء الجزائر من البروز في علوم عصرهم، وإن كان عددهم يعد على أصابع اليد⁶، فقد برز علماء أجلاء في الدين استطاعوا بعصاميتهم وانقطاعهم للعلم أن يحتلوا مكانة مرموقة بين مشاهير الإسلام وحققوا بنشاطهم الفكري و العلمي ما يظل عبر التاريخ آية بينية على عملهم الدائب، منهم أبوراس الناصري الذي ناظر علماء المشرق و المغرب، الذين اعترفوا له ببراعته وأجازوه ولقبوه "بشيخ الإسلام"⁷، كما وأنه تناظر مع علماء الوهابية

1. محمد الطاهر الفيلاي، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني، ط1، دار الفن الجغرافي، الجزائر، 1976، ص29.

2. هلال عمار، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1862)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص393.

3. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج1، مرجع سابق، ص185.

4. المدني أحمد توفيق، محمد بن عثمان باشا داي الجزائر (1766-1791)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص62.

5. مبارك الميلي، مرجع سابق، ص318.

6. هلال عمار، مرجع سابق، ص393.

7. محمد الصالح الصديق، أعلام من المغرب العربي، ج1، مؤسسة موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2000، ص13، 14

وانتقدهم¹، حيث قال: "لقيت علماء الوهابية ثم تناظرنا... فعلمت أنهم خارجون عن المذاهب الأربعة في الفروع"²، ولسعة حفظه لقبه شيخ الأزهر عبد الله الشرقاوي "بالحافظ"³، ولما حلّ بالمغرب طلب منه السلطان مولاي إسماعيل البقاء لكنه اعتذر، وكان يجتمع عنده أحيانا سبعمائة وثمانون طالبا الأمر الذي جعل بايات وهران يضعون له كرسيًا ليستعين به على الدرس⁴، أما يحيى الشاوي⁵ هو الآخر ذاع صيته في إسطنبول لمشاركته في المناظرات والدروس⁶، لذا كرمه السلطان العثماني، وحظي بمكانة معتبرة في مصر بعد ما تصدر للإقراء بالأزهر والتدريس بعدة مدارس كالأشرفية والسليمانية والصرغتمشية⁷، حتى سمي "أمير ركب حج المغاربة"⁸.

1. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج1، مرجع سابق، ص 91

2. الناصري أبوراس، مصدر سابق، ص 26

3. الناصري أبوراس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1996، ص 114.

4. الناصري أبوراس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، مصدر سابق، ص 22.

5. يحيى بن محمد بن محمد بن عبد الله، أبو زكرياء الشاوي الملياني الجزائري، مفسر من فقهاء المالكية، ولد بمليانة وتعلم بالجزائر، وأقام مدة بمصر في عودته من الحج سنة 1074م وتصدر للإقراء بالأزهر، ثم رحل إلى سورية وتركيا ومات في سفينة راحلا للحج، ونقل جثمانه إلى القاهرة، له حواش وشروح منها: توكيد العقد فيما أخذ الله علينا من العهد وشرح التسهيل لابن مالك، أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، مج6، ص 169.

6. أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال الشلف، ج2، ط 2، مؤسسة الرسالة، تونس، 1982، ص 191.

7. الصرغتمشية أسسها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري 756هـ / 1356م، أحد أمراء السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، تقع خارج القاهرة بجوار جامع الأمير أبي العباس أحمد بن طولون، كان موضعها قديما من جملة قطائع ابن طولون، ثم صار عدّة مساكن، فأخذها الأمير سيف وهدمها وبنى مكانها المدرسة التي جاءت من أبداع المباني وأجلها وأحسنها قالبا وأبجها منظرا، عنها أنظر: تقي الدين المقرئ، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار في مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من الأخبار، ج4، مصدر سابق، ص 264، أنظر كذلك: حسن سيد جودة القصاص، المدرسة الصرغتمشية دراسة أثرية معمارية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1971م .

8. الشيخ بوعمران وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، منشورات دحلب، الجزائر، 2007، ص 301.

ونجد من علماء الجزائر من أجاز حتى الحكام كعيسى الثعالبي¹، الذي أجاز السلطان العثماني أحمد باشا نعمان²، وهناك من علماء الجزائر من تطلع لدراسة أمور خارج إقليمه كابن سحنون الراشدي الذي اهتم بأحداث عصره، وسجل في كتابه "الثغر الجماني" أخبار الثورة الفرنسية³، إضافة إلى أن بعض العلماء ممن هاجر إلى الأقطار أخرى وحظي بمكانة مرموقة مثل العالم "عبد القادر بن محمد الراشدي" الذي تولى قضاء مراکش⁴، وحتى رواق المغاربة بالأزهر، شهد عشرات الطلبة الجزائريين الذين نالوا شهرة علمية بعد تخرجهم مثل أبو العباس المغربي (ت 1787م) الذي أذن له شيخه "الصعدي" بتدريس المغاربة في رواقهم، وقد أسندت له المشيخة بعد موت شيخه، لكن هناك من تعصب ضده فتنازل له السيد عمر أفندي الأسيوطي عن إدارة أوقاف مدرسة الجوهريّة⁵.

كما تولى كذلك العديد منهم أعلى المناصب بالأزهر و القاهرة، كالتدريس وحتى الإفتاء، فمثلا الشيخ محمد بن حسين الجزائري (ت 1187هـ/1773م) منح نيابة التدريس من طرف شيخه بمدرسة الصرغتمشية، فكان يدرس فيها صحيح البخاري كل جمعة، ومنهم من تولى كذلك القضاء والإشراف على مكاتب القاهرة وبرعوا في العلوم المنقولة والمعقولة⁶، وكانت المناقشات العلمية في رواقهم على أشدها⁷، حتى أن بعض من الحجاج الجزائريين من يجتهد بحثا عن المخطوطات النادرة ليعود بها إلى بلادهم⁸، وحسب الجبرتي فإن أحد الحجاج حاول

1. هو عيسى بن محمد من نسل عبد الرحمان الثعالبي من كبار فقهاء المالكية توفي سنة 1611م أنظر: الشيخ بو عمران وآخرون، مرجع سابق، ص، 128، 129، أبو القاسم الحفناوي، مرجع سابق، ج 1، ص 77.
2. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 1، مرجع سابق، ص 194.
3. أنظر كتابه الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، مصدر سابق، ص 231.
4. عن هذه الشخصية أنظر: إبراهيم حركات، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية ط 1، مكتبة الدار البيضاء، المغرب، 1985، ص 23.
5. عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ضبط وتصحيح إبراهيم شمس الدين، ج 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ص 44.
6. عبد الرحيم عبد الرحمن، "دور المغاربة في تاريخ مصرفي العصر الحديث"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 10، تونس، 1978، ص 64.
7. الحسن الورثياني، مصدر سابق، ص 70.
8. فالونسي لوست، المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر، ترجمة إلياس مرقص، ط 1، دار الحقيقة، بيروت، 1980، ص 104.

إغوائه لشراء نسخة من كتاب في الفلك ورثه عن أبيه، لكنه رفض عرضه، وقد ذكر أن هذا الحاج عاد إلى الجزائر ومعه عدة كتب ونسخة من هذا الكتاب لإبراهيم الزمردى، اشتراها بعشرين ريال¹، والملاحظ أن بعض العلماء تطلعوا إلى الأفضل من خلال اللقاءات والمناقشات التي يجرونها مع علماء مختلف البلدان العربية²، ومنهم من تناول قضايا عصره كابن سحنون الذي تكلم عن الثورة الفرنسية.

وتجدر الإشارة أن إيالة الجزائر اشتهرت بها عدة حواضر ثقافية كانت مركز إشعاع ديني وثقافي، كمدينة قسنطينة التي يقول عنها **قفارل Gaffarel**: "إن قسنطينة كانت على عهد الأتراك عاصمة دينية، وكان العلماء بها يتمتعون بالسيادة المطلقة، والنفوذ التام، كما كانت غاصة بعدد كبير من الطلبة ينهلون العلم من خمسة عشر مدرسة للعلوم الدنيوية والأخروية... إن قسنطينة كانت مبعث نور الجزائر، كما كانت تشرف العلماء وتقدرهم حق قدرهم"³.

أما مدينة مستغانم فقد عرفت إشعاعا ثقافيا خاصة عندما أصبحت مقرا للبايلك في عهد الباي بوشلاغم بعد سقوط وهران عام 1144هـ/ 1732م، وبرز فيها عدد هام من رجال القضاء و الفقهاء⁴ كمحمد بن حواء الأديب والناظم من مؤلفاته كتاب في الحكمة والغوثية الكبرى⁵، وكما أن عدد المترددين على طلب العلم بمدن تلمسان ومعسكر ومازونة كان هاما جدا مما جعلها تشكل مراكز علمية و ثقافية كبرى⁶، في حين أن مدينة الجزائر كانت مقصدا للطلبة سواء من داخل أو خارج الجزائر فحسب الدكتور سعد الله، فإن دروسها كانت تفوق أحيانا مساجد المشرق⁷، رغم أنها تفتقر إلى معهد رئيسي يضاهي القرويين والأزهر والزيتونة⁸، التي كان

1. عبد الرحمن الجبرتي، مصدر سابق، ص 74.

2. ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 228.

3. Gaffarel (P), **L'Algérie, Histoire, conquête et colonisation**, Imp.de l'institut, Paris, 1883, p123.

4. Bodin (M.), " **Traditions indigènes sur Mostaganem et Tadjedit** " in B.S.G.A.O, 1925, p3.

5. نويهض عادل، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، منشورات المكتب التجاري بيروت، لبنان، 1971، ص 177.

6. Feure Biguet (G.), " **Notice sur le cheik –Abou –Ras-en –Nasiri**" in J.A, 9ème série, 1899, p92.

7. أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج1، مرجع سابق، ص 273.

8. ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 69.

تأثيرها واضحا على حواضر الجزائر، و مثقفها سواء عن طريق الاحتكاك بخبرجي هذه المعاهد خلال رحلات الحج أو عن طريق البعثات العلمية، خاصة تلك التي كان يرسلها الباي محمد الكبير تشجيعا منه للحركة العلمية، كما استفادت الجزائر، خاصة منطقة الغرب من تراث و ثقافة المهاجرين الأندلسيين¹.

ورغم ما قيل عن العهد العثماني في المجال الثقافي، إلا أن حركة التأليف كانت نشيطة، بحيث لا نكاد نجد عالما إلا وله تأليف كثيرة وفي شتى العلوم، ومن أشهرهم في هذه الفترة، أبوراس الناصري وأحمد البوني وابن العنابي صاحب كتاب "السعي المحمود" وابن حمادوش²، الذي تعد رحلته "لسان المقال" من أهم المخطوطات لأحوال القرن 18م بالجزائر، حيث اعتمد في مصادره على التجربة الشخصية والنقل من الوثائق أو المشافهة³، وميزتها كونها مغربية بحتة وخالية من الصبغة الأدبية التي طغت على رحلة ابن عمار "نحلة اللبيب .." وخالية من الخرافة والكرامات التي جاءت في رحلة الورثلاني⁴.

كما أن اهتمام العلماء بالتاريخ كان لاستخلاص العبر والدروس مما سبق فنجد منهم من إرّخ للجزائر وغيرها من الدول الأخرى كالفاطمية، والمغرب الأقصى، ومنهم من اهتم بنسب القبائل والتأريخ لها⁵، والتعريف بحكامها وملوكها ودورهم التاريخي⁶، لهذا انبثق نوعان من الكتب "التراجم" التي تعني بسير الأولياء والصوفية والعلماء و"الأنساب" التي تندرج ضمن التراجم لكنها تعني بالعائلات والأشخاص ذوي النسب الشريف⁷.

ويعتبر فتح وهران الثاني⁸ حدثا هاما نوه به الكثيرون ومجدوا صانعه الباي محمد الكبير، الذي كلف كاتبه الخاص المصطفى بن عبد الله المعروف بابن زرفة بتسجيل حوادث الفتح، ليسجل هذا الأخير "الرحلة القمرية في

1. نفس المرجع، ص 58.

2. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 294.

3. أبو القاسم سعد الله، "عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ورحلته لسان المقال" مرجع سابق، ص11.

4. نفس المرجع، ص 22.

5. الناصري أبوراس، مصدر سابق، ص 14.

6. ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 436.

7. الفرد بل، مرجع سابق، ص 416.

8. تمكن المسلمون من سكان وهران ومعسكر وبعض مدن الغرب الجزائري، بالإضافة إلى شيوخ الزوايا وطلبة المدارس القرآنية ومعلميها بقيادة الباي محمد بن عثمان الكبير، من تحقيق الانتصار النهائي على الإسبان وفرض الجلاء الإسباني من وهران الذي

السيرة المحمدية "ونجد كاتبه الثاني ابن سحنون الذي يعد أبرز من خلد هذا الفتح ومناقب الباي محمد الكبير فسمى مؤلفه "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، والشيء نفسه يقال عن أبي راس الناصري الذي خلد الفتح شعرا بوضعه قصيدة "نفيسة الجماني في الثغر الوهراني"¹، هذا إضافة إلى مؤلفات أخرى جعلت من أعمال الباي موضوعا لها، كمؤلف "رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي للكاتب ابن هطال الذي رافقه في رحلته لإخضاع القبائل المتمردة بالأغواط وعين ماضي².

والملاحظ أيضا أن حواضر الجزائر لم تعرف ازدهار علوم الدين و اللغة فقط، بل هناك مواد أخرى كانت تدرس كالشعر الفصيح، وكذلك الملحون الذي برز من خلال حلقات المداحين التي انتشرت كظاهرة ثقافية و يكفي أن نذكر أن طريق قدوسي المداح الموجود بمستغانم "ترجع تسميته إلى تجمع المداحين حول مياه الواد لإسماع الناس الشعر³، وكما شاعت حركة التأليف شاعت أيضا حركة النسخ كوسيلة لانتشار الكتب وأحيانا كانت بتشجيع من الحكام كالباي محمد الكبير الذي شجع الطلبة و كتابه على نسخ الكتب واختصار ما طال منها، وكان يكافئهم بسخاء⁴.

إن الاهتمام بالتعليم لم يقتصر على الحواضر الكبرى فقط، بل حتى سكان الأرياف اهتموا بالتعليم خاصة بعد هجرة بعض العلماء إلى داخل البلاد وتأسيسهم للزوايا⁵، حتى أصبحت هذه الزوايا خاصة بالصحراء عبارة عن مدن كعين ماضي وتماسين وطولقة⁶.

قبل به الملك "كارلوس الرابع" مجبراً يوم 17 ديسمبر 1791م حيث بدأ الانسحاب، ليدخلها الباي محمد بن عثمان الكبير في يوم 22 فيفري 1792م، وتنتهي بذلك فترة الوجود الصليبي الإسباني من مدينة وهران بعد احتلال دام ثلاثة قرون تقريباً أنظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792م، مرجع سابق، ص 525.

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، مرجع سابق، ص 284.

2. ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، الفترة الحديثة والمعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص 250.

3 . Bodin (M.), Op. cit, p65.

4. ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 146.

5. العيد مسعود، "حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني" سيرتا، العدد 03، قسنطينة، 1980، ص 305.

6. مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 305.

إذا فالتعليم كان منتشرا تقريبا في كامل أنحاء البلاد لكنه بقي تقليديا¹، وغلب عليه التصوف الذي راج في هذا العهد، وكان على نوعين تصوف راق يبحث في الروح والعقل وأمور العبادة وتصوف منحط أو شعبي، هذا الأخير يهتم بالكرامات وعبادة المشايخ وهو أقرب إلى الخرافة منه إلى العقل، والملاحظ هو أن هذا النوع الأخير هو الذي غلب على الحياة الثقافية في هذه الفترة.

2. المؤسسات التعليمية في الجزائر:

يقصد بالمؤسسات التعليمية المباني التي يتم فيها التعليم القائم على تلقين مختلف المعارف والعلوم، فيقول ابن خلدون " أن العلوم إنما تكثر حيث العمران وتعظم الحضارة، والسبب في ذلك ان تعليم العلم من جملة الصنائع² " وبناء على ذلك فقد عرفت الجزائر انتشار العديد من المؤسسات التعليمية خلال العهد الزياني واستمر وجودها أثناء العهد العثماني.

فقد تعددت هذه المؤسسات في المدن والأرياف، وتنوعت من مساجد وكتاتيب وزوايا ومدارس ولعبت دورا رياديا في الإمساك بزمام أمر التعليم في الجزائر في العهد العثماني، ولولاها لما حصل ذلك الجيل من الجزائريين من المعارف أتاح للبلاد استمرارها الثقافي، وامتدادها الحضاري، مما ساهم في انخفاض نسبة الأمية في أوساط المجتمع إلى نسبة قليلة، حتى أصبح معظم الجزائريين يحسنون القراءة والكتابة، وهذا ما شهد عليه الفرنسيون عند احتلالهم للجزائر³.

وما تجدر الإشارة إليه هو أن المؤسسات التعليمية التي وجدت في العهد العثماني ماهي إلا استمرارية للمؤسسات التي كانت موجودة من قبل، غير أنه إلى جانب المساجد والمدارس انتشرت الزوايا والأربطة بشكل كبير والتي تركت بصماتها واضحة على الحياة الثقافية في الجزائر⁴، نذكر منها:

1. الزبيري العربي، التجارة الخارجية للشرق الجزائري قبل الاحتلال 1972/1830م، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص28.

2. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، (د. ت)، ص. 484.

3. عمار عمورة، مرجع سابق، ص 109.

4. غياث بوفلحة، التربية والتكوين في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992م، ص 21.

أ. المساجد:

تعتبر المساجد من أقدم المؤسسات التعليمية، فمنذ ظهور الإسلام تولتوظيفتين الدينية والتعليمية معا، فهو ضرورة دينية وسياسية واجتماعية للفرد والجماعة¹، بحيث أنه كان قبل تأسيس المدرسة والزاوية المؤسسة التي تستقطب الطلاب والمصلين في حلقات درس بداخله².

وغالبا ما تنسب المساجد إلى مؤسسها من الأمراء والتجار والعسكريين ورجال الدين، أو إلى الأحياء الواقعة بها كجامع باب الجزيرة، أو إلى صنعة أو حرفة أهل الحي، كجامع الخياطين وجامع سوق العزل بقسنطينة³. واستمرت المساجد على هذا المنوال عبر مختلف الفترات الإسلامية، رغم نشأة المدارس وانتشارها الواسع لم تستطع الإنقاص من قيمة المساجد التعليمية، وإنما تعايشت معها في نشر رسالة التربية والتعليم في العالم الإسلامي كل⁴.

وعن المساجد في الفترة العثمانية في الجزائر يذكر ابن ميمون " أنه فيما عدا أوقات الصلاة كانت مكانا لحلقات الدروس اليومية ومحط لفنون العلوم التي كانت تدرس خلال العهد العثماني⁵، كما أنها لم تكن مختصة بأداء الشعائر الدينية فحسب بل كانت تؤدي دورا تعديدا من جهة ودور تعليميا من جهة ثانية⁶، وذلك لكون الدين والتعليم متلازمين في الجزائر أيام الحكم العثماني⁷.

كما يقول عنها الدكتور سعد الله "إنها ملتقى العباد ومجمع الأعيان ومشط الحياة العلمية والاجتماعية وهو قلب القرية في الريف وروح الحي في المدينة، إذ حوله تنتشر المساكن والأسواق والكتاتيب كما أنه كان الرابطة بين أهل القرية والمدينة والحي لأن الكل يشترك في بناءه⁸".

1. حسين مؤنس، المساجد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978م، ص 30.

2. عبد العزيز فيلاي، مرجع سابق، ج1، ص 145.

3. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 245.

4. العيد مسعود، مرجع سابق، ص 64.

5. محمد ابن ميمون الجزائري، مصدر سابق، ص 59.

6. رابح بونار، مدينة الجزائر تاريخها وحياتها الثقافية، مجلة الأصالة، العدد 08 منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، 2011، ص 84.

7. جمال سعادنة، المنجز الثقافي وسياقه التاريخي في الجزائر على العهد العثماني، أعمال الملتقى الدولي الأول التاريخي حول العلاقات الجزائرية التركية بجامعة بسكرة، مطبعة جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2014م، ص 151.

8. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 246.

أما عن عدد المساجد في هذا العهد فلا نجد إحصائيات دقيقة ومؤكدة، فهي تختلف من مصدر إلى آخر، ويكون التفاوت أحيانا كبيرا جدا مما جعل البعض يرى في الإحصائيات المقدمة أنها تضم الزوايا والأربطة، كما أن تلك الإحصائيات عادة ما كانت تعبر عن الحواضر الكبرى وليس عن بقية مناطق القطر¹، ولكن الملاحظ عموما على حواضر الجزائر خلال العهد العثماني كثرة مساجدها التعليمية حيث، انفردت كل مدينة بجامعها الأعظم، الذي يمثل معهدا للتعليم² كالجامع الكبير بقسنطينة وجامع بجاية وجامع تلمسان والجامع الكبير بمدينة الجزائر الذي كان خلال العهد العثماني مركزا للنشاط الديني والقضائي إذ فاق نشاطه المساجد الحنفية كجامع صفر و الجامع الجديد³ وكان مقرا للمفتي المالكي والمجلس العلمي، ومنبرا للمناظرات بين العلماء، وكسب ود السلطة عند البعض⁴ والفصل في القضايا التي لم تفصل فيها المحاكم⁵، كما مثل منبرا أساسيا معارضا للسلطة أواخر العهد العثماني⁶، في حين ذاع صيت المسجد الكبير ومسجد الباي محمد الكبير بمعسكر⁷، أما بوهران فقد كان الجامع الكبير أو جامع الباشا الذي أسسه الباي محمد الكبير عام 1796م⁸.

وبعناية جامع سيدي مروان والجامع الأعظم بالإضافة إلى الكثير من المساجد الأخرى⁹، ورغم وفرة المساجد فإن بعض المؤلفين والملاحظين قد اشتكوا من عدم العناية بها في العهد العثماني ويبدو أن عدد المساجد لم يكن يدل بالضرورة على العناية بها والوقف عليها بما يحفظها ويصونها فقد كان بعضها سيء البناء وبعضها محروما من الأوقاف الضرورية لتجديده¹⁰.

1. بخوش صبيحة، مرجع سابق، ص 138.

2. العيد مسعود، مرجع سابق، ص 64.

3. Devoulx (A), **Notes historiques sur les mosquées et autres édifices religieux d'Alger** in, R, 5/1861, p390.

4. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 259.

5. Devoulx (A), Op.cit, p170

6. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 246.

7. مبروك مهيريس، المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009م، ص 47.

8. يحي بوغيز، ماضي مدينة وهران وأمجادها التاريخية، مجلة الثقافة، العدد 52، وزارة الثقافة، الجزائر، 1979م، ص 54

9. محفوظ رموم، الثقافة والمثاقفة في المجتمع الحضري الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830م، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2003/2002، ص 99.

10. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 251، كذلك محمد ابن ميمون الجزائري، مصدر سابق، ص 115، الحسن الورثيلاني، مصدر سابق، ص 266.

وعليه يمكن القول أن المساجد كانت عبارة عن معاهد علم قائمة بذاتها باقية على عاداتها تقوم برسالتها التقليدية، امتلأت بالطلاب والعلماء والفقهاء يدرسون العلم ويقصدون الناس للشورى وقراءة القرآن كما قصدها أيضا الصلحاء والعباد وقاموا بدورهم في تقديم الفتوى والعلم للناس.

ب. الكتابات¹:

هي مأخوذة من الكتاب وجمعها كتابات وهي موضع تعليم القرآن الكريم وبعض مبادئ اللغة وإكساب الخط² يطلق عليها في الحواضر اسم "المسيد"³، ويتمثل في حجرة مجاورة للمسجد، بسيطة التأثيث تجمع الشيخ المعلم بالعلمان المتعلمين متوفرة المستلزمات التعليمية كالداوة والقلم والألواح⁴ يعود ظهوره كمؤسسة تعليمية إلى بداية ظهور الإسلام⁵، وقد دعت الحاجة لتأسيسها من أجل تجنب المساجد أوساخ الأطفال وضوضاءهم والحفاظ على نظافتها وليكون الخشوع المطلوب عند أداء الصلوات المفروضة⁶، وهذه الكتابات كانت في بدايتها عبارة

1. تعد هذه الكتابات المؤسسة التعليمية الأولى عند المسلمين، ظهرت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تمثلت وظيفتها الأساسية في التربية الإسلامية وازداد انتشارها بعد الفتوحات الإسلامية بسبب تحمس الناس لتعلم القرآن الكريم، أنظر: محمد أسعد طلس، *التربية والتعليم في الإسلام*، دار العلم للملايين، بيروت، 1957، ص 66.

2. بشير رمضان التليسي، *الاتجاهات الفكرية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن 4هـ/ 14م*، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م، ص 365.

3. قبل اشتهاار مصطلحات المدارس النظامية الحديثة كانت تسمى في كثير من المناطق بالمسيد، وأصله كما ذكر أبي حفص الصقلي (ت 501هـ) في كتابه تثقيف اللسان: "ومن ذلك قولهم للمسجد: مسيد، حكاه غير واحد، إلا أن بعض العامة يكسرون الميم، والصواب: فتحها"، أما المغاربة اليوم فعلى نموذجها الصربي يسكنون أوله ويقصدون به الكتاب الملحق بالمسجد، وقد أشار إلى هذا المعنى المغاربي الزبيدي (ت 1205 هـ) في قاموسه تاج العروس، فذكر أن المسيد لغة في المسجد بلغة أهل مصر، أما بلغة المغرب فهو المكتب أو الكتاب، أنظر: أبي حفص الصقلي، *تثقيف اللسان وتلقيح الجنان*، ضبطه مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمي، بيروت، 1990م، ص 186.

4. محمود عفيفي، *الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب*، دار الفكر العربي، القاهرة، 2002، ص 317.

5. قاسمي بختاوي، *التعليم بالكتاب في المغرب الأوسط أيام حكم بني عبد الواد 633، 681هـ/ 1235، 1554م*، دورية كان التاريخية، العدد 12، دار ناشري للنشر الإلكتروني، الإسكندرية، 2011، ص 31.

6. يحيى بوعزيز، *أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين*، مجلة الثقافة، العدد 63، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1981م، ص 13.

عن خيمة من خيم المعسكر قبل تمصير الأمصار، تصاحب الفاتحين في حلهم وترحالهم¹ ثم تطورت على شكل بيوت منفردة وأحيانا في شكل مجمعات من البيوت مختلفة الأحجام والأشكال² أو عبارة عن حجرة أو دكان، أو جناح في مسجد، كما أن بعض الواقفين كان يكتفي بفتح غرفة في منزله على الشارع ويجعلها كتابا للأطفال³. وقد استحسّن عبد الرحمن بن خلدون هذه الطريقة في التعليم الابتدائي وأثنى عليها، حيث رأى أن تعلم القرآن وحفظه هو أصل التعليم، وهو أول ما يجب تعلمه للصبيان لأن به يبني ما يحصل بعد ذلك من الملكات حسب تعبيره⁴، وبين أنه نتيجة لاقتصار أهل المغرب على تعليم أولادهم القرآن وقراءاته المختلفة والكتابة أحيانا جعلهم يكونون أقوى على حفظه وإدراك رسمه عن سواهم من بقية الأمصار⁵، ولما يدرك الصبي سن البلوغ يزاول دروسه في مستوى أرقى عرف بالتعليم الاحترافي⁶.

ونظرا للأهمية التي حظيت بها الكتابات جعلت أهل المغرب يجتمعون في انتخاب معلم لتعليم أبنائهم، ويجب أن تتوفر فيه مجموعة من الشروط تؤهله لمباشرة تلك المهنة، وقد أورد ابن أبي جمعة في كتابه الجامع بعض منه فقال: "المعلم الذي لا يعرف الإظهار والإدغام والإعجام والتفخيم والترقيق وأحكام القرآن لا تجوز له الحدقة"⁷.

وقد ذكر أيضا ابن سحنون شروطا لخصها في كتابه آداب المعلمين فقال: "ينبغي أن يكون معلما مهيبا لا في عنف ولا يكون عبوسا مغضبا ولا مبسطا مرفقا بالصبيان دون لين، ينبغي أن يخلص أدب الصبيان لمنفعتهم"⁸.

1. ابراهيم العبيدي التوازي، تاريخ التربية بتونس، الشركة الوطنية للنشر، تونس، (د.ت)، ص 03.

2. يحيى بوعزيز، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، ط1، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2002م، ص 15.

3. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج1، مرجع سابق، ص 277.

4. أبو الحسن القابسي، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، تحقيق وتعليق أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، 1986م ص 30.

5. ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص 603.

6. محمد بوشقيف، المدرسة ونظام التعليم بالمغرب الأوسط، خلال القرنين 8، 9هـ/14، 15م، دورية كان التاريخية، العدد

11، دار ناشري للنشر الإلكتروني، الإسكندرية، 2011، ص 60.

7. أحمد المغراوي ابن أبي جمعة، جامع جوامع الاختصار والتبيين فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان، تحقيق أحمد جلولي البداوي ورايح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت)، ص 24.

8. محمد بن السلام ابن سحنون، آداب المتعلمين، تحقيق محمود عبد المولى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 47.

رغم بساطة الكتاتيب من حيث البناء والتجهيزات إلا أنها عرفت مستوى رفيعا من التنظيم، فكانت تسند مهمة التدريس بها لقراء كبار مقابل أجره معينة اختلف في جوازها من عدمها في تلك الفترة، فيذكر الغبريني أن بجاية حاضرة عرفت بكثرة الكتاتيب التي كان لها دور بتنشيط الحركة العلمية وذلك في العهد الموحدى، حيث بين ذلك بالحديث عن شيخه أبي الحسن علي بن محمد الزواوي، حيث لقيه الغبريني آنذاك تلميذ في الكتاب فقال: "ولقيته رحمه الله ببني يتورغ . منطقة ميشلي . بموضع سكناه منها وأنا على أول السن ففرح بي وسر بي واستدناي لنفسه وأخذ يقول ويمسح على رأسي ويمجد بأذني إلا أن استوفى ما أراد أن يقرأه¹.

أما في العهد العثماني فقد لعبت هذه الكتاتيب دورا كبيرا في التأهيل التربوي فهي اقتصت في تقديم مبادئ العلم الأولية كالقراءة والكتابة، واستظهار كتاب الله فهي أول محل يتلقى فيه الطفل الحروف الهجائية ليكون مؤهل لدخول المدارس والزوايا²، ولهذا نجد أن الجزائريين كانوا يقبلون على إرسال أطفالهم إلى هذه الكتاتيب بدون تراخي³، وكانت منتشرة في جميع الأحياء وأغلبها يحمل اسم الحي الواقع فيه هناك مثلا مكتب الشماعين، ومسيد القيصرية، وبعضها يحمل اسم الزاوية أو الشارع مثل مسيد كوشة الوعيد ومسجد جامع السيدة وغيرهم⁴، إذ يذكر الألماني "هانيسيرايت" في رحلته ذلك بقوله: "لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة غير أنني لم أعثر عليه في حين أنني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا⁵.

كما أدهش هذا الانتشار الكبير للكتاتيب في الفترة العثمانية الفرنسيين عند احتلالهم للجزائر، من بينهم الجنرال "دوماس" الذي كتب تقريرا له، ذكر فيه بأن التعليم الابتدائي في الجزائر كان منتشرا بكثرة وأن نصف السكان من الذكور يعرفون القراءة والكتابة⁶.

1. أحمد الغبريني، مصدر سابق، ص 133.

2. بن ميمون محمد، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمدية، تحقيق بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972م، ص 52.

3. يحيى بوعزيز، أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مرجع سابق، ص 15.

4. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج 1، مرجع سابق، ص 276.

5. هانيسيرايت، رحلة إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1732م، ترجمة ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د. ت)، ص 76.

6. فتحة لواليش، مرجع سابق، ص 160.

وعموما الكتاتيب كمؤسسات تربوية رغم مظهرها المزري أحيانا وفقر أصحابها، ورغم الأساليب العتيقة والمختلفة التي تتبع بداخلها، أدت دورها في التربية والتعليم في جميع العصور حيث تنتهي هذه المرحلة بالختام وتعني إتمام التلميذ حفظ القرآن الكريم كاملا، وعندها يختار بين مواصلة طلب العلم في المساجد أو المدارس أو التوجه إلى الحياة العملية، وبالتالي كان دورها هام جدا في المحافظة على القرآن الكريم وعلى الطابع العربي الإسلامي للجزائر بشكل عام¹.

ت. الزوايا:

شهدت الزوايا بالجزائر خلال العهد العثماني في القرن 15م، نموا واسعا كان كرد فعل على ضياع الأندلس وعلى الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية، حيث انتشرت في الأرياف، إضافة إلى الزوايا التي كانت قائمة في المدن، والتي استحدثت أغلبها خلال هذا العهد، لكن زوايا المدن لم تكن لها أهمية زوايا الريف، فقد استطاعت - على حداثة إنشائها - أن تنافس زوايا عريقة، كزاوية عبد الرحمن الثعالبي بالعاصمة وكذلك زوايا مماثلة في تلمسان ووهران وبجاية وقسنطينة². حيث أن معظم زوايا المدن كانت معطلة عن التعليم لوجود الكتاتيب من جهة والمساجد والمدارس المتخصصة من جهة أخرى³.

حيث قدر سعد الدين بن أبي شنب عددها في القطر الجزائري كله بحوالي 349 زاوية موزعة على مختلف مناطق البلاد، ولكن نظرا لكثرتها واتساع الرقعة الجغرافية المتواجدها عليها فإن إحصاءاتها تبقى ناقصة⁴، ففي مدينة الجزائر نجد عدد كبير من الزوايا قدرها "هايدو" ب 12 زاوية⁵ ونفس الشيء ذهب إليه "دوفو" الذي أشار إلى وجود 32 ضريحاً وقبة⁶، وهذا ما نجده كذلك عند "أبو القاسم سعد الله" أهمها زاوية عبد الرحمن الثعالبي وزاوية عبد القادر الجيلالي⁷.

1. يحيى بوعزيز، أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مرجع سابق، ص 18.

2. العيد مسعود، مرجع سابق، ص 63.

3. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1500)، ج1، مرجع سابق، ص 267.

4. أحمد مريوش، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، مركز الدراسات والبحث، الجزائر، 2007، ص 21.

5. Haedo Diego, Topographie et histoire générale d'Alger, tra, A, Berbergger et monmerau, 3ed Alger Grand Algerlivers, 2004, p113.

6. Devoulx (A), op cit, p390

7. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1500)، ج1، مرجع سابق، ص 263.

وفي مدينة قسنطينة ونواحيها هناك قائمة طويلة بلغت حسب بعض الإحصاءات 16 زاوية، أهمها زاوية سيدي عبد المومن وسيدي الكتاني وغيرهما¹، وإن غلبت عليها الزوايا العائلية كزاوية ابن النعمون وزاوية وابن الفكون وزاوية باش تارزي وغيرها².

في حين كانت المنطقة الغربية خاصة بحاضرتها تلمسان تضم أكثر من 30 زاوية منها زاوية سيدي الطيب وسيدي بومدين وزاوية سيدي الحلوي الأندلسي، وزاوية عين الحوت التي كانت الأكثر شهرة بينها³.

بينما منطقة القبائل تعتبر من أغنى مناطق الجزائر بالزوايا، وصل عددها 50 زاوية، أهمها زاوية الأزهري بآيت إسماعيل وزاوية سيدي علي بن الشريف، وزاوية تيزي راشد (زاوية بن عراب) التي كان يقصدها التلاميذ من المناطق المجاورة والبعيدة، ومن تخرجوا منها محمد الفريرا المشهور بالذباح الذي تولى ولاية التطيري، وأيضا زاوية الشيخ محمد التواتي ببجاية التي أخرجت أجيالا من المعلمين وكانت تضم أكثر من 200 طالب⁴.

هذا بالإضافة إلى الصحراء التي ازدهرت بها هي الأخرى سلسلة من الزوايا عظم شأنها وازداد نفوذها ذكر منها العياشي زاوية سيدي أحمد بن موسى وسيدي عبد الله بن طمطم وعمر بن محمد⁵، كما ذكر الباحث فرج محمود فرج عن فقهاء إقليم توات، أنهم كانوا يبنون الزوايا ويتخذونها أماكن للخلوة والتعبد، إلى جانب تخصيص أجزاء منها للتدريس، وكان الكثير من الطلبة الذين يرغبون في مواصلة تعليمهم يقصدون المشايخ بتلك الناحية للتعلم على أيديهم، وبعد أن تنقضي مدة الدراسة يمنحونهم الإجازات العلمية والأدبية⁶.

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1500)، ج1، مرجع سابق، ص264.

2. شعيب محمد المهدي، قسنطينة أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث، الجزائر، 1985م، ص255.

3. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1500)، ج1، مرجع سابق، ص263، 264.

4. Féraud, La Note sur Bougie, Lège des Tradition, Domination turque, in R.A, T3, 1859, p302

5. مولاي بلحميسي، مرجع سابق، ص30.

6. عبد العزيز شهبي، الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي بالجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2007،

وقد احتلت الزوايا الصدارة بين المراكز التعليمية من ناحية تثقيف المعوزين والفقراء من أبناء الشعب¹، فكانت تقوم بوظائف اجتماعية ووظائف تعليمية وتربوية، تتمثل في تربية الطلبة تربية إسلامية تغرس فيهم الأخلاق الحميدة والاعتماد على النفس وحب العمل².

وعن هذا الدور الذي قامت به يقول الدكتور يحيى بوعزيز "أنها عملت على تحفيظ القرآن الكريم ونشر التعليم والإسلام في المناطق النائية، وكانت ولا تزال مخازن للكتب والمخطوطات، كما ساهمت في إزالة الفوارق الاجتماعية وتوطيد العلاقة بين فئات المجتمع"³.

ويذكر الباحث عبد الله ركيبي في دراسته عن التعليم أنه "كان هناك نوع خاص من التعليم المرتبط بالزوايا، والذي يرجع إليه الفضل في الحفاظ على اللغة العربية وعلومه، وهو تعليم كان يسير على المناهج القديمة التي تعطي الأولوية لعلوم اللسان والدين.."⁴.

وكانت للزوايا الريفية دور ايجابي أكثر في نشر التعليم، بما أن معظم زوايا المدن كانت معطلة لوجود الكتاتيب من جهة والمساجد الكبرى والمدارس المتخصصة من جهة أخرى⁵.

وعادة ما يكون لهذه الزوايا أوقاف، غير أنها كانت تعتمد - إضافة إلى ذلك - في الإنفاق على المتدربين والمدرسين على أموال الهبات والزكاة والهدايا التي يقدمها أفراد القرية أو القبيلة، إضافة إلى ما يحمله الطلبة من المناطق التي تخضع لنفوذها وتبرعات المسافرين والزوار⁶.

ث. المدارس:

تأثرت مدارس التعليم في هذه الفترة بالواقع الثقافي الذي عاشته البلاد ككل، فكان تأسيسها يتم بمجهود شخصي، وبمبادرة من الأفراد، حيث كان إنشاء المدارس على أيدي المحسنين، وتمول بالأوقاف التي كان يجسها

1. محمد ابن ميمون الجزائري، مصدر سابق، ص 59.

2. ناصر الدين سعيدوني، في الهوية والانتماء الحضاري، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص 146.

3. يحيى بوعزيز، أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مرجع سابق، ص 19.

4. عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 30.

5. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج 1، مرجع سابق، ص 267، 268.

6. بخوش صبيحة، وضعية التعليم في الجزائر في العهد العثماني، حوليات التاريخ والجغرافيا، العدد 2، مج 1، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2008م، ص 139.

أصحاب النفوس الحرة التي ترجو الخير، وتسعى إلى وهب ريع عقاراتها لبناء المدارس، وغيرها من المشاريع التي تدعم التعليم بشتى أشكاله¹.

وكان طلبة العلم في هذه المرحلة ينكبون على دراسة مختلف التخصصات العلمية²، كعلوم اللغة العربية وآدابها والنحو والحساب والجبر والهندسة وغيرها³، وكذا أصناف العلوم الدينية خاصة تفسير القرآن والاطلاع على علومه من قراءات ورسم وضبط، إضافة إلى معرفة علوم الحديث والفقهاء خاصة المالكي، انطلاقاً من المختصرات مثل الرسالة ومختصر خليل، إلى المدونة لابن سحنون، وعلم التوحيد كمؤلفات الأشعري والجويني وعلم الفرائض وغيرها من العلوم⁴، كما كان لها مكتبات خاصة وعمامة وأغلبها مزدهما بالكتب والمخطوطات⁵.

ونظراً لتنوع هذه المعارف والعلوم فقد صنفت المدارس بالجزائر خلال هذا العهد إلى مدارس خاصة مهتمة بالعلوم الدينية مثل مدرسة خنقة سيدي ناجي بيسكرة ومدرسة مازونة الفقهية بغليزان، ومدارس خاصة بفروع العلوم الطبيعية أهمها مدرسة أبي مروان بعنابة وسيدي بومدين وندرومة بتلمسان، وسيدي عبد الرحمن الثعالبي بمدينة الجزائر، ومدرستي سيدي لخضر والكتاني بقسنطينة⁶.

1. دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في الآداب واللغة العربية، قسم الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 1995/1996م، ص 21.

2. محمد بوشقيف، مرجع سابق، ص 60.

3. عبد القادر حللمي، مرجع سابق، ص 273.

4. محمد بوشقيف، مرجع سابق، ص 60.

*. عن مستوى التعليم في الجوامع الكبرى ومؤسسات التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني يشير أبو القاسم سعد الله إلى أن البلاد كلها لم تكن بها جامعة واحدة بالمعنى المتعارف عليه، ولا جامعة إسلامية كالأزهر والقرويين والزيتونة، غير أن دروس جوامعها الكبيرة كانت تضاهاى بل تفوق أحياناً دروس الجامع الأموي بدمشق والحرمين الشريفين لتنوع الدراسات فيها وتنوع الأساتذة عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي أنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1500)، ج1، مرجع سابق، ص 273.

5. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1500)، ج1، مرجع سابق، ص 293.

6. أحمد مريوش، مرجع سابق، ص 17.

ثالثا. مدارس التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني

عرفت المدارس انتشارا واسعا فلا يكاد يخلو حي من أحياء المدن من هذه المدارس، بحيث أنها لعبت في المدن نفس الدور الذي لعبته الزوايا في الريف، فكانت تزود الدولة بما تحتاج إليه من الموظفين وكان تعيين المدرسين بها من طرف الداوي وباقتراح من مدير الأوقاف¹، خاصة بمدينة الجزائر عاصمة الإيالة، ومدينة قسنطينة عاصمة بايلك الشرق الجزائري، ومدن مازونة ومعسكر ووهران عواصم بايلك الغرب، وفي تلمسان وبسكرة وغيرها من المدن، إلا أن تلك المدارس - مع دخول الاستعمار الفرنسي - إما اندثرت أو تحولت معالمها إلى بنايات ذات وظائف أخرى، وفقدت الكثير من أصالتها ولم يبق منها إلا خمسة مدارس وهي: المدرسة المازونية بغليزان ومدرسة خنق النطاح بوهران والمدرسة الناصرية بخنقة سيدي ناجي ببسكرة ومدرستي سيدي الكتاني وسيدي الأخضر بمدينة قسنطينة، وهي المدارس التي سنحاول أن نتناولها بالدراسة من مختلف الجوانب التاريخية والأثرية.

1. مدرسة مازونة الفقهية (غليزان):

تعتبر مدرسة مازونة من أقدم المدارس التي أسست في الجزائر خلال العهد العثماني والتي حققت شهرة علمية واسعة² كان لها أثر قوي، خاصة في مناطق الغرب الجزائري، وظلت محافظة على سمعتها حتى بعد انتقال كرسي الحكم من مازونة إلى معسكر ثم إلى وهران³، كما كان لها نظام تعليمي جيد وتقاليد متينة استمدتها من صلتها بالتعليم في تلمسان وبجاية والاندلس والمغرب الأقصى، وتميزت بتدريس الفقه والحديث وعلم الكلام وهذا

1 . Turin, Op.cit, p126.

2. الطاهر حنان، مازونة عاصمة الظهرة، ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري، مكتبة رشاد، الجزائر، 2005، ص95.

3. هناك العديد من المصادر والدراسات والأبحاث الحديثة التي تناولت تاريخ مدينة مازونة ودورها في الحركة العلمية والثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني يمكن الرجوع إليها نذكر منها: أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 138، ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ج4، مرجع سابق، ص ص191-198. أحمد بحري، حاضرة مازونة، دراسة تاريخية حضارية خلال العصر الحديث، 1900/1500م، رسالة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإنسانية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2013/2012، ص 216.

ما جعلها مقصدا للطلاب من مختلف النواحي، وبالخصوص في القطاع الغربي الجزائري، وقطاع شرق المغرب الأقصى كبلاد الريف ونواحي تازة ووجدة¹.

1.1 الموقع الجغرافي للمدرسة:

تقع المدرسة الفقهية بمسجدها العتيق في أقصى الجهة الشمالية من حي السوق القديمة بمدينة مازونة (ولاية غليزان)، تطل بواجهتها الرئيسية على شارع بوعلوقة الرابط بين وسط المدينة شرقا إلى واد تامدة غربا ومقابلة للحمام العثماني البركة، يحدها من الغرب والشرق أزقة ضيقة ضمن المحيط العمراني للمدينة القديمة، ومن الجهة الجنوبية تلتحم مع مجموعة من المباني السكنية (الصورة رقم 03).



الصورة رقم 3 : موقع المدرسة بمدينة مازونة القديمة (عن غوغل إيرث)

1. بوعبدالله بلجوزي، مدرسة مازونة ومسجدها العتيق دراسة أثرية، مجلة منبر التراث الأثري، العدد 5، جامعة تلمسان، الجزائر، 2016م، ص 137.

2.1 التأسيس والمؤسس:

يعود تاريخ تأسيس المدرسة إلى أواخر القرن 16م¹، أما السنة بالضبط فقد وقع فيها اختلاف وتضارب في الآراء، فهناك من أرجعها إلى سنة 990هـ/1582م²، وبعض الآخر إلى سنة 1000هـ/1560م³، وهناك من يرى أنها سنة 1619م وهو التاريخ الذي تشير إليه لوحة التدشين المثبتة عند مدخل المدرس، والذي تؤكد كذلك الأبحاث الحديثة والوثائق التاريخية التي تؤرخ لهذه المدينة⁴، وذلك على يد الشيخ العلامة محمد بن الشارف البلداوي، ويؤكد ذلك أبو القاسم سعد الله في قوله: "وقد بنى أحد المهاجرين الأندلسيين مدرسة مازونة المشهورة التي تخرج منها عدد من الفقهاء خلال العهد العثماني وهو محمد بن الشارف البلداوي"⁵، وقد أسسها البلداوي من ماله الخاص، ودرس بها حوالي 64 سنة، إلى أن وافته المنية سنة 1164هـ، وقبره معروف وموجود بها، عليه قبة تسمى باسمه: قبة ابن الشارف⁶.

وعلى عكس تاريخ تأسيس المدرسة الذي وقع فيه لبس واختلاف، فإن مؤسس المدرسة جاء واضحا معلوما وهو الشيخ محمد بن الشارف بن أحمد بن علي بن عبد العزيز بن علي بن منصور بن محمد بن عمر البلداوي، من المهاجرين الأندلسيين الذين سكنوا مدينة مازونة وساهموا مساهمة كبيرة في تعليم النشء وتثبيت وتعزيز الهوية الإسلامية في أذهان الجزائريين خاصة في ظل الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الجزائر خلال تلك الفترة⁷، إذ

1. Bellhamissi Moulay, Mazouna, une Petite ville, une longue histoire, Alger, S,N ,E,D, 1982, p 49

2. Edmond Grosclaude, Mostaganem et son arrondissement, Imprimerie de l'indépendant, Mostaganem, 1892, p 31

3. ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي البوعبدلي، مرجع سابق، ص ص191-198.

4. حول بعض هذه الوثائق أنظر: أحمد بحري، حاضرة مازونة، دراسة تاريخية حضارية خلال العصر الحديث، 1900/1500م، رسالة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإنسانية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2013/2012، ص 216.

5. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 مرجع سابق، ص 138.

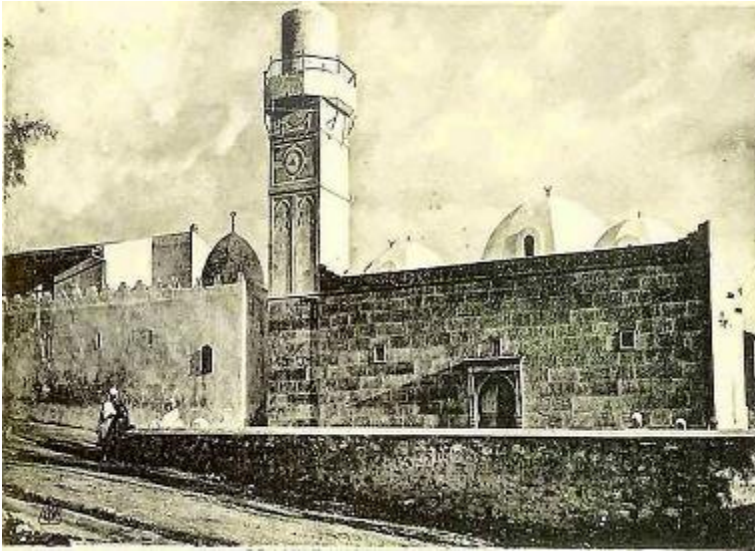
6. يوسف بوكفة، مدرسة مازونة الفقهية، النهضة والسقوط، رسالة التخرج لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع جامعة وهران، 2003/2002م، ص 29.

7. عرفت الجزائر خلال هذه الفترة (القرن 10هـ/16م) أحداثا هامة وتطورات كبيرة سواء على المسار الداخلي أو الخارجي للبلاد ومن أهمها هجرة الأندلسيين إلى الجزائر وسقوط بعض المدن الساحلية الجزائرية كجاية ووهران وجيجل والجزائر تحت السيطرة الإسبانية، الأمر الذي دفع بنزوح الكثير من السكان هذه المدن إلى المناطق المجاورة الآمنة وخاصة الداخلية منها، وبلا

احتكروا ميدان التعليم لاسيما في الحواضر ونقلوا مناهجهم التعليمية إليها، ولم يكتفوا بتحفيظ القرآن الكريم واللغة العربية بل أضافوا إليه تعليم القواعد العامة لمختلف المعارف والعلوم¹.

3.1 مكانة مدرسة مازونة التاريخية وأهميتها العلمية:

كان لتأسيس المدرسة الفقهية بمازونة سنة 1619م وقعه الايجابي على الحياة الثقافية والعلمية على مستوى البايك الغربي، والجزء الشرقي من المغرب الأقصى، إذ شهدت الحاضرة إقبالا طلابيا منقطع النظير من مختلف البقاع والأصقاع².



اشتهرت المدرسة بكثرة أعلامها ومشايخها، وغدا التعليم فيها على درجة كبيرة من الأهمية، حيث تجاوزت شهرة مدرستها الحدود الإقليمية، كما استفادت من المناخ الثقافي الذي ساد المنطقة وقتها خاصة في تلمسان والقرويين بالمغرب الأقصى، والزيتونة بتونس³.

الصورة رقم 4 : مدرسة مازونة في فترة الاحتلال الفرنسي

(من أرشيف المدرسة)

فقد أنجبت هذه المدرسة طيلة القرون الثلاثة من التواجد العثماني علماء وفقهاء ومشايخ لمختلف أنحاء القطر الجزائري وخارجه فعددهم لا يحصى، ساهموا في صناعة تاريخ المنطقة، نذكر منهم: أبي راس الناصري

شك شكلت مدينة مازونة ملجأ ومقرا لاستقطاب هذه الهجرات، بالإضافة إلى دخول الجزائر تحت لواء الدولة العثمانية واتخاذ مدينة مازونة عاصمة باييك الغرب الجزائري سنة 971هـ/1563م، أنظر: مجموعة أساتذة، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسستها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 220.

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 36.

2. ميلود ميسوم، مدرسة مازونة: مسيرة علمية تزيد عن أربعة قرون، المجلة المغاربية التاريخية والاجتماعية، العدد السادس، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2013م، ص 34.

3. فتيحة لواليش، مرجع سابق، ص 164.

المعسكري (ت 1238هـ/1823م)، صاحب الثروة العلمية والفقهية الكبيرة التي بلغت 136 مخطوط منها اثنين مطبوعين، الأول كتاب فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته، والثاني كتاب عجائب الأسفار الذي ترجم إلى الفرنسية من قبل الباحث الفرنسي أرنو سنة 1885م¹، وبعده تلميذه محمد بن علي السنوسي الذي شرب من نبع المدرسة الفقهية على يد علماء وفقهاء كرسوا حياتهم في خدمة العلم، واعتبر فيما بعد الأب الروحي والمؤسس الأول للطريقة السنوسية التي نادى بالجهاد في صحراء الجزائر وليبيا وتشاد ابان الفترة الاستعمارية².

نذكر منهم كذلك الشيخ عدة بن غلام الله (1208هـ/1747م) مجدد الطريقة الشاذلية ومؤسس زاويتها بمنطقة



تيارت، والشيخ بن قندوز (1222هـ/1807م)، شيخ الجماعة بالحضرة المستغانمية وأحوازها، والشيخ محمد بن العالم قاضي منطقة بركان بالمغرب الأقصى³، والشيخ محمد الصادق بن الحميسي، والشيخ الفقيه عبد القادر بن المختار الخطابي المجاهري (1329هـ/1911م)⁴، صاحب كتاب "الكوكب الثاقب في أسانيد الشيخ أبي طالب"⁵.

كما تخرج منها الشيخ الفقيه والمؤرخ المهدي البوعبدلي (1907/1992م) وهو من البيوتات العريقة في القطر الجزائري، وله شهرته الواسعة واهتمامه البالغ

الصورة رقم 5 : مدرسة مازونة لا تزال إلى اليوم تلقن

القرآن الكريم ومبادئ اللغة العربية للأجيال

1. محمد الأمين بلغيث، مدرسة مازونة الفقهية وآثارها خلال القرن 9هـ/15م، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية،

العدد الأول، مخبر الشريعة بجامعة الجزائر 1 (بن يوسف بن خدة)، الجزائر، 2004، ص 127.

2. عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1402هـ/1982ص 1040.

3. محمد الأمين بلغيث، مرجع سابق، ص 128.

4. عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، مرجع سابق، ص 507.

5. نفسه

بالمخطوطات، الذي نال بها منزلة رفيعة بين علماء عصره سواء داخل الوطن وخارجه¹.

ويبدو أن معظم شيوخ وأساتذة مدرسة مازونة كانوا من أهل البلدة، الشيء الذي ضمن الاستقرار والمواصلة في التلقين، ولازم ذلك سعة الحال عند معظمهم، ما يملكونه من بساتين وأراضي فلاحية².

لقد عرفت مدرسة مازونة ترميمات عديدة، من قبل البايات العثمانيين، لاسيما عندما كانت عاصمة ومقرا لبابلك الغرب للمرة الأولى (1563م/1700م)، اعترافا بدورها الثقافي والسياسي والديني وتكريما لشيوخها وطلبتها الذين قادوا حملات الجهاد ضد الاسبان³ بوهرا ن عدة مرات، وكانوا ممن تشرف بطردهم آخر مرة، ومن أشهر البايات الذين ساهموا في تطور المدرسة الباي محمد الكبير، ويؤكد ذلك أحمد بن سحنون الراشدي بقوله: " ثم بعث الأمير الكبير إلى ولي الأمة الشهير وشمس علمائها... شيخنا السيد محمد علي بن شارف المازوني... وكان مطاعا عند الطلبة مهاجا بينهم، ما أمر بشيء الا امتثلوه... فقدم عليه هو وولده السيد هني رحمه الله وأخوه السيد محمد في نحو المائتي طالب فدفعت لهم العدة وآلاتها وألحقهم بإخوانهم... وأكثرهم لا علم له بالحرب، ولا بكيفية أخذ السلاح، شأن المشتغلين بالقراءة"⁴.

وقول ابن سحنون هنا يدل على المكانة المهمة التي بلغتها مدرسة مازونة، والتي استمرت إلى غاية الاحتلال الفرنسي وبعده، حيث يذكر المؤرخ المهدي البوعبدلي أن مدرسة مازونة بقيت محط رحال طلبة المغرب الأقصى إلى غاية الحرب العالمية الثانية، حيث حورب التعليم الديني التقليدي في المدن والبوادي، إلا أن مدرسة مازونة، ولو تدهور وضعف التعليم فيها وقل بريقها وفقدت شهرتها السابقة، فإنها امتازت بالتخصص في دراسة الفقه⁵، كما يذكر الجنرال الفرنسي بوسكي (Bousquet) في المجلة الإفريقية أن مدرسة مازونة كانت قبل الحرب

1. بليل حسني، "الشيخ المهدي البوعبدلي (1907م، 1992)", مجلة عصور الجديدة، العدد 3، مخبر تاريخ الجزائر، جامعة وهران 1، الجزائر، 2011م، ص 218.

2. مولاي بلحميسي، "دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية والثقافية من القرن 15م إلى منتصف القرن 20م" مجلة العصر، العدد 11، الجزائر أكتوبر 1997م، ص 09.

3. جلول دواجي عبد القادر، مدرسة مازونة ودورها التعليمي في العهد العثماني، مجلة مفاهيم، العدد 4، جامعة الجلفة، ديسمبر 2018م، ص 264.

4. ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 242.

5. ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي البوعبدلي، مرجع سابق، ص 195 وما بعدها.

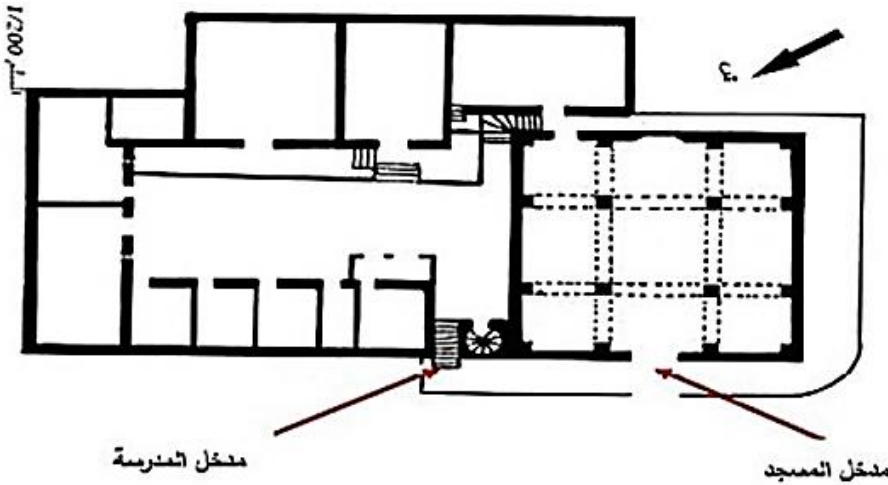
العالمية الثانية تستقبل من 40 إلى 60 طالبا، وأثناء مروره بها لم يرى بها سوى 10 طلاب، مما يدل على تفهقر وتراجع دور المدرسة بعد الحرب العالمية الثانية¹.

وعموما يمكن أن نقول أن المدرسة في هذه الفترة لعبت إلى جانب مثيلاتها في شتى أنحاء الوطن دوراً إيجابياً في بناء جيل مشبع بالثقافة العربية الإسلامية، وذلك لمواجهة السياسات الاستعمارية التي كانت قائمة على طمس هوية الأمة ومقوماتها، وزرع بذور التغريب والاستئصال، فوقفت في وجه الاستعمار، وفرضت عليه مواقفها ومبادئها، واستمرت في وظيفتها إلى اليوم رغم العراقيل والحواجز، وهي اليوم تمن، وتنتظر التفتاة المسؤولين على قطاع الثقافة والعلم بصفة عامة والخيرين من أبناء مدينة مازونة على وجه الخصوص لإعادة الاعتبار لها.

4.1 الدراسة الوصفية للمدرسة:

أ. المخطط العام:

يمتد المبنى الذي يضم المدرسة والمسجد والأضرحه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي على أرض منحدره مما جعل المسجد في مستوى منخفض عن المدرسة، وهو يتكون من قسمين رئيسيين شبه منفصلين، القسم الأول في الجهة الغربية ويمثله المسجد ومئذنته وجاء مربع الشكل طول أضلعه 13م تقريبا، والقسم الثاني في الجهة الشرقية، والذي يفصله عن القسم الأول رواق غير مسقف بمدخله باب يفصل بين الداخل والخارج، يتم الصعود إليه عن طريق درج من الشارع الرئيسي في الجهة الشمالية (صورة رقم 06)، انتظم وفق مخطط شبه مستطيل



غير منتظم الشكل، يتوسطه صحن تتوزع عليه قاعات التعليم وبيوت الطلبة من الجهتين الشمالية والشرقية، وأضرحه المشايخ من الجهة الجنوبية (المخطط رقم 12).

المخطط رقم 12 : مخطط مدرسة مازونة

عن أرشيف المدرسة بتصرف

¹. Bousquet promenade sociologique une médersa déchué Mazouna, in Revue Africaine, V91. 1947, p 305

ب. الوصف الخارجي:

جاءت واجهات هذا المبنى ككل متلاصقة لبعض المساكن من الجهتين الشرقية والجنوبية، وأما الواجهة الغربية فتطل على زقاق ضيق يؤدي إلى داخل حي القصبه، وتبقى الواجهة الرئيسية في الجهة الشمالية تطل على الشارع الرئيسي، وتشمل هذه الواجهة مبنى المدرسة والمسجد والضريح معا، يتخللها مدخلين وست نوافذ متباعدة

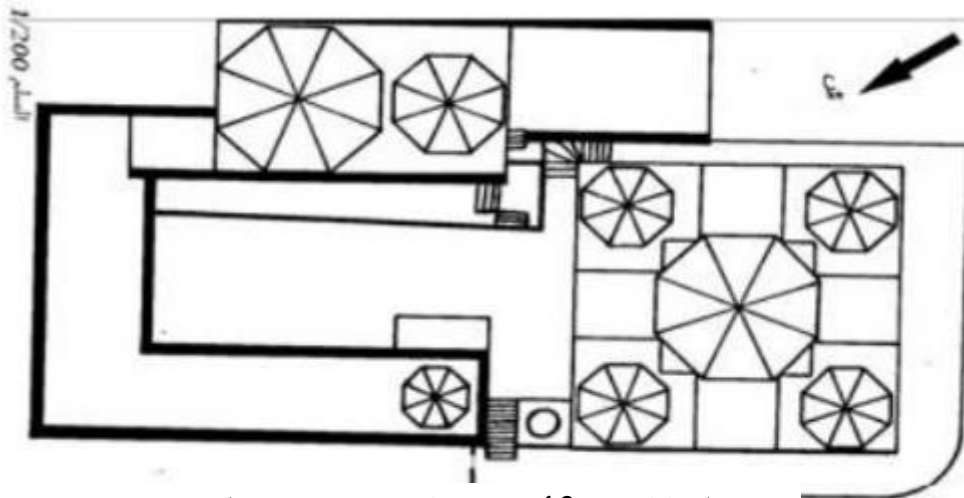


المقاييس، فتحت أعلى جدار المدرسة، نافذة بضريح الشيخ أبي راس المازوني المحاذي لباب مدخل المدرسة، مستطيلة الشكل مقاساتها 50/60سم، في حين نجد أربع نوافذ أخرى صغيرة الحجم، فتحت في غرف الطلبة، تراوحت مقاساتها ما بين 15/30سم، أما النافذة الأخيرة فتحت في قاعة التدريس الأولى أقصى الجهة الشمالية الشرقية للمسجد بمقياس 32/43سم

الصورة رقم 6 : مدخل المدرسة

(الصورة رقم: 06).

يسبق المدخل الرئيسي للمدرسة ومسجدها فناء صغير على شكل صحن أولي نلج من خلاله إلى بيت الوضوء الواقع في أقصى الجهة الجنوبية الشرقية للمسجد، وكذلك إلى المسجد والمدرسة على نفس المستوى، ويعلو المبنى ككل ثمان قباب، خمسة تتوزع على سقف المسجد، واحدة مركزية وأربعة في الأطراف وثلاثة منها تعلو الأضرحة (المخطط رقم: 13)



المخطط رقم 13: توزيع القباب على مباني المدرسة

(عن أرشيف المدرسة بتصرف)

أما واجهة مسجد المدرسة فهي تمتد على طول 13.5م، يتوسطها مدخل رئيسي يؤدي من الفناء الخارجي مباشرة إلى بيت الصلاة، وهو على نفس مستوى المحراب في الجهة المقابلة، ارتفاعه 3م وعرضه 1.50م، يزينه إطار فصلت حجارتها على نحو زخرفي بأشكال هندسية متنوعة وتعلوه كتابة قرآنية بالخط المغربي، هي جزء من الآية 46 من سورة فصلت ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ.....﴾، كما يمثل المدخل نقطة تناظر بالنسبة لثلاث نوافذ صغيرة الحجم على شكل فتحات في اعلى الجدار تستعمل بغرض التهوية والإضاءة (الصورتين 07 و08).



الصورة رقم 8 : فتحات التهوية أعلى واجهة المسجد

الصورة رقم 7 : مدخل مسجد المدرسة

ت. الوصف الداخلي:

يتم الدخول إلى المدرسة بالصعود عبر درج مكون من ثمان درجات، يفضي مباشرة إلى صحن المدرسة والذي جاء شكله مستطيلا طوله 16م وعرضه 06م.

يحيط بالصحن من جميع جهاته غرف باستثناء الجهة الغربية التي تمثل الجدار الشرقي لبيت الصلاة، وأما الغرف فمنها ما هو مخصص للدراسة ومنها غرف لمبيت الطلبة، ومنها ما يمثل غرفا ضريبية لأئمة تداولوا على التدريس في هذه المدرسة.

ت1. قاعة التدريس:

تقع بالجهة الشمالية الشرقية من الصحن، مقابلة لجدار المسجد، يبلغ طولها 10.5م، وعرضها 6م، فتحت على الصحن بمدخلين يبلغ ارتفاعهما 1.65م، وحسب القائم بأمرور المدرسة الأستاذ هني فإنها كانت في الأصل قاعتين منفصلتين، ولكنهما فتحتا على بعضهما البعض أثناء عمليات الترميم ليتسع المكان لأكثر عدد ممكن من الطلبة، ولكسب المزيد من الضوء والتهوية من خلال النافذة المفتوحة على الشارع الرئيسي في الجهة الشمالية للمدرسة أو النافذة الصغيرة التي استحدثت في الواجهة المطلة على الصحن (الصورة رقم 09).

وما يلاحظ على هذه القاعة بساطتها وقلة ارتفاعها مقارنة مع غرفة الأضرحة المتصلة بها في الجهة الجنوبية من الصحن، إذ لا يتجاوز ارتفاعها 2.40م.



الصورة رقم 9 : قاعة التدريس بالمدرسة

ت2. بيوت الطلبة:

تضم مدرسة مازونة أربعة غرف للطلبة بأحجام متساوية تقريبا، بسيطة وصغيرة الحجم، مقاساتها 3.20م طولا، و1.90م عرضا وبارتفاع 2.50م، وتفتح على الصحن من جهته الشمالية على نفس الخط، موازية بذلك لضريح الشيخ محمد الشارف، والشيخ محمد أبي طالب، كما أنها تتوسط ضريح الشيخ أبي راس المازوني من الجهة الغربية، وقاعة التدريس السالفة الذكر من الجهة الشرقية.

واهم ما يمكن ملاحظته على هذه الغرف العاطلة عن وظيفتها الآن بحكم أن التدريس بالمدرسة أصبح خارجيا فقط ومخصص لأهل البلدة، الأمر الذي حولها إلى مكاتب ومخازن لأثاث المدرسة، هو بساطتها في البناء

والتصميم وهشاشة سقفها ونقص التهوية فيها بسبب صغر نوافذها، وكذا خلوها من أبسط عناصر الجمال الزخرفي منها والمعماري المعروف على مثل هذه المباني في تلك الفترة، وربما يرجع السبب في ذلك إلى التجديدات والترميمات المتكررة من طرف القائمين عليها إلى درجة تكسية أجزاء كبيرة منها بالزليج الحديث (الصورة رقم 10).



الصورة رقم 10 : بيوت الطلبة

أين نجد خمسة غرفة صغيرة أربعة منها مخصصة للطلبة وواحدة اعلوها قبة مزلعة يوجد بداخلها قبر سيدي أبي راس المازوني.

ت3. الأضرحة:

أهم ما يميز مدرسة مازونة هو احتوائها على العديد من الأضرحة والقبور التي تعود لمشايخ وعلماء كان لهم دورا بارزا في الحركة العلمية التي عرفتها المنطقة في فترة زمنية فاقت الأربعة قرون.

أول ضريح يصادفنا عند ولوجنا لصحن المدرسة من الجهة اليسرى هو ضريح الشيخ ابي راس المازوني، بمحاذاة الغرف الأربعة المخصصة لنوم الطلبة، وهو عبارة عن غرفة صغيرة مقاساتها 3.30م طولا وبعرض لا يتجاوز 2.20م، يتم الدخول إلى غرفة الضريح انطلاقا من الصحن عبر ضلة معقودة بعقد نصف دائري يتخللها المدخل بارتفاع 2.50م وبعرض 1.15م، هذا المدخل به باب خشبي بزخارف هندسية ورمزية وينتهي بعقد حدوي مدبب، كما زين أعلاه بمربعات الزليج ذات الأشكال الهندسية والنباتية، تعود للفترة الاستعمارية، اما إذا ولجنا الغرفة فإننا نجدها مضيئة بعدما استحدثت فيها نافذة في الجهة المقابلة للمدخل والمطللة على الشارع، ولكنها بسيطة وخالية من أي ملاحق يتوسطها قبر الشيخ أبي راس المازوني والذي تعلوه قبة صغيرة قطرها لا يتجاوز 1.60م (الصورة رقم 11).



الصورة رقم 11 : ضريح الشيخ ابي راس المازوني

في الجهة الجنوبية من الصحن نجد غرفتين تعلوهما قبتان متفاوتتان الحجم احدهما تمثل حجرة ضريحية للشيخ محمد أبي طالب وهي الأكبر، أما الحجرة الثانية فتعود إلى الشيخ محمد بن الشارف، الذي ينسب إليه تأسيس المدرسة (الصورتين 12 و13).

فيما يخص غرفة الضريح الأولى المقابلة لبيوت الطلبة، فهي تختلف عن الأضرحة الأخرى الموجودة في المدرسة سواء من حيث الحجم أو من حيث التصميم المعماري للغرفة، إذ بنيت على شكل ثماني الأضلاع تتخلل كل ضلع تجويف على شكل محراب، يبلغ ارتفاع الواحد منها 1.90م وعرضه 1.20م. (الصورة رقم:05)، أما غرفة الضريح الثانية الخاصة بالشيخ المؤسس، والتي تقع غرب ضريح الشيخ أبي طالب ومقابلة لضريح الشيخ أبي راس المازوني، تعلوها قبة قطرها حوالي 3.60م، يتم الصعود إليها من الصحن عبر ثلاث درجات لأن مستوى أرضيتها أعلى من مستوى أرضية الصحن وبقية الغرف التي تقع في الجهة المقابلة (الصورة رقم:06)، والغرفة مجوفة وواسعة وخالية من أي ملاحق، ولا يوجد بها حتى نافذة مما قلل من التهوية والإضاءة داخلها، ويبلغ طولها إجمالاً 4.80م وعرضها 4.50م وفي ذلك دلالة على القداسة التي كان يحظى بها الأولياء الصالحين، إذ نجد المكان المخصص للضريح أوسع وأرحب من المكان المخصص لمبيت الطلبة وبعض المشايخ، وقد يرجع كذلك إلى كثرة المتبركين الوافدين إلى المكان من مختلف المناطق وطول أيام السنة.



الصورة رقم 13 : ضريح الشيخ محمد أبي طالب

الصورة رقم 12 : ضريح الشيخ محمد بن الشارف

ت4. مسجد المدرسة:

يقع المسجد الذي هو عبارة قاعة للصلاة غرب المدرسة، يتم الولوج إليها عبر بابين أحدهما رئيسي ارتفاعه 2.90م وعرضه 1.60م يحده من الخارج إطار من الحجر الرملي مشكلا فتحة على هيئة عقد حدوي يتوسط هذا الباب جدار مؤخره بيت الصلاة ويقع على محور المحراب، وترتسم فيه ملامح الفترة الاستعمارية بعدما اعيد ترميم المدرسة مرات عديدة أهمها سنة 1852 في عهد نابليون الثالث .

أما الباب الثاني فجاء ضيقا ومفتوحا في جدار القبلة على يسار المحراب، وكان استخدامه على ما يبدو من



طرف الإمام للدخول والخروج عنه إلى المكتبة المقابلة لجدار القبلة من الخارج والوصول عبرها إلى صحن المدرسة.

إن حجم قاعة الصلاة في المدرسة صغير بالمقارنة بالمساجد التاريخية الأخرى الموجودة بالمنطقة، وقد يعود ذلك إلى تخصيص المدرسة ومسجدها لفئة الشيوخ والطلبة داخل المدرسة دون غيرها.

الصورة رقم 14 : قاعة الصلاة بمسجد المدرسة

بنيت على شكل مربع طول ضلعه 12م، تحده ثلاث بلاطات عمودية على جدار القبلة وأخرى موازية له تشكلها بوائك من 16 دعامة، 12 منها مدمجة بالجدار، الأربعة الباقية منها تتوسط بيت الصلاة وتحمل قبة مركزية مثمثة ترتفع على أربعة عقود نصف دائرية محمولة على أربع دعامات مربعة من الحجر الرملي، وشغلت منطقة الانتقال بجنايا ركنية وغطي وسط كل رواق بقبو أسطواني، في حين شغلت سقف بيت الصلاة في أركانه الأربعة قباب صغيرة مثمثة (المخطط رقم 13).

وتسقيف المساجد بهذه الكيفية نجد له مثيلا في الكثير من المساجد التي ترجع على الفترة العثمانية على غرار جامع المبايعه بمعسكر وجامع الباشا بوهران، وهو بهذا ينتمي إلى النمط الجديد القائم على بيت الصلاة ذو القبة المركزية الذي حمله الأتراك معهم من تركيا وطبق تقريبا على أغلب المساجد الجزائرية (الصورة رقم 14).

إن أهم ما يمكن ملاحظته داخل المسجد ذلك الكرسي الخشبي الخاص بالأئمة والمدرسين الذين مروا على المدرسة طيلة ثلاثة قرون من الزمن، حيث يذكر لنا القائم عليها الأستاذ هني أنه من الهدايا التي أهداها الباي عثمان باي بايالك الغرب بمعسكر إلى الشيخ أبو طالب سنة 1700م، وحمله الطلبة من معسكر إلى مازونة، ولا يزال إلى اليوم رغم وضعيته ومكانه غير الملائم للحفظ، خاصة وأن له من المميزات الفنية ما يعكس عراقتة وقدمه.

يقوم الكرسي على قاعدة مربعة بمقياس 82سم/82سم، ويصل ارتفاعه من القاعدة إلى الأعلى 1.80م، وعرضه 80سم، ويتميز بأشكاله وزخارفه الهندسية المتنوعة من مستطيلات صغيرة وكبيرة بداخلها معينات وعناصر زخرفية على هيئة أوراق وفروع نباتية محورة، وزخارف كتابية نفذت بتقنية الحفر البارز موزعة على جانبي الكرسي فحوها إجمالاً عبارة الكرم مكروم والبخيل محروم الدنيا لا تدوم إلا للحى القيوم (الصورة رقم 15).



الصورة رقم 15 : كرسي الإمام يعود تاريخه لسنة 1700م

(حسب القيم عن المسجد)

أما مئذنة المسجد فهي ملاصقة له في الجهة الشرقية في الرواق الفاصل بينه وبين المدرسة، وهي مئذنة بسيطة خالية من أي زخارف ذات شكل مربع، يبلغ ارتفاعها 12.50م، وعرض أضلاعها 2.50م/2.60م ويبدو من خلال شكلها الخارجي صفة الحدائثة، وذلك جراء الترميمات والتجديدات التي خضعت لها، والتي مست بعض مرافق المدرسة في فترات سابقة خاصة في عهد نابليون الثالث سنة 1852م (الصورة رقم 16).

ت5. خزانة الكتب (المكتبة):



قاعة الكتب والمخطوطات الخاصة بالمدرسة تقع جنوب المسجد يفصل بينها وبينه رواق عرضه 1.60م، يتم الولوج إليها إما من قاعة الصلاة مباشرة، وإما من فناء المدرسة في الجهة الشرقية، وهي ثرية جدا بأنفس الكتب والمخطوطات النادرة والتمينة في مختلف التخصصات كالفقه والسيرة والتشريع والحديث وغيرها، منها جزء أصلي من صحيح مسلم وستة أجزاء في شرح صحيح البخاري، كان قد أهداها باي وهران عثمان بن محمد الكبير إلى شيخ المدرسة سنة 1212هـ.

الصورة رقم 16 : المنذنة بالواجهة الرئيسية

حسب ما افادنا به قيم المدرسة الأستاذ هني، وذكر أنه كان بالمكتبة نحو 20 ألف مخطوط في مختلف فروع العلوم، ولكن أغلبها ضاع، منها ما هو في متاحف العاصمة ومنها ما هو في الرباط وباريس وغيرها، ومنها ما هو موجود عند عائلات أحفاد المشايخ والأئمة الذين تعاقبوا على المدرسة (الصورة رقم 17).

معماريًا، قاعة المكتبة واسعة من الداخل مستطيلة الشكل، مقاساتها 10م طولًا وعرضها 6م، بها مصادر التهوية والإضاءة من خلال النوافذ الصغيرة التي فتحت في أعلى الجدار من الجهة الشمالية الغربية.

ث. التغييرات والتجديدات التي طرأت على المدرسة ومسجدها:

لقد طرأ على هذه المدرسة ومسجدها عدة تغييرات وتجديدات كان أولها إعادة ترميمها من طرف بايات الغرب الجزائري، وفي زمن الاحتلال الفرنسي لمازونة أعادت السلطات المحلية ترميم المسجد سنة 1269هـ/1852م بعد أن أصابها خراب كبير، ويذكر ذلك الرحالة الألماني هاينريش فون مالستان الذي مر بها أثناء زيارته.



الصورة رقم 17 : خزانة الكتب والمخطوطات

للمغرب ما بين سنتي 1852م و1857م وذكر بأنه وجدها شبه مهدمة¹، ولكن رغم التغييرات التي طرأت عليها أثناء الاحتلال الفرنسي خاصة، إلا أنها مازالت تحتفظ ببيوت طلبتها ومسجدها على تخطيطها الأصلي والتي ما يزال يتوافد عليها الطلبة من نواحي مختلفة من البلاد لحفظ القرآن الكريم.

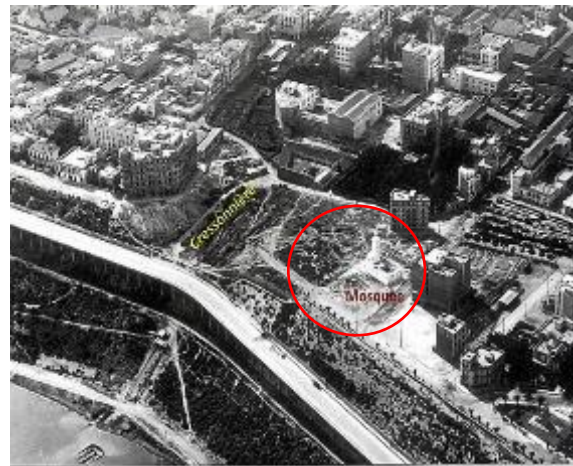
1. هاينريش فون مالستان، ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م،

2. مدرسة خنق النطاح (وهران):

1.2. الموقع الجغرافي للمدرسة:

تقع مدرسة خنق النطاح عند نهج طرابلس، في سهل خنق النطاح شرقي مدينة وهران، بعيدا عن الواجهة البحرية التي تفصلها عنه عمارات حديثة وشاهقة من ثلاث جوانب، استحدثها الفرنسيون كمحاولة للقضاء عليه وإزالته¹.

فالعمارات ملاصقة لها من جهتها الشرقية، وتطل بواجهتها الجنوبية على شارع ضيف الله الجليلي، وبواجهتها الغربية على شارع طرابلس، بينما في الجهة الشمالية يفصلها عن إحدى العمارات زقاق ضيق.



سنة 1920

الصورة رقم 18 : موقع مدرسة خنق النطاح

1. يحيى بوعزيز، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، مرجع سابق، ص 57.

بالنسبة لتأسيس المدرسة لا يوجد ما يذكر التاريخ بالضبط سوى أنها كانت موجودة أيام الباي محمد الكبير الذي حكم خلال الفترة ما بين 1779م و1799¹.

فبعض المصادر التاريخية المعاصرة لها تذكر معلومات حول تأسيسها وما رافق ذلك من وقائع وأحداث، نذكر منها ما نقله الزباني² في دليل الحيران قائلا " وبنى المدرسة العظيمة بخلق النطاح التي بها ضريحه وتعرف للآن بالمدرسة"³.

أما المزارى صاحب سعد السعود فيقول عن الباي محمد الكبير " أنه بنى المدرسة الجليلة العظيمة بخلق النطاح التي بها ضريحه وتعرف للآن بالمدرسة"⁴، ويضيف في موضع آخر " كان محبا للطلبة ولذلك بنى لهم المدرستين الأولى بمعسكر والثانية بوهران"⁵.

كما تذكر العديد من الدراسات التاريخية التي تناولت تاريخ وعمارة المدرسة أن موضع بناءها لم يكن في الأصل سوى رباط للطلبة الذين رباطوا للجهاد ضد الإسبان بوهران فلما فتح الباي محمد الكبير وهران أقرهم على هذا الموضع وبنى لهم مدرسة جزاء ما أبلوه من شجاعة ضد الإسبان⁶، وبعد وباء الطاعون الذي أصاب المدينة سنة 1209هـ/1794م، انتقل الباي إلى جوار هذه المدرسة واتخذها مسجدا لأسرته⁷.

1. خيرة بن بلة، مرجع سابق، ص 128.

2. هو القاضي والباحث والمؤرخ محمد بن يوسف الزباني البرجي الوهراني نسبة لقرية برج عياش بين وهران ومعسكر من اسرة عريقة عرفت في الفترة العثمانية من الأسر العلمية والسياسية، كانت تتولى الوظائف الإدارية والعلمية، ومنهم عمه احمد بن يوسف الزباني الذي كان مستشارا لباي الغرب ابراهيم الملياني ما بين سنتي 1756م و1771م، للمزيد أنظر: عادل نويهض، مرجع سابق، ص 173.

3. محمد بن يوسف الزباني، مصدر سابق، ص 267.

4. المزارى، مصدر سابق، ج 1، ص 294.

5. المزارى، مصدر سابق، ج 1، ص 295.

6. بوعبد الله بلجوزي، آثار عمران حواضر بايلك الغرب في العهد العثماني، مازونة ومعسكر ووهران ومستغانم أمودجا، أطروحة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2012، 2013م، ص 219.

7. خيرة بن بلة، مرجع سابق، ص 128.

بالنسبة لمؤسس المدرسة فهو محمد بن عثمان الكردي ويسميه أهل الغرب بمحمد الأكل لسمره بشرته¹، ويلقب بالكبير اكراما له لما فتح مدينة وهران، وكنيته أبو عثمان، أمه جارية اسمها زائدة، أهداها لأبيه السلطان مولاي إسماعيل بالمغرب الأقصى²، أما أبوه فهو أبو سحاق الحاج عثمان بن ابراهيم الكردي، كان واليا على مليانة ثم ارتقى فأصبح بايا على التيطري وأحوازاها³، توفي أبوه بمدينة معسكر ودفن بها⁴، بعدما بقي في الحكم تسعة أعوام، تاركا أمر عائلته لصديقه ابراهيم الملياني الذي تولى بايا مكانه، وتحت رعاية ابراهيم باي نشأ محمد نشأة صالحة وأقبل على العلم والفروسية⁵، ولما توسم ابراهيم باي في محمد الكبير نشاطا متزايدا وشجاعة صادقة وذكاء حادا أحب أن يوطد العلاقة بينهما، فأصهر إليه وزوجه بابنته، ولما ارتقى ابراهيم وعين على الإيالة الغربية أخذ معه صهره محمد الكبير وأشركه في أعمال الإدارة⁶.

ظل محمد الكبير يرتقي في المناصب من قائد على منطقة زمورة ناحية غليزان (1765م - 1769م)، إلى خليفة للباي ابراهيم في القطاع الشرقي وقاعدته مليانة⁷ (1769م - 1778م)، كما شارك بجيشه في الدفاع عن مدينة الجزائر ضد الغزو الاسباني سنة 1188هـ/ 1775م وأبدى شجاعة وذكاء كبيرين، شكره عليها الداوي محمد عثمان باشا⁸ وأثنى عليه الناس، وعندما توفي ابراهيم باي طلبت الرعية من الداوي أن يعين مكانه محمد الكبير بايا على الإيالة الغربية⁹.

1. ابن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب للنشر، القاهرة، 1969م، ص 16.

2. ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص 3، 4.

3. Gorguos, « notice sur le bey d'Oran Mohammed el kebir », revue africaine, vole n°1, 1856, p 404

4. ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص 5.

5. احمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا، داي الجزائر (1766-1791م)، سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 140.

6. ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 134.

7. احمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا، داي الجزائر، مرجع سابق، ص 140.

8. الداوي عثمان باشا، تولى الحكم سنة 1766، يعد من أبرز دايات الجزائر الذين شهد عصرهم حوادث كبرى خاصة ما تعلق بإخماد التمردات الداخلية ورد الحملات الخارجية، كحملة الدغمارك سنة 1769م، توفي الداوي سنة 1791 أنظر: أحمد الشريف الزهار، المذكرات، مصدر سابق، ص 60.

9. صالح عباد، مرجع سابق، ص 174.

تولى الباي الحكم سنة 1778م، وشرع في اصلاح شؤون الرعية والسهر على مصالح العباد وتنظيم البلاد، فراح ينشر الأمن وبادر بإخضاع القبائل المتمردة على الحكم التركي والمتحالفة مع الاسبان¹ كما شجع الأدباء والصلحاء والنبلاء واحسن معاملة العبيد والفقراء، واعتنى بالثقافة والمثقفين وأحب العلماء وعظّمهم فشيّد لهم المساجد ورتب لهم مرتبات زيادة على المنح والهدايا² حيث يذكر الراشدي في كتابه الثغر الجماني أنه أنشأ المدرسة المحمدية والمسجد الجامع، كما كان له بتلمسان ومستغانم والجزائر مباني كثيرة، قام بتشييدها كالمساجد والمدارس، وأوقف عليها أوقاف، وجلب لها المدرسين بوظائف يأخذونها من الأحباس، ورتب لها مكتبة ضخمة تحتوي على المخطوطات القديمة المهمة وبعده نسخ، وذلك من أجل أن تكون في متناول أيدي المثقفين فاتسعت بذلك أحوال العلماء.³

كما كان الباي محمد الكبير متضلعا في العلوم اللسانية، حافظا لأشعار العرب موسعا في علوم الدين، وكان له اطلاع على علم الطب مثل بعض علماء الإسلام، فكان يجهز بنفسه الأدوية المختلفة ويوزعها على افراد الشعب، ويتفاخر بذلك فيقول: " أنا طبيب الفقراء"، وكان تقيا ورعا يرسل كل سنة هدية مالية إلى الحرمين الشريفين⁴، وكان الإنجاز الكبير لمحمد بن عثمان الكبير هو إصراره على تحرير مدينة وهران من قبضة الاسبان ابتداء من عام 1194هـ/ 1780م، ولذلك غزاها عدة مرات واستطاع تحريرها نهائيا يوم 17 ديسمبر 1791م، وهو اليوم الذي انسحب فيه الاسبان من وهران، ودخلها الباي في فيفري 1792م⁵.

بعد سنوات فقط من فتح وهران توفي الباي محمد بن عثمان الكبير أثناء عودته من مدينة الجزائر في موضع قريب من مدينة مازونة، وقد أطلعنا الحاج الشريف الزهار في مذكراته عن قصة وفاته وظروفها وكيف حمله أبناءه ميتا

1. من بين الحملات الشهيرة التي قام بها، حملته ضد القبائل الواقعة جنوب الصحراء في كل من منطقة الاغواط والشلالة وعين ماضي لإخماد الثورات، كثورة درقاوة التي قادها عبد القادر بن الشريف الدرقاوي وحلفائه من القبائل التجانية ضد العثمانيين، بسبب تدمرهم من الضرائب المرتفعة التي فرضتها السلطات العثمانية عليهم، للمزيد أنظر: ابن هطال التلمساني، مصدر سابق، كذلك: بونقاب مختار، انتفاضة درقاوة في بايلك الغرب الجزائري 1802م- 1816م، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد 03، قسم التاريخ، جامعة معسكر، 2008، ص 135.

2. ابن هطال التلمساني، مصدر سابق، ص 06.

3. ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 71.

4. محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والحارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 253.

5. يحيى بوعزيز، مدينة وهران عبر التاريخ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 59.

إلى وهران¹، كما يذكر صاحب كتاب أنيس الغريب والمسافر أن الباي توفي سنة 1212هـ / 1798م بعد أن بقي في الحكم 18 سنة وتم دفنه بمدرسة خنق النطاح بوههران².

2.2. مكانة مدرسة خنق النطاح التاريخية وأهميتها العلمية:

بعد تحرير مدينة وهران من قبضة الإسبان عام 1792م وبناء محمد الباي لمدرسة خنق النطاح لعبت هذه الأخيرة دورا هاما في مجال التعليم والتكوين في مدينة وهران وفي إيالة الجزائر ككل، حيث أصبحت من أبرز المدارس العلمية في ذلك الوقت، فكانت تغص بطلبة العلم والمعرفة، قدموا إليها من مختلف المناطق، وتخرج منها الكثير من العلماء والمدرسين خلال هذه الفترة رغم قصرها³.

ومن أهم العلوم التي كانت تدرس بهذه المدرسة، كتب الفقه مثل حواشي الشيخين الزرقاني والخرشي، وكتب النحو مثل شرح المكودي ومقامات الحريري، وشرح المحلي في الأصول، وعدة علوم أخرى في التصوف وعلم الفلك والبيان⁴.

ومن أبرز العلماء الذين درسوا بهذه المدرسة وكان لهم دور كبير في تنشيط الحركة العلمية في إيالة الجزائر مع أواخر العهد العثماني نذكر **الطاهر المشرفي** الذي درس الفقه وعلم المعاني والبيان إضافة إلى النحو والصرف⁵، و**محمد بن عبد الله السقاط** الذي درس السيرة النبوية وكان من أعلم الناس بتاريخ وأنسب العرب وشيوخ المذهب، ومن مشايخه **أبي راس الناصري**⁶.

1. أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 63.

2. مسلم بن عبد القادر الوهراني، ذخائر المغرب العربي أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ت، ص 65.

3. علي بوتشيشة، العمارة الدينية والمدنية بمدينة وهران خلال العهد العثماني، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، 2015/2016م، ص 111.

4. عبد الحق شرف، "تراجم لبعض علماء مدرسة الباي بوههران من خلال بعض الآثار المخطوطة"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مج 3، العدد 4، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران 1، 2007م، ص 75.

5. عبد الحق شرف، " تراجم لبعض علماء مدرسة الباي في وهران من خلال بعض الآثار المخطوطة"، مجلة كان التاريخية، دورية إلكترونية محكمة، العدد 12، السنة 7، مارس 2014 م، ص 107.

6. عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، مصدر سابق، ج 2، ص 577.

وأحمد بن النهامي الذي درس الفقه والحديث وتولى مهمة الإفتاء بوهراڤ في أواخر العهد العثماني، وعقب الاحتلال تولى رئاسة مجلس الشورى في دولة الأمير عبد القادر¹، وعبد القادر المستغامي الذي كان يشرف على تدريس علم الكلام، وكذا العلامة محمد بن سعد التلمساني الذي كان من أعلم الفقه والحديث وعلم البلاغة²، والعالم محمد بن حسن مستشار الباي محمد الكبير الذي كان له باع كبير في علوم اللغة والأدب والبلاغة، عدد خصاله ومآثره المؤرخ أبي راس الناصري في فتح الإله عند زيارته لوهراڤ في أواخر القرن 18م³.

ومن جهة أخرى فإن مدرسة الباي تخرج منها العديد من العلماء والمشايخ نذكر منهم العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي صاحب اليواقيت الثمينة الوهاجة ومحمد الطاهر بن عبد القادر المشرفي صاحب كتاب إبراز المعاني، والذي صار فيما بعد قاضيا بوهراڤ⁴، كما يعد الأمير عبد القادر من تلاميذ المدرسة إذ مكث بها ما يقارب السنتين (1821م - 1823م)، طالبا للعلم والمعرفة فإزداد تفقها في الفقه وعلما في الفلسفة والحساب والجغرافيا على يد أحمد بن الطاهر البطيوي قاضي أرزيو، الذي كان مشهورا في ذلك الوقت بغزارة العلم وسعة الاطلاع⁵.

وقد استمر هذا الدور العلمي والثقافي الكبير لمدرسة خنق النطاح طيلة فترة التواجد العثماني في المنطقة الغربية للجزائر، وما زادها أهميتها فيما بعد هو احتواءها على ضريح الباي محمد بن عثمان الكبير كرمزية تاريخية لأعماله العظيمة وخدماته الكبيرة للعلم والعلماء في المنطقة على وجه الخصوص.

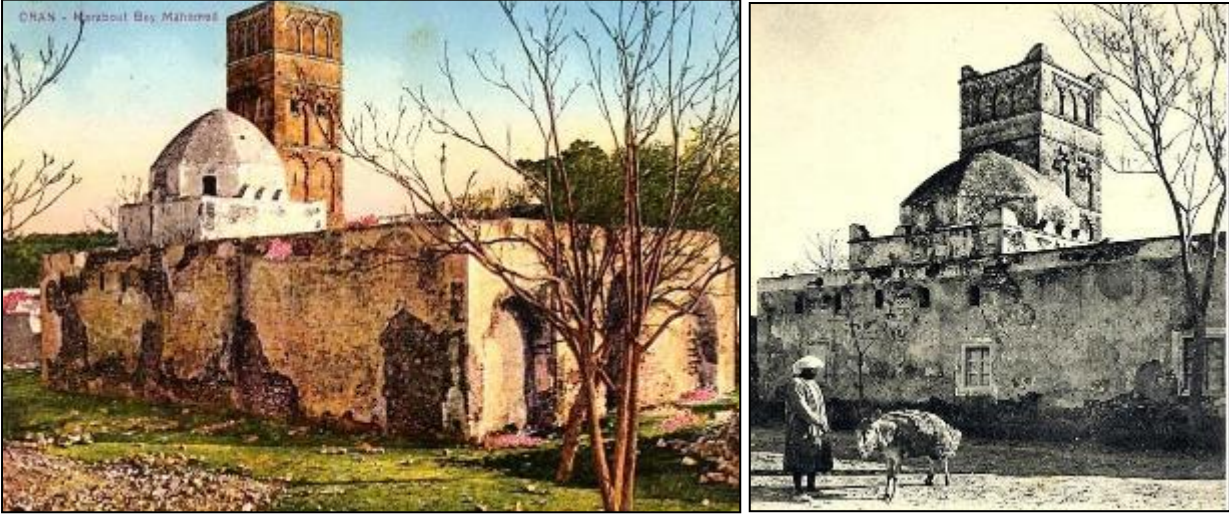
1. يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في بلاد الجزائر المحروسة، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1995م، ص 247.

2. عبد القادر بن سودة، تحاف المطالع بوفيات اعلام القرن الثالث عشر والرابع 1171-1400هـ/1756-1980م، ج7، تنسيق وتحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ص 2581.

3. الناصري أبوراس، مصدر سابق، ص 100.

4. عادل نويهض، مرجع سابق، ص 303، 304.

5. عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 2000م، ص 14.



الصورة رقم 19 : مدرسة خنق النطاح مع بداية الاحتلال الفرنسي

إلا أنه ومع بداية الاحتلال الفرنسي لوهران عام 1246هـ / 1831م، دنس الجنود الفرنسيين هذه المدرسة واتخذوها كحمام يستحمون فيها تحت القبة الرئيسية الملاصقة للمئذنة¹ (الصورة رقم 19)، بعدما نقلت رفاة الباي إلى مقبرة مول الدومة بحي رأس العين في سفح جبل المائدة الشرقي².

وعندما أخذ الأوربيون يعمرّون الحي المجاور له أرادوا أن يهدموها نهائياً بحجة توسيع الشارع بمبررات قانونية حيث طلبت سلطات المدينة من أسرة باشتارزي التركية الأصل التي كانت تملك هذا الحي بالتوقيع على التنازل عن المدرسة، بأن تهدم على أن تعوض لهم مساحات في مكان آخر، غير أن هذه الأسرة أبت أن توقع بقبول التنازل³.

بعد الحرب العالمية الثانية أخذ النواب الأهالي في المجلس البلدي لمدينة وهران وعلى رأسهم النائب المكّي بن زغود يطالبون بفتح مقبرة مول الدومة في حي رأس العين للدفن بعد أن أغلقت، وباسترجاع مبنى المدرسة وعندما حصلوا على هذين المطالبين سلم مفتاح المدرسة إلى الشيخ الفقيه الطيب المهاجي⁴ صاحب كتاب أنفذ

1. Marial, (W), « La Mosquée de Sidi Mohamed-el-Kebir à Oran », In Bulletin de la société de géographie d'Oran, T.XIII, 1893, p 154.

2. يحي بوعزيز، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، مرجع سابق، ص 57.

3. يحي بوعزيز، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، مرجع سابق، ص 58.

4. ملاح الهواري، الشيخ الطيب المهاجي الجزائري، مراجعة عبد المجيد بن نعيمة، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011م، ص 11.

الذخائر وأطيب المآثر فاستعان بالرجال المصلحين بالمدينة وقاموا بجمع الأموال اللازمة لتنظيفها من الأوساخ والقاذورات ورموا ما تحرب منها وأصلحوا بيوت الوضوء فيها، وعين الشيخ الطيب المهاجي أحد تلاميذه إماماً ومدرسا للقرآن الكريم فيها، وهو الشيخ محمد الفليبي فقيه وحافظ للقرآن الكريم وأحد رواد الحركة الوطنية الإصلاحية، كان يشغل منصب رئيس شعبة جمعية العلماء المسلمين بوهران¹.

بقي الشيخ الفليبي يعمره ويصلي فيه إلى غاية استرجاع الاستقلال عام 1962م² حيث عاد إلى حالته الأصلية كمسجد تصلى فيه الصلوات الخمس والجمعة³ وليس كمدرسة، ورغم ذلك لا تزال تحتفظ بطابعها المعماري الذي يمكن من خلاله رسم معالمها التخطيطية الأولى التي كانت عليها.



الصورة رقم 20: مدرسة خنق النطاح سنة 1920

3.2. الدراسة الوصفية للمدرسة:

أ. المخطط العام:

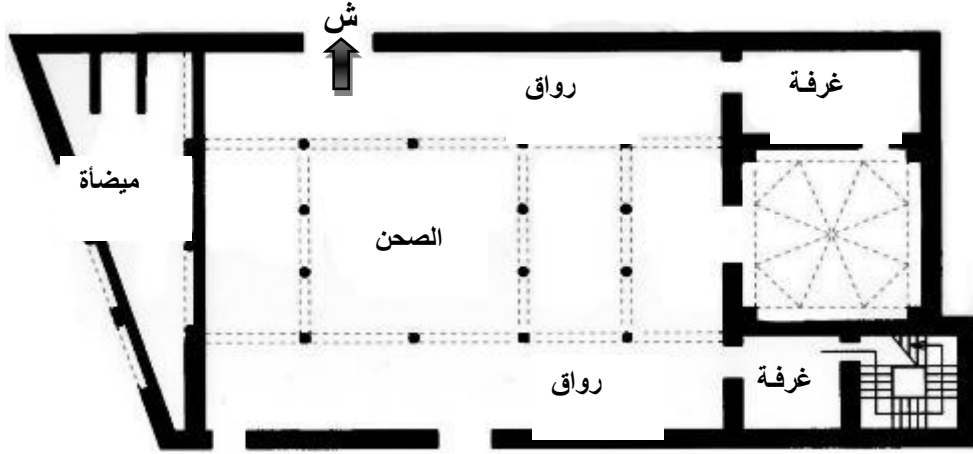
بنيت هذه المدرسة على شكل شبه مستطيل، به انحراف بسيط في واجهته الغربية، تقدر مساحته الإجمالية حوالي 265م²، طول ضلعه الشمالي 25.50م، والجنوبي 22م والشرقي 11.10م، أما الغربي فطوله

1. نفسه، ص 21.

2. يحي بوعزيز، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، مرجع سابق، ص 60.

3. مبروك مهريس، مرجع سابق، ص 43.

13م، نصفه الشرقي قاعة متوسطة الحجم شبه مربعة، ونصفه الغربي يتوسطه الصحن، الذي يحيط به الأروقة من الجهات الأربع، ويبلغ متوسط ارتفاع جدرانها 5م وسمكها 0.6م، يتم الولوج إليها عبر مدخلين من الجهة الجنوبية يحتويان على باب رئيسي يفتح على مصراعين وباب صغير على يساره.



المخطط رقم 14: مخطط مدرسة خنق النطاح (عن علي بوتشيشة بتصريف)

ب. الوصف الخارجي:

لمدرسة خنق النطاح ثلاث واجهات رئيسية باعتبار أن الواجهة الرابعة الشرقية ملاصقة للعمارات فهي غير نافذة، في حين أن الواجهة الشمالية تفتح على زقاق ضيق بينها وبين العمارة، وهو مخصص للراجلين، وهي بسيطة بما مدخل عرضه 2م وارتفاعه 2.20م وثلاث فتحات للتهوية أعلى الجدار، أما الواجهة الغربية فهي تفتح على شارع طرابلس بمدخل يؤدي إلى الميضة تحتوي على أربعة عقود حدوية صماء مدججة بالجدار، ثلاثة منها محمولة على زوج من الأعمدة الأسطوانية، يفتح في أحدها الباب في حين أن العقد الرابع أقصى يسار الواجهة فهو مدمج في الجدار دون أعمدة.

أما الواجهة الجنوبية للمدرسة والتي تعتبر الواجهة الرئيسية، فهي تفتح على شارع الجيلالي داي بمدخل رئيسي يؤدي إلى الصحن مباشرة يفتح في وسط الجدار بمصراعين مصنوع من الخشب وتعلوه لوحة تذكارية من الزليج الأخضر تبين تاريخ تأسيس المسجد، وعلى يساره باب صغير مصنوع من الخشب يؤدي مباشرة إلى الرواق الغربي للصحن، تفتح به نافدتان مستطيلتان الشكل بها زجاج وشبابيك من الحديد، تعلوها عشرة كوات مستطيلة الشكل محوفة تدخل الضوء والهواء لبيت الصلاة.



الصورة رقم 21 :الواجهة الغربية للمدرسة



الصورة رقم 22 : أعمدة بانكة الواجهة الغربية

الصورة رقم 23 : الواجهة الشمالية

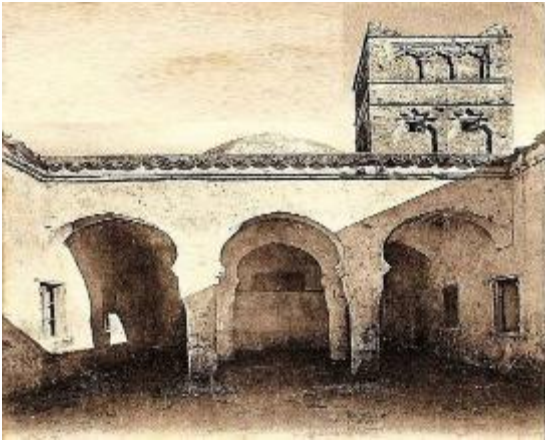


الصورة رقم 24 : الواجهة الرئيسية في الجهة الجنوبية

ت. الوصف الداخلي:

كانت المدرسة قبل التغييرات التي أجريت عليها في عهد الاحتلال الفرنسي تحتوي على صحن مكشوف يحف به رواقان من الجهة الشرقية بمثابة بيت الصلاة، ومجنتين ومؤخرة برواق واحد، وتتوسطه نخلة، وبعد ان اتخذت المدرسة كمسجد تقام فيه الصلوات حول الصحن مع الأروقة لقاعة صلاة كبرى، وذلك بتغطيته بسقف، هو الآن عبارة عن صفائح معدنية مربعة تمنع مرور مياه الأمطار وأشعة الشمس، ولكن ملامح الصحن لا تزال بادية للعيان من خلال ظنف القرميد البارز اعلى الجدران من جوانبه الأربعة.

الصحن في الأصل يأخذ الشكل شبه مربع مقاساته 5.5م طولا و4.5م عرضا، في جهته الشرقية يفتح على بيت الصلاة المكون من أسكوبين موازيين لجدار القبلة وأربعة بلاطات عمودية عليه ذات عقود منكسرة متجاوزة تستند على أعمدة حجرية أسطوانية، تطل على الصحن ببائكة بما ثلاث عقود، أما المجنبتين الجنوبية والشمالية



الصورة رقم 25 : صحن المدرسة

فهما تمتدان من جدار القبلة إلى مؤخرة المدرسة ببائكة بما أربعة أعمدة أسطوانية تحمل خمسة عقود موازية للصحن، وجميع عقود بيت الصلاة منكسرة متجاوزة، وقد جاءت عقود الأساكيب والمجنبتين من حجم كبير أكثر اتساعا وقل انكسارا، إذ تراوح اتساعها ما بين 2.50م و2.60م، بينما جاءت عقود البلاطات بحجم أصغر، اقل اتساعا وأكثر انكسارا، تراوح اتساعها ما بين 1.20م و1.30م (الصورة رقم 25).

وللمدرسة ثلاثة أبواب تفتح على الخارج، الباب الرئيسي يتوسط الجدار الجنوبي يفتح بمصراعين إلى بيت الصلاة مباشرة عرضه 1.50م وارتفاعه 2.50م مصنوع من الخشب وهو يؤدي إلى الشارع مباشرة يفتح في صلوات الأعياد والجمعة، أما الباب الثاني في نفس الجدار بالجهة الجنوبية الغربية لبيت الصلاة وهو الباب الوحيد الذي يفتح حاليا للمصلين للدخول منه يوميا، يبلغ عرضه 0.70م وارتفاعه 2.10م وهو مستحدث مقارنة بالمدخل الأول، أما الباب الثالث والأخير فهو يوجد بالجدار الشمالي ويؤدي إلى الرواق الجانبي ومنه على الصحن، عرضه 2.10م وارتفاعه 2.20م وهذا الباب مغلق ولا يستعمل إلا في الحالات الخاصة.

أما بالنسبة للنوافذ فهي منعدمة، ولكن تفتح في جدارها الجنوبي والشمالي خمسة عشر فتحة صغيرة، مستطيلة الشكل عرضها 20سم عرضا وارتفاعها 35سم، محوفة بدون شبايك ولا زجاج، وهي على ارتفاع 3 أمتار من الأرض، يوجد منها 10 فتحات في الجدار الجنوبي و5 في الجدار الشمالي، تمتد بشكل طولي ولا نعتقد أن وظيفتها معمارية بحتة كونها تسمح بمرور الضوء والهواء، باعتبار أن للمدرسة صحن يفتح على الأروقة وبيت الصلاة، وإنما لها دور جمالي كذلك.



الصورة رقم 26 : جوسق المئذنة

أما عن المئذنة فهي تقع في الركن الجنوبي الشرقي من بيت الصلاة، بنيت على النمط المغربي ذو المسقط المربع، يبلغ ارتفاعها حوالي 18م، عرض قاعدة المئذنة يساوي عرضها في القمة حيث يبلغ 3.60م، وهي مقسمة إلى خمسة أطراف مشكلة خمسة أقسام وتنتهي في الأعلى بثماني شرفات تتخللها أربعة أبراج في كل جهة من جهاتها الأربع، زينت أقسامها الثلاث الوسطى التي تمثل البدن بزخارف معمارية تتمثل في

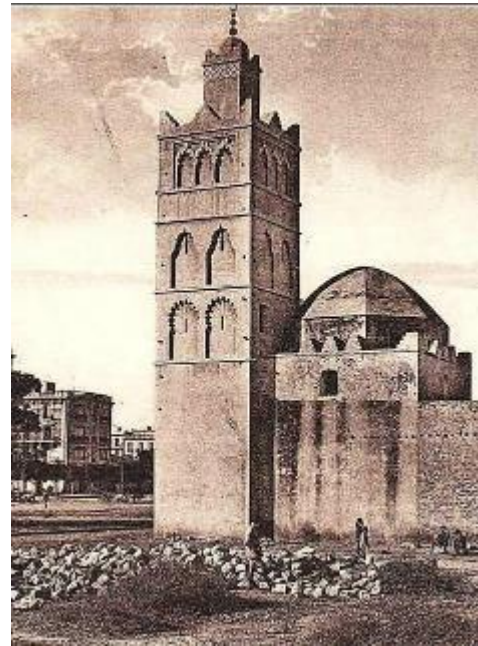
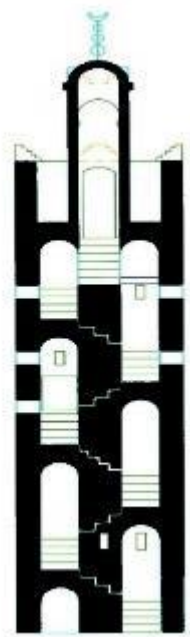
أقواس مفصصة، والجوسق عبارة عن شرفة يحيط بها ممر تتوسطه قبيبة يعلوها جامور يحمل ثلاث كريات وهلال، ويبلغ ارتفاعه 4.30م وعرضه 1.50م (الصورة رقم 26).

أما من الداخل فهي تتكون من نواة مستديرة قطرها 1.10م محاط بالممر المؤدي إلى الأعلى، عدد أدراجها 32م درجة.

وما يمكن أن نلاحظه على بدن المئذنة بعد الاطلاع على صورها في فترة الاحتلال الفرنسي أنها لاتزال تحافظ على نمطها المعماري وزخارفها الفنية في أدق تفاصيلها رغم التجديدات والتغييرات الكثيرة التي مست جوانب عديدة من عمارة المدرسة كالصحن والأروقة والميضأة، كما نلاحظ بكل أسف عدم احترام خصوصيات المبنى الأثرية من خلال الطلاءات العشوائية التي في كثير من الأحيان تشوه المبنى وتبعده أكثر عن سياقه التاريخي.

ت1. قاعة الدروس (الضريح):

تتوسط قاعة الدروس في المدرسة الجدار الشرقي لبيت الصلاة، وهي مربعة الشكل مقاساتها 5م/5م، يتم الدخول إليها إما من بيت الصلاة عبر درجة صغيرة، وإما من الغرفة الصغيرة المجاورة لها في الجهة الشمالية، وتنتصب عليها القبة الرئيسية في المدرسة، والتي تكاد تغطي كامل القاعة وهي مضلعة الشكل حولت قاعدتها المربعة إلى مثنى عبر حنايا ركنية على شكل الصدفية (الصورة رقم 28)، وفتحت في رقبته أربع نوافذ صغيرة مستطيلة الشكل تفتح على الجهات الأربع، واللافت للانتباه على هذه القاعة أن المعطيات التاريخية تذكر أن



الصورة رقم 27 : بدن المئذنة (عن بوتشيشة)

الباي محمد الكبير شيدها لتقوم بوظيفة تعليم الطلبة أيام كانت مدرسة ثم مسجد، ثم ما لبثت أن أصبحت ضريحاً له ولعائلته، إلى غاية بداية الاحتلال الفرنسي حين حولت المدرسة إلى حمام للجنود واستغلت هذه القاعة لذلك بعد أن نقلت رفاة الباي وعائلته إلى مقبرة مول الدومة بحي راس العين في الجهة الشرقية من المدينة، ثم بعد الاستقلال عادت لتقوم بوظيفتها الدينية ولكن كغرفة للصلاة وقراءة القرآن إلى يومنا هذا. بالإضافة إلى هذه القاعة والقاعة الشمالية الصغيرة التي تقوم الآن بوظيفة حفظ معدات المسجد بما فيها المنبر وكرسي الإمام، توجد غرفة ثالثة جنوب قاعة الدروس تتقدم المفذنة وتفتح على بيت الصلاة بباب صغير، فيما تفتح في الجهة الأخرى على المفذنة، طولها 3.30م وعرضها 2.50م وهي الآن مخصصة كمقصورة للإمام.



الصورة رقم 28: قبة قاعة الدروس (الضريح)

ت2. غرف الطلبة:

لعل أهم ما نلاحظه على مدرسة خنق النطاح معماريا هو غياب أحد أهم المعالم التي تقتضيه وظيفة المدرسة وهي بيوت الطلبة، التي وجدت في جميع النماذج التي قمنا بدراستها والتي لا يمكن بأي حال من الأحوال الاستغناء عنها، والتي تطرح الكثير من التساؤلات حول غيابها والتي قد لا نجد لها مبرر إلا في فكرتين أساسيتين هي: الأولى هو تهديم هذه البيوت بعد تغيير وظيفة المدرسة إلى مسجد أو بعد التجديدات والتعديلات المتكررة لها أثناء وبعد الاحتلال الفرنسي لوهران، والثانية هي إمكانية عدم وجود هذه البيوت أصلا، الأمر الذي يقودنا إلى سؤال آخر هو أين كان يبيت الطلبة؟

يمكن السبب في ذلك هو أن التعليم في المدرسة كان يركز على النظام الخارجي فقط خاصة وأن المصادر التاريخية التي عاصرت الفترة لم تطلعنا على هذا النظام ولا على طرق التدريس رغم تعرضها للعديد من أسماء الطلبة والمدرسين الذين مروا بها والعلوم التي كانت تدرس بها حتى بداية عهد الاحتلال الفرنسي، أو أن عدد الطلبة كان قليل بما يسمح استغلال قاعة الدروس التي كانت في الأصل ضريح الباي محمد الكبير، وكذا الغرفتين الملحقتين بما لهذا الغرض.

ت3: بيت الوضوء:

هو من الوحدات المعمارية المستحدثة في المدرسة وذلك بعد تحويلها إلى مسجد، إلا أننا لا نعرف على التمام متى حدث ذلك، وهو يقع في مؤخرة المسجد خلف الجدار الغربي، ذو المسقط المثلث الشبه منحرف، طوله يبلغ حوالي 13م أما عمقه فلا يتعدى عند أطول أضلاعه 4م، ومدخله يفتح في الجهة الغربية عرضه 1.50م وارتفاعه 2.20م وهو يمتاز بضيق المساحة، إذ يحتوي فقط على 4 حنفيات للمياه و3 بيوت للخلاء، وهذا أمر محتم نظرا لموقع المدرسة المحصور بين المباني الحديثة والتي تحيط به من جميع الجهات (الصورة رقم 29).



الصورة رقم 29: بيت الوضوء المستحدث في الجهة الغربية من المدرسة

ث. التغييرات والتجديدات التي طرأت على المدرسة ومسجدها:

عرفت مدرسة خنق النطاح كغيرها من المدارس في الحواضر الجزائرية العديد من الإصلاحات والترميمات والتجديدات عبر المراحل التاريخية المختلفة، خاصة تلك التي حدثت سنة 1930م حيث تعرضت المدرسة لبعض الترميمات والإصلاحات من الداخل والخارج أدت إحداث تغييرات مهمة عن طابعها الأصلي القديم نذكر من هذه التجديدات ما يلي:

- تم ازالة الصحن الداخلي للمدرسة، واقتلاع النخلة التي كانت تتوسطه وضمت إلى ساحة قاعة الصلاة، ووضع لها سقف من صفائح القصدير، وبذلك توسعت قاعة الصلاة كثيرا حتى شملت اغلب مساحة المدرسة.
- استحدث للمسجد مدخل ثانوي على يساره الشمالي يستعمله النساء للدخول إلى المسجد يوم الجمعة والأعياد، كما استحدث مدخل آخر على اليمين في مؤخرة المسجد تقريبا إلى الجنوب يفتح عند اكتظاظ المسجد بالمصلين كذلك يوم الجمعة والأعياد.
- أغلقت الباب الداخلية خلف المسجد التي تؤدي إلى المراحيض وأماكن الوضوء واستحدث باب خارجية غربا وراء المسجد وذلك تفاديا لاتساخ قاعة الصلاة بالماء والقاذورات والمخلفات اللاصقة بأرجل المصلين المتوضئين، فكان ذلك كله جهود ومساعدات على نقاوة المسجد وبقائه نظيفا.
- من جهة أخرى كسيت معظم الجدران الداخلية للمدرسة بمختلف مرافقها ببلاطات خزفية حديثة جراء التجديدات التي حدثت خاصة بعد الاستقلال، وهو أمر منطقي باعتبار أن البناية لا تزال إلى يومنا هذا تقوم بوظيفتها كمسجد لأداء الصلوات الخمس والأعياد، ونفس الأمر ينطبق على السقف الذي يبدو عليه الحداثة سواء ذلك السقف الخشبي المسطح الذي يغطي الأروقة الجانبية للصحن، أو السقف الجمالوني المعدني الذي غطي به الصحن (الصورة رقم 30).



الصورة رقم 30 : التسقيف المستحدث على الصحن

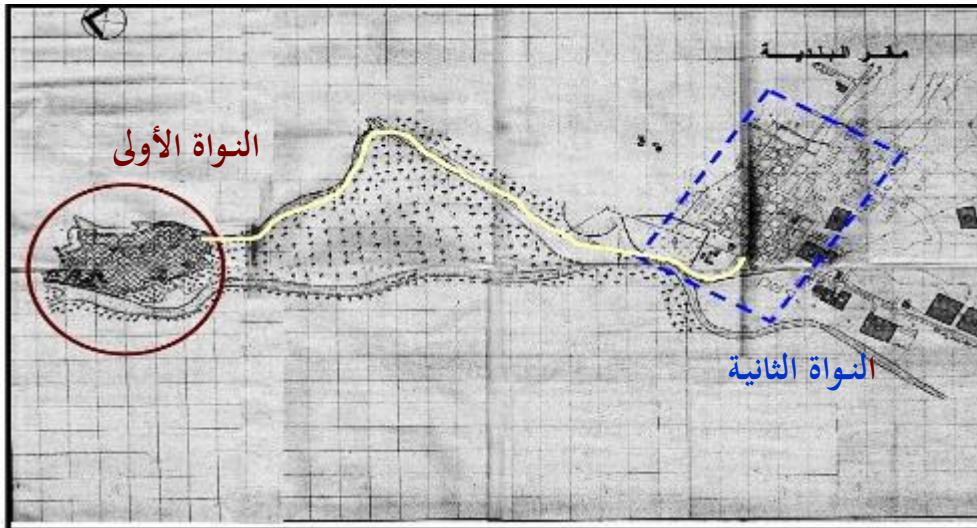
3. المدرسة الناصرية بخنقة سيدي ناجي (بسكرة):

خنقة سيدي ناجي بلدية من بلديات ولاية بسكرة تقع في أقصى الجهة الشرقية من الولاية على بعد 80 كلم في منطقة حدودية تعتبر همزة وصل بين ثلاث ولايات خنشلة بسكرة ووادي سوف، وهي تضم تجمعين سكانيين كبيرين، التجمع الأول هو الأقدم تاريخيا باعتباره النواة الأولى لتأسيس المدينة وبه المدرسة الناصرية موضوع الدراسة وهذا التجمع محصور بين الجبال من جهة وبين وادي العرب من جهة أخرى، كما يتميز بعدم التنظيم في محاوره الداخلية التي ندخل إليها من عن طريق المدخل الوحيد وهو البوابة الرئيسية لها، بينما النواة الجديدة



فقد تكونت نتيجة لنقص الأراضي الخاصة بالتوسع العمراني في النواة القديمة لذلك كان التفكير في تكوين نواة أو تجمع جديد أكثر انفتاح وأكثر تنظيم يبعد ببضع كيلومترات عن النواة الأولى.

الصورة رقم 31: موقع خنقة سيدي ناجي ضمن مقاطعة بايلك الشرق



الصورة رقم 32: بلدية خنقة سيدي ناجي، النواتين الأولى والثانية لتأسيس المدينة

(عن سمية مخلوفي)

تأسست خنقة سيدي ناجي في عام 1010هـ/1602م على يد الشيخ سيدي المبارك بن قاسم بن ناجي (توفي عام 1622م/1031هـ) وسماها على اسم جده سيدي ناجي دفين ساحة الخيل بتونس العاصمة تبركا به¹، وقد اشتهرت في بداية تأسيسها بزوايتها التي استقطبت طلاب العلم من كل المناطق المجاورة، كما اشتهرت بزراعة النخيل والأشجار المثمرة فتوسعت وذاع صيتها في البلاد كلها.

كان لشيخ الخنقة سمعة طيبة واحترام كبير لدى كل سكان المنطقة، وكذلك لدى حكام الدولة العثمانية آنذاك، مما أدى إلى التوسيع في امتيازاتهم والانتساع في نفوذهم إلى كل الزاب الشرقي ومنطقة ششار، خاصة بعد تأسيس المدرسة الناصرية بما على يد الشيخ أحمد بن ناصر عام 1171هـ/1758م، فكانت قبلة لطلبة الزيبان وواد سوف والأوراس وقسنطينة وعنابة وحتى تونس وطرابلس.

1.3. الموقع الجغرافي للمدرسة:

تقع المدرسة الناصرية ضمن المجمع الديني (المدرسة والمسجد والأضرحة والمقبرة)، والذي شرع في بناءه أول مرة الشيخ المبارك بن قاسم بن ناجي، قبل وفاته في سنة 1037هـ/1630م، وأكمله ابنه الشيخ أحمد بن ناصر



(عن سمية مخلوفي)

لذا فهو يعتبر من بين أهم المعالم التاريخية المتواجدة بالنواة القديمة لخنقة سيدي ناجي، ولا تبعد إلا ببضع أمتار عن المدخل الرئيسي للخنقة، يجدها من الشرق منزلي الشيخ الطيبي والشيخ ناجي ومن الغرب تحده السرايا، وشمالا منزل عائلة بن الحسين، أما جنوبا فتشرف على شارع حواشي المعروف بسقيفة عبد الله.

¹. أحمد السعداوي، التواصل بين إيالتي تونس والجزائر مجلة السبيل للتاريخ والأثار والعمارة المغاربية، العدد 01، مخبر العمارة والأثار، جامعة تونس، 2016، ص 03.



الصورة رقم 33: موقع المدرسة بين معالم المدينة

2.3. التأسيس والمؤسس:

كان تأسيس خنقة سيدي ناجي أول أمرها حول نواة مركزية وهي زاوية لتلقين مبادئ التصوف ومختلف العلوم العقلية والنقلية لاسيما النحو والفقه والحديث دون علم الكلام والمنطق¹ وتلقين مبادئ الطريقة الناصرية الشاذلية عام 1010هـ/1602م وتعاضم هذا الدور مع مرور الزمن، وتزايد السكان وانتشار مكانة شيوخها في نواحي الزاب الشرقي والأوراس، رغم أن قرية ليانة القريبة منها كانت أقدم منها تأسيسا وعلماء، إلا أن صيت علماء خنقة سيدي ناجي فاقها في وقت قصير².

بعد وفاة الشيخ مبارك بن ناجي سنة 1031هـ/1622م، دفن بالزاوية وأقيم له فيها ضريح ووجدت بتوسعة مسجدها الذي أصبح يعرف بعدها باسم مسجد سيدي مبارك، وفي سنة 1758م أضاف له الشيخ أحمد بن ناصر مدرسة عرفت باسم المدرسة الناصرية، التي اشتهرت بها البلدة والتي تعتبر من أقدم المدارس التي تعود

1. الحسن الورثياني، مصدر سابق، ص 117.

2. كريم الطيب، المعالم الأثرية الإسلامية في منطقة الزاب الشرقي، مذكرة التخرج لنيل شهادة الماجستير في الآثار الصحراوية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، 2008، 2009م، ص 114

للفترة العثمانية بما في ذلك مدارس عاصمة الإيالة قسنطينة التي بناها صالح باي، إذ تشير الكتابة الموجودة على الساكف الحجري المثبت فوق المدخل الجنوبي للمدرسة (الصورة رقم 34) بمقاسات 1.50م طول وبعرض 27سم، نقشت عليه كتابة تأسيسية بخط مغربي رديء تتكون من ثلاثة أسطر ونقرأ فيها أن المدرسة بنيت على يد الشيخ أحمد بن ناصر بتاريخ أواخر رجب سنة 1171هـ. (1758م)، وذلك على الشكل التالي:

- الحمد لله وحده بنيت هذه المدرسة المباركة المسماة الناصرية على يد أفقر الورا.
- وخديم الفقراء المستمسك بسنت محمد خير الورا أحمد بن ناصر شكر الله صنيعه.
- وأمده من الثواب جزيله ربنا تقبل من أنك انت السميع العليم بتاريخ أواخر رجب من عام إحدى وسبعين ومائة وألف.



الصورة رقم 34: الكتابة التأسيسية المثبتة أعلى المدخل الجنوبي للمدرسة الناصرية

كما قام الشيخ أحمد بن ناصر بتجديد الجامع والضريح من ماله الخاص والذي قدر آنذاك بـ 8112 سلطاني ذهبي¹، ويرى الأستاذ أبو القاسم سعد الله أن التاريخ المثبت على مدخل المدرسة هو تاريخ تجديد المجمع ككل وليس تاريخ البناء الأصلي، كما أن تسميتها بالناصرية إنما يرجع لتسمية مجددتها وليس إلى الطريقة الناصرية الشاذلية².

1. صادقي سمية، مراكز المخطوطات ودورها في كتابة تاريخ الجزائر 1830، 1962، منطقة الزيبان أمموزجا، رسالة ماجستير

في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة بسكرة، 2013/2012، ص 81.

2. أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 261.

أما بالنسبة لمؤسس المدرسة الناصرية فهو الشيخ أحمد بن ناصر بن محمد بن الطيب بن أحمد بن مبارك بن ناجي التونسي المنشأ والوفاء، حيث زاوئته التي بها ضريحه برحبة الخيل في العاصمة تونس، حسب ما ورد في الكناش¹ فإن عائلة أحمد بن ناصر من أصول شريفة قرشيّة، عاشت مدة في الأندلس ومنها قدمت إلى تونس بعد سقوط غرناطة حيث عاش سيدي ناجي وابنه القاسم وكانت لهما بها شهرة وصيت² (*).

بعد موت أبيه وجده غادر الشيخ مبارك تونس إلى مدينة ورقلة صحبة عدد من الأتباع، ثم انتقل منها إلى بسكرة وامتلك بها أراض شاسعة، وفي سنة 1602م تحول إلى صحراء الزاب الشرقي وبنى بعون من أتباعه وأصحابه زاوية وقام باستصلاح الأراضي وحفر القنوات لسقي النخيل والأشجار، أولها ساقية موسى، وكانت القرية تسمى في البداية بمورد النعام³.

خلف أحمد بن ناصر والده في تولي أمور الخنقة سنة 1154هـ/1741م، وقد اتبع آثار أوائله في العمارة والإصلاح، حيث قام بخدمة السواقي لسقي البساتين وواحات النخيل، كما استصلح الأراضي الزراعية المعروفة باسم الجعدي في الزاب الشرقي حوالي 4000 هكتار القرية من بادس⁴.

ومن أهم إنجازاته كذلك هو اتمامه لمشروع والده فبنى من ماله الخاص روضة سيدي مبارك التي بها المدرسة الناصرية ومئذنة وصحن الجامع والضريح وذلك سنة 1171هـ/1758، وعمرت المدرسة بتعليم القرآن الكريم ومختلف

1. الكناش مخطوط تاريخي خاص بعائلة سيدي ناجي سجلت في كل الأحداث العائلية وأحداث المنطقة وتواريخها ومراسلاتها افتتح التسجيل فيه حفيد سيدي ناجي الشيخ محمد بن الطيب المتوفي 1154هـ/1741م، اطلع عليه الكثير من الباحثين الجزائريين والأجانب، ولم تسعفنا الحظ في الوصول إليه.

2. Gustave Mercier, " Khanguet sidi nadji, quelques inscriptions arabes inédites" In Recueil des Notices et mémoires de la société archéologique Constantine, 1915, p 154

*. ترجع أغلب الكتابات المدونة على أضرحة شيوخ وأئمة عائلة سيدي ناجي بالجمع الديني بالخنقة نسبهم إلى ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضي الله عنه وسندهم في ذلك كتاب منار الإشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف للشيوخ عاشور الخنقي، الذي فصل محتواه أبو القاسم سعد الله في كتاب تاريخ الجزائر الثقافي والذي للأسف لم يسعنا الحظ للاطلاع عليه أنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج7، مرجع سابق، ص 332.

3. أحمد السعداوي، مرجع سابق، ص 06.

4. Gustave Mercier, Op. cit, p 45.

العلوم وزودها بمدرسين للطلبة، الذين كان يسهر على راحتهم وتدرّسهم بنفسه¹. ربط **احمد ناصر** كذلك علاقات صداقة وتعاون مع بايات قسنطينة الذين جددوا له الولاية، فكان كل باي يعين على قسنطينة يرسل له ظهائر اعترافا بحكمه على المنطقة²، وقد لعب على غرار اسلافه دورا كبيرا في تسوية النزاعات التي كانت بين كل من بايات قسنطينة وتونس، فتميزت فترة حكمه بكثرة أسفاره بين تونس وقسنطينة والجزائر لتحقيق الوفاق بين الإيالتين، ولعب دور الوسيط بين التونسيين والجزائريين، حيث كان كل البايات والباشوات يختارونه في مرات عديدة كمبعوث³.

كما عمد بن ناصر إلى اتباع سياسة توطيد علاقات أسرته أكثر ببايات تونس، خاصة بعد دعم أهل الخنقة واستضافتهم لعلي بن حسين باي خلال فترة الصراع على السلطة داخل العائلة الحسينية (1740-1756) إثر استيلاء علي باشا على الحكم وقتل حسين باي وفرار ابنائه إلى إيالة الجزائر وقضائهم سنوات عديدة فيها⁴.

يذكر مؤرخ الخنقة محمد الأخضر أن الأمير التونسي أقام سبعين يوما في ضيافة الزاوية وشيخها أحمد بن ناصر وتنقل في صحرائها في أحياء العرب⁵، ويتفق هذا مع ما ذكره حمودة بن عبد العزيز في الكتاب الباشي بقوله " فقد أخذ ورد الامام العلامة سيدي أحمد بن ناصر الدرعي عن الشيخ سيدي عبد الحفيظ الخنقي، وهو يروي عن صاحبه سيدي أحمد بن ناصر رحمه الله تعالى. وقد أجازته الشيخ سيدي عبد الحفيظ عن سيدي أحمد بن ناصر بسنده المعروف في الطريقة"⁶.

1. كريمة بن حسين، **خنقة سيدي ناجي إبان العهد العثماني**، المجلة المغاربية التاريخية، العددان 90/89، منشورات زغوان، تونس ماي 1998، ص 60.

2. Gustave Mercier, Op. cit, p 160.

3. Marthe et Edmond Gouvion, **kitab Aàyane el maghariba**, Imprimerie orientale Fontana frères, 1920, p 42.

4. للمزيد حول الحرب الباشية الحسينية على السلطة أنظر أحد أهم المصادر التاريخية التونسية خلال القرن 18 التي تؤرخ لأحداث الصراع والفترة ككل، وهو **الكتاب الباشي** للمؤرخ ابن عبد العزيز حمودة، قد سبق ذكره في هذا البحث.

5. هو **محمد الأخضر** بن محمد بن حسين بن أحمد بن ناصر من أعقاب الشيخ سيدي مبارك، كتب رسالة دؤن فيها تاريخ عائلة سيدي ناجي في نهاية القرن التاسع عشر وترجمها قوستاف مارسسي (Gustave Mercier) ونشرها ملحقا في مقاله

حول نقائش خنقة سيدي ناجي، أنظر: Gustave Mercier, Op. cit, p160

6. ابن عبد العزيز حمودة، **مصدر سابق**، ص 206.

كما يروي محمد الأخضر عن الشيخ أحمد بن ناصر أنه كان مهتما بالبناء والتشييد فبعد أن انتهى من تجديد القبة التي على ضريح جده سيدي مبارك ومن بناء المدرسة الناصرية التي تحمل اسمه إلى اليوم، بنى قلعة عسكرية تسمى برج البطحاء على مشارف الخنقة نصب عليها أربع مدافع لحمايتها من أي اعتداء أجنبي وصد الغزاة عنها¹، خاصة وأن حروبا طويلة كانت قائمة بين الخنقة وسكان القبائل المجاورة كالشايبة وليانة، وبذل في ذلك ثروة هائلة تفوق عشرة آلاف ريال²، لكن بعض شيوخ الشايبة وليانة وشوا به لدى باي قسنطينة صالح القلي³ (1771-1757) واتهموه ببناء قلعة وتجهيزها بالمدافع لغاية الانفصال عن بايلك قسنطينة وإعلان الولاء إلى باي تونس، فأمره الباي بهدم البرج ولم تقنعه حجج الشيخ أحمد بن ناصر من أن الحصن بني لحماية البلد⁴، فاستغل غيابه عن الخنقة وهجم عليها ملحقا بها خسائر كبيرة⁵.

ويذكر محمد الأخضر أن جده الشيخ أحمد بن ناصر قتل مع ابنه بعد هذه الحادثة بسنوات طويلة، عام 1193هـ / 1780م، قتله أبو زيان الشابي وهو في طريقه لزيارة تونس⁶.

1. Marthe.et Edmond Gouvion, Op. cit, p45.

2. أحمد السعداوي، مرجع سابق، ص 08.

3. أحمد باي القلي، تولى منصب آغا على مدينة القل عدة سنوات فلقب بالقلي، تزوج من عائلة بن قانة المعروفة، ثم حكم بايلك الشرق ما بين 1170هـ، 1756م إلى 1185هـ، 1771م، وقد استطاع فرض سيطرته على إقليم البابلج، وعرف بغزواته ضد القبائل الكبرى، منها هجومه على خنقة سيدي ناجي في عهد الشيخ أحمد بن ناصر، وقد توفي بعد مدة حكم دامت 15 سنة وخلفه صالح باي أنظر:

Mouloud Gaid, **Chronique des beys de Constantine**, office des publications universitaires, Alger, (s.d), p38, et Charles Féraud ,**Les Ben Jalab sultans de Touggourt**, in Revue Africaine, V24, 1880, p 105.

4. أحمد السعداوي، مرجع سابق، ص 08.

5. Marthe.et Edmond Gouvion, Op. cit, p 45.

6. Makhloufi Soumaya **La sauvegarde du patrimoine entre interventions ponctuelles et stratégie globale cas de la dachra de khanguet sidi nadji**, Mémoire Présenté pour obtenir le diplôme de Magistère Nouveau Régime en Architecture, **Département d'Architecture, Université de Biskra, 2010, P 137.**

3.3. مكانة المدرسة الناصرية التاريخية وأهميتها العلمية:

تعتبر المدرسة الناصرية من أشهر المدارس في غير العواصم وأهمها على الإطلاق في منطقة الزاب والجهة الشرقية من المغرب الأوسط وحتى في البلاد المجاورة، فكانت مركزاً لنهل العلوم الشرعية كالفقه والحديث خاصة مختصر البخاري لابن أبي جمرة، وعلوم البلاغة كالنحو والصرف والعروض ومختلف العلوم الأخرى باستثناء علم الكلام والمنطق¹، كما كانت مقصداً لطلبة الزيبان ووادي سوف والأوراس وقسنطينة وعنابة وبلاد زواوة بل وحتى من تونس وطرابلس² تخرج منها العديد من العلماء، بعضهم تابع دراسته في الزيتونة والأزهر، وذاع صيتهم في الجزائر وخارجه نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر من خريجيها الأوائل أحمد التليلي القماري صاحب خطة البديع، وخليفة بن حسن القماري صاحب جواهر الإكليل في نظم مختصر خليل المتوفي سنة 1208هـ³.

أما من خريجيها المتأخرين محمد بن عاشور صاحب كتاب منار الإشراف على عصاة الأشراف، والشيخ محمد بن إبراهيم المكي قاضي سيدي عقبة والشيخ ابن حسين محمد الطيب قاضي أولاد جلال، والشيخ عمري المسعود قاضي وادي سوف، والمطي بن عزوز عالم طولقة⁴.

كما جلبت شهرة المدرسة الناصرية الشيخين العربي التبسي⁵ وأحمد السرحاني من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومحمد المكي بن الصديق الونجلي الشاذلي المكي⁶، والشيخ عبد الله بن عبد الواحد الذي جمع

1. الحسن الورثياني، مصدر سابق، ص 119.

2. أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 261.

3. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1500)، ج 1، مرجع سابق، ص 284، 285.

4. كريمة بن حسين، مرجع سابق، ص 65.

5. يذكر أبو القاسم سعد الله عن التعليم في زاوية الخنقة أن العربي التبسي بقي هناك ثلاث سنوات حفظ خلالها القرآن الكريم ومبادئ الدين واللغة العربية، أنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1500)، ج 3، مرجع سابق، ص 218.

6. الهواري ملاح، الشاذلي المكي ونشاطه السياسي، محاضرات الملتقى الوطني الثامن بسكرة عبر التاريخ، تحت عنوان من أعلام بسكرة المعاصرين، إصدار الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية بدعم من وزارة الثقافة، الجزائر، 2009، ص 170.

عموما عديدة وخاصة منيا عموم الرياضيات والهندسة، وهو الذي فصل في قضية المياه المتنازع عليها آنذاك بين أهالي عاصمة الزيبان بسكرة، فرضوا بحكمه بعد خصام طويل¹.

هذه المكانة العلمية الكبيرة لخصها الورثيلايني في قوله " أولاد الشيخ سيدي ناجي حازوا المعالي من قديم الزمان، وقد وجدت كثيرا من الفضلاء منهم في محلهم سيدي محمد الطيب وسيدي أحمد بن ناصر... فإن النحو عندهم يعني به الكبير والصغير حتى أنهم اشتهروا به اشتهارا بينا"².

وكان علماء المدرسة الناصرية وشيوخها يتبادلون الرسائل في مختلف العلوم الدينية مع علماء الجزائر وقسنطينة وتونس وبسكرة، منهم العلامة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، والشيخ خليفة بن حسن القماري الذي كان له الفضل في تكوين عدد هام من الأئمة والمدرسين³.

ومع بداية الاحتلال الفرنسي تراجع دور المدرسة الناصرية، شيئا فشيئا فقدت المدرسة بريقها ومكانتها العلمية والثقافية، خاصة بعد تعرض الخنقة لهجرة جماعية من النواة القديمة إلى النواة الثانية الجديدة المسماة الوجبة، وأصبحت عبارة عن بناء مهجورا مثل العديد من بنايات المجاورة بعد قرنين ونصف من العطاء العلمي والثقافي.

4.3. الدراسة الوصفية للمدرسة:

أ. المخطط العام:

مخطط المدرسة يأخذ الشكل المستطيل شبه المنحرف، يتشكل من طابقين يتوسطهما صحن تتوزع عليه الغرف من ثلاث جهات ويلتحم مع المسجد من الجهة الرابعة، مساحتها الإجمالية حوالي 2190م² يمتد من الشرق إلى الغرب بمسافة 18.80م ومن الشمال إلى الجنوب بمسافة 10.10م، وهي مساحة تشمل فقط الصحن والغرف دون الأضرحة والمسجد وبيت الوضوء التي تفتح عليها من مختلف الجهات.

1. عبد الحليم عساسي ومروان سمير قدوح، خنقة سيدي ناجي أو تونس الصغيرة، حاضرة علم وفن وجمال، مجلة جماليات، العدد 01، مج 05، مخبر الجماليات البصرية في الممارسة الفنية الجزائرية، جامعة مستغانم، ديسمبر 2019م، ص 131.

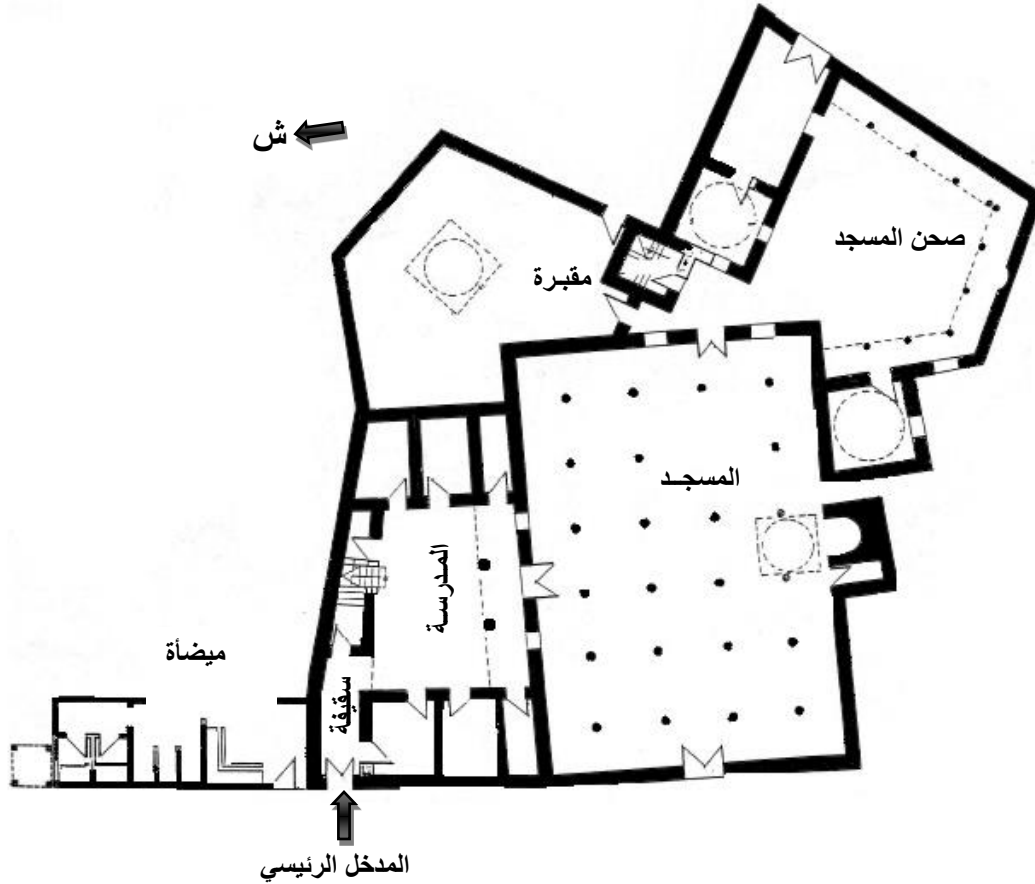
2. الحسن الورثيلايني، مصدر سابق، ص 119.

3. أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 261.

أ. الوصف الخارجي:

بحكم أن المدرسة الناصرية تقع ضمن مجمع ديني يشمل المدرسة والأضرحة مع المقبرة والمسجد بباحته الخارجية، وضمن النسيج العمراني التقليدي للخنقة ككل الذي يركز على مبدأ التخطيط على الداخل كوحدة أساسية، فإننا نجد أن للمدرسة واجهة واحدة فقط، وهي الواجهة الغربية التي تطل على زقاق ضيق يفتح فيه الباب الرئيسي للمدرسة والمسجد، أما باقي الواجهات الثلاث فهي متصلة بمختلف العمائر المشكلة للمجمع السالف الذكر، فالجهة الجنوبية تلتحم مع الجدار الشمالي للمسجد، أما الجهة الشرقية فهي متصلة بغرف الدفن (المقبرة) والضريح، ويلتصق بها من الجهة الشمالية الميضاة وبعض المباني السكنية التي تهدمت أجزاء كبيرة منها (المخطط رقم 15) .

فيما يخص الواجهة الرئيسية للمدرسة فهي تفتح على زقاق ضيق عرضه حوالي 2.30م، مخصص بالخصوص للوافدين على المجمع الديني إما لزيارة الأولياء بالأضرحة أو للصلاة بالمسجد بحكم أن هذا الزقاق يفتح عليه المسجد والمدرسة وبيت الوضوء (الصورة رقم 35)، والواجهة بسيطة يتجاوز ارتفاع جدرانها 5.20م.



المخطط رقم 15: مخطط المدرسة الناصرية ضمن المجمع الديني الذي يشمل المسجد والصحن والأضرحة والمقبرة (عن مخلوفي سمية بتصرف)

بالنسبة لمدخل المسجد فيه باب ضخّم ارتفاعه 2.90م وعرضه 1.60م تزيّنه صفوف من المسامير المدببة مختلفة الأحجام، وتحليه زخارف منجزة على حجارة كلسية صلبة، تنتمي إلى نمط تونسي عريق معروف خصوصا في مباني قسبة تونس، مثل جامع الصباغين الذي بناه حسين بن علي عام 1727م.



الصورة رقم 35: الواجهة الرئيسية للمدرسة التي تفتح على الزقاق في الجهة الغربية

وهي زخارف نباتية وهندسية وكتابية تتكرر هذه الزخارف في إطار محراب المسجد وحول الشبابيك المعدنية المطلة على الضريح من الخارج، وداخل أروقة المدرسة، معروف خصوصا في مباني قسبة تونس، مثل جامع الصباغين الذي بناه حسين بن علي عام 1727م وهي زخارف نباتية وهندسية وكتابية تتكرر هذه الزخارف في إطار محراب المسجد وحول الشبابيك المعدنية المطلة على الضريح من الخارج، وداخل أروقة المدرسة¹.

أما مدخل المدرسة الذي لا يبعد إلا ببضع أمتار عن الباب الأول فهو يقرنه من حيث نمط البناء وإن كان أقل منه حجما وزخرفة، إذ يبلغ ارتفاعه 2.20م وعرضه 1.50م، يعلو اطاره الحجري البارز ساكف به كتابة

1. ذكر لنا القيم على المسجد أن الخنقة تحتفظ بالكثير من التحف والقطع الفنية والمعمارية التي أنجزها صناع في تونس جلبت منها إلى الخنقة خلال القرن 18م نذكر منها المربعات الخزفية ومنبر الجامع وبعض العناصر المعمارية والزخرفية كالأطر الحجرية والأعمدة والأبواب والصناديق الخشبية، بحكم الصلات الوطيدة التي كانت تربط الخنقة منذ نشأتها بمدينة تونس وإلى فترة قريبة، ذلك أن الشيخ المؤسس كان تونسي المولد والوفاة، ولشيوخها بعده علاقات سياسية متواصلة بحكام تونس خلال عصر الدايات وفترة حكم البايات المراديين والحسينيين للمزيد حول هذا الموضوع أنظر: أحمد السعداوي، مرجع سابق، ص 11.

تأسيسية نفذت بتقنية الحفر البارز بخط مغربي رديء، كنا قد تكلمنا عنها في موضوع تأسيس المدرسة أعلاه (الصورة رقم 37).



الصورة رقم 37: مدخل المدرسة الناصرية

الصورة رقم 36: مدخل المسجد

ب. الوصف الداخلي:

يتم الدخول إلى المدرسة ذات الطابقين من مدخلين، أولهما المدخل الرئيسي في الواجهة الغربية عبر سقيفة مغطاة بسقف نصف برميلي مبني بالأجر، طولها 5.70م وعرضها 1.90م، فتح في ضلعها الشمالي باب يؤدي إلى الميضية، وتنتهي في جهتها الأخرى إلى الصحن، وأما الباب الثاني فمن بيت الصلاة في مسجد سيدي مبارك مباشرة إلى رواق الصحن في المدرسة.

الصحن عموماً يأخذ شكل المعين، في ضلعه الجنوبي يوجد رواق مشكل من ثلاثة عقود نصف دائرية تقوم على عمودين من الحجر الكلسي لهما قاعدة مربعة يعلوها بدن أسطواني ينتهي بتاج ناقوسي على نمط التيجان الحفصية (الصورة رقم 38)، وعلى هذا الرواق تفتح نافذتان تطلان على بيت الصلاة يتوسطهما المدخل وبهما شبابيك معدنية ويجفهما إطار بارز من الحجر الكلسي الصلب المنحوت بزخارف نباتية.

الجهات الثلاثة الأخرى للصحن بما غرف الطلبة في الطابقين الأرضي والعلوي، كما نجد في وسط الصحن ألواح التعليم واحواض حجرية لمحو الألواح (الصورة رقم 39).



الصورة رقم 38: واجهتي الصحن الشرقية والشمالية
الصورة رقم 39: شكل الصحن من أعلى المدرسة



الصورة رقم 40: الواجهة الغربية للصحن ويظهر فيها مدخل السقيفة

الصورة رقم 41: رواق الصحن الجنوبي المعقود والمفتوح على بيت الصلاة في المسجد

ت1. غرف الطلبة:

يذكر أبو القاسم سعد الله في كتابه تجارب في الأدب والرحلة عن المدرسة لما زارها سنة 1980م أنها تحتوي على 15 غرفة ولكننا لم نجد عند زيارتنا لها سوى 11 غرفة موزعة ما بين الطابقين الأرضي والعلوي، منها ثمانية غرف

في الطابق الأرضي والثلاثة الأخرى في الأعلى¹، غرف الطابق الأرضي كانت تستعمل للدراسة والمبيت معا، لا تزال الأدوات التي كان يستعملها الطلبة موجودة فيها الى اليوم كالمسارج والمحارات والألواح وأحواض الماء والحصائر والوسائد وغيرها، وهذه الغرف موزعة على الصحن من جهاته الثلاث، ثلاثة في الجهة الغربية، وتقابها على نفس المستوى ثلاثة أخرى في الجهة الشرقية، أهم ما يميزها أن شكلها غير منتظم ومتقاربة في الحجم عمقها أكبر من عرضها مقاساتها ما بين 3.70م و3.90م عمقا، و 1.40م و 1.70م عرضا، وهي خالية من الزخارف ومن النوافذ وفتحات التهوية عموما (الصورة رقم 40).

أما الغرفتين المتبقيتين في الطابق الأرضي فهما تقعان في الجهة الشمالية من الصحن يفصل بينهما السلم المؤدي إلى الطابق العلوي، وهما صغيرتا الحجم عرضهما أكبر من عمقهما، تتراوح مقاساتها ما بين 2.30م عرضا و 0.80م عمقا، وخاليتين من الزخارف ومن فتحات التهوية تستمد الهواء والضوء من الباب، بها كوات صغيرة لوضع المسارج، وهي مسقوفة تسقيف مسطح، يذكر أبو القاسم سعد الله أن كل غرفة من هذه الغرف كانت تضم من خمسة الى عشرة طلاب يتعلمون فيها مبادئ العربية والقرآن الكريم، وعندما ينضجون علميا يحضرون حلقات الدرس في الجامع المجاور².

أما الطابق الثاني الذي يتم الصعود إليه من الدرج وسط الجدار الشمالي للصحن، فهو يضم ثلاث غرف فقط في الرواق الشرقي وهي غرف صغيرة الحجم مقاساتها متقاربة من حيث العمق والعرض ما بين 1.70م / 2م، وهي غرف لا تختلف من حيث التهوية عن الغرف السالفة الذكر وتختلف عنها من حيث أنها مسقوفة بأسقف نصف اسطوانية.

أما الرواقان الآخريان الشمالي والغربي فهما خاليان من الغرف بهما فقط دخلات حائطية كبيرة على شكل كوات يشرفان على الصحن بمجموعة من الدعامات والأعمدة الحجرية غير المعقودة والتي تحمل السقف الخشبي المسطح.

1. يبدو أن المؤرخ احتسب الغرف الموجودة في الميضاة وعددها أربعة، وهي صغيرة جدا لا تتجاوز مقاساتها 1م²، وهي لا تفتح على الصحن بل يتم الدخول إليها إما عن طريق السقيفة أو من الشارع في الواجهة الغربية، أنظر: أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 261.

2. أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 261.



الصورة رقم 42: الرواق الشمالي بالطابق العلوي



الصورة رقم 43: إحدى غرفة الطلبة بالطابق العلوي

ت.2. المسجد:

اتخذ مسجد المدرسة شكلا مستطيلا طول ضلعه 18.50م وعرضه 13.50م، مكون من خمسة أساكيب موازية لجدار القبلة تشكلها أربعة بوائك في كل بائكة ستة أعمدة حجرية تحمل عقودا نصف دائرية بروابط خشبية في الجهات الأربع، وسبعة بلاطات عمودية على جدار القبلة، تشكلها ستة بوائك في كل بائكة أربعة أعمدة بنفس مواصفات بوائك الأساكيب (الصورة رقم 45).

وقد جاء المسجد بسيطا خاليا من الزخرفة، باستثناء المنبر والمحراب الذي يتوسط جدار القبلة في الجهة الجنوبية الشرقية، والذي زين بنقوش نباتية وهندسية وكتابية منها كتابة تأسيسية، تشير لباني الجامع وهو محمد بن محمد الطيب أواسط شهر صفر سنة 1147هـ وكتابة أخرى تشير لناقش المحراب، مضمونها العافية الباقية والعز والهناء وناقشه احمد بن عمر التونسي لطف الله به، وشرع في تركيب الباب الغربي في شوال عام 1146هـ/ 1734م، من طرف صانعه وناقشه الاصطا احمد بن عمر الشريف الجبائلي، أما منبر المسجد فهو متحرك ومصنوع من الخشب تحيط به زخارف نباتية متعدد الألوان به كتابة تشير لتاريخ الصنع سنة 1147 هـ/ 1734م.

ويفتح المسجد على المدرسة في جداره الشمالي، كما يفتح في جداره الشرقي مدخل يؤدي إلى صحن ملحوق به، شبه منحرف غير مغطى ومبلط بأجر أحمر، ولهذا الصحن محراب يستخدم للصلاة أيام الحر، يحيط به أروقة من

ثلاث جهات، من الشرق والغرب والجنوب، تشكلها بوائك من الأعمدة المعقودة على نفس الأسلوب الموجود في بيت الصلاة، وتفتح عليها الأضرحة والمقبرة والمئذنة.

بالنسبة لمئذنة المسجد التي تعتبر من أقدم المآذن في مساجد الزاب كله¹، فهي تتميز بعدم توسطها المسجد، إذ جاءت مستقلة عن بيت الصلاة، ذات طراز مغاربي تتكون من قاعدة وبدن مربعين ومن طابق واحد به 61 درجة، يعلوه جوسق يحمل قبيبة بيضاوية على النمط المحلي الشائع الانتشار في مثل هذه العمائر الصحراوية.



الصورة رقم 45: بيت الصلاة بمسجد سيدي مبارك

الصورة رقم 44: مئذنة مسجد سيدي مبارك

الدينية منها على وجه الخصوص، وفي آخر القبيبة عمود معدني يحمل شكل التفاحة ويعلوه الهلال، كما يفتح أعلى البدن وفي الجهات الأربعة نوافذ معقودة بعقود نصف دائرية، بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية في تبليغ الأذان، استغلت فيما مضى للمراقبة عند الأخطار، باعتبارها تشرف على جميع أنحاء المدينة (الصورة رقم 44).

1. حسب النقوش الكتابية الموجودة داخل المحراب، شرع الصانع احمد بن عمر الشريف الجبالي في بناء المئذنة في 03 ذي الحجة عام 1146هـ/ 1734 م وعدد درجاتها 61 درجة، حول هذه النقوش أنظر: كريم الطيب، مرجع سابق، ص 143.

ت3. الأضرحة

أهم ما يميز المدرسة الناصرية بمسجدها هو تعدد الأضرحة والقبور التي تعود لمشايع وأحفاد الشيخ سيدي مبارك بن ناجي، والتي لاتزال تزار من قبل سكان المنطقة إلى يومنا (الصورة رقم 46)، ولعل أهم هذه الأضرحة نجد: **ضريح الشيخ سيدي مبارك بن ناجي**: وهو أقدم الأضرحة وأكبرها يقع في الجهة الشرقية للمسجد والمدرسة وملاصق للمئذنة من الجهة الغربية، اتخذ شكلا مربعا تقريبا طول ضلعه حوالي 3.5 م، يحتوي على مدخل في الجدار الغربي يبلغ ارتفاعه 1.90 م، وعرضه 1م تقريبا، ذو مصراعين، يحيط به إطار حجري به زخارف نباتية وهندسية، كما يعلوه كتابة تأسيسية مؤرخة ب 1171 هـ ويتكون من خمسة أسطر نفذت بأسلوب الحفر البارز على لوحة من الجص مستطيلة الشكل، كما ازدانت واجهة المدخل بالبلاطات الخزفية جاءت على شكل إطار أحيط بالمدخل ونافدتي الضريح، الموجودتين على جانبي الباب.



أما من الداخل فقد كسيت الأجزاء السفلية للجدران بالبلاطات الخزفية، بينما الجزء العلوي نقشت عليه آيات قرآنية وزخارف جصية حديثة كما احتوى على لوحة من الحجر مستطيلة نفذت عليها كتابة بالخط النسخي، تزينها بعض الزخارف النباتية على شكل أشجار النخيل وانصاف مراوح نخيلية، جاءت في أربع أسطر بالحفر البارز المملوء بالرصاص.

الصورة رقم 46: الأضرحة المشرفة على الصحن

بسم الله الرحمن وصلى الله على سيدنا محمد وسلم.

أودع علي ابن حسين بشهادة إن لا إله إلا الله.

محمد رسول الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ناقشها اصطا حسين سنة 1151 م



الصورة رقم 47: الكتابة التأسيسية أعلى مدخل ضريح الشيخ سيدي مبارك

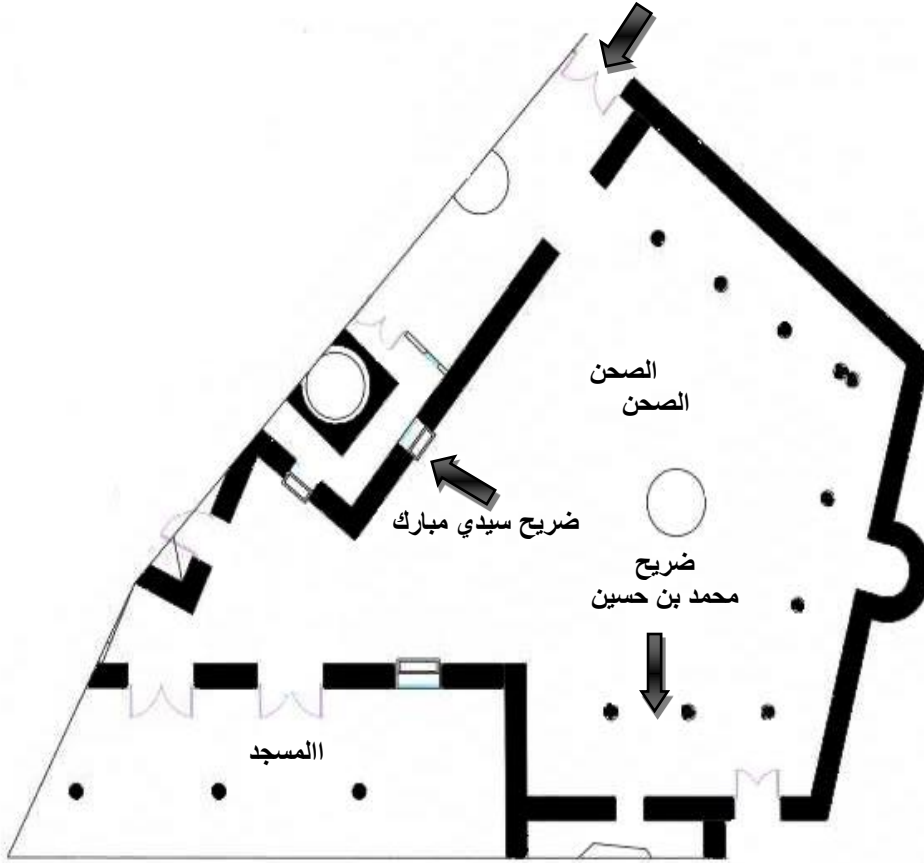
ضريح أحمد بن ناصر: يقع ضريح مؤسس المدرسة الناصرية ومجدد أهم مباني المجمع الديني في الركن الجنوبي الغربي للمسجد، شكله مربع ومساحته حوالي 6 أمتار، ولم يبق منه حالياً سوى الحجرة المصنوعة من الخشب ومن فوقها بقايا السقف الخشبي الذي صنع في تونس وبه رسوم نباتية واللوان شبيهة بالرسوم الموجودة على المنبر وكتابة نقش على الخشب نقرأ فيها عبارة هذا ضريح أحمد بن ناصر المتوفي عام ألف ومائة وتسعة وسبعين.



الصورة رقم 48: ضريح الشيخ محمد بن الحسين

ضريح محمد بن حسين بن أحمد بن ناصر: ويقع في الجهة الجنوبية الشرقية لبيت الصلاة، شكله مربع، يبلغ كل ضلع فيه 3.60م ويفتح على صحن المسجد في رواقه الأيسر بمدخل شبيه بمدخل ضريح سيدي المبارك، زخرف إطاره الخارجي بزخارف هندسية ونباتية محورة (الصورة رقم 48).

أما الجدران الداخلية لقاعة الضريح فقد زخرفت بآيات قرآنية وزخارف حديثة، وفتحت في جداره الجنوبي نافذة تطل على الشارع، بلغ ارتفاعها 0.52م، وعرضها 0.40م، نفذت عليها من الخارج زخارف كتابية بالخط المغربي غير واضحة نتيجة الطلاء المستمر، كما يعلوا الضريح قبة ثمانية الأضلاع تقوم على قاعدة مربعة حولت إلى مئمن عن طريق حنايا ركنية ملساء، وقد فتحت أعلى الجدار ثلاث نوافذ صغيرة، واحدة في الجهة الجنوبية والأخرين في الجهتين الشرقية والغربية هدفها ادخال الضوء والهواء لغرفة الضريح.



المخطط رقم 16: توزيع الأضرحة حول صحن المسجد
(عن مخلوفي سمية بتصرف)¹

بالإضافة إلى الأضرحة السالفة الذكر نجد بمحاذاة المدرسة الناصرية من الجهة الشرقية مقبرة العائلة التي تضم قبور عائلات شيوخ وأئمة المسجد والمدرسة، وكذا بعض العائلات ذوات الحظوة في بلدة الخنقة، والملفت للانتباه على هذه المقبرة أنها جاءت مغطاة بالكامل بقباب تتخللها أقبية صغيرة متقاطعة وبها قبور بشواهد رخامية متعددة الأشكال ذات طابع عثماني تؤرخ لأصحابها منها ما يأخذ شكل العمائم يدل على منصب أصحابها² بين سكان الخنقة سياسيا ودينيا واجتماعيا (الصورة رقم 49).

1. Soumaya Makhloufi, **La sauvegarde du patrimoine, Entre interventions ponctuelles et stratégie globale, Cas de la Khanguet Sidi Nadji**, Mémoire de Magistère en Architecture, Université de Biskra, 2010. P 174

2. Solagne (ory), et Brown (k.d), « **MAKBARATT** » in en Encyclopédie de l'Islam, T6, E.J Brille, Gp, mais en oeuvre et larose, Leiden, Parie, 1991

كتابات هذه الشواهد أغلبها محفور بأسلوب الحفر الغائر بخط نسخي بسيط غير منتظم وغير متقن الصنع، مضمونها كتابات تذكارية، تضم اسم وتاريخ الوفاة وعبارات دينية كالبسملة وأدعية للميت.



الصورة رقم 49: مقبرة عائلة سيدي مبارك بالحنقة

ت4. خزانة الكتب (المكتبة):

كانت مكتبة المدرسة الناصرية من أهم المكتبات وأغناها بمختلف الكتب والمخطوطات، يشهد بذلك الدكتور أبو القاسم سعد الله قائلاً " ونحب أن نختتم هذا الحديث عن المكتبات، بالإشارة إلى أهمية المكتبات الريفية المتفرقة في أنحاء البلاد... كمكتبات زواوة وبجاية وورقلة والخنقة... الخ¹.

وهذا أن دل على شيء يدل على أهمية المدرسة الناصرية كمركز ثقافي وحضاري، نشط الحياة الفكرية، في منطقة الزيبان ككل خلال حقبة تاريخية مهمة، ومن أهم الكتب والمخطوطات التي كانت تملأ رفوف المكتبة كتب النحو والفقه ومختلف العلوم الدينية منها والعقلية، في الأحكام الشرعية والفرائض والفقه والتوحيد والطب والتفسير والميراث والرياضيات. الخ.

وقد بلغ مقدار ما تحتزنه من كتب ومؤلفات حسب شيوخ المنطقة ما يقارب 120 كتاب ومخطوط، ولكن ما يؤسف له أن أغلبية هذه المؤلفات على أهميتها تعرضت لعوامل الإفناء البشرية والطبيعية، ولم يبق منها سوى القليل محفوظا في الخزانة بجامع سيدي مبارك، ولعل من أهم الأسباب التي أدت ضياعها وفقدانها، تبعتها بين الأيدي وعدم الاهتمام بإعادة تحقيقها وإخراجها في ثوب جديد، أو وضع قوائم لها ماعدا ما قام به الأستاذ موهوب بن حسين الذي يعترف له بالجميل في إعادة تنظيم وتقديم مخطوط عهدة الحكام وخلاصة الأحكام في فصل الخصام، لمؤلفه الشيخ محمد بن الطيب بن احمد بن المبارك بن ناجي.

كما تعد فترة الاحتلال الفرنسي أصعب مرحلة مرت بها المكتبة، حيث عمدت الإدارة الاستعمارية إلى حرق وتمزيق كتبها ومخطوطاتها، فخاف الأهالي أن يضيع ما تبقى فجمعوا بعضها لديهم، منهم عائلة بلمكي الذي ذكر عنها أبو القاسم سعد الله أثناء زيارته إليها قائلاً "ومن المشهور عند الناس الذين تحدثنا إليهم وغيرهم أن للشيخ احمد زروق بلمكي مكتبة كبيرة وان له تأليف وتقاليد من إنتاجه².

ت. التغييرات والتجديدات التي طرأت على المدرسة ومسجدها:

مما لا شك فيه أن التصميم الحالي للمسجد والمدرسة وباقي المعالم التي تشكل المجمع الديني بالخنقة لم يكن بالشكل الذي هو عليه الآن، بل خضع لعدة ترميمات وزيادات مست معظم معالمه خاصة ما تعلق منه بمسجد

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1500)، ج1، مرجع سابق، ص 332.

2. أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 263.

سيدي مبارك باعتباره النواة الأولى للمجمع ككل، هذه التوسيعات المتعاقبة والترميمات التي أجريت عليه غيرت الكثير من ملامحه بسبب مواد البناء الهشة المستعملة فيه كقوالب اللبن التي لا تقاوم الظروف المناخية القاسية من حرارة وجفاف، ضف إلى ذلك الموقع الذي أسست عليه، ما يجعلها عرضة للفيضانات من وادي العرب المجاور، ويمكن تتبع هذه الزيادات والتجديدات حسب ما عثرنا عليه من معلومات في بعض وثائق المكتبة وحسب ما افادنا به شيوخ المنطقة وحتى من خلال الكتابات المنقوشة على بعض العناصر المعمارية كالمحراب والمنبر والمئذنة والمداخل.

✓ تم تجديد وتوسيع مسجد سيدي المبارك على يد الشيخ محمد بن محمد الطيب بن مبارك سنة 1147هـ/ 1734م، يدل على ذلك الكتابة المنقوشة على يسار المحراب وفحواها بسم الله الرحمن الرحيم الحمد والصلاة والسلام على من لا نبي بعده بني هذا المسجد المبارك على يد أفقر الوري وخدم شيراك نعال الفقراء أتقى الجنان، المتمسك بسنة ولد النظر بن عدنان الشيخ البركة سيدي محمد بن محمد الطيب رحمه الله وثبت أجره وغفر الله له ولجميع المسلمين.

✓ تم تجديد وتوسيع المسجد مرة أخرى سنة 1171هـ/ 1758م، على يد أحمد بن ناصر بن محمد بن الطيب وأضاف له المدرسة وقبة ضريح الشيخ محمد بن مبارك، يدل على ذلك الكتابات المنقوشة على مدخل المدرسة مثلما سبق ذكره، غير أن عمليات الترميم العشوائية لبعض المعالم أدى إلى طمس الكثير من الكتابات المنقوشة عليها.

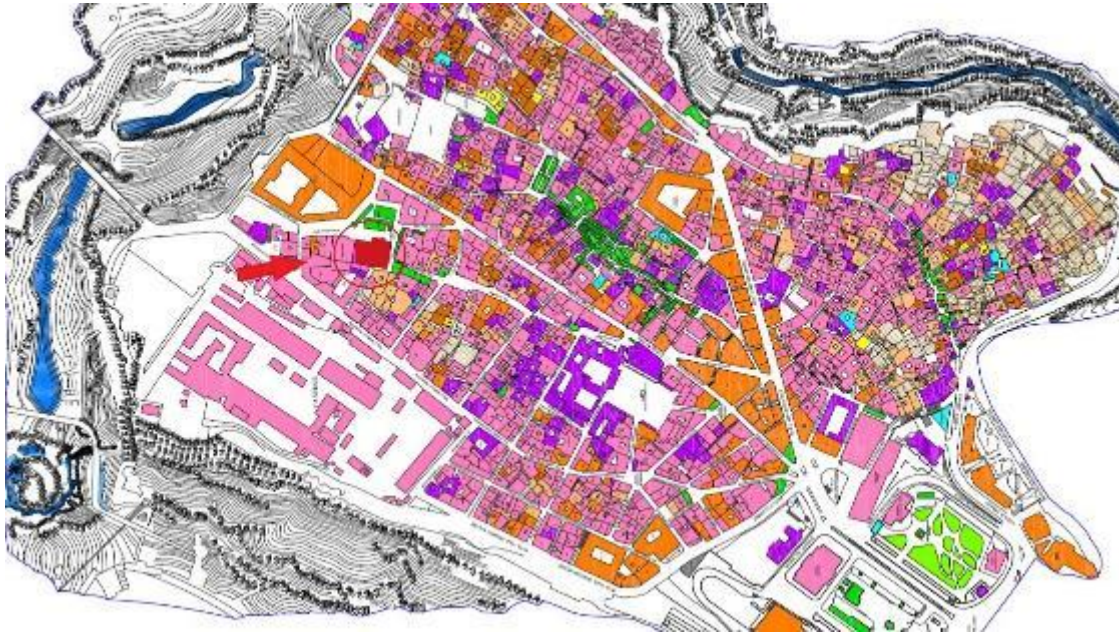
✓ قام الشيخ حسين بن أحمد بن ناصر الذي تولى المشيخة عام 1210هـ/ 1794م ترميم صومعة مسجد سيدي المبارك، وأحضر من تونس البنائين علي البنزرتي وأخوه محمد وقاسم الصفاقسي وأربع صناع للأجر في عهد الباي حمودة باشا، ويبدو أن الأجر المستخدم في سقف المسجد والصحن كان في عهده، الذي تميز بالرخاء والازدهار في كافة المجالات.

4. المدرسة الكتانية (قسنطينة):

عرفت مدينة قسنطينة كغيرها من المدن الجزائرية العريقة خلال العهد العثماني، نخبضة ثقافية متميزة ويعود الفضل في ذلك إلى كثرة المؤسسات الثقافية والدينية المنتشرة بها مثل المساجد والمدارس والزوايا، حيث كانت هذه المؤسسات منارات علمية تشع بالعلوم والمعارف على سكان المدينة خصوصا، وعلى كل من انتقل إليها من القرى والأرياف المجاورة لها أو من بعض المدن البعيدة عنها لينهل من شتى روافدها، ومن بين أهم هذه المؤسسات الثقافية والعلمية المدرسة الكتانية التي لعبت دورا كبيرا في هذا المجال.

1.4. الموقع الجغرافي للمدرسة:

تقع مدرسة سيدي الكتاني ضمن المركب المعماري سيدي الكتاني الذي يشمل المدرسة والمسجد والمقبرة بالجهة الشمالية من المدينة القديمة أسفل القصبة بجوار سوق الجمعة المعروف بسوق العصر وتفتح المدرسة من جهتين، جهة الغرب على نّحج عمار بن موفوق ومن جهة الشرق على نّحج بوهالي السعيد ومنه إلى السوق، كما يحدها من الشمال مبنى دار الإمام، وهي لا تبعد إلا بأمّاتار عن جسر سيد مسيد المعلق الذي يربط المدينة العتيقة بمستشفى ابن باديس وباقي أجزاء المدينة في الجهة الشمالية (الصورة رقم 51).



الصورة رقم 50: موقع المدرسة ضمن المدينة العتيقة لقسنطينة (عن ogebc)



الصورة رقم 51: المنافذ المؤدية لمدرسة سيدي الكتاني

2.4. التأسيس والمؤسس:

رغم اتفاق الباحثين الأثريين على أن تاريخ بناء مسجد سيدي الكتاني من قبل صالح باي كان سنة 1190هـ/1776م وذلك لوجود كتابة تأسيسية فوق مدخل المسجد تؤرخ لذلك، إلا أننا نجد أنهم اختلفوا في تحديد تاريخ بناء المدرسة، لغياب الكتابة التأسيسية من جهة وإغفال المصادر التاريخية ذكر تاريخ الإنشاء من جهة أخرى، فمنهم من يرى أنها بنيت قبل بناء المسجد أمثال الدكتور محمد السعيد قاصري وذلك سنة 1189هـ/1775م، ومنهم من ذكر بأنها بنيت في نفس سنة بناء المسجد وهو 1190هـ/1776م، أمثال الدكتورة فاطمة الزهراء قشي والدكتور عبد القادر دحدوح، في حين نجد باحثين آخرين ذكروا في أبحاثهم أنها بنيت بعد بناء المسجد بسنوات منها الدكتورة خيرة بن بلة الي ذكرت في دراستها عن المعالم الدينية في الجزائر أنها بنيت سنة 1194هـ/1780م، في حين ذهب الدكتور عبد الحليم طاهري في دراسته عن المدرسة الكتانية إلى أبعد من ذلك وهو سنة 1202هـ/1787م¹.

1. أنظر: محمد السعيد قاصري، المدرسة الكتانية بقسنطينة صرح ثقافي يصارع النسيان، مجلة عصور الجديدة، العدد 18 – عدد خاص بقسنطينة – مخبر التاريخ، جامعة وهران 1، الجزائر، أوت 1436هـ/2015م، ص 154، وكذا فاطمة الزهراء قشي، معالم قسنطينة وأعلامها، مرجع سابق، ص 13، عبد القادر دحدوح، المعالم الأثرية بمدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2015م.

ومهما يكن من تاريخ تأسيس المدرسة فإن الثابت هو أن صالح باي من قام بإنشائها بجوار المسجد وجعل لها وللمسجد أوقافا عظيمة يصرف دخلها عليهما خدمة للعلم والدين¹، يظهر ذلك من خلال قصيدة شعرية من



وزن الكامل تؤرخ لمؤسسها صالح باي والتي جاء نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم - صلى الله على سيدنا محمد

طاب الزمان توالى نفعه - للمسلمين وزاد في عليانه

ملك يوم الصالحات بعزمه - فاختر آخره على دنياه

أحي دروس العلم بعد دروسها - وبني لها دارا زكي مبناه

هي مدرسة لاحت أشعة نورها - لما لا وهي الدر في معناه

جادت بها نفس المعظم صالح - ذاك المجاهد بيتغي مولاه

الصورة رقم 52: أبيات شعرية تمجد صالح باي مدمجة

في الجدار الداخلي لمقبرة

فالله رزقه السعادة دائما - وبنيله يوم القيامة منا

قد بين التاريخ في قوله لنا - فخر المحامد بالهنا مبناه²

أما بالنسبة لمؤسس هذه المدرسة فإن الفضل فيه يعود كما أسلفنا لأحد أهم بايات قسنطينة على الإطلاق، وهو صالح باي بن مصطفى إزميري، ولد سنة 1755م في منطقة إزمير بالأناضول، قدم إلى الجزائر وعمره حوالي 16 سنة على اثر حادث عائلي حيث تسبب في قتل أحد أقربائه فهاجر حتى يتفادى العقاب³، وخلال وجوده بالجزائر العاصمة اضطرته الحاجة للعمل في أحد المقاهي التابعة للأوجاق، حيث تعرف على بعض مواطنيه من أفراد الميليشيا التركية أصحاب النفوذ، فتجنّد مثلهم، وهو ما فتح له الباب لتولي مناصب إدارية

1. تركي رابح عمامرة، التعليم القومي العربي الإسلامي والشخصية الجزائرية من عام 1930م حتى عام 1962م، ط3،

وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر، 2008م، ص 296.

2. للمزيد عن هذه الكتابة أنظر: عبد الحق معزوز وخصر درياس، جامع الكتابات الأثرية العربية بالجزائر، كتابات الشرق

الجزائري، ج1، منشورات المتحف الوطني للآثار القديمة، مطبعة سومر، بئر الخادم الجزائر، 2000م، ص 176 كذلك:

Cherbonneau (A), Op. Cit, p 108.

3. Vaysstes, l'histoire de Constantine de puis l'invasion turque jusqu'à l'occupation de 1835-1837, l'arndet Paris, 1900, p 333.

أخرى، لما كان يتميز به من خصال وخلال، كالشجاعة والمهارة والكفاءة، ومن بين المناصب التي شغلها قبل توليه منصب الباي المشاركة في حملة أزرق عينيه على تونس، التي أظهر فيها كفاءة عالية، لفتت إليه انتباه الباي أحمد القلي فولاه على قيادة الحراكنة (العواسي) بالأوراس عام 1762 - 1765م، كما زوجه من ابنته، ثم عينه خليفة له سنة 1765م، ولما توفى الباي أحد القلي سنة 1771م عينه الداوي محمد بن عثمان على رأس بايلك قسنطينة، مكث في الحكم مدة 22 سنة قضاها كلها في توطيد الأمن والاستقرار ببابيلك الشرق، خاصة في مدينة قسنطينة التي عرفت في عهده أزهى فترات الحكم العثماني لها، حيث انجز أعمالا عديدة في شتى المجالات، عسكرية واقتصادية وعمرانية وثقافية واجتماعية، كان لها أثارا بارزة في حياة السكان والبابيلك بصفة عامة، على غرار هذه المدرسة والجامع ومدرسة سيدي لخضر، و70 مسجدا صغيرا، و13 زاوية، هذا إلى جانب الكتابات القرآنية الكثيرة، كما أولى اهتماما كبيرا بالتعليم الديني وغيره، وخصص للمعلمين والفقهاء والوعاظ والأئمة أجورا سنوية قارة من أموال الأوقاف الإسلامية التي اهتم برعايتها وصيانتها، وعين وكلاء وقيمين لذلك، واستحدثت في كل مدرسة أنشأها قاعة للصلاة وأخرى للتدريس وبيتا للوضوء، وأربعة غرف لسكنى الطلبة القادرين¹، كما قام بإعادة بناء جسر باب القنطرة والعديد من المباني التجارية الأخرى كالحوانيت والفنادق، وله منشآت أخرى خارج مدينة قسنطينة، فقد بنى جامع عنابة وميناء سكيكدة والقل وغيرها من الأعمال الجليلة، لكنه في نهاية المطاف أعدم في ساحة السجن صبيحة يوم الأحد 16 محرم 1207هـ الموافق ل01 سبتمبر 1792م تذكر بعض المصادر أن السبب في ذلك هو تخوف حاكم الجزائر من نفوذ صالح باي والصيت العظيم الذي أحرزه عليه في أنحاء البلاد بحسن ادارته وعدله فدخله الشك أنه سينقلب عليه يوما من الأيام، ويذكر الزهار في مذكراته أن مؤامرة قتله كانت تقف وراءها زوجة الداوي حسن باشا انتقاما لأبيها، وأخذا بثأرها من الباي الذي كان السبب في قتل والدها الخزناجي محمد باشا²، ومما ذكره المؤرخ عبد الرحمان الجيلالي بخصوص مقتله "وموته خسرت الجزائر قائدا محنكا خبيرا بفنون الحرب ورجلا سياسيا عظيما عارفا بتدبير شؤون الحكم وتسيير الإدارة علما بمصالح البلاد وحاجياتها وما تتطلبه من انجازات ومهام"³.

1. محمد الصالح بن العنترى، مصدر سابق، ص 64.

2. من المصادر التاريخية التي تناولت حياة الباي صالح بن مصطفى نذكر: أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 64، الحاج

بن مبارك ابن العطار، مصدر سابق، ص 26، محمد الصالح بن العنترى، مصدر سابق، ص مصدر سابق، ص 78.

3. عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط7، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994م، ص 279.

3.4. أصل التسمية:

عرفت المدرسة الكتانية في بعض سجلات الأوقاف باسم المدرسة الصالحية، نسبة إلى مؤسسها صالح باي¹، لكن التسمية التي اشتهرت بها في المصادر التاريخية وعند العامة من الناس، هي مدرسة سيدي الكتاني نسبة إلى الشيخ عبد الله بن يحيى الثالث الكتاني، شيخ مرتب وعارف مصلح، وصف بالولي الصالح الإمام القطب، توفي عام 490هـ، دفن في قسنطينة وبني عليه ضريح² وقد جدد بناءه صالح باي وبني عليه المسجد والمدرسة ودفن به، وله ولذريته بقسنطينة وعمالتها عدة أضرحة وزوايا ومدارس عليها أوقاف وتوابع³.

4.4. مكانة المدرسة الكتانية التاريخية وأهميتها العلمية:

مرت المدرسة الكتانية بثلاث مراحل

أ. المرحلة الأولى (من سنة 1190هـ، 1776م إلى 1253هـ، 1837م):

تم انشاؤها من طرف صالح باي وجعل لها وللمسجد أوقافا يصرف عليهما خدمة للعلم والدين، وعمل على تنظيم العمل بها بكل حرص ودقة وحدد شروط الالتحاق بها وقوانين الإقامة والأجرة للمدرسين وغيرها هذا إلى جانب حلقات الذكر والوعظ التي كانت تتم في فيها طيلة أيام السنة، لعلو شأنها وموقعها الجغرافي بالقرب من مساكن الباي، والتي كان يحضرها في المناسبة الدينية عموم الناس، حيث ساهمت في رفع مستوى الوعي الفكري للسكان، لدرجة تكاد تنعدم الأمية تماما بمدينة قسنطينة، في الوقت الذي كانت فيه بعض المدن الفرنسية تعاني من ارتفاع في نسبة الأمية وهذا باعتراف الفرنسيين أنفسهم عشية الاحتلال الفرنسي للجزائر⁴.

1. فاطمة الزهراء، قشي، قراءة في حياة صالح باي بن مصطفى باي قسنطينة، المغرب في العهد العثماني، تنسيق عبد الرحمان المودن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 41، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1995م، ص 71.

2. محمد المهدي بن علي شعيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر تاريخ مدينة قسنطينة، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1980، ص 240.

3. محمد حجي وآخرون، قاموس معلمة المغرب، ج20، إصدارات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة سلا، الرباط، المغرب 1989/1410م، ص 6757.

4. محمد السعيد قاصري، مرجع سابق، ص 158.

وإلى جانب هذه الدروس الرسمية كانت المدرسة الكتانية تتوفر على مكتبة ثرية جدا بالكتب والمخطوطات التي استولى عليها الجيش الفرنسي بعد اقتحام المدينة في شهر أكتوبر 1837، مكتبة ساهم في تكوينها وتزويدها بنفائس الكتب والمخطوطات صالح باي نفسه، هذا إلى جانب العائلات القسنطينية التي زودتها بما كانت تدخره من رصيد في هذا المجال¹.

ب. المرحلة الثانية (من سنة 1253هـ، 1837م إلى سنة 1324هـ، 1907م):

استمرت المدرسة في أداء مهمتها العلمية حتى احتلال قسنطينة في أكتوبر 1837م حيث ضمت المدرسة إلى أملاك الدولة بدعوى أنها من أملاك الباي الخاصة غير المحسوبة في الوقف العام للمسجد²، وتوقف فيها كل



نشاط تعليمي وثقافي، وحولت إلى مقر للإدارة الفرنسية تارة، وإلى محكمة عسكرية تارة أخرى، وهي المحكمة التي أصدرت أحكامها بإعدام ونفي وشنق الكثير الجزائريين الذين رفعوا لواء المقاومة في وجهها بالشرق الجزائري، ومن ذلك محاكمة الشيخ المقراني والشيخ الحداد³.

الصورة رقم 53: المدرسة الكتانية في العهد الاستعماري

وبمناسبة الذكرى الواحدة والستون للثورة الفرنسية في 14 جويلية 1850 فتحت الإدارة الاستعمارية ستة مدارس ابتدائية أطلق عليها اسم المدارس الفرنسية العربية في مدن: الجزائر، وهران، عنابة، البليدة، مستغانم، قسنطينة، أين يكون فيها التعليم مزدوج عربي فرنسي⁴، وفي سبتمبر من نفس السنة صدر مرسوم فرنسي ينص على إنشاء

1. نفس المرجع، ص 159

2. تركي رابح عمامرة، مرجع سابق، ص 297

3. محمد السعيد قاصري، مرجع سابق، ص 159

4. Poulard Maurice, *l'enseignement pour les indigènes en Algérie*, imprimerie administrative, Alger. 1910, p 87

ثلاث مدارس رسمية عرفت باسم المدارس الشرعية¹، واحدة في تلمسان والأخرى في المدية والثالثة بقسنطينة التي اتخذت من المدرسة الكتانية مقرا لها، وذلك بهدف تخريج موظفين عرب في مختلف المجالات (القضاء - الإفتاء - الترجمة)، كما وضعت لها نظاما علميا واداريا وماليا وصحيا بمقتضى أمرين صادرين عن حاكم الجزائر العام آنذاك شانزي بتاريخ 16 فيفري 1876م و29 جويلية 1876م، وتم توظيف المدرسين الفرنسيين في هذه المدرسة إلى جانب المدرسين الجزائريين أمثال محمد الشاذلي².

ت. المرحلة الثالثة (من سنة 1324هـ، 1907م إلى سنة 1382هـ، 1962م):

في سنة 1907م افتتحت السلطات الاستعمارية المدرسة الجديدة بالشط (شارع العربي بن مهدي حاليا)، وانتقلت المدرسة الرسمية إلى البناية الجديدة وأغلقت مدرسة سيدي الكتاني من جديد إلى غاية الحرب العالمية الثانية حيث تحولت لمقر للاتصالات، ثم استقرت بها الإذاعة المحلية بقسنطينة بعد نهاية الحرب سنة 1945م، لتصبح فيما بعد تابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1947م³. وبعد الاستقلال عادت إلى وظيفتها الأولى وهي التعليم، لتندرج في السقوط فأصبحت مقرا للنظافة تابع للمجلس الشعبي البلدي، ثم مركز عبور يأوي 19 عائلة، رغم أن المدرسة بجميع مرافقها مدرجة ضمن قائمة المعالم الأثرية المصنفة كتراث وطني⁴، وفي المدة الأخيرة تكفلت السلطات بترميمها وأعادت بعثها من جديد.

1. المعلومات الواردة في الكتابات الأجنبية والوطنية كثيرة عن وضعية التعليم بالجزائر أثناء الحملة الفرنسية وما طرأ عليه من تغيرات جراء الاستعمار، الذي عمل جاهدا على تحطيم بنيته منذ احتلاله للجزائر نذكر منها: ايفون تيران، **المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، المدارس والممارسات الطبية والدين، 1830-1880م**، ترجمة محمد عبد الكريم اوزغلة، مراجعة مصطفى ماضي، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007م، ص 137، وكذا أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 3 مرجع سابق، ص 367.

Charles Robert, **Histoire de l'Algérie contemporaine de l'insurrection de 1871 au déclenchement de la guerre de libération 1954**, T2, P.U.F. Paris, 1979.

2. الشيخ محمد الشاذلي بن عيسى البوزيدي هو أول مدير للمدرسة الكتانية بعد إعادة فتحها سنة 1850م حيث لعب فيها دورا كبيرا كمدرس ومدير، توفي سنة 1877، انظر: محمد المهدي بن علي شغيب، مصدر سابق، ص 293.

3. عائشة بوثرید، **التعليم العربي الحر في الجزائر ومؤسساته من سنة 1947م الى 1962م**، رسالة التخرج لنيل شهادة الماجستير، قسم التاريخ والآثار، جامعة قسنطينة 2003/2004م، ص 176.

4. تقرر تصنيفها كتراث وطني محمي في 17 جويلية سنة 1913م، وصدر القرار في الجريدة الرسمية رقم 07 الصادرة في 23 جانفي 1968م أنظر:

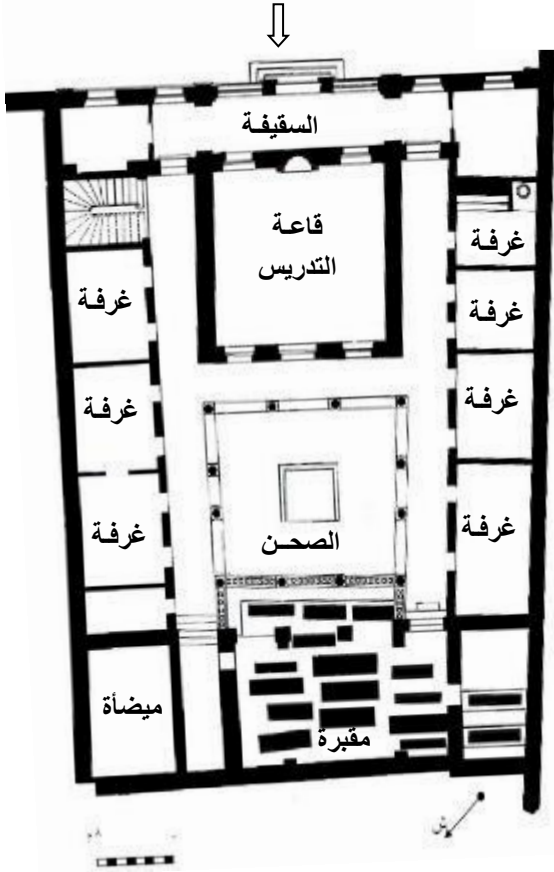
OGECB, **Registre général des Inventaires des Biens Culturels Classées**, Alger, 2014, p 61.

5.4. الدراسة الوصفية للمدرسة:

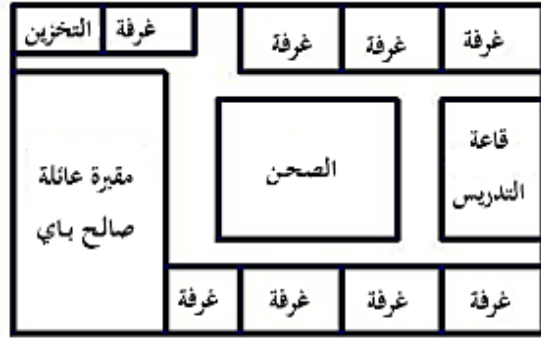
أ. المخطط العام:

مخطط المدرسة يأخذ الشكل المستطيل شبه المنحرف من الشمال إلى الجنوب، يتشكل من طابقين يتوسطهما صحن تتوزع عليه الغرف من جهتين الشرقية والغربية، وبالجهة الجنوبية قاعة التدريس والصلاة، وتفتح كلها على أروقة ومنها إلى باحة الصحن الذي يلتحم مع المقبرة في الجهة الشمالية. (المخطط رقم 17)

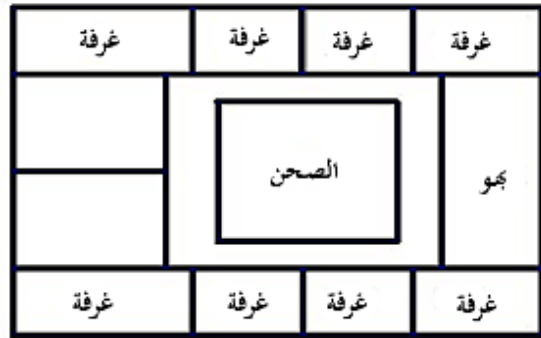
تبلغ مساحة المدرسة الإجمالية حوالي 495م² تمتد طولها من الشمال إلى الجنوب بمسافة 31م ومن الشرق إلى الغرب بمسافة 15.93م، وهي مساحة تشمل الصحن والغرف مع المقبرة وبيت الوضوء دون المسجد الذي تفتح عليه في الجهة الغربية.



المخطط رقم 18: الطابق الأرضي للمدرسة الكتانية
(عن أرشيف ogebc بتصرف)



الطابق الأرضي

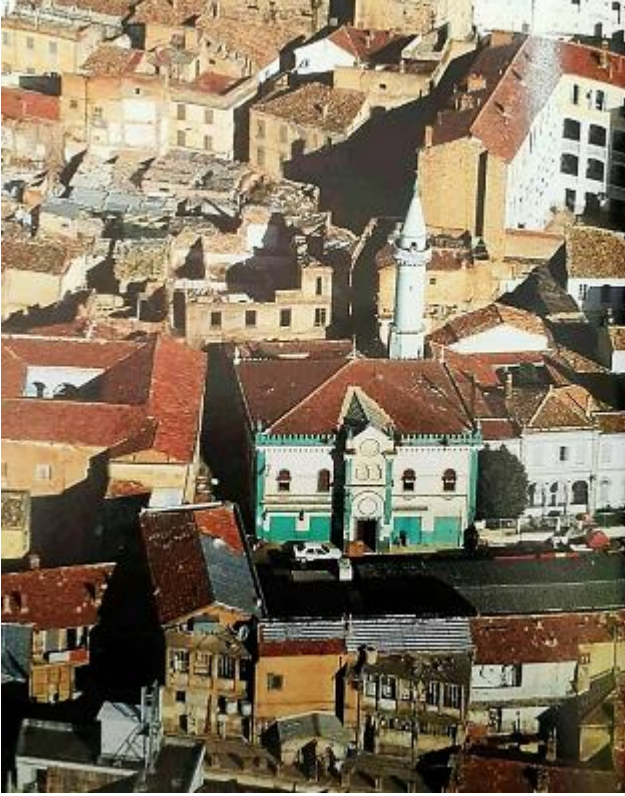


الطابق الأول

المخطط رقم 17: الطابقين الأرضي والأول
(عمل الطالب)

ب. الوصف الخارجي:

للمدرسة الكتانية أربع واجهات، الواجهة الرئيسية التي يفتح عليها المدخل الرئيسي في الجهة الجنوبية تطل على سوق العصر في حين أن الواجهة الشمالية مطلة على الأحياء السكنية وتلتصق الواجهة الشرقية مع بناية تعود للفترة الاستعمارية تتخذها مديرية الشؤون الدينية حاليا مركزا لتكوين الأئمة، أما الواجهة الغربية ففتتح على باحة مسجد سيدي الكتاني (الصورة رقم 54).



تتكون كتلة المدرسة عموما من طابقين اثنين يتم الدخول إلى الطابق الأول عبر مدخلين المدخل الرئيسي الذي يفتح على الواجهة الشرقية والثاني في الواجهة الشمالية، المدخلين بهما باين خشبيين بسيطين معماريا وفنيا أحدهما يعود للفترة الاستعمارية أما الثاني فهو حديث الصنع.

ت. لوصف الداخلي:

يتم الدخول إلى المدرسة عبر المدخلين إلى رواقين، يبلغ طول رواق المدخل الرئيسي 11.20م وعرضه 1.90م يفضي إلى صحن المدرسة.

الصورة رقم 54: كتلة المدرسة والمسجد بواجهتهما الرئيسية

المشرفة على ساحة سوق العصر

إن تخطيط الصحن في المدرسة الكتانية يأخذ

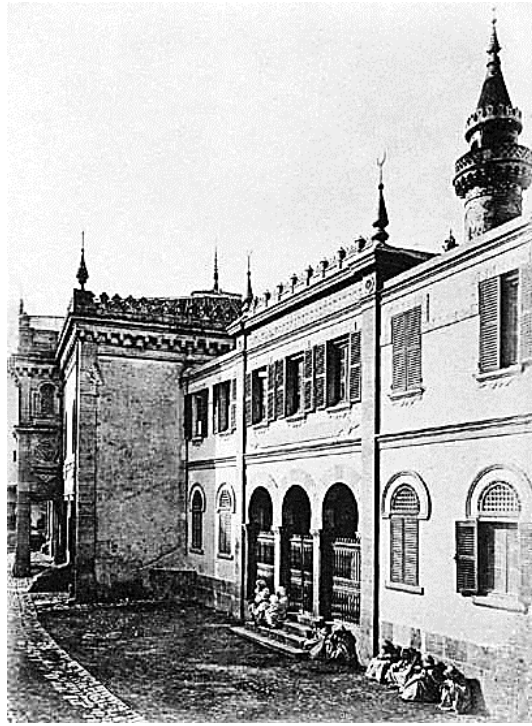
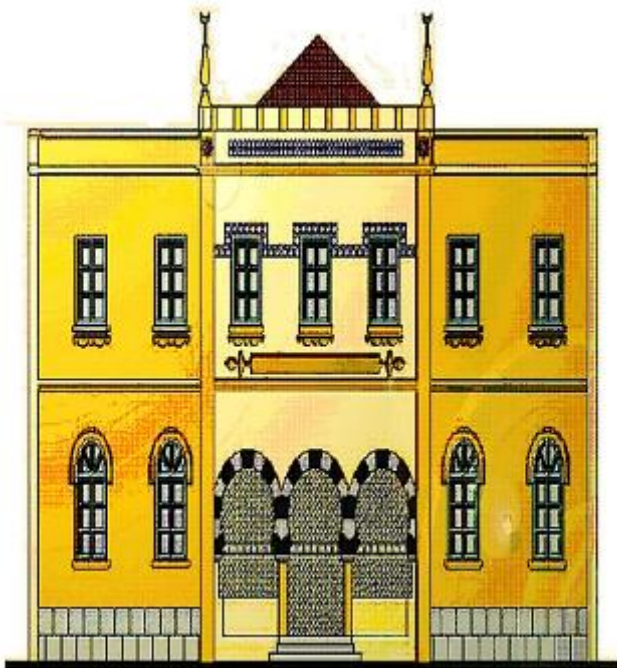
شكل المربع طول كل ضلع فيه حوالي 8.30م

يحيط به أروقة من الجهات الثلاث (الجنوبية والشرقية والغربية) وتفتح عليه بواسطة بوائك تتكون من ثلاث عقود نصف دائرية في كل بائكة تحملها أعمدة رخامية مضلعة الشكل، بلغ عددها اثني عشرة عمودا، قاعدته وتاجه مضلعان به أربعة أهلة في رقبته أربعة أزهار، يربط بينها روابط خشبية تنطلق من منبت العقد لتثبيت كل الأعمدة وتمتينها ومنع انفراجها وتخفيف ثقل الحمولة على حواف الأقواس كما تحمل أرضية الطابق الثاني.

أما الجهة الرابعة الشمالية من الصحن فيندمج الرواق مع المقبرة التي ترتفع على أرضيته ب 1.10م ويحدها عنه درابزين من الرخام مشكل من 22 عمود صغير محدودب استعمل كحاجز بينها وبين الصحن.



الصورة رقم 55: الأروقة المشرفة على الصحن



الصورة رقم 56: واجهة المدرسة الأمامية (عن حليمي)

ت. 1 قاعة التدريس:

قاعة التدريس قاعة مربعة الشكل طول كل ضلع فيها 6.45م، فتحت في الرواق الجنوبي من الصحن وتعتبر كذلك قاعة للصلاة لاحتوائها على محراب مجوف يتوسط الجدار رغم خلوها من مختلف العناصر المعمارية الأخرى المجسدة لعمارة المسجد، ويقدر عمقه 52سم وارتفاعه 2م، يتوجه عقد نصف دائري على هيئة صدفة، يؤطره من الداخل شريط به كتابة قرآنية، بخط النسخ المغربي نصها "رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"¹ وتنتهي في الأعلى بعقد مفصص تتوجه آية قرآنية أخرى بذات الخط نصها يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"² يرتكز على عمودين رخاميين سوداوين في واجهة المحراب بمحاذاة قاعدتان وتاجان ذا أوراق مفصصة على هيئة زهرة متفتحة يعلوهما مربعين بمحاذاة لفظ الجلال الله (الصورة رقم 58).

والملاحظ أن جل البلاطات الخزفية التي تكسو جدران القاعة مجددة باستثناء على ما يبدو البلاطات التي تزين حنية المحراب، ونفس الشيء بالنسبة لسقف القاعة، فهو بسيط تتوسطه نجمة ثمانية منقوشة على الجص بمحاذاة زخارف نباتية وهندسية تتوسطها ثريا مستحدثة كذلك، نفس الأمر ينطبق على الباب الكبير الخشبي الذي يتم الدخول بواسطته إلى القاعة حيث مس التجديد أجزاء كبيرة منه باستثناء قطع فنية تزين الجزء العلوي منه.

تخطيط قاعة الدرس في المدرسة تخطيط فريد من نوعه كون القاعة تحيط بيها أروقة من الجهات الأربعة حيث من الجهتين الشرقية والغربية يمتد رواق الصحن إلى حدود السقيفة في الجهة الشمالية في حين يتقدم الرواق المشرف على الصحن من الجهة الجنوبية وبالتالي لا تكاد تتصل هذه القاعة بباقي المرافق إلا في أطراف جدار القبلة (المخطط رقم 17).

كما تتميز قاعة التدريس بوجود نوافذ مطلة على الصحن وهي مستطيلة الشكل تتكون من مصراعين خشبيين بسيطين، طولها 1,90م وعرضها 1,10م، وهي مستحدثة من الفترة الاستعمارية.

1. قرآن كريم، سورة البقرة، الآية 201

2. قرآن كريم، سورة الحج، الآية 77



الصورة رقم 57: واجهة قاعة التدريس (المصلى) مع مدخلها المفتوح على الرواق الشمالي من الصحن



الصورة رقم 58: قاعة التدريس (المصلى) وبها المحراب والنوافذ المفتوحة على السقيفة التي تلي المدخل الخارجي

ت.2. غرف الطلبة:

بلغ عدد غرف الطلبة في المدرسة الكتانية 14 غرفة موزعة على الصحن من جهتين اثنتين الشرقية والغربية سبعة منها في الطابق الأرضي وسبعة أخرى في الطابق الأول، غرف الطابق الأرضي ثلاثة منها تطل على الصحن عبر الرواق الشرقي والأربعة الأخرى تقابلها في نفس المستوى في الجهة الغربية منه، أهم ما يميزها أن شكلها غير منتظم ومتقاربة في الحجم تميل إلى الشكل المربع عمقها متقارب مع عرضها باستثناء الغرفة التي تقع أقصى الجنوب الغربي فتأخذ شكل المستطيل¹ كسيت جدرانها بالزليج الحديث وهي خالية من الزخارف ونوافذها الكبيرة فتحت على الأروقة من جميع الجهات (الصورة رقم 59).

يتم الصعود الى الطابق العلوي عبر سلم يقع في الركن الشمالي الشرقي وهو ذو مخطط يكاد يتطابق مع الطابق السفلي أروقة تحيط بالصحن من أربع جهات، في الجهة الشمالية القبة التي تحيط بالأضرحة ويقابلها في الجهة الجنوبية قاعة كبيرة ماثلة لقاعة التدريس التي في اسفلها وتأخذ ابعادها ولكنها خالية من المحراب، في حين تتوزع الغرف على جانبي الصحن شرقا وغربا على نفس مستوى الغرف الموجودة في الطابق السفلي.



الصورة رقم 59: أحد أروقة الطابق الأول التي تفتح عليه غرف الطلبة

1. تعذر علينا أخذ مقاسات وابعاد الغرف أو حتى أخذ صور داخلية لها لأنها كانت مشغولة من قبل البنات المتربصات في المعهد المجاور، يتخذها مقرا للإقامة رغم زيارتنا المتكررة لها.

ما يؤسف له حقا أن هذا الطابق قد جددت مرافقه بالكامل حيث كسيت جدرانها وبلطت أرضيته بالزليج العصري، ووسعت نوافذه وابوابه كما جددت الميضاة تماما، ناهيك عن أسلوب التسقيف المسطح والمكسو بالجص على الطريقة العصرية.

ت3. الأضرحة:

أهم ما يميز مدرسة سيدي الكتاني هو تعدد الأضرحة والقبور التي تعود لمؤسس المدرسة وأفراد من عائلته وبعض المشايخ والقضاة والمعلمين الذين مروا بالمدرسة، تقع هذه المقبرة في الجهة الشمالية من الصحن ترتفع عن أرضيته ب 1.60م ويتم الصعود إليها عبر ثلاث درجات في أقصى الجهة الغربية إلى باب حديدي ذو مصراعين في الرواق وهي مفصولة عن الصحن بدرابزين من الرخام (الصورة رقم 60)، بلغت مساحتها حوالي 30م² وقد اخذت شكل الإيوان المفتوح من جهة الصحن والمقرب بقبة ترتكز على قاعدة مربعة محمولة على أربعة دعائم تحمل عقودا حدوية، وفي أركان قاعدة القبة حنايا ركنية على شكل الصدفات (الصورة رقم 61).



الصورة رقم 60: واجهة المقبرة المطلة على الصحن من الجهة الشمالية

تضم المقبرة 14 قبرا مع وجود قبرين آخرين داخل غرفة صغيرة موجودة على يسار الداخل للمقبرة وهي غرفة للأسف الشديد انهار سقفها تماما ولا تزال الأتربة وبقايا السقف تظمر القبرين الذين يعودان أحدهما لعائشة زوجة صالح باي والثاني ليامنة إحدى بناته، أما بقية القبور الأخرى الموجودة خارج القاعة نجد منها تسعة بلوحدات شاهدة أي أنها معروف أصحابها وتواريخ وفاتهم وخمسة أخرى مجهولة الهوية والتاريخ، والملفت للنظر هو وجود

بعض القبور مغطاة بالرخام الأبيض، وقبور أخرى مغطاة بالخشب وقبور أخرى مكسوة بالبلاطات الخزفية، أما الأرضية بين القبور فبلطت بالرخام الأبيض (الصورة رقم 62) وقد توزعت القبور على النحو التالي:



الصورة رقم 61: قبة المقبرة ترتكز على قاعدة مربعة محمولة على أربعة دعائم تحمل عقودا حدوية

- أول قبر نجده بعد صعود الدرجات ودخول الباب هو قبر خدوجة بنت عبد الله خوجة المتوفية في مارس 1790م، طوله 1.54 وعرضه 42سم به صندوق وشاهدين خشبيين.
- القبر الثاني يعود لمؤسس المجمع المعماري لسيدى الكتاني وهو صالح باي المتوفي في أوت 1792م طوله 2.5م وعرضه 58سم صندوقه وشاهديه رخاميين.
- القبر الثالث لمصطفى بن صالح باي المتوفي في 1809م طوله 1.92م وعرضه 63سم، به صندوق وشاهدي قبر رخاميين على شكل عمودين مربعي الشكل.
- أما الرابع فهو لخدوجة بنت صالح باي المتوفية في جانفي 1818م طوله 1.65م وعرضه 45سم صندوقه وشاهدي القبر من الخشب.
- القبر الخامس بالتوازي مع القبر السابق فهو لآمنة بنت صالح باي المتوفية في جوان 1822م طوله 1.53م وعرضه 40سم بصندوق وشاهدي قبر خشبيين.

- أما القبر السادس فلعائشة بنت صالح باي المتوفية في أوت 1823م طوله 1.50م وعرضه 40سم بصندوق وشاهدي قبر خشبيين.

- والسابع لفاطمة بنت حسان حفيظة صالح باي كان وفاتها في أفريل من سنة 1825م وطول القبر 1.67م أما عرضه فهو 38سم صندوقه وشاهدي وفاتها من الخشب.

- والقبر الثامن ليامنة بنت محمد الخلفة ابن صالح باي المتوفية في مارس 1826م طوله 1.20م وعرضه 40سم اما الصندوق وشاهدي القبر فهي من الخشب.

- أما التاسع وآخر القبور المعلومة فهو يعود لابنة آخر بايات قسنطينة الزهرة بنت أحمد باي المتوفية في أوائل مارس من سنة 1834م طوله 1.65م وعرضه 40سم بصندوق وشاهدي قبر خشبيين زينت جدران الإيوان من جهاته الثلاث (الشمالي والشرقي والغربي) ببلاطات خزفية متنوعة إيطالية وهولندية وتونسية الأصل، أغلبها بأزهار القرنفل كما توجد بلاطات بزخارف عفسة الصيد المعروفة في العمائر العثمانية في الجزائر، وأخرى بسلام بما باقات الازهار والأوراق والثمار وغيرها من الاشكال، يحيط بها شريط كتابي منقوش بخط الثلث نقشا بارزا مضمونه مواعظ وأدعية دينية للميت.



الصورة رقم 62: قبور رخامية وخشبية لصالح باي وأفراد من عائلته

زينت جدران الإيوان من جهاته الثلاث (الشمالي والشرقي والغربي) ببلاطات خزفية متنوعة إيطالية وهولندية وتونسية الأصل، أغلبها بأزهار القرنفل كما توجد بلاطات بزخارف عفسة الصيد المعروفة في العمائر العثمانية في الجزائر، وأخرى بسلال بها باقات الازهار والأوراق والثمار وغيرها من الاشكال، يحيط بها شريط كتابي منقوش بخط الثلث نقشا بارزا مضمونه مواعظ وأدعية دينية للميت.

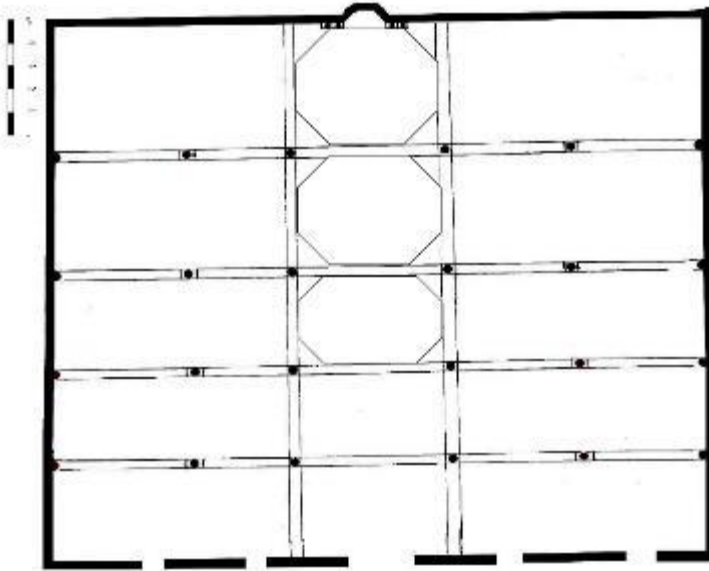


الصورة رقم 63: التسقيف الخارجي للمدرسة ويظهر الشكل للهرمي لسقف المقبرة العائلية

عموما تعتبر هذه المقبرة بأضرحتها المعلم الوحيد الذي لا يزال محافظا إلى درجة كبيرة من تأصيله المعماري داخل المدرسة الكتانية باستثناء بعض الإصلاحات على القبة الضريحية أو النافذة الحديدية الموجودة في الجدار الشمالي ولكن ما يؤسف له الحالة المتدهورة التي آلت إليها أجزاء مهمة منها نظير غياب الترميم والصيانة.

ت4. مسجد المدرسة:

مسجد سيدي الكتاني ملاصقا للمدرسة في جهته الشرقية، في حين تظهر واجهاته الثلاث الأخرى على الشوارع ويفتح بمدخله الرئيسي في الجهة الجنوبية (الصورة رقم 64) وهي الواجهة الرئيسية المطلة على سوق العصر، كما يتصل بالمدرسة عبر مدخلين، الأول يفتح على الميضأة في الطابق السفلي والثاني يؤدي إلى درج يوصل إلى مصلى النساء بالطابق العلوي باعتبار أن المسجد مكون من طابقين (الصورة رقم 65).



المخطط رقم 19: مخطط بيت الصلاة (عن خيرة بن بلة)

من المدخل الرئيسي ندخل مباشرة إلى سقيفة طولها حوالي 27م ومنها إلى الصحن الذي يقع في الطابق السفلي وهو مربع الشكل مقاساته 6.30/6.30م تتوسطه نافورة رخامية يلتف حول الصحن أروقة تطل عليه بثلاثة عقود منكسرة تقوم على دعائم مربعة وفي الأركان على شكل حرف L اللاتيني، الرواق الجنوبي يفتح عليه المدخل الرئيسي، أما الشرقي فيفتح عليه هو الآخر مدخل رئيسي ثاني عبر ممر يتوسط مجموعة من



الصورة رقم 65: الواجهة الرئيسية المطلة على سوق العصر في الجهة الجنوبية للمسجد

الصورة رقم 64: المدخل الرئيسي للمسجد

القاعات التي ألحقت بالجامع، توجد قاعتان تطلان على الصحن من الجهة الشرقية، أما في الجهة الشمالية فيفتح على الرواق الذي يربط بين المدخل الرئيسي والصحن فقد فتح باب يوصل إلى ثلاث قاعات أخرى تفتح على بعضها البعض، وفي الجهة الخارجية لهذه القاعات توجد حوانيت ثلاثة منها في الجدار الغربي وأربعة في الجهة الجنوبية الغربية تفتح على سوق العصر وفي الرواق الشمالي فتح مدخل يؤدي إلى مiazza وعلى يساره مدخل يؤدي إلى السلم.

من السلم يتم الصعود إلى بيت الصلاة في الطابق العلوي (الصورة رقم 68)، وهو مستطيل الشكل تقدر مقاساته 18.63م، طولاً و15.10م عرضاً، يتشكل من خمسة أساكيب موازية لجدار القبلة عرضها 2.85م تقطعها أربعة بلاطات تتوسطها البلاطة المستعرضة المشرفة على المحراب بعرض 3.45م.



تحد هذه البلاطة أعمدة رخامية أسطوانية ترتكز على قواعد مربعة وتقوم فوق الأعمدة عقود نصف دائرية يعلوها في معظم أجزاء بيت الصلاة سقف خشبي مسطح من الداخل تزيينه معينات تتوسطها ورود، في حين توجد ثلاث قباب تتقدم المحراب تميزت بزخارفها المتنوعة (الصورة رقم 69)

الصورة رقم 66: صحن المسجد قبل اغلاقه سنة 2015م

وسط جدار القبلة محراب مضلع يقدر عمقه 1.20م وعرضه 1.40م وهو مشكل من ستة أضلاع مكسو في جزئه السفلي ببلاطات خزفية مربعة الشكل نظمت في صفوف عمودية قوامها زخارفها أشكال هندسية ونباتية مختلفة تعلوها كتابة قرآنية، أما واجهة المحراب فيها أربع أعمدة أبدانها سوداء وبقواعد وتيجان بيضاء يقوم كل



واحد منها على دعامة رخامية صغيرة مربعة الشكل فوقها قاعدة أسطوانية الشكل يرتكز عليها بدن أسطواني هو الآخر يعلوه تاج مركب يزينه في الأسفل صف من أوراق الأكانتس، وفي الأعلى حلقة دائرية، يليها عقد نصف دائري تزين واجهته صنجات زخرفية جصية تتألف من 13 صنجة تزينها زخارف هندسية محددة بواسطة أشرطة من مثلثات متقابلة تتوسطها معينات. (الصورة رقم 71)

الصورة رقم 67: صحن المسجد حاليا وهو مغلق
2022م

يضم بيت الصلاة في المسجد منبرا رخاميا اصيلا بزخارفه المتنوعة الهندسية والكتابية والنباتية وجودة صناعته في ادق تفاصيله المعمارية، طوله 2.85م وعرضه

1م، به باب معقود بعقد نصف دائري مزخرف بزخارف نباتية، يتم الدخول من خلاله إلى درج بثمان درجات تنتهي بجلسة الإمام على جانبيها وجانبي الدرج درابزين تتخللها زخارف نباتية (الصورة رقم 70).



الصورة رقم 68: السلالم المؤدية من الصحن إلى بيت الصلاة في الطابق الأول قبل اغلاقه سنة 2015م ووضعها الحالي

كما يضم بيت الصلاة في مؤخرة البلاطة الوسطى دكة المبلغ مقابلة للمحراب تقوم على أعمدة رخامية اسطوانية البدن يعلوها تيجان مركبة بأشكال نباتية وهندسية ورمزية تتركز عليها عوارض خشبية زينت هي الأخرى بزخارف نباتية.

وعلى جانبي الدكة أقيمت سدة خشبية يتم الصعود إليها عن طريق سلم معدني مستحدث يقع في الزاوية الشمالية من بيت الصلاة.



الصورة رقم 69: بيت الصلاة في الطابق الأول



الصورة رقم 71: جانب من المنبر الرخامي للجامع



الصورة رقم 70: المحراب

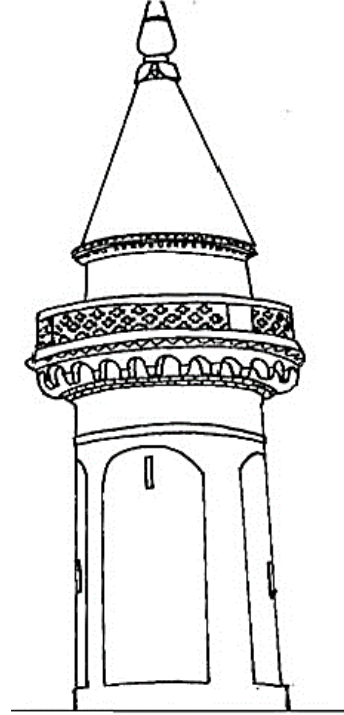
الميضأة: توجد الميضأة في الجهة الشمالية من الصحن أسفل السلم المؤدي الى الطابق العلوي وتأخذ شكل مستطيل مقسمة إلى ثلاثة أقسام، القسم الجنوبي منها مغطى بقبو أما الثاني فسقفه مسطح، يوجد بكل منهما حوض تتقدمه مقاعد للجلوس في حين تتوزع في القسم الشمالي الغربي بوت الخلاء.

المئذنة يتم الوصول إليها انطلاقا من الرواق الخلفي للصحن بالطابق العلوي الذي يتقدمه ممر ينتهي بباب يفضي إلى ميضأة النساء وفي نهاية جداره الشرقي فتح باب المئذنة الذي يقدر عرض فتحته 77سم وينتهي بعقد نصف دائري يتقدمه سلم خشبي يلتف حول نواة دائرية.

تشكل المئذنة من أربعة أجزاء، قاعدة مربعة يعلوها بدن مشكل من طابقين الأول مئمن تغطيه قراميد نصف دائرية، أما الثاني فأسطواني الشكل تزينه أربع دخلات صمام في شكل بائكة من العقود النصف دائرية تقوم على دعائم وفي وسط هذه الدخلات.

فتحت نوافذ صغيرة للتهوية والإضاءة، أما في أعلى البدن فتوجد شرفة دائرية يتوسطها جوسق أسطواني هو الآخر فتح به باب ينتهي بطنف بارز تعلوه قبيبة رحمة الشكل يبرز منها جامور ينتهي بهلال وتعد هذه المئذنة

من المآذن الفريدة في الجزائر بشكلها الأسطواني بالإضافة إلى مئذنة صالح باي بعنابة 1791م، وهي تعد من التأثيرات المعمارية العثمانية في الجزائر¹ (الصورة رقم 72).



الصورة رقم 72: مئذنة جامع سيدي الكتاني (الشكل عن خيرة بن بلة)

أما الملاحق فيحتوي جامع سيدي الكتاني على عدة ملاحق في الطابق السفلي توجد قاعتان تطلان على الصحن، أما في الجهة الشمالية من الرواق الذي يربط بين المدخل الرئيسي الشرقي والصحن فقد فتح باب يوصل إلى ثلاث قاعات تفتح على بعضها البعض، وفي الجهة الخارجية لهذه القاعات توجد حوانيت ثلاثة منها في الجدار الغربي وأربعة في الجهة الجنوبية الغربية تفتح على سوق العصر.

1. قام البروفيسور عبد الكريم عزوق بدراسة قيمة حول تطور عنصر المئذنة في العمارة الجزائرية تناول في الفصل الرابع منها مميزات وخصائص المئذنة في العهد العثماني، أنظر الدراسة: عبد الكريم عزوق، تطور المآذن في الجزائر، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، 2006م، ص 87.

أ. التغييرات والتجديدات التي طرأت على المدرسة ومسجدها:

عرف جامع سيدي الكتاني عدة تغييرات كغيره من معالم المدينة، حيث تعرض هذا الجامع إلى تغييرات عديدة مست جوانب مختلفة منه خاصة في الفترة الاستعمارية، يظهر ذلك في الواجهتين الخارجيتين الشرقية والجنوبية والباب الذي فتح في الركن الغربي الجنوبي والملاحق التي تقع أسفل بيت الصلاة وفي السلم الصاعد إلى السدة والدكة الموجودة في بيت الصلاة (الصفحة رقم 73).



الصورة رقم 73: الواجهة الجنوبية للمسجد من تجديدات الفترة الاستعمارية

وما يؤسف له حاليا أن المسجد مغلق وفي درجة سيئة للغاية من الحفظ بسبب توقف اشغال الترميم منذ سنوات عدة، خاصة بعد نزع طبقات الزليج الأصلي والسقف وبلاط الأرضيات في بيت الصلاة وفي السدة والأروقة المحيطة بالصحن والسقيفة، فأصبحت جدرانه هشّة زادت العوامل الطبيعية كالرطوبة والأمطار الوضع سوءا مما أدى إلى تصدع الكثير منها وانحيار أجزاء أخرى، أما عن غلق وتأخر ترميم المسجد كشف مصدر من مديرية الثقافة بان هناك مشاكل إدارية ومالية كثيرة، بالإضافة الى عثور فريق العمل اثناء عمليات الحفر داخل الميضاة على عظام بشرية تعود إلى الفترة العثمانية، فتقرر توقيف الأشغال إلى حين تشكيل لجنة من الخبراء في علم الآثار و المهندسين المعماريين لإجراء خبرة على هذا الموقع المصنف ضمن المعالم الأثرية المحمية بالولاية. وحسب مدير الثقافة زيتوني عريبي أن قرار تجميد مشروع ترميم مسجد سيدي الكتاني وعدد من المساجد الأثرية الأخرى بقسنطينة كمسجدي سيدي الحضر ومسجد سيدي عفان بسبب تماطل المقاولات المعنية التي لم تكن في المستوى حسبها مما أدى الى تغيير والغاء الكثير من صفقات الترميم (الصورة رقم 74).



الصورة رقم 74: اشغال الترميم بالمسجد والمتوقفة منذ سنوات (حتى جوان 2021)

رابعاً. اهم المدارس العثمانية المندثرة بالجزائر

يمكن القول أنه من الصعب جدا تمييز طبيعة المدارس التي كان لها دور في تنشيط الحركة العلمية ابان الفترة العثمانية والتي اندثرت مع مرور الوقت، بسبب عدة عوامل تطرق إليها الكثير من الباحثين الذين تناولوا موضوع التعليم في الجزائر خلال هذه الفترة، سواء الجزائريين منهم أو المستشرقين، نذكر منها على وجه الخصوص اختلاط وظيفة المدرسة مع الجامع والزاوية في مجال التعليم، حيث كانت بعض المساجد والزوايا تؤدي وظيفة المدرسة في نشر التعليم بجميع انواعه، بالتالي كانت عدة زوايا بمثابة مدارس، كما كانت مساكن للطلبة الذين يدرسون فيها، وكانت العديد من المدارس ملحقة بالزوايا وأخرى ملحقة بالمساجد، واخرى مخصصة للتعليم وحده في مستواه الثانوي والعالي ومن بين المدارس التي كانت تقوم بهذا الدور والتي تناولتها بعض المصادر التاريخية والتي اندثرت للأسف الشديد نذكر:

1. المدرسة القشاشية بمدينة الجزائر:

تأسست هذه المدرسة بجوار جامع يحمل اسم القشاش، فسميت باسمه¹، يرجح الباحثون أنها تعود إلى العهد السابق للعثمانيين، فالمعلومات حول هذه المدرسة قليلة جدا رغم أهميتها في نشر العلم، لا سيما تلك المؤسسات الموصوفة بالتعليم العالي، والظاهر أنها كانت زاوية ومدرسة عليا في نفس الوقت، وذلك حسب وثائق المحاكم الشرعية وسجلات بيت المال والبايلك²، وكذلك حسب أوصاف المؤرخ أبو راس الناصري الذي زار مدينة الجزائر سنة 1214هـ/1814م، ولاحظ وجود المدرسة القشاشية وأشاد بها على أساس أنها مركز للتعليم الثانوي والعالي³، وأقدم وثيقة تتحدث عنها تعود إلى سنة 1162هـ/1748م⁴.

1. حسب رواية القسيس الإسباني هايدو الذي كان أسيرا في مدينة الجزائر ما بين سنتي 1578 و1581م فإن هذا الجامع تأسس سنة 1579م من طرف أحد الموريسكيين الذي يسمى القشاش أنظر:

Diego de Haëdo, *Topographie et histoire générale d'Alger*, traduction de dr monnerau et A.berbrugger, présentation de Jocelyne dakhli, éditions bouchene, 1998, p 208.

2. ياسين بودريعة، أوقاف الأضرحة والزوايا بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني، من خلال المحاكم الشرعية وسجلات بيت المال والبايلك، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، بوزريعة، 2006/2007م، ص 59

3. الناصري أبو راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، مصدر سابق، ص 91.

4. الناصري أبو راس، الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية في علم الصيد، دراسة وتحقيق حمدادو بن عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (د. ت)، ص 38.

اكتسبت مدرسة ومسجد القشاش شهرة عظيمة من خلال الدروس التي كانت تلقى فيها، فكانت مدرسة وملجأ للغرباء والفقراء الذين كانوا يحصلون فيها على الطعام لذا كان بعض الناس يسمونها الوكالة^{1*}، ومن بين الذين لجأوا إليها قبل الاحتلال الفرنسي بسنوات المؤرخ أبو راس الناصري الذي زار مدينة الجزائر في طريقه إلى المغرب الأقصى²، كما كانت المدرسة ضخمة البناء كثيرة الطلبة ضمت مجموعة من الغرف، وبمسجدها مئذنة مربعة الشكل غير مرتفعة كثيرا، يذكر المستشرق الفرنسي هنري كلاين أن طرازه يشبه طراز الجامع الكبير وجامع سيدي رمضان³ بالقصبة، كما كان بها مدرس واحد على الأقل يدرس الفقه والتوحيد وعشرة قراء يؤدون ما نصت عليه الوقفية من القراءات⁴.

استمرت هذه المدرسة في تغذية التعليم الثانوي والعالي في مدينة الجزائر سنوات عديدة إلى غاية دخول المستدمر الفرنسي، فحولوها إلى مراقد للجنود ثم مستشفى ميداني ثم مخزنا مركزيا للمستشفيات⁵ تحمل رقم 35 بشارع القناصل⁶، ثم كان مصيرها الهدم، حيث تصور لنا إحدى وثائق المحاكم الشرعية مآل طلبة المدرسة بعد تهديمها، والوثيقة مؤرخة سنة 1250هـ/1834م، و مما جاء فيها: "...وقد كان قراء الزاوية يقدمون رجلا منهم يتصدق في أحباسهم من بناء و ترقيع و ترميم وغير ذلك، وما فضل يفرق عليهم إلى أن استولى الفرنسيين على الزاوية المذكورة وتفرقوا طلبتها وعمرّ جلهم زاوية قاضي المالكية⁷.

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج5، ص112.

*. مباني عمومية وجدت داخل المدن بالقرب من المناطق التجارية، كانت تخصص لإقامة الغرباء على المدينة خاصة التجار منهم بمفرهم أو مع عائلاتهم في طوابق سكنية علوية، بينما تخزن أغراضهم وسلعهم في الطابق السفلي، ودائما ما يلحق بالوكالة مسجد صغير للصلاة وفي بعض الأحيان سبيل للماء واسطبل للخيل، للمزيد أنظر: محمد عاصم رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مطبعة مدبولي، القاهرة، مصر، 2000م، ص324.

2. الناصري أبو راس، فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته، مصدر سابق، ص91.

3. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج5، ص27.

4. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج5، ص112.

5. Devoulx Alber, *Les Edifices Religieux de l'Ancien Alger, zaouïa de la grande mosquée in Revue Africaine*, V11, Alger 1867, p 53.

6. خيرة بن بلة وآخريين، زوايا ومدارس الجزائر دراسة أثرية معمارية وفنية، البرنامج الوطني للبحث كراسك، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 20014م، ص36.

7. ياسين بودريعة، مرجع سابق، ص61.

2. المدرسة المحمدية بمعسكر:

كانت المدرسة المحمدية في طليعة المدارس العلمية في بايلك الغرب، وهي تنتسب في تسميتها إلى مؤسسها الباي محمد بن عثمان الكبير، الذي بناها إلى جانب الجامع الأعظم سنة 1195هـ/1780م¹، والتي كان لها صدى واسع في العالمين العربي والإسلامي²، كما كانت من أكبر المدارس التي تضم أساتذة أكفاء متفرغين لمهنة التعليم لا غير³، إلى جانب الآلاف من الطلبة والتلاميذ الذين سارعوا إلى الإقبال على العلم بلهف شديد⁴، وهي التي أشار إليها أبو راس بقوله "المدرسة المحمدية في أم عسكر نسبة إلى بانيها ابي الفتوحات المنصور بالله سيدي محمد بن عثمان فاتح وهران مؤلف في سيرة فتحه لها هذا الكتاب"⁵، وأشار إليها المزاري في طلوع سعد السعود بقوله "وبني رحمه الله الجامع الأعظم قليل الوجود بالعين البيضاء من بلد المعسكر وأحاط به المدرسة وتاريخ بنائه بمدرسته مكتوب بجانب محرابه ونسبته لطول العهد"⁶، كما ذكرها ابن زرقة صاحب الرحلة القمرية بقوله "أنها كانت عبارة عن حلم بين الخواص والعوام"⁷، ووصفها ابن سحنون الراشدي في الثغر الجماني بقوله "فجاء كما تراه العين من المباني الرائقة، والآثار الفائقة، مكنتها بالمدرسة التي كاد العلم أن يتفجر من جوانبها، وحبس عليه خزانة كتب"⁸، كما خصها الشاعر الجزائري أحمد بن محمد بن علال القرومي⁹ بقصيدة شعرية إثر

1. الناصري أبو راس، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مصدر سابق، ص 383.

2. الناصري أبو راس، الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية في علم الصيد، مصدر سابق، ص 39.

3. من بينهم أبو راس الناصري، محمد بوجلال، الطاهر بن حواء، محمد المصطفى بن زرقة الدحاوي... وغيرهم.

4. صالح فركوس، الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية ببابلك الغرب، مجلة الثقافة، العدد 71، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1982م، ص 17.

5. الناصري أبو راس، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مصدر سابق، ص 383.

6. المزاري، مصدر سابق، ج1، ص 295.

7. ابن زرقة الدحاوي، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، ضمن كتاب تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني خلال القرن 18م من خلال مخطوطين، تحقيق مختار حساني، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر 2، 2003م، ص 209.

8. ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 136.

9. نسبة إلى مدينة قرومة التي كانت تسمى في الفترة الاستعمارية باليسترو وهي الآن بلدية من بلديات دائرة الأخضرية شرق ولاية البويرة على حدود ولاية المدية، كانت دار علم استوطنها بعض أفراد أسرة المقرّي التلمساني، ويُنسب إليها كثيرٌ من علماء العاصمة في العهد التركي ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 65.

زيارته لمدينة معسكر واعجابه بهذه المؤسسة العلمية وجامعها الأعظم جاء فيها:

وترى المدرس قد علا كرسيه.... يلقي على العلماء حب الجوهر

تحويه مدرسة غدت آثارها..... تحييه بالعلم الشريف الأشعري

تمحي رسوم الجهل من ألواحه.... تمحي شمائله من الزور السري¹

إذن من المؤكد أن هذه المدرسة بنيت في نفس تاريخ بناء جامع عين البيضاء وهذا ما تؤكدته الكتابة الأثرية التذكارية التي عثر عليها في ركام من الأتربة نتج عن سقوط إحدى القباب المجاورة لجامع عين البيضاء، وقام بقراءتها وترجمتها إلى الفرنسية الباحث لوكلارك في مقال له في المجلة الإفريقية، ومما يؤسف له هو أن هذه الوقفية مفقودة الآن، والتي جاء في بداية نصها ما يلي:

- بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد واله

هذا بيان محبسات السلطان ابن السلطان السيد محمد باي ابن

- السيد عثمان باي رحمه الله على الجامع الأعظم الكائن في حومة سيدي

علي بن محمد الذي أنشأه وشيده مع مدرسة الحايطة ودار الوضوء².

بالإضافة إلى هذه الكتابة التذكارية المطولة، توجد كتابتين تذكاريتين منقوشتين في الجامع الذي لا يزال قائما إلى اليوم، واحدة منقوشة على الجص حول المحراب، وأخرى على لوحة رخامية في بيت الصلاة على يمين المدخل الرئيسي تذكran تاريخ البناء بذي القعدة من سنة 1195هـ³.

ومن أهم العلوم التي كانت تدرس في هذه المدرسة لا سيما في المرحلة الأخيرة من العهد العثماني، كتب الفقه، أهمها حواشي شرح الشيخين الزرقاني والخرشي⁴، وهما الحاشيتين اللتين اعتمدهما أبو راس الناصري في تدريسهما

1. ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 65.

2. Leclerc, **Inscriptions arabes de Mascara : Mosquée d'Aïn Beïdha** in *Revue Africaine*, V4, Alger, 1859,1960, p 42.

3. حول هاتين الكتابتين أنظر: رشيد بورويبة، **الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية**، مرجع سابق، ص 195.

4. حولهما أنظر: عبد الباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني، **شرح الزرقاني على مختصر خليل المصري (المتوفى: 1099هـ)**، ضبط وتصحيح عبد السلام محمد أمين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002م، وكذا محمد الخرشني أبو عبد الله، **مختصر سيدي خليل وبهامشه حاشية العدوي**، ط2، المطبعة الأميرية الكبرى، القاهرة، مصر، 1317هـ/ 1900م.

للطلبة، وحاشية الشيخ المكودي، وفي اللغة كتاب القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز ابادي، ومقامات الحريري، وفي الأصول شرح الشيخ المحلي، فضلا عن كتب التصوف والمنطق وعلم الفلك وعلم البيان إلى غير ذلك من العلوم النقلية والعقلية الأخرى¹.

أنفق الباي محمد الكبير عليها وعلى المرافق الملحقة بما المال الكثير، واستجلب لها المياه وأوقف لها الأوقاف ورسم فيها الخطط، يذكر ابن سحنون ذلك بقوله "وحبس عليه خزانة كتب وجعل شرقيه مقبرة محوزة بالبناء الوثيق يدفن فيها الشهداء ومن مات من قرابته وأولاده، وفي إحدى زواياها قبة عالية رائقة، وفي وسط المقبرة بئر عذب ماؤها، كما حبس عليه الحمام العظيم الرائق بناء وشكلاً الذي بناه قربه، وهو من أعز مبانيه، والدار الملاصقة لميضاة البديعة المحتوية على نحو الست عشرة مطهرة، وأتاه بماء كثير اشتراه من أربابه، واشترى ما كان مملوكا من المواطن التي حفر له فيها، وجعل من هذا الماء سقايات للسبيل، ومنه جعل الحمام المقدم الذكر، واقبه في الميضاة وصحن المسجد، فروى به أهل تلك الناحية بعد الظم الملائم والتعب.... واشترى له حدائق ودورا، وحوانيت حبسها عليه، وبنى له فرنا وغير ذلك بحيث تكفي غلات أحباسه جميع وظائفه ولوازمه، وتفضل منها فضلة تدخر له"².

كما اصطفى الباي لها مدرسين أكفاء أمثال محمد بن عبد الله الجليلي الذي ولاه إدارة المدرسة ومحمد المصطفى بن زرفة وعبد الله الدحاوي والطاهر بن حواء وعبد القادر المشرفي وابن سحنون الراشدي وغيرهم كثير، من الذين كانوا وراء تكوين العديد من الطلبة ورجالات العلم في مختلف مجالات الحياة، وخدموا البلاد والعباد على مر الزمن، كما أضحت معسكر عاصمة علمية كبيرة تنافس المدن الأخرى في القطر الجزائري كمدينة الجزائر وقسنطينة³.

كما يذكر صاحب الثغر الجماني أن الباي محمد بن عثمان الكبير لما عزم على غزو وهران وتحريرها من قبضة الإسبان فكّر في إحياء الرباط، ووقع اختياره على مدير المدرسة المحمدية محمد بن عبد الله الجليلي حفيد الولي

1. الناصري أبو راس، الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية في علم الصيد، مصدر سابق، ص 41.

2. ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 136.

3. سعدية رقاد، المؤسسات العلمية في بايلك الغرب خلال العهد العثماني 1700-1830م، أطروحة التخرج لنيل درجة الدكتوراه في الطور الثالث، تخصص العلم ومؤسساته في بلاد المغرب في العصور الوسطى والحديثة، قسم التاريخ والآثار، جامعة وهران 01، الجزائر، 2018-2019م، ص 133.

الصالح محمد بوجلال الموجود ضريحه بالركابة وسط مدينة معسكر فعينه رئيسا للرباط، كما يذكر أنه استعان ب 500 طالب من المدرسة المحمدية لتحرير مدينة وهران وطرده الإسبائين¹. ومع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر اتخذ مسجد عين البيضاء ومدرسته المحمدية مكانا لإعلان انطلاق المقاومة في الغرب الجزائري بقيادة الأمير عبد القادر، الذي اختاره مكاناً لإشهار المبايعة الثانية والتي تعرف بالمبايعة العامة، حين بايع أهل غريس وقبائل الحشم الأمير عبد القادر أميراً للجهد والمقاومة وذلك في شهر رمضان سنة 1248هـ الموافق ل 4 فبراير سنة 1833م².



الصورة رقم 75: موقع المدرسة المحمدية قبل تدميرها ويظهر مسجد المبايعة والضريح

وبعد احتلال الفرنسيون لمدينة معسكر بعد نقض معاهدة التافنة أواخر 1254هـ / 1839م، كان أول ما قاموا به هو إغلاق المدرسة وتحويل مسجدها الذي أصبح يعرف باسم مسجد المبايعة إلى مخزن للعتاد العسكري ثم مربطاً لخيول الصبايحية³ ومخزناً لعلفهم سنوات طويلة إلى غاية سنة 1337هـ / 1919م.

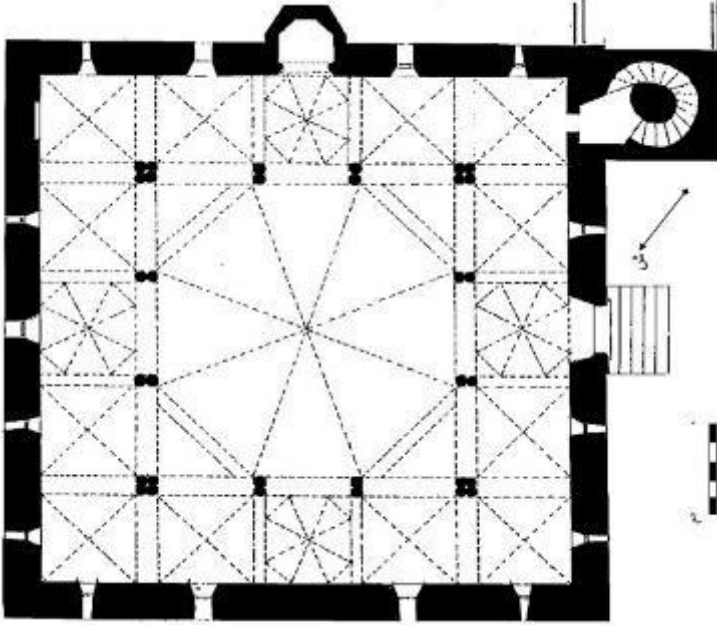
1. ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 65.

2. برونو إيتين، عبد القادر الجزائري، ط3، ترجمة ميشيل خوري، دار عطية للنشر، بيروت، لبنان، 1995م، ص 153.

3. الصبايحية كلمة صبايحي sipâhi أصلها تركي وتعني الجندي وهي مأخوذة من اللفظ الفارسي سپاهي وانتقلت إلى اللغة الفرنسية Spahi وظيفتهم المعلنة هي الوساطة بين فرنسا والأهالي وشكلت بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، ولكن تطورت لتصبح ولاء للمستعمر الفرنسي وذلك بتجنيدهم الشباب من الجزائر والمغرب و تونس للانخراط في الجيش الفرنسي، من أجل خدمة المستعمر الفرنسي ومحاربة أبناء جلدتهم من المسلمين، أنظر: عائشة ناقل، فرق الصبايحية واستغلالها داخل الاستراتيجية الاستعمارية في الجزائر 1830-1845م، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد 01، المجلد 12، مجلة دولية محكمة تصدرها جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، 2019م، ص 149.

حين أعيد فتحه للمسلمين¹، وتم تصنيفه في نفس الوقت كمعلم تاريخي محمي²، في حين أن المدرسة ظلّت مغلقة إلى أن حُوّلت إلى مسكن لأئمة الجامع، ثم هدمت نهائيا.

والمسجد لا يزال في حالة جيدة رغم بعض التجديدات التي مست اجزاء من بيت الصلاة، ويؤدي وظيفته الدينية



إلى اليوم، يأخذ الشكل المربع طول كل ضلع فيه 16م، يتوسطه فضاء مربع كبير تعلوه قبة مضلعة ويحيط به رواق في كل جانب من جوانبه الأربعة، وفي كل رواق أربعة أعمدة أسطوانية مزدوجة، مجموعها 16 عمودا، تحمل عقود مكسرة، كما ترتفع في منتصف كل رواق من الأروقة قبة صغيرة مضلعة، ليلعب عددها إجمالا مع القبة المركزية خمسة قباب.

المخطط رقم 20: مخطط مسجد البيعة (مسجد مدرسة المحمدية)

عن بن بلة خيرة

أما صحن المسجد فيقع في الناحية الجنوبية الغربية وهو مستطيل الشكل، يتم الدخول إلى بيت الصلاة من باب رئيسي مزين بعقد مفصص، أما محرابه فهو خماسي الأضلاع نُقشت جدرانته بزخارف جصية، يكتنفه عمودان اسطوانيا الشكل يحملان عقدا حدويا، كما زخرف إطار المحراب وحوافه بزخارف نباتية جصية ملونة، أما المئذنة فتقع في الجهة الجنوبية الشرقية من بيت الصلاة، طولها 20 مترا تقريبا، وبها ثلاثة أقسام: القسم الأول عبارة

1. خيرة بن بلة، المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص 84.

2. يعتبر هذا المسجد رفقة المسجد الكبير الذي بناه الباي محمد الكبير أول معلمين يصنفان كمعلم أثرية وطنية في مدينة معسكر في جويلية 1919م، ثم أعيد تصنيفهما وفق ملف تصنيف خاص بوزارة الثقافة في جانفي 1968م وصدر في الجريدة الرسمية رقم 7 الصادرة في 23 جانفي 1968م، للمزيد حول الوضعية العامة للمعلم أنظر: سجل الجرد العام للمواقع والمعالم الأثرية المصنفة في الجزائر، الديوان الوطني لتسيير واستغلال الممتلكات الثقافية المحمية.

عن قاعدة مربعة الشكل خالية من الزخارف، أما القسم الأوسط فهو ثماني الأضلاع خال من الزخارف، به نوافذ صغيرة، أما القسم العلوي فهو مبني بالحجارة يحمل في أعلاه جوسقا ينتهي بقبة صغيرة.

3. مدرسة جامع الكبير بمدينة الجزائر:

بالإضافة إلى ذكر المدرسة القشاشية بمدينة الجزائر كانت هناك مدارس أخرى لها دور كبير في نشر التعليم بالمدينة، ووصفت بأنها ذات مستوى عال مثل مدرسة الأندلسيين ومدرسة شيخ البلد ومدرسة جامع الكبير، وغيرها من المدارس التي كانت في الأصل زوايا تعليمية كبرى حسب تعبير المؤرخ ابو القاسم سعد الله.¹

بالنسبة لمدرسة جامع الكبير والتي كانت تقع على شارع باب الجزيرة مقابل المسجد الكبير المرابطي، ضمن مركب معماري ديني يعرف بالزاوية، والتي تشمل معالمها المدرسة والمسجد وغرف الإيواء والضريح وميضأة وعيون الماء.²

تأسست المدرسة سنة 1039هـ/1629م، على يد المفتي المالكي الشيخ الفقيه أبي عثمان سعيد بن الحاج إبراهيم قدورة، مفتي المالكية بالجزائر في ذلك الوقت، ووكيل أوقاف الجامع الكبير وصاحب مؤلف شرح السلم المرونق³، كانت تتألف من طابقين بها غرف خاصة بالطلبة وأخرى مخصصة للزوار من عامة الناس⁴ يدرس فيها 18 أستاذا و8 قراء، وعدد آخر من العلماء يشغلون وظائف متنوعة⁵، ذكر العديد منهم ابن المفتي حسين بن رجب شاوش في تقييداته، أمثال الشيخ عبد الرحمن بن أحمد المرتضى الذي كان من أشهر علماء مدرسة الجامع الكبير، درس فيها فيما بين 1721، 1733م وكان بارعا في الحديث والنحو والبلاغة والحساب⁶، وكذلك محمد بن طالب الذي أتاحت له فرصة الحج ليجمع علومه الجليلة من علماء المشرق العربي، وتردد على

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص 282.

2. خيرة بن بلة وآخرين، زوايا ومدارس الجزائر دراسة أثرية معمارية وفنية، مرجع سابق، ص 37.

3. صالح بن محمد الفلاني، قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر، تحقيق عامر حسن صيري، دار الشروق للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، 1984م، ص 231.

4. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج5، ص 113.

5. Devoulx Alber, *op.cit*, p 49

6. ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، دراسة وتحقيق فارس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر، 2009م، ص 106.

المدارس في فاس وتونس والقاهرة، ثم العالم الجليل محمد بن يحيى البليدي، والشيخ عبد اللطيف الذي اشتهر بالأحاديث النبوية وبالخصوص الأحاديث التي تدور حول التطبيقات الطبية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم¹، وكانت لهذه المدرسة العليا مكتبة عظيمة تزدهم بأنفس الكتب والمخطوطات، ويدل على كثرة كتبها ما روي عنها، أنه عندما قنبلت السفن المسيحية مدينة الجزائر في القرن 18م، خربت جزءا من أسوار المدينة وأصابت الجامع الكبير، فأمر مفتي الجامع الكبير بنقل الكتب إلى برج مولاي حسن خارج باب جديد أعلى المدينة، وقد خصص لذلك جملين ظلا ينقلان الكتب لمدة ثلاثة أيام²، وقد تحولت المدرسة سنة 1248هـ/ 1833م إلى حمام فرنسي، ثم هدم جزء منها لتوسيع الطريق وأخذ الباقي من البناية بعد ذلك رقم 20 من شارع لامارين³.

4. مدرسة الأندلسيين بمدينة الجزائر:

تأسست مدرسة الأندلس وتسمى كذلك زاوية أهل الأندلس، وزاوية الأندلسيين في محرم من عام 1033هـ/1624م، على يد جماعة من الأندلسيين الذين قدموا إلى مدينة الجزائر مع سقوط آخر معاقل الإسلام المحاصر بأقصى جنوب غرب أوروبا-غرناطة بني الأحمر(897هـ/1492م) حيث اجتمع نفر من ستة أشخاص من أهل الصناعات والحرف المختلفة وقاموا بتأسيس الجمعية الأندلسية⁴ والتي قامت بشراء دارا كبيرة من مالها الخاص مع اعانة بعض الأندلسيين الآخرين بقصد هدمها وبناء زاوية ومدرسة تعليمية تقدم الدروس العلمية للكبار وتعليم القرآن العظيم والمبادئ للصغار، مع إضافة مسجد فيها لأداء الصلوات وما يلزم لذلك، وحسبوا كل ذلك لجماعة الأندلس النازحين، وأوقفوا عليها أوقاف كثيرة بلغت حسب بعض الإحصائيات 60 مؤسسة وقفية⁵ وعينوا واحدا منهم وضعوا فيه أمانتهم وثقتهم واسمه محمد الأبلي وفوضوا له العناية بهذا الوقف في جميع شؤونه وما يتعلق به من دخل وخراج وقبض التبرعات واسعاف المعوزين من الأندلسيين⁶.

1. عبد القادر حليمي، مرجع سابق، ص 273.

2. ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، مصدر سابق، ص 99.

3. Devoulx Alber, *op.cit.* p 50

4. Devoulx Alber, **Not historique sur les mosquées et autre édifice religieux d'Alger**, in revue africaine, V5, Alger, 1861, p 279

5. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص 240.

6. عبد القادر نور الدين، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، دار الحضارة، الجزائر، 2006م، ص 170.

وقد كان موقع هذه المدرسة حسب ما جاء في عقد شراء الدار¹ بحومة مسيد الدالية، مجاورة لدار القايد محمود، ويذكر بعضهم أنها كانت بسوق السمن في الجهة السفلى من نهج باب جديد²، وأن الأندلسيين حملوا إليها ما وصلوا إليه من علوم دينية ودينية، ومن كتب قيمة من التراث الأندلسي، كما نقلوا إليها طريقتهم الخاصة في ميدان تلقين السكان طرق وأساليب علمية أندلسية من تصانيف مختلف العلوم العقلية والنقلية، حيث ركز الأندلسيون على إعادة تجديد مناهج التدريس وأدخلوا عليها أموراً جديدة، كما طوروا أسلوب تلقي المعلومات والتي تجاوزت الطريقة المغربية التقليدية التي كانت تعتمد على حفظ القرآن واستظهار الحديث النبوي إلى طريقة البحث والتفكير والاعتماد على أسلوب المحاوراة والمناقشة³.

ظلت المدرسة منذ إنشائها مقصداً للعلماء والطلاب، وأشرف عليها الكثير من النظار والفقهاء الأندلسيين أمثال محمد بن محمد الآبلي ومحمد العنجدون، ومحمد السميع ومحمد بن بكير وغيرهم⁴، وبعد الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر بقيت تؤدي مهامها إلى غاية سنة 1843 أين تم تعطيلها من قبل سلطات الاحتلال والاستلاء على جميع أوقافها⁵.

5. مدرسة شيخ البلاد بمدينة الجزائر:

كانت في الأساس زاوية تعليمية عرفت باسم زاوية الشبارلية وزاوية كتشاوة نسبة إلى الحي الذي كانت فيه، ولكنها اشتهرت باسم مدرسة شيخ البلاد نسبة لمؤسسها شيخ البلدية الحاج محمد خوجة المكتابجي، الذي أسسها في أواسط شعبان من سنة 1201هـ/1786م حسب ما ورد في عقد التأسيس، كما كانت أرض المدرسة عبارة عن وقف أوقفها صاحبها محمد خوجة لبناء مؤسسة تعليمية (مدرسة عليا)، وكان لها مسجد

1. حول عقد شراء الدر أنظر:

Devoulx Alber, *Les Edifices Religieux de l'Ancien Alger*, op.cit. p 278.

كذلك: ياسين بودريعة، مرجع سابق، ص 63.

2. عبد القادر حليمي، مرجع سابق، ص 272.

3. حنفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2010م، ص 83.

4. ناصر الدين سعيدوني، صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر، المجلة العربية للثقافة، العدد 27، عدد خاص بالتاريخ العربي في الأندلس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1994م، ص 236.

5. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص 240.

للصلوات الخمس، وغرف لمبيت الطلبة، كما كان يشرف عليها وكيل مؤسسة سبل الخيرات* وقد نصت الوقفية على تخصيص مبالغ من المال لأساتذة المدرسة والطلبة المقيمين فيها¹.

وقد وضع السيد محمد خوجة شروطا لتعيين المستخدمين في المدرسة، وطريقة عملهم، وأجورهم، إذ أنّ المسجد ينبغي أن يكون فيه إمام يقوم بالأذان والصلوات الخمس، ويجب أن يكون حنفي المذهب وهناك الحزّابين وهم خمسة طلبة يقرؤون القرآن ظهرا وعصرا، وقارئ كتاب تنبيه الأنام في الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام كل يوم قبل الغروب وموظف لإصلاح وتنظيف المسجد والمدرسة والميضاة².

وبالنسبة للمدرسة فلم يشترط على المدرس أن يكون حنفي المذهب على الرغم من وجود هذا الشرط في وقفية التأسيس إلا أنه استدرك الأمر في وثيقة أخرى، وجاء فيها أنّ ما أشير إليه من اشتراط المدرس أن يكون حنفي المذهب، وأنّ ذلك غلط من الكاتب وإنما النص في الإمام فقط لا يكون إلا حنفيا، أما المدرس فمن أي مذهب كان حنفيا أو غيره، وإنما من كان فيه الأهلية للتدريس سواء كان حنفيا أو مالكيا أو غيره³.

*. تعتبر مؤسسة سبل الخيرات إحدى المؤسسات الوقفية الهامة بمدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية قام بتأسيسها السيد شعبان خوجة عام 999هـ/1584م، وهي تشرف على ثماني مساجد حنفية وهي الجامع الجديد، وجامع صفر، وجامع دار القاضي، وجامع الشبارلية، وجامع كجاوة، وجامع شعبان خوجة وجامعي القصبة الداخلي والخارجي، وكان المشرف العام على هذه المؤسسة هو المفتي الحنفي، ومقره الجامع الجديد، أنظر: زكية زهرة، الأهمية التاريخية لأوقاف الأحناف بمدينة الجزائر من خلال ثلاثة نماذج من الوثائق، مجلة دراسات إنسانية، دورية تصدرها كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، عدد خاص بأعمال ندوة الجزائر حول الوقف في الجزائر أثناء القرنين 18م و 19م، ماي 2001م، ص 156.

1. ورد في عقد التأسيس على أنّها بنيت في الأصل كمدرسة للتعليم، وقف مؤبد لله تعالى بنيت في حومة كتجاوة في ساحة الفندق.. على أن تبني كمدرسة مشتملة على خمس بيوت يسكنها الطلبة للقراءة واشتغال العلم، وعلى مسجد يقيم فيه الصلوات الخمس الطلبة المذكورون وغيرهم من المسلمين، ويكون المسجد والبيوت بأعلى الفندق المذكور راكبين على بيوت أخرى بأرض الفندق، معدة للكراء لمن أراد السكن بها أو البيع أو الشراء فيها، أنظر: عقد تأسيس المدرسة من طرف السيد محمد خوجة سنة 1201هـ/1786م، ضمن وثائق المحاكم الشرعية المحفوظة بمركز الأرشيف الوطني الجزائري، العلبة رقم 129 رقم الوثيقة 11.

2. نفس الوثيقة.

3. ياسين بودريعة، مرجع سابق، ص 66.

بعد احتلال الجزائر كان مصير المدرسة هو التعطيل ثم الهدم، حيث استولى عليها الجيش الفرنسي كما اغتصب جميع أوقافها، ثم حولت إلى مكاتب بيت المال التابعة لمصلحة أملاك الدولة وفي سنة 1840م هدمت جدرانها وأدخلت البناية فيما سمي بيازار أورليان¹.

6. مدرسة القيطنة بمعسكر:

هي الأخرى من المدارس التعليمية الكبيرة بمعسكر خلال المرحلة الأخيرة من العهد العثماني بالجزائر، فقد تأسست بمنطقة القيطنة بالقرب من بوحنيقية على يد الشيخ مصطفى بن مختار الراشدي جد الأمير عبد القادر بعد عودته من بغداد سنة 1200هـ/1787م²، وكانت هذه المدرسة من المدارس التعليمية الهامة في الجزائر ككل في تلك الفترة، حيث حققت نهضة علمية واعتنت بالعلم وتكوين العلماء وتنوير أفراد المجتمع اعتناء بالغا، فكانت من أعظم المدارس ببايلك الغرب³، حيث جمعت بين كل مراحل التعليم من أدنى مرحلة إلى أعلاها، كما كان بها ست حلقات تعقد لجلسات العلم بمعية عدة أساتذة، وكانت تضم عددا كبيرا من الطلاب يتراوح عددهم ما بين 700 و 1800 طالب علم دائمي الدراسة⁴.

وكان من العلماء الذين درّسوا بها أبو راس الناصري والشيخ عبد القادر المشرفي⁵ والشيخ مصطفى الغريسي التهامي، وهذا ما يدل على علو همتها وذكرها في الآفاق، فيذكرها أبي راس بقوله: "وقد ذهب للقيطنة ذات يوم ووقفت بباب الجامع فإذا هو نواله كبيرة - كوخ - بمحراجها، وعن يمينه بيت الشيخ المشرفي، فرأيت مصطفى بن المختار أحد تلاميذه الشيخ المذكور يدرس في الأول من المختصر - خليل - ثم رجعت في ساعة فرأيت الشيخ يدرس الثاني ولم يبال في أحد من الطلبة كأنني نسيا منسيا"⁶، فهذا مما لا جدال فيه أن مدرسة القيطنة كانت مدرسة معترف بها من قبل علماء الوطن أولا ثم من علماء الأمصار ثانيا، خاصة في عهد محي الدين وابنه الأمير

1. Aumerat A, *la Propriété urbaine A Alger*, in revue africaine, V42, Alger 1898, p 190.

2. أبي راس الناصري، الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية في علم الصيد، مصدر سابق، ص 42.

3. ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي البوعبدلي، مرجع سابق، ص 227.

4. أبي راس الناصري، الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية في علم الصيد، مصدر سابق، ص 42.

5. أبي راس الناصري، إسماع الأصم وشفاء السقم في الأمثال والحكم، دراسة وتحقيق حمدادو بن عمر وفايزة بوسلاح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2018م، ص 20.

6. أبي راس الناصري، فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته، مصدر سابق، ص 24.

عبد القادر¹، والتي عرفت في عهدهم العديد من الإصلاحات والترميمات واستحدثت فيها بعض البنايات، وممن تعرضوا لوصف المدرسة مع بداية الاحتلال الفرنسي الرحالة الألماني موريتيس فاغنر² خلال زيارته للأمير عبد القادر بمعسكر سنة 1838م، حيث قال عنها "أنها تتكون من أربعة بيوت بأرضية بيضاء، يسكن بيتا منها شيخ القيطنة الحالي، وفيه مكتبه وغرفة استقبال، ويقام في البيت المجاور نساؤه الثلاث، ويسكن تلاميذته بناية مستطيلة تحتوي على غرفة واحدة تفصلها الحديقة عن مسكن المرابط، أما البيت الرابع فهو عبارة عن مصلى أو جامع يتجمع فيه الضيوف والتلاميذ لأداء الصلاة"، ويضيف قائلاً ويتردد على القيطنة يومياً الزوار إما لأداء الصلاة أو لاستشارة الولي والتزود ببركاته"³.

أما عن أهم العلوم التي كانت تدرس في هذه المدرسة ففي غالبيتها علوم شرعية وعقائدية، وبعض من المجالات الأدبية والفلسفية، وبما أن مؤسس هذه المدرسة من المتصوفة فإن الطابع الغالب عليها هو المجال العقائدي أكثر من العلوم الدينية الأخرى، من بين هذه العلوم على سبيل المثال كتب التوحيد للشيخ السنوسي وكتب الحكم العطائية، أما الفقه كتب مختصر الشيخ خليل وحواشي الشيخ الدسوقي والشيخ الدردير، وفي الحديث كتاب صحيح البخاري وكتب الأئمة الستة المعتمدة⁴.

1. عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2014م، ص 291.

2. زار عالم الطبيعيات الألماني موريتيس فاغنر **Moritz Wagner** الجزائر لمدة قصيرة سنة 1835، ثم عاد إليها مرة أخرى في أكتوبر 1835 كمراقب وجامع لعناصر الطبيعة، محملاً بتوصيات من باريس. وألف فاغنر كتاباً عن الجزائر سماه رحلات في ولاية الجزائر في سنوات 1831م، 1837، 1838م، ويتكون من ثلاثة أجزاء وصف في الجزء الأول منه مدينة الجزائر والمدن الأخرى التي زارها، وفي الجزء الثاني تحدّث عن تاريخ الاحتلال والمعارك التي حضرها، وخصّص الجزء الثالث للحديث عن المجموعة الحيوانية الجزائرية، أنظر: أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، 1830-1855م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م، ص 29.

3. أبو العيد دودو، مرجع سابق، ص 55.

4. أبي راس الناصري، الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية في علم الصيد، مصدر سابق، ص 42.

ساهمت مدرسة القيطنة في انتشار العلم في منطقة غريس، وتخرج منها علماء أجلاء¹ كانت لهم هجرات إلى فاس وتونس ودمشق والحجاز وغيرها، أمثال الشيخ محمد بن الخضر المهاجي، والشيخ عبد الله المشرفي، والشيخ عبد القادر بن محمد الهزيل وغيرهم، واستمر دورها حتى السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي للجزائر حيث أشرف على إدارتها الأخ الأكبر للأمير عبد القادر الشيخ محمد السعيد، فكان يعقد بها عدة حلقات العلم والتدريس، يشرف عليها كبار علماء المنطقة آنذاك وهم السيد المرتضى ومحمد السعيد وأحمد بن محي الدين في علم الكلام، وهو أصغر إخوة الأمير وصاحب "نخبة ما تُسر به النواظر وأبحج ما يُسطر في الدفاتر في بيان تولية الأمير عبد القادر ومحمد بن عبد الله الخالدي في الفقه، ومصطفى بن التهامي ابن عم الأمير عبد القادر وصبه والطيب بن المختار في علم الميزان².

وفي سنة 1841م كانت مدينة معسكر مسرحاً لإغارة السفاحين بيجو وتامبور، الذين أسقطوا المدينة بصفة نهائية³، وبذلك انتهت السيادة لمعسكر وشرد أهلها وخرب عمرانها، ودنست مساجدها وطمست المدرسة بإضرار النار فيها⁴.

1. بلهاشمي بن بكار، مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، الجزائر، 1381هـ / 1961م، ص 35.

2. Marcel Emerit, *L'Etat intellectuel et moral de l'Algérie en 1830*, in *Revue d'histoire moderne et contemporaine*, T1, 3eme trimestre, 1954, p 204.

3- Destre. H : *Les conquérants de l'Algérie (1830- 1857)*, éditions Berger levrault, Paris, 1930, p103.

4. مهيرس مبروك، مرجع سابق، ص 27.

الفصل الرابع:

مدارس التعليم في تونس خلال العهد العثماني

أولاً. تونس في العهد العثماني

ثانياً. التعليم في تونس خلال العهد العثماني

ثالثاً. أهم مدارس التعليم في تونس خلال العهد العثماني

1. المدرسة المرادية بقابس

2. مدرسة النخلة بتونس العاصمة

3. مدرسة جامع الحديد بتونس

4. المدرسة السليمانية، بتونس العاصمة

رابعاً. أهم المدارس العثمانية المندثرة بتونس

1. مدرسة القائد مراد

2. مدرسة الزاوية الباهية

أولاً. تونس في العهد العثماني (982، 1298هـ / 1574، 1881م):

تضررت تونس من الحروب العثمانية الإسبانية التي دارت ما بين 940، 981هـ / 1534، 1574م وخاصة حرب 1574م، مما حول الكثير من المدن والمباني إلى خراب وانتهى هذا التنافس التركي الإسباني بسقوط وزوال الدولة الحفصية واستيلاء العثمانيين على تونس بقيادة سنان باشا يوم 25 جمادى الأولى 981هـ، 1574م¹، حيث شهدت البلاد خلال هذه الفترة عدة أزمات لما أبيضت المدينة للنهب والسلب لمدة أيام².

كان توجه الدولة العثمانية في شمال إفريقيا يهدف إلى إتمام سلسلة الفتوحات العثمانية في المشرق وإحكام الحلقة في البحر الأبيض المتوسط بالإضافة إلى مطاردة فرسان القديس يوحنا المسيطرين على طرابلس الغرب³.

تشجع الإسبان لإعداد حملة صليبية في الشمال الإفريقي مستغلين التفكك والتناحر بين قوى الأمراء المحليين وكذا عجز الحفصيين بتونس عن مواجهة سفن إسبانيا والدول الإيطالية⁴، ففي سنة 915هـ / 1510م استولى الكونت دي نافارو على بجاية وطرابلس وهاجم جزيرة جربة حتى أن عبد الله محمد الخامس لم يقدم على أي عمل لاستعادة المدن المفقودة عكس السكان الذين قاموا بمقاومة ضدهم⁵.

استنجد بعض الأعيان ورجال الدولة بالقبطان العثماني **علج علي** وطالبوا بمجيئه لتونس لإنقاذهم مما هم فيه ولظلم سلطانهم وتعامله مع الإسبان النصارى⁶، وهناك بدأ عروج اتصالاته بالقوى الإسلامية بشمال إفريقيا

1. حسن حسيني عبد الوهاب، ورفقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، مكتبة المنار، تونس، 1964م، ص 110

2. شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ج 2، ص 349.

3. فرسان القديس يوحنا، هي منظمة نشأت في بيت المقدس مطلع الحروب الصليبية كانت في بدايتها منظمة خيرية ثم تحولت إلى تنظيم عسكري بغرض الدفاع عن بيت المقدس فاقطعت لنفسها بعض الأراضي وأقامت عليها تكناتها وتنظيماتها العسكرية أنظر: محمود علي عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث، الجمعية التعاونية للطباعة، دمشق، سوريا، (د.ط)، ص 153.

4. عاطف عيد، قصة وتاريخ الحضارات العربية بين الأمس واليوم، تونس والجزائر، مؤسسة علي وشركائه، بيروت لبنان، (د.ط)، 1998 م، ص 35.

5. محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة العثمانية إلى الانقلاب على الخلافة، ط 3، دار النفائس، بيروت، لبنان، 2012، ص 221.

6. محمد يوسف، أمير أمراء الجزائر **علج علي** باشا، دار الأمل للطباعة والنشر، تيزي وزو، الجزائر، (د، ط)، 2009م، ص 117.

واتفق مع السلطان الحفصي محمد بن الحسن على جزيرة جربة التي حصل عليها منه، وبعد استلائه على جيجل جعلها قاعدته بدلا من جربة بسبب خلافه مع السلطان الحفصي¹.

خلف عروج خير الدين بربروس الذي كانت تسيره عاطفة دينية قوية، فدخل في خدمة السلطان العثماني الذي منحه لقب أمير الأمراء وأمدّه بـ 2000 من الجنود والمدفعية القوية و4000 من المتطوعة والإنكشارية².

هاجم خير الدين سواحل تونس وصدّها واستولى عليها بسهولة بينما فر السلطان الحفصي الحسن بن محمد إلى إسبانيا وأعلن ضم تونس في عام 1534م وثرعها حلق الوادي إلى أملاك الدولة العثمانية وعين عليها الرشيد الحفصي شقيق محمد بن الحسن ممثلا للسلطان العثماني³.

واثر سقوط تونس تحالف الإمبراطور شارلكان⁴ مع رهبان القديس يوحنا وقادوا حملة بحرية كبيرة تكونت من 30 ألف مقاتل إسباني وهولندي وألماني ونابولي وصقلي على رأس 500 سفينة التي رست أمام تونس، وهناك قامت معارك عنيفة بين الطرفين انتهت بإعادة السيطرة الإسبانية على تونس في 20 جويلية 1535م⁵، فعادت تونس للحكم الحفصي للمرة الثانية بتنصيب شارلكان على عرشها المولى حسن بعد توقيعه على معاهدة مع الإسبان يتنازل بموجبها حسن الحفصي عن حلق الوادي وبنزرت وعنابة وضريبة سنوية وغرامة حربية والسماح للنصارى بالإقامة في تونس⁶.

1. حول هذه الأحداث أنظر: مارمول كربخال، مرجع سابق، ص 103.

2. حسين مؤنس، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، لجنة الجامعيين لنشر العلم، القاهرة، مصر، 1935م، ص 297.

3. مارمول كربخال، مرجع سابق، ص 129.

4. شارلكان من أعظم الملوك في تاريخ إسبانيا حكم من سنة 1516 إلى 1556م، هزم القوات الفرنسية وأعلن الحرب على البروتستانتية، في عهده اتسعت رقعة الإمبراطورية في أوروبا تحلى عن العرش في عام 1556م، واعتزل في أحد الأديرة الإسبانية أنظر: منير البعلبكي، معجم أعلام المورد، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1952م، ص 25.

5. علي محمد محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ط1، دار التوزيع والنشر الإسلامية، بورسعيد، مصر، 2001م، ص 220.

6. محمود شاكر، التاريخ الإسلامي العهد العثماني، ط4، ج8، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م، ص 515.

1. تحرير تونس نهائيا (981هـ / 1574م):

حاول الإسبان في سنة 968هـ/1560م احتلال جربة فاصطدموا مع الأسطول العثماني الذي تمكن من دحرهم، ووقع الكونت سيكالا أسيرا فأسلم وحسن إسلامه وعرف باسم **سنان باشا** الذي أصبح له الدور في قيادة الأسطول العثماني¹، ويقول في ذلك ابن أبي دينار "ولما تمت أخبار تونس وما حل بها إلى السلطان العثماني سليم، من إقامة شعائر الكفر كانت وجهته إلى نزع الديار التونسية من أيدي الكفرة وتعويضهم بأناس بررة.... وقد انتدب لهذا الأمر **سنان باشا** و**علج علي باشا**"².

إذن أصدر السلطان سليم الثاني (1566-1574م) أوامره إلى وزيره **سنان باشا** والقبطان **علي علج** بالتوجه إلى تونس لفتحها نهائيا وإعادة نفوذ الدولة العثمانية إليها، كما صدرت نفس الأوامر والتوجيهات لبقية الأقاليم بتحضير الجنود والذخيرة والمؤن محملة على 320 سفينة من مختلف الأحجام³.

أبحر الأسطول العثماني بقيادة **سنان باشا** و**علج علي** في 23 محرم 982هـ / 14 ماي 1574م واستولى على إثرها على مدينة قرطاجنة وتقدم نحو مدينة تونس، وبدأ الحصار على حلق الوادي بالقرب من مدينة تونس، وبعد سقوط حلق الوادي جاء دور الباستيون، وفي 28 أوت من نفس السنة تمكن **علج علي** و**سنان باشا** من السيطرة التامة على قلعة الباستيون وإسقاطها وبذلك كان سقوط تونس وخسارة الإسبان لشمال إفريقيا بصفة نهائية⁴.

2. عهد الباشاوات (982-998هـ/1574-1590م)

بعد استرجاع تونس للحكم العثماني عام 1574م على يد **علج علي** و**سنان باشا** تأسست الإيالة التونسية على غرار النمط الجزائري، وقضى بذلك على ما بقي من الدولة الحفصية التي دامت لأكثر من 3 قرون بعد نفي السلطان محمد الحفصي وعائلته إلى إيطاليا، وأضحت تونس ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية، وكانت إلى

1. جميل بيضون وآخرين، تاريخ العرب الحديث، ط1، دار الأمل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن 1992م، ص 49.

2. ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 210.

3. نيقولايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م، ترجمة يوسف عطا الله، مراجعة مسعود ضاهر، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1988م، ص 253.

4. حسن حسيني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، ص 131.

حدود سنة 992هـ/ 1584م تابعة لبابلرباي المقيم بالجزائر ومن ثم أصبحت مرتبطة مباشرة بالدولة العثمانية¹، يحكمها الباشا (ضابط كبير) معين من طرف الباب العالي² ويساعده ديوان من الضباط الكبار، إضافة إلى سلطات سياسية ودينية ومدنية أخرى³.

3. عهد الدايات (999-1040هـ/ 1591-1631م)

سنة 999هـ/ 1591م نفذ الدايات وهم ضباط صغار انقلابا عسكريا ضدّ الضباط الكبار وهم الباشا وأعضاء الديوان وافتكوا منهم الحكم، بمساعدة الإنكشارية⁴ وفشل الدايات في فرض حكمهم العسكري الجماعي، وكان عثمان داي هو أول داي ينفرد بالحكم سنة 1006هـ، 1598م إلى غاية 1018هـ، 1610م⁵، حيث نجح في السيطرة على البلاد ونشر الأمن والازدهار، شجّع القرصنة ضد المسيحيين الأوروبيين وجمع منها أموالا طائلة، وشجّع توافد الأندلسيين إلى أفريقية وأكرمهم⁶.

بعد وفاة هذا الداى خلفه صهره يوسف داي الذي اشتهر بالعدل لدى التونسيين وبمركته الكبيرة غي مجال العمران⁷، ولعل أبرز معالمه الباقية جامع يوسف داي الكبير الذي يعتبر أول مسجد بني في تونس على النمط

1. أحمد زكرياء الشلق، العرب والدولة العثمانية من الخوض إلى المواجهة، 1516-1916م، ط1، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2002، ص 133.

2. الباب العالي هو مقر رئيس الوزراء أو مقر الحكم في الدولة العثمانية أنشأه السلطان محمد الرابع في عام 1654م، ويحمل معاني البوابة العالية أو البوابة الشامخة، ويُشير إلى دار الصدر الأعظم أنظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة عبد الرزاق محمد حسن بركات، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000م، ص 49.

3. عثمان الكعك، العلاقات بين تونس وإيران عبر التاريخ، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1972م، ص 58.

4. الإنكشاري وتنطق بني جري yeniceri والينشرية وتعني الجنود الجدد أو القوات الجديدة، وهم الجيوش غير النظامية من المتطوعين الذين قدموا خدمات جليلة للدولة العثمانية خلال القرنين 17 و18م، ثم فسد نظامها وأصبحت مشكلة كبيرة للدولة بعد أن تمردت على الحكم، فأبادهم السلطان محمود الثاني في مذبحه جرت في إسطنبول سنة 1826م أنظر: سهيل صابان، مرجع سابق، ص 41.

5. محمد الهادي شريف، مرجع سابق، ص 71.

6. حسن حسيني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، مرجع سابق، ص 134.

7. عدد ابن أبي دينار في كتابه المؤنس - الذي يعتبر من أهم المصادر التاريخية التي تتناول فترة الدايات والبايات المراديين - الكثير من الأعمال الجليلة التي قام بها يوسف داي خلال فترة حكمه أنظر: ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 228.

العثماني والحق به المدرسة اليوسفية سنة 1020هـ، 1612م والتي سبق التطرق إليها في الفصل الثاني من هذا البحث، وبني مئذنة جامع الزيتونة¹، كما عرف عهده حرب الحدود مع ايلالة الجزائر انهزم فيها في معركة سطارة قرب مدينة الكاف بتاريخ 17ماي 1628م².

وفي أيامه كذاك علا شأن الأسطول التونسي فقويت شوكة رؤساء البحر، على رأسهم اسطا مراد الذي كلفه يوسف داي بجمع الضرائب وفرض الهدوء والأمن بين الناس، وجمع أموالا طائلة ووطد علاقته بالأهالي كما وظّف منصبه وأمواله وذكاءه من أجل أن يكسب ثقة الداوي³.

وبعد وفاة يوسف داي بن مصطفى التركي سنة 1046هـ، 1637م استولى اصطا مراد على منصب الداوي الذي لم يعمر فيه طويلا حيث قتل رميا بالسهام سنة 1049هـ، 1640م، وبموته أخذ أمر منصب الداوي في التراجع حتى صار اسما بلا مسمى وأصبح النفوذ والرئاسة كلها بيد البايات⁴، وانتهى بذلك عهد الدايات الأقوياء الذين كانوا يستولون على السلطة عنوة، وبدأ عهد الدايات الضعاف الذين استسلموا إلى التعيين إلى غاية السيطرة عليهم نهائيا من قبل حسين باي مؤسس الأسرة الحسينية سنة 1116هـ، 1705م⁵.

4. عهد البايات (1020-1229هـ / 1612-1814م)

أعقبت فترة حكم الدايات بفترة حكم البايات عندما تمكن أحد البايات وهو مراد باي الأول من تولي الحكم عام 1612م، والتي اعترفت به الدولة العثمانية ومنحته لقب الباشا ونجح في تأسيس أسرة حاكمة تحمل اسمه "المرادية" التي توارثت الحكم من بعده⁶.

1. الباجي المسعودي البكري، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تحقيق وتقديم محمد زينهم عزب، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، 2012م، ص 212.

2. ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 232.

3. حسن حسيني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، مرجع سابق، ص 137.

4. نفسه.

5. توفيق البشروش، جمهورية الدايات في تونس 1591-1675م، شركة أوربيس، تونس، 1992م، ص 64.

6. أحمد زكرياء الشلق، مرجع سابق، ص 133.

أ. بايات الأسرة المرادية (1020-1113هـ / 1612-1702م):

تنسب الأسرة المرادية إلى مؤسسها مراد باي الكورسيكي¹ الذي حكم من 1612 إلى 1631م، وجعل منصبه وراثيا في أسرته² بحيث خلفه ابنه الوحيد حمودة باشا، لذي استطاع إقرار الأمور في تونس بالقضاء على ثورات القبائل العربية وصد هجمات فرسان القديس يوحنا على السواحل التونسية، كما شيد ابرز معالم تونس كدار الباي ومجمع حمودة باشا ومارستان العزافين ومقام الصحابي أبي زمغة البلوي بالقيروان وغيرها³ في سنة 1067هـ / 1657م طلب حمودة باشا من الباب العالي منصب الباشاوية فكان له ذلك، وتخلّى عن منصب الباي لابنه الأكبر مراد الثاني الذي اشتهر بقسوته في تعاملاته، كما اشتهر بمآثره المعمارية كالمدرسة المرادية المعروفة بمدينة تونس وأخرى بقابس والجامع الحنفي بباجة وغيرها⁴، وبعد وفاته سنة 1085هـ / 1675م قام صراع بين أبنائه على منصب الباي⁵.

استغل إبراهيم الشريف قائد الخيّالة بالجيش التركي⁶ هذا الصراع وقام بثورة داخلية فقتل جميع أفراد الأسرة المرادية وأخذ لقب الباي في سنة 1113هـ / 1702م واتبعه برتبة الباي، ثم تعيينه باشا من قبل السلطان العثماني،

1. مراد الأول أو مراد باي الأول هو أول البايات المراديين ومؤسس الدولة المرادية بتونس، تولى الحكم من عام 1021هـ، 1613م إلى وفاته عام 1040هـ، 1631م، وهو أصيل جزيرة كورسيكا، اسمه الحقيقي جاك سانتي أُسر وهو يبلغ من العمر 9 سنوات، وبيع عبداً للباي سليمان بتونس، الذي أسماه مراد ورباه وزوّجه إحدى بناته، ثم منحه لقب الباي، استغنى مراد من القرصنة في البحر الأبيض المتوسط، وعمل على كسب ثقة الدايات والباشا بتونس، كما أرسل هدايا إلى الباب العالي وتحصّل منه على قرار تولى منصب الباشا سنة 1631م، متنازلا بذلك على منصب الباي لابنه حمودة باي، ولكنه توفي أياما بعد ذلك، للمزيد أنظر ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 251، كذلك محمد ابن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، مرجع سابق، ص 50.

2. محمد العربي الزبيري، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985م، ص 50

3. حسن حسيني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، مرجع سابق، ص 140.

4. محمد ابن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، مرجع سابق، ص 55.

5. إسماعيل أحمد ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، 1997م، ص 138.

6. إبراهيم الشريف، تقلد وظيفة الباي بعد أن قضى على مراد الثالث في جوان 1702م، واكتسب لقب الداوي ونال فرمان الباشوية من السلطان العثماني، انتهج سياسة العدا مع حاكم طرابلس التي هاجمها وتراجع عنها بسبب تفشي الوباء بين جنوده، كما دخل في نزاع مع حكام الجزائر لإثبات ملكيته لجزيرة زيرة التي أراد الباب العالي إلحاقها بالجزائر للمزيد أنظر: جوهان

وبذلك جمع السلطات الثالث في شخصه لمدة ثلاث سنوات¹، وقد كانت له حروب مع الجزائريين بقيادة الداوي مصطفى باشا انتهت بهزيمته وأسرته مع شقيقه قرب مدينة الكاف في جوان 1705م²، قام الداوي حسين خوجة بإطلاق سراحه مقابل غرامة مالية كبيرة على أمل أن يسترجع عرش تونس ويعترف بسيادة الداوي، لكن بنزوله الأراضي التونسية تلقاه جند الآغا حسين بن علي بن تركي الذي كان قد فر من المعركة وقضى عليه عندما نزل بمنطقة غار الملح³.

وعدد البايات المراديين حسب ما ورد في جل المصادر التاريخية التونسية تسعة على الترتيب التالي:

- مراد الأول (1628 – 1631) مؤسس الأسرة
- محمد الأول المعروف باسم حمودة باشا (1631 – 1662م)، وفي عهده شهدت الدولة أوجها وأصبحت مستقلة عمليا عن العثمانيين
- مراد الثاني (1662 – 1675م)
- محمد الثاني (1675 – 1675م)
- علي الأول (1675 – 1675م)
- محمد الثالث (1675 – 1675م)
- شهدت تونس نزاع وصراع علي العرش في الفترة (1675 – 1686)
- محمد الثاني (1675 – 1676م) للمرة الثاني
- علي الأول (1675 – 1688م)
- محمد الثاني (1688 – 1695م) للمرة الثالثة
- رمضان باي المرادي (1695 – 1698م)
- مراد الثالث (1698 – 1702م)

ارنست هابنسترايت، رحلة هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1145هـ - 1732م، ترجمة وتحقيق وتقديم ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، (د.ت)، ص 116.

1. محمد حسن العيدروس، تاريخ العرب الحديث، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، 2001م، ص 182.

2. جوهان ارنست هابنسترايت، مصدر سابق، ص 116.

3. مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة، الجزائر، 1964م، ص 200.

سنة 1113هـ، 1702م انتهى حكم الدولة المرادية في تونس بعد اغتيال مراد الثالث على يد قائد الحيّالة بالجيش التركي إبراهيم الشريف¹.

ب. بايات الأسرة الحسينية (1117-1377هـ / 1705-1957م):

بعد أن قتل إبراهيم الشريف أعلن آغا الصبايحية حسين بن علي بن تركي² نفسه بايا على تونس عام 1705م، بموافقة الأهالي والأعيان³، فقام ببسط نفوذه على البلاد في 20 ربيع الأول 1117هـ / 1705م وعمل على تأسيس أسرة وراثية حكمت تونس مدة 252 سنة، عرفت بالأسرة الحسينية⁴.

عرف حسين بن علي بن تركي، بحزمه وحسن سلوكه فقد تمكن من إبعاد الجزائريين عن مدينة تونس مقابل ضريبة ثقيلة أثقلت كاهلهم قدرت ب 150 ألف ريال، وقام أيضا بإقرار الأمن ومما زاد في سلطته حصوله على فرمان التولية من السلطان العثماني برتبة أمير الأمراء وتثبيتته في منصب الباي⁵.

أصبحت تونس تخضع لحكم الأسرة الحسينية، وهذا الإقليم يمثل ولاية عثمانية تمكن خلالها حكامها العسكريين من الاستقلال الداخلي، ومن إنشاء سلطة مستقلة داخل الإقليم مع الاحتفاظ بروابط ضعيفة مع الدولة العثمانية⁶ خاصة في الجوانب الآتية:

1. حول أخبار بايات الأسرة المرادية طالع ابن أبي دينار، مصدر سابق، الصفحات من 225 إلى 279.

2. هو مؤسس الدولة الحسينية وأول من تلقب بباي تونس، قدم مع والده علي تركي من جزيرة كريت اليونانية بعد ضمّها إلى الدولة العثمانية سنة 1669م وتطوّع في الجيش الانكشاري في العهد المرادي، وقد عمل في منطقة الكاف ثم دعي إلى العاصمة ليكون في خدمة السلطة المركزية وتدرّج في مختلف الوظائف الإدارية والسياسية والعسكرية منذ سنّ مبكرة، وقد وصل في مسيرته السياسية إلى أعلى المراتب في الدولة للمزيد حول هذا الباي وغيرهم من بايات الأسرة الحسينية أنظر: ابن عبد العزيز حمودة، الكتاب الباشي، مصدر سابق، وكذا أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان في أخبار ملوك تونس وعهد الأمان، مصدر سابق، وكذا الصغير بن يوسف، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، مصدر سابق، ج 1.

3. محمود علي عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث الجزائر وتونس، منشورات جامعة دمشق، سوريا، 1994م، ص 181.

4. مفيد الزبيدي، موسوعة التاريخ العربي المعاصر والحديث، ط1، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2004م، ص 227.

5. جوهان ارنست هابنسترايت، مصدر سابق، ص 101.

6. جلال يحيى، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 1999م، ص 254.

✓ . ففي الجانب السياسي:

- تمكن حسين باي من القضاء على التمرد الداخلي وبسط سيطرته على أقاليم البلاد وبناء قوة عسكرية حديثة وإقامة علاقات ومعاهدات حسنة مع الدول الأوروبية¹.
- تميز حكم الأسرة الحسينية ككل بالاستقرار، والحياة السياسية كانت أقل اضطراباً فقد تعاقب عليها بايات شعروا بمسؤولياتهم وواجباتهم².

✓ أما في الجانب الاقتصادي: فقد:

شجع الزراعة، خفف الضرائب على المزارعين وقام بتأمين الطرق وحماية القوافل التجارية، وسمح بعودة الأيدي الصناعية كسابق عهدها³.

✓ أما في الجانب الثقافي والعمري:

فقد عمل على تشجيع التعليم وبناء المدارس مثل مدرستي النخلة والحسينية الكبرى، وبناء قصر باردو مقراً رسمياً لحكومة الإيالة وكذلك بناء المساجد والمواجل وإحياء معالم القيروان⁴.

أ.1 الصراع في البيت الحسيني:

- النزاع بين حسين بن علي بن تركي وابن أخيه علي باشا (الحرب الباشية الحسينية 1148-1153هـ / 1735-1740م):

بدأ النزاع بين الباي حسين بن علي بن تركي وابن أخيه علي باشا عندما نقض الباي عهده الذي قطعه على ابن أخيه لجعله ولياً للعهد بعد أن رزق بولديه محمد وعلي فخلع علي باشا من ولاية العهد⁵ وبذلك عرفت البلاد اضطرابات داخلية وحرباً أهلية انقسم البلد من خلالها إلى معسكرين⁶.

لم يكن علي راضياً بمنصب الباشا الذي منحه له عمه من السلطان العثماني ونتيجة لذلك تمرد علي عمه الذي كان مدعوماً من قبل الجزائريين حيث دخل إلى تونس في شهر سبتمبر 1735م، وأعلن نفسه باياً بدلاً من

1. مفيد الزيدي، مرجع سابق، ص 81.

2. محمد حسن العيدروس، مرجع سابق، ص 182.

3. محمود علي عامر، مرجع سابق، ص 182.

4. الباجي المسعودي البكري، مصدر سابق، ص 245.

5. الصغير بن يوسف، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، مصدر سابق، ج1، ص 46.

6. لوسيت فالنسي، المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر، ترجمة إلياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، 1980م، ص 43.

عمه الذي فر إلى القيروان، وبعد خمس سنوات من الحرب بينهما انتهت بتفوق علي باشا في عام 1153هـ، 1740م وقتله لعمه وقطع رأسه أما أولاده فقد لجأوا إلى الجزائر¹.

ظل علي باشا (1148-1170هـ / 1735-1756م) يحكم البلاد بصرامة زائدة وبقوة السلاح بعد أن سيطر على الوضع واستتب له الأمر، فكان يبالي في الإنفراد هو وابنيه يونس ومحمد بالسلطة ويصدر الأحكام السريعة، وكانت في كثير من الأحيان سيئة ودموية في الداخل وفي علاقاته الخارجية²، ولكن كان ولوعا بجمع الكتب واكتسابها وله مآثر جليلة منها تربته بالقشاشين ومدارسه الباشية والسليمانية نسبة لولده سليمان ومدرستي بئر الأحجار وحوانيت عاشوراء³.

- استرجاع أبناء حسين بن علي بن تركي للحكم (1170-1197هـ / 1756-1782م):

تمكن محمد باي وعلي باي من دخول مدينة تونس في 30 سبتمبر 1756م مع جند إيالة الجزائر، وقد شهدت سلسلة من أعمال السلب والنهب، انتهت هذه الحرب بقطع رأس علي باشا ودفع ضريبة سنوية للجزائر ومنذ مقتل علي باشا عاد الحكم لأبناء حسين بن علي بن تركي⁴.

أ. 2. بايات الأسرة الحسينية (1148-1377هـ / 1735-1957م):

تعاقب البايات الحسينيون على حكم البلاد فتحقق على يد بعضهم الكثير من الإصلاحات العمرانية والإدارية⁵ وجميع النواحي وأخذت تسير تونس في عهدهم بخطى واسعة في سبيل الرقي والتقدم⁶، وتجلت الصبغة العربية حينما عمل البايات على تحويل المكاتبات بينهم وبين الدولة العثمانية إلى اللغة العربية⁷.

1. حسن حسيني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، مرجع سابق، ص 152.

2. محمد الهادي شريف، مرجع سابق، ص 85.

3. محمد بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ط1، ج2، تعليق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003م، ص 186.

4. حسن حسيني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، مرجع سابق، ص 153.

5. إسماعيل أحمد ياغي، مرجع سابق، ص 139.

6. حسن محمد جوهر، شعوب العالم تونس، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1961م، ص 50.

7. إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكور، العالم الإسلامي الحديث والمعاصر قارة إفريقيا، ج2، دار المريخ للنشر، الرياض، العربية السعودية، 1993م، ص 94.

ومن بين هؤلاء البايات نذكر¹:

- **علي باشا بن محمد بن علي بن التركي (1735-1756م)**: بايعه أهل الحل والعقد بيعة عامة بعد وفاة حسين بن علي، معروف بجرأته على سفك الدماء، كان منتبها لجميع الشؤون وله نوادر وغرائب، كان فاضلا عالما مطلعاً على الأحكام الشرعية والعادية، كانت له غيرة زائدة على رعيته اعتنى كثيرا ببناء المجالس وجعل بكل مدرسة خزانة كتب².

- **محمد بن حسين (1756 - 1758م)**: بايعه الناس بيعة عامة وهو أكبر أنجال حسين بن علي، كان ذا همة عالية وشهامة فأطاعه العصاة من ساعته فاطمأنت البلاد ومحا آثار الفساد.

- **علي بن حسين (1758-1782م)**: بعد وفاة محمد بن حسين جاءت التشاريف العثمانية لثاني النجلين **علي باشا** فلبس خلعة الباشوية، انتظمت الأحوال وأمنت البلاد، كان محبا للعلم والصلاح ولقد أفرده وزيره حمودة بن عبد العزيز بكتاب ضخيم استقصى فيه دولته ومزاياه³.

- **حمودة بن علي بن حسين بن علي (1782-1814م)**: تولى العرش الحسيني في ماي 1782م، استطاع حمودة باشا تكريس كامل جهوده لتدبير شؤون البلاد التونسية التي لازال أهلها إلى يومنا هذا يشيدون بذكره باعتباره أهم ما عرفته بلادهم من ملوك لما كان يتحلى به من تبصر وحسن التدبير وحب العدالة والإنسانية⁴.

- **عثمان بن علي بن حسين بن علي (1814-1815م)**: أقام في الملك 3 أشهر و 12 يوم.

- **محمود بن محمد بن حسين بن علي (1815-1824م)**: سار على سيرة آباءه الكرام، فأمنت البلاد واطمأنت العباد وساسهم بلطف واجتنب الشدة والعنف، وفي العامين الأخيرين أصاب البلاد طاعون مات فيه الآلاف، ثم تعقبته مجاعة⁵.

1. من أهم المصادر التاريخية التي تناولت تاريخ بايات الحسينيين كتاب يعرف اختصارا بالإتحاف، وهو كتاب من تأليف المؤرخ التونسي ابن أبي الضياف الذي عاش في القرن 19م، وقد تناول فيه تاريخ تونس منذ الغزو العربي الإسلامي إلى حدود عصر الكاتب مع التركيز على العهد العثماني بتونس، وخاصة منه فترات حكم البايات الحسينيين، وهو يضم ثمانية أجزاء أنظر: أحمد بن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان في أخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، مصدر سابق، ابتداء من الجزء الثالث.

2. محمد بن قاسم مخلوف، مصدر سابق، ص 188.

3. محمود مقيدش، مصدر سابق، ص 170.

4. أحمد بن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص 11.

5. محمد بن قاسم مخلوف، مصدر سابق، ص 191.

- **حسين بن محمود (1824-1837م):** كان مهتما بالعلم والعلماء بحيث أنه كان يشير على شيوخ المجلس الشرعي، بمراجعة ما شذ من كتب الفقه لديهم، عند حصول خلاف بين العلماء، وفي عهده وقعت أحداث كبيرة خارجيا منها سقوط ايلالة الجزائر في يد الاحتلال الفرنسي سنة 1830م¹.
- **مصطفى بن محمود (1838-1839م):** كانت أيامه أيام سكون وهدوء وأمن وعافية هو أول من لبس النيشان من بني المولى حسين وهو أول من صاغ نيشان الافتخار ونقش عليه اسمه².
- **أحمد بن مصطفى (1839-1855م):** يأتي على رأس البايات الذين تزعموا الحركة الإصلاحية بحيث أنشأ مدرسة حربية ودار لصناعة السفن³ وأنشأ جيشا مدعما بالأسلحة وبنى أسطول تونسي شجع على نشر العلم، وفي عهده وقعت البلاد في أزمة مالية⁴، كما جلب من فرنسا كل ما يلزم من معدات حتى يساعد في تأسيس صناعات مساعدة للجيش⁵، أنفق الكثير من الأموال في مجال الإصلاحات مما أدى إلى التوسع في الاستدانة وإقحام الأجانب في الشؤون الداخلية بحجة القيام بإصلاحات⁶.
- **محمد بن حسين بن محمود (1855-1859م):** استغلته فرنسا للتدخل في شؤون تونس بحجة الحصول على ديونها، فأصدر عهد الأمان لضمان حقوق الرعية وفتح المجال أمام التدخل الأجنبي⁷.
- **محمد الصادق باي (1859-1882م):** خضع كلية للنفوذ الأجنبي وازدادت الامتيازات الفرنسية ونصبت حمايتها على تونس بصورة كبيرة، وكذا المصالح الإيطالية فكلتاها تطمع في الاستيلاء على تونس واستمر في الاعتراف بالسيادة العثمانية⁸.

1. حسن حسيني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، مرجع سابق، ص 163.

2. محمد بن قاسم مخلوف، مصدر سابق، ص 195.

3. مفيد الزيدي، المبسط في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2004م، ص 83.

4. إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر، العالم الإسلامي الحديث والمعاصر قارة إفريقيا، مرجع سابق، ص 94.

5. بوجين روجان، العرب من الفتوحات العثمانية إلى الوقت الحاضر، ط1، ترجمة محمد إبراهيم الجندي، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 2011م، ص 133.

6. عبد المنعم جميعي، موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية، الدولة العثمانية والمغرب العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 2004م، ص 56.

7. مفيد الزيدي، مرجع سابق، ص 82.

8. محمد بن قاسم مخلوف، مصدر سابق، ص 205.

- علي بن حسين (1889-1901م): كان من أفاضل أمراء هذه الدولة مطلعاً على أحوال مملكته محباً للعلم والعلماء، كريم الأخلاق، في عهده أسست المدرسة الخلدونية كما جددت مئذنة جامع الزيتونة¹.
- محمد الهادي بن علي (1901-1904م): كان شهماً هماماً كريم الأخلاق ذكياً ميلاً للعدل ومحبة العلماء.
- محمد ناصر بن محمد بن حسين (1904-1921م): في عهده كانت الدولة العلية في حرب مع إيطاليا في طرابلس وانتهت باحتلالها للإيالة، وكذلك بسطت فرنسا حمايتها على المغرب الأقصى².
- محمد الحبيب بن ناصر (1921-1928م): موصوف بصفات الكمال ونعوت الجلال قام بالأمر على الوجه المطلوب، ومالت لمحبه القلوب توفي سنة 1929م وخلفه ابن عمه أحمد الثاني.
- أحمد الثاني (1928-1942م): تمتعت مملكته بالرفاهية وأنشدت بين يديه الخطب والقصائد لو جمعت لكانت مجلداً³.
- محمد المنصف (1942-1943م): تميز بمؤازرته للحركة الوطنية التونسية ضد الاستعمار الفرنسي، عمل على التخفيف من حدة الحرب العالمية الثانية على شعبه، تمتعت تونس في عهده بالحرية، أبعد الفرنسيون عن العرش عام 1943م.
- محمد الأمين الأول (1943-1957م): باي تونس قبل عهد الاستقلال، أتى به الفرنسيون ليخلف الباي محمد المنصف الذي أجبر على التخلي عن عرشه سنة 1943م وإلغاء نظام البايات نهائياً في جويلية 1957م وإعلان قيام الجمهورية التونسية⁴، وبذلك سقطت الأسرة الحسينية وأصبح منصب الباي مجرد واجهة دون سلطة حقيقية⁵.

1. نفسه، ص 200.

2. حسن حسيني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، مرجع سابق، ص 180.

3. إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر، مرجع سابق، ص 200.

4. مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية (معالم، وثائق، موضوعات، زعماء)، ألمانيا-أوروبا، ج7، مؤسسة هانيد، بيروت، لبنان، (د.ت) ص332.

5. رأفت غنيمي الشيخ، التاريخ المعاصر للأمة العربية الإسلامية 1412هـ/1992م، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1992م، ص 93.

ثانيا. التعليم في تونس خلال العهد العثماني:

1. لمحة عن الحياة العلمية في تونس:

من الأكيد أن المكانة التي كان عليها العلم بالبلاد التونسية عامة في القرن 10هـ/16م كانت سيئة، بل واتسمت بالتراجع ولم يتغير الوضع كثيرا في بداية القرن اللاحق أي القرن 11هـ/17م، وكان ذلك بسبب الوضعية السياسية غير المستقرة، إذا تطلعتنا المصادر أن عددا من مدارس مدينة تونس قد ناله الخراب وأن عدد المدرسين أو الشيوخ بقي متواضعا للغاية بل وتراجع¹.

ثم تحسنت الأوضاع السياسية والاقتصادية نسبيا في عهد الدايات، وانتعشت الحياة الثقافية وخرجت شيئا فشيئا من حالة الجمود والسبات التي أدخلتها فيها أزمة القرن 10هـ/16م، فنشطت الدراسات الدينية بتونس وبمختلف جهات البلاد كالقيروان وسوسة وصفاقس، وكثر عدد العلماء من مالكية محليين ومن منتمين إلى المذهب الحنفي² وذلك راجع لعدة اعتبارات منها:

- تشجيع الدايات الأوائل للعلوم والفنون وسعيهم لتشييد حواضر تعرف بهم على نحو ما قام به سلاطين آل عثمان³ وخاصة منهم عثمان داي ثم يوسف داي الذي قام بدور هام في تشجيع التعمير والبناء.
- عائدات النشاط البحري والتي أسهمت في تشييد العديد من الجوامع والمدارس التي التقت فيها التأثيرات المحلية بالأندلسية والمشرقية، فتجلت على إثره أعمال فنية كجامع سيدي يوسف وجامع حمودة باشا وجامع محمد باي وقصر عثمان داي ومدرسة مراد الثاني⁴.
- الجاليات الأندلسية التي كان لها بصمات هامة في الميدان العمراني وذلك بتشبيدها المدن عرفت بها كسليمان وبلي، نيانو، السلوقية والعالية وغيرها⁵.

1. محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، التعليم العربي الإسلامي، دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، ط1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، تونس، 1427هـ، 2006م، ص 79.

2. محمد الهادي شريف، مرجع سابق، ص 76.

3. عبد الرحمن المودن وعبد الرحيم بنحادة، العثمانيون في المغرب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية، ط2، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2005م، ص 102.

4. محمد الهادي شريف، مرجع سابق، ص 76.

5. عبد الكريم القفصي، "نظرة حول بعض الحرفيين والمهنيين الأندلسيين والأتراك"، الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، مطبعة الشركة الوطنية لفنون الرسم، تونس، 1988م، ص 600.

كما ان المذهب الجديد الذي جاء به العثمانيون وهو المذهب الحنفي الذي أصبح أحد رموز العلم بتونس، تعزز بتوفير المراكز والمؤسسات لنشره وتدريبه، ويذكر ابن أبي دينار في هذا الشأن "في أيام يوسف داي (1610 - 1637م) ... بني الجامع المشهور به، وجعل إمامه من الطائفة الحنفية، وبني الجامع بإزائه مدرسة تعرف به ... وبها مدرس من مذهب الإمام أبي حنيفة"¹.

ومع أن هذه النهضة عرفت نتائج إيجابية تمثلت في إرساء قواعد ثقافية جديدة مبنية على الثنائية المذهبية (المالكية والحنفية) وعمل الدايات على تجديد المدارس المالكية القديمة كالمدرسة الشماعية والعصفورية وغيرها من المدارس² إلا أن دائرة الثقافة لم تخرج عن مفهومها السابق المتمثل في العلوم الدينية، وعليه فقد بقي الإنتاج الفكري منحصرا على النقل والتكرار³.

وقد تواصلت الحركة العمرانية والثقافية مع البايات المراديين، على الرغم من أن اهتمامهم الأكبر كان بالمجال السياسي والعسكري، إلا أنهم لم يغفلوا عن الوضع التعليمي بالإيالة، حيث أولوا الثقافة والتعليم عناية كبيرة، فقاموا بإنشاء العديد من المدارس والمساجد الجديدة بالحاضرة تونس وخارجها كقباس وتونس والقيروان وباجة وجزيرة جربة وغيرها⁴ من ذلك انشاء حمودة باشا المرادي للجامع الحنفي بتونس، كما أنشأ ابنه مراد الثاني العديد من المساجد والمدارس بتونس وباجة وقابس وجربة من أهمها المدرسة المرادية بتونس ومحمد باي بن مراد الثاني الذي أنشأ العديد من المساجد والمدارس بتونس وخارجها ومنها المدرسة المرادية بقابس كما خصصوا لهذه المدارس والمساجد اوقاف كثيرة وعينوا لها موظفين يقومون بمصالحها ومدرسين، كما قام المراديين بتجديد المدارس القديمة التي كانت قائمة منذ العهد الحفصي كالمدرسة العصفورية والمدرسة الشماعية والمنتصيرية⁵ وغيرها من المدارس.

1. ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 194.

2. حسين خوجة، مصدر سابق، ص 47.

3. محمد الهادي شريف، مرجع سابق، ص 76.

4. أحمد عبد السلام، المؤرخون التونسيون في القرون 17، 18، 19، ترجمة أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي، ط1، بيت الحكمة، تونس، 1993م، ص 35.

5. أحمد السعداوي، تونس في القرن السابع عشر، من وثائق الأوقاف في عهد الدايات والبايات المراديين، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، تونس، 2011م، ص 28.

كما عمل أبناء الأسرة المرادية على التقرب من شيوخ الزوايا باعتبارهم السلطة المهيمنة للطرق الدينية وعصب الثقافة في الأرياف، فدعمت هذه الحركة ببناء الزوايا وحسبت عليها العقارات¹. ومع مجيء الأسرة الحسينية، عرفت الحياة العلمية بتونس تحسنا ملحوظا رغم الاضطرابات التي كانت تتعرض لها تونس من حين لآخر خلال هذه الفترة، إلا أن سياسة البايات الحسينيين في المجال العلمي قد اتصفت بالاستقرار حيث أنشأوا ووجدوا ومولوا الكثير من المساجد والمدارس والزوايا خصوصا في عهد علي بن حسين (1759-1782م)، الذي اهتم بأهل العلم، فبنى عدة مدارس وخصص للمدرسين رواتب شهرية، كما منح للطلبة إعانات كثيرة، وقد بلغ اهتمامه إلى حد إعفاء الطلبة من الخدمة العسكرية²، وكان ممن يكرم العلماء ويكثر مجالستهم والاهتمام بشؤونهم، ويذكر صاحب الإتحاف عن تقديره للعلماء: "...هو الذي أحيا رسوم العلم بعد إعفائها، وأيقظ أجفان طلبته بعد إعفائها بالتفاته إلى أهل العلم بالصلوات المتوالية والإكرام والتعظيم والمجالسة والمسامرة، بحيث لا يخلو مجلسه منهم، واكتسب بذلك ملكة ومشاركة، لاسيما في الحديث والفقه والتاريخ"³. وقد كان حمودة باشا⁴ مثل والده، يجالس كبار العلماء ويشارك في مناقشاتهم، وسعى إلى الحفاظ على السياسة ذاتها في المجال العلمي، كما كان الحال في عهد أبيه فيما يخص تقديم الإعانة لطلبة العلم والرواتب التي كانت تصرف لهم⁵، لكن تطلعات هذا الباي كانت كبيرة، فعمل على استحداث طرق تعليمية جديدة، وأدخل مواد جديدة في برامج التعليم.

1. دلندة الأرقش، "جدلية التجديد والتواصل في الحياة الفكرية بإيالة تونس"، جمع وتقديم عبد الجليل التميمي، ج1، و2، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، تونس، 1990م، ص 89.
2. نورة بنت معجب بن سعيد الحامد، الصلوات الحضارية بين تونس والحجاز (دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية 1256-1362م/1840-1908م)، سلسلة الرسائل الجامعية، ادارة الملك عبد العزيز، السعودية، الرياض 1424هـ/2003م، ص 81.
3. أحمد بن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص 171.
4. هو حمودة بن علي بن حسين، من أهم وأشهر بايات الأسرة الحسينية تقلد الحكم في ماي 1782م، في ظروف صعبة، وبفضل ما كان يتحلى به من صفات ارتقى هذا الأمير بالنظام إلى أوجه، وقد أفادت سياسته الإصلاحية في المجالات الاقتصادية، العسكرية، والاجتماعية في تقوية إمكانيات البلاد، وقد حاول هذا الباي النهوض ببلاده لمواكبة التقدم والتطور الأوربي، للمزيد حول هذه الشخصية وسياستها الإصلاحية انظر: رشاد الإمام، "سياسة حمودة باشا الحسيني في تونس (1782-1814م)، المجلة التاريخية المغربية، العهد الحديث والمعاصر، العدد 6، تونس، جويلية، 1976م، ص 111.
5. رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس (1782-1814م)، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1980م، ص 331.

وفيما يتعلق بالمواد المستحدثة التي كانت تدرس في عهد حمودة باشا، فكانت علوم الفلك والطبيعة والموسيقى، وكان يدرس معظمها العلامة إبراهيم الرياحي بجامع الزيتونة، أما مواد علوم المساحة والهندسة، فقد كان يدرسها العالم محمد الفاسي، وذلك بعد أن ارتحل هذا المدرس عن مسقط رأسه فاس واستقر بتونس العاصمة¹.

وإلى جانب هذه المواد العلمية المستحدثة، فقد بقي جامع الزيتونة يقدم برامج الكلاسيكية المتمثلة في العلوم الدينية كالقرآن والتفسير والحديث وأصول الفقه، واستمر التدريس في الجوامع، وبقيت الكتابات منتشرة في البلاد.

ومن المصادر التي تشهد باهتمام هؤلاء البايات بالعلم والعلماء الرحلة الورثيانية إذ يصرح مؤلفها بأن سلاطين تونس وأمراءها وأصحاب الدولة فيها صرفوا همهم إلى العلم، وأقاموا منائر عزه، فبنوا المدارس وأوقفوا الأحياس، وأغروا العلماء وأغنوا للدرس الجلاس، فأسموا كلا على قدر همته وانشغاله فإذا كل شيء على أصله وفصله ومنواله، فمن لم يصبه منهم كثير وصل إليه نزر قليل².

1. نفسه، ص 334.

2. الحسن الورثياني، مصدر سابق، ص 763.

ثالثا. أهم مدارس التعليم في تونس خلال العهد العثماني

1. المدرسة المرادية (قابس):

1.1. الموقع الجغرافي للمدرسة:

تقع المدرسة المرادية بقابس (المتحف الاثنوجرافي حاليا) على ربوة في الجهة الجنوبية الغربية للمدينة تطل بواجهتها الرئيسية على قرية المنزل من الشرقية ضمن مجمع يحتوي على جناح للتعليم الديني وجامع ومبيت للطلبة، يحيط بها من الواجهتين الشرقية والجنوبية حديقة تتبع فضاء المدرسة، ويمتاز الكل بتناسق معماري بسيط وأنيق في آن واحد، وبالقرب منها معلم تاريخي آخر مهم تاريخيا ومعماريا، هو مقام الصحابي أبي لبابة الأنصاري، أحد أولياء المدينة الصالحين، من الذين وفدوا من شبه الجزيرة العربية مع أول وفود الفاتحين المسلمين وقد جعلها مؤسسها وقفا عليه¹. (الصورة رقم 75).



الصورة رقم 76: موقع المدرسة المرادية وسط مدينة قابس الجديدة

(عن غوغل إيرث)

1. حسن خوجة، مصدر سابق، ص 103.

وأهم ما يلاحظ على موقع مدرسة محمد باي المرادي بقابس أنه بعيدا نوعا ما عن مركز المدينة¹ على خلاف بقية المدارس التي أنشأها نفس الباي، سواء بمدينة تونس أو قفصة أو الكاف أو القيروان وهذا الابتعاد ربما يعود بالدرجة الأولى إلى تفادي المشاكل والقلقل التي كانت تميز العلاقة بين قرى المدينة بسبب خلافات متعددة، لذا وقع الاختيار على منطقة سيدي أبي لبابة لإنشاء هذه المدرسة بالإضافة إلى تبركه بمقام الولي الصالح التي تعتبر المدرسة وقفا عليه.

2.1 التأسيس والمؤسس:

مثلما هو معهود في الكثير من المدارس المنجزة في الفترة العثمانية بتونس كالمدرسة الأندلسية والمدرسة الباشية ومدرسة النخلة، فإن المدرسة المرادية بقابس كانت تحتوي على نقيشة تأسيسية² لمؤسس المدرسة مؤرخة بسنة 1086هـ/1675م أنشأها محمد باي ابن مراد باي الثاني وحفيد حمودة باشا المرادي من أبيه، ويوسف داي من امه، وهو رابع بايات الأسرة المرادية وأهمهم على الإطلاق، عرفت تونس في عهده انتعاشا على الصعيد المعماري، رغم وجود عدة قلاقل كادت أن تعصف بحكمه سببها مطامع أخيه علي باي وعمه محمد الحفصي المرادي في الحكم، مما أدى إلى اندلاع حرب طويلة بينهم انتهت بمقتل علي باي وانفرد محمد باي بالحكم سنة 1097هـ/1685م³، ومنذ ذلك التاريخ انكب على إعادة تنظيم شؤون الحكم وحسن تسيير النظام والأمن، فكان لا يتوانى كلما سمح الأمر على تأديب القبائل المتمردة داخل البلاد، وفي كل مرة يجني ثروات طائلة جراء تلك الحملات من جراء فرض ضرائب الجباية عليهم⁴.

وقد اتاحت له هذه الوسيلة جمع ثروات طائلة، كانت الدافع الذي جعله يقيم مشاريع معمارية كبرى، شملت مدينة تونس ومدن أخرى داخل البلاد، منها جامع محمد باي وجامع سيدي محرز على نموذج المساجد الحنفية

1. شهد المركز الحضاري لمدينة قابس في الفترتين الوسيطة والحديثة تحولا من منطقة إلى أخرى حسب الظروف السياسية حيث كان في بدايته في منطقة المنزل قبل أن يتحول إلى منطقة البلد وأخيرا إلى منطقة جارة مقر حكم العثمانيين.

2. هذه النقيشة ازيلت عند عمليات الترميم، وهي محفوظة حاليا في المتحف البلدي وهي مشوهة تماما نتيجة التدخل السيئ عليها مما جعل قراءتها شبه مستحيل حول هذه النقيشة أنظر:

Jarray(fathi) inscriptions de la régence de Tunis à l'époque ottoman étude épigraphique et Historique sous la direction de Madame Solange Ory et de Madame Mounira Rimadi Chapoutot Tome1 vol 2 p 620

3. محمود مقديش، مصدر سابق، ج2، ص 108.

4. ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 276.

في إسطنبول بقبة كبيرة في مركز الجامع، كذلك أنشأ سوقا خاص بالشاشية، يضاف إلى كل هذا العديد من دور العبادة والتعليم والمدارس داخل البلاد في بنزرت وباجة وقابس وقفصة والكاف وتوزر والقيروان، كما قام محمد باي بتحسيس عدد من الأوقاف على هذه المدارس، إذا فتأسيس مدرسة المرادية بقابس جاء في إطار حركة عمرانية شاملة عرفتها البلاد التونسية في القرن 11هـ/17م¹.

توفي في 17 ربيع الأول 1108هـ الموافق ل 14 أكتوبر 1696م، ودفن في ضريح جده حمودة باشا المرادي ترك إبنين لا يستطيعا الحكم لصغر سنهما، مراد وحسن، لذلك تولى الحكم بعده أخاه رمضان باي المرادي، يذكر ذلك ابن أبي الضياف بقوله "وابتداه المرض بباجة فرجع الى الحاضرة مريضا، ولم يزل مرضه يتزايد، الى ان توفي ليلة الاثنين السابع عشر من اشرف الربيعين سنة ثمان ومائة والف 1108هـ، وصلي عليه ببطحاء القصبه، ودفن بتربة جده، وعم الناس حزنه وبوفاته استحکم هرم الدولة المرادية بل اخذت في مبادئ الاحتضار، والله في خلقه اسرار، فقام بالأمر بعده اخوه رمضان باي بن مراد بن حمودة باشا"².

ولكن لم يدم حكم هذا الأخير طويلا، ففي شهر مارس 1699م ثار عليه ابن اخيه علي باي مراد الثالث وقتله.

3.1. مكانة المدرسة المرادية بقابس التاريخية وأهميتها العلمية:

لا شك أن مكانة المدرسة المرادية بالنسبة إلى مدينة قابس في الفترة الحديثة البالغة الأهمية من حيث الدور الذي اضطلعت به في نشر العلم، خاصة بعد مرور البلاد بفترة عصيبة من التوتر السياسي خلال القرن 10هـ/16م الناتج عن تفكك وضعف الدولة الحفصية من جهة، وعن تأثر البلاد بالنزاع الإسباني العثماني من جهة أخرى ولم تنج مدينة قابس كغيرها من المدن الساحلية من هذا الصراع ومن انعكاساته³.

1. ليلي جابر، المدرسة المرادية بقابس، ضمن أعمال المؤتمر الثامن لمدينة الآثار العثمانية حول العمارة المدنية في العهد العثماني، الدور والمدارس والقناطر والحمامات، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس 2009م، ص 77.

2. Ibn Abi Dhiyf, Présent des hommes de notre temps Chroniques des rois de Tunis et du pacte fondamental, vol II, Maison tunisienne de l'édition, Tunis, 1990, p. 47.

3. ليلي جابر، مرجع سابق، ص 75.

أسست مدرسة قابس التي تعرف بالمدرسة المرادية نسبة إلى الفترة التي بنيت فيها، وتحديدًا في عهد الباي المرادي محمد باي، كما عرفت هذه المدرسة بالمدرسة اللبائية أو مدرسة مقامة سيدي أبي لبابة نسبة إلى الصحابي أبي لبابة الأنصاري¹.

لعبت هذه المدرسة دورًا هامًا في نشر المذهب الحنفي - المذهب الرسمي للدولة العثمانية - باعتبارها من المنشآت الرسمية، ذلك أن الهدف عادة من إنشاء المدارس من قبل البايات أو الأشخاص التابعين للدولة، هو إعطاء صبغة رسمية للتعليم الموجود قبل ذلك بالمساجد أو الزوايا، وهي تهدف في نهاية الأمر إلى السيطرة الكلية والفعالية للحكم المركزي على العلم والأمثلة على ذلك عديدة، فالمدرسة الشماعية كان الهدف من إنشائها هو بعث الدعوة الموحدية بالبلاد، وكذلك الأمر بالنسبة للمدرسة اليوسيفية التي بنيت في العهد المرادي والتي اهتمت بنشر المذهب الحنفي².

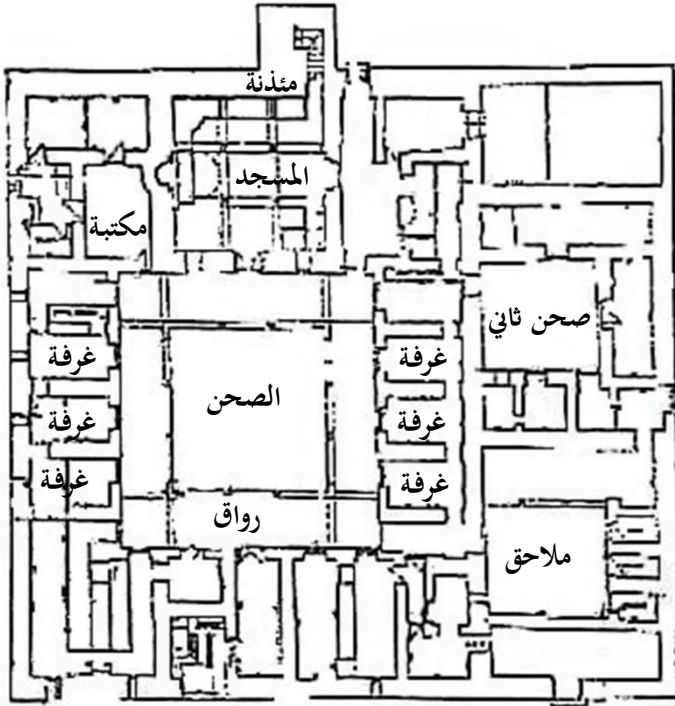
كما تستمد هذه المدرسة أهميتها من كونها أول مدرسة ذات طابع رسمي عرفت مدينة قابس في الفترة الحديثة، وتتوفر بها كل الشروط الخاصة بوظيفة المدرسة من وجود مسجد لإقامة الصلاة ولتنظيم حلقات الدرس، مع

تعيين مدرس براتب معين وبذلك يلتزم الدور الديني مع الدور التعليمي، ثم لوجود غرف لسكن الطلبة، وهي بذلك تستوفي كل الأدوار التي تحدد وظيفة المدرسة على حد تعبير أحمد فكري³.

4.1 الدراسة الوصفية للمدرسة:

أ. المخطط العام:

يعد تخطيط المدرسة المرادية بقابس تخطيطًا كلاسيكيًا حافظ على كل العناصر المعمارية المكونة للمدرسة، من صحن مفتوح تحيط



المخطط رقم 21: مخطط المدرسة المرادية (عن ليلي جابر بتصريف)

1. ترجمته والخصائص المعمارية لمقامه موجودة في مذكرة الدراسات المعمقة لليلى جابر، المعالم الإسلامية بمدينة قابس، دراسة

تاريخية أثرية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس 2003.

2. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 39.

3. فكري أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها ج 2، ص 155.

الأروقة من الجهات الأربع وهي تتقدم الغرف المخصصة لسكنى الطلبة والمسجد الذي يحتل عادة الطرف الغربي للصحن والمخصص للصلاة والتدريس.

بالإضافة إلى غرف المنافع والميضاة، وتتوزع كل هذه الوحدات على مساحة مستطيلة تمتد من الشمال إلى الجنوب ب 66م²، ومن الشرق إلى الغرب ب 56م².



الصورة رقم 77: الواجهة الرئيسية للمدرسة في الجهة الشرقية

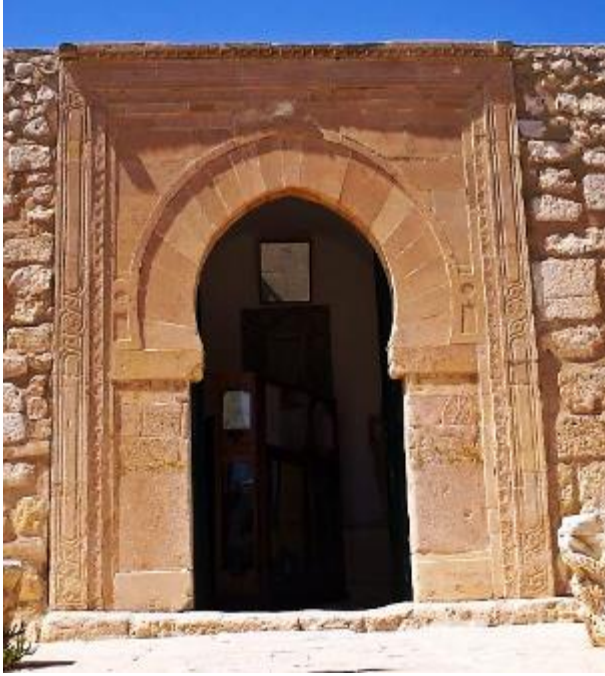
ب. الوصف الخارجي:

تفتح المدرسة على الفضاء الخارجي بمدخلها الرئيسي الموجود بالواجهة الشرقية والذي يصعد إليه بواسطة سبع درجات ويتقدمه فضاء عرضه 2م (الصورة 77)، ويتميز هذا المدخل بفخامته وارتفاعه إذ يحيط به إطار مستطيل الشكل، متكون من ألواح من حجارة الكذال المصقولة، ولعل بساطة السجل الزخرفي المستعملة به والمتكون من زخارف هندسية ونباتية، أضفت عليه هذا البعد الجمالي، إضافة لاستعمال هذا الصنف من حجارة الكذال الوردية اللون.

يتكون مدخل المدرسة من إطار مضاعف، عرضه 4م يعلوه افريز بارز مكون بدوره من جزئين، جزء أملس وجزء مسنن وبطرفيه نجد كأسين يتكون أسفل كل واحد منهما من أبراج مائلة، ويتكون الجزء العلوي من الإطار من

قسم أول به بعض الزخارف الموجودة في ركنيه الشمالي والجنوبي والمتمثلة في طبقين مبرجين بأبراج في اتجاه معاكس لعقارب الساعة، تنتظم هذه الأطباق في أعلى الإطار وفي ركنيه الشمالي والجنوبي. (الصورة رقم 78).

أما القسم الثاني فيحتله شريط آخر زخرفي متكون من قسمين، قسم أول متكون من أنصاف دوائر متراكبة



والثاني أملس خال من الزخارف، ويتكون الجزء الثاني من الإطار من حجارة الكذال المستطيلة ويتم الانتقال من السجل الزخرفي إلى هذا الجزء بواسطة إطار صغير أملس، ويتضمن هذا الجزء من المدخل في نصفه الأعلى عقد منكسر متجاوز متكون من 21 صنجة من حجارة الكذال المصقولة، لها نفس الحجم وعرضها 21سم، أما الباب فهو من الخشب خال من أي زخرفة ولا مسامير التي تتميز بها أبواب هذه الفترة، وقد دهن باللون الأخضر اللون الغالب على أغلب أبواب المعالم الدينية بالمدينة.

الصورة رقم 78: مدخل المدرسة الرئيسي

ت. الوصف الداخلي:

ت.1 السقيفة:

يفضي المدخل المعقود إلى سقيفة متكونة من قسمين ومنحنية إلى اليمين، القسم الأول مستطيل الشكل أبعادها 8م على 5م بجدارها الغربي دكة ارتفاعها 85سم ممتدة على كامل الجدار واتساعها 1م تعلوها بوسط الجدار لوح رخامي به قصيدة مدحية في الصحابي أبي لبابة، وهي نفس القصيدة الموجودة في لوح على يمين مدخل مسجد أبي لبابة الأنصاري المجاور للمدرسة، محاطة بمربعات من الزليج، كتبت بخط نسخي غائر بنحو 1سم نصها:

س1: بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد

س2: يا زائر قف داعيا بتبتل في مسجد قد حل أشرف منزل

س3: بيت على التقوى تأسس مذ حوى قبر الصحابي الهمام الأفضل

س4: هذا رفاة والبشير أبو لبا بة نجل عبد المنذر المستكمل

- س5: من أوس أنصار تحري بتوبة قبلت بنص في الكتاب المنزل
 س6: وعد اميرا في المدينة يوم بد ر فانتقى بالغنم كل موصل
 س7: مع أنه العقبي مشهور المفا خر في الغزاة المرتقين على العلمي
 س8: واتى إلى افريقيا في جيش فتح عمر بالهدى المنير الأجل
 س9: وغدا شهيدا في فلاة غير ان القوم قد اولوه خير تنقل
 س10: فثوى هذا البيت بزينة قابس ومحط رحل الزائر الكمل
 س11: ووفاته مضبوطة من بدرها بالرمز قال الفوز للتاريخ لي

سقت هذه السقيفة بقبو متقاطع متكون من قبو طولي يرتكز على قوس جداري يتوسطه المدخل الرئيسي للمعلم وقبو عرضي وبجدارها الشمالي مدخل يفضي إلى سقيفة ثانية تتعرج نحو يسار السقيفة الأولى وامتدادها طولي بين الشرق والغرب، قبوها طولي وتفتح بدورها على الصحن بواسطة بمدخل مؤطر يفضي للمجنبة الشرقية للصحن وتحيط بها من اليمين واليسار غرفتان.

ت. 2 الصحن وملحقاته:

تؤدي السقيفة لصحن المدرسة الرئيسي، وهو فضاء غير مسقوف مربع الشكل 11/10.5م تحيط به اربع مجنبات أو أروقة تنتظم حولها أجنحة المدرسة بلغ اتساعها 5م ذات بائكة واحدة محمولة على عمودين بالوسط ودعامتين جانبيتين، وبكل بائكة نجد خمسة أقواس حدوية الشكل تتكون أغلبها من 16 فقرة من الحجارة المهذبة، وفي تقاطع كل بائكتين نجد دعامتين متكونتين من الأعمدة عمادها قاعدة مستطيلة مرتفعة عن الأرضية، تعلوها قاعدة أسطوانية تضيق بالوسط، يعلوها نصف طوق ثم نجد بدن العمود المتكون من نفس النوع من الحجارة المصقولة يتراوح قطره بين 24 و26سم وطوله 1.54م، ويحده إفريز أو شريط غائر ويعلوه التاج ذو ثلاث ورقات وهو تاج كأسى تعلوه وسادة مكونة من قسمين، قسم مقعر في طرفيه وقسم مستطيل، ممتد طوليا يشبه ذلك الموجود بالقاعدة ثم نجد مسقط العقد مكونا أيضا من قسمين يعلو الأقواس إفريز من الحجارة المهذبة معقود في مستوى مفتاح العقد ويتخلل كل كوشة عقد طبق نجمي متكون من دائرة بها نجم سداسي بواسطة دائرتان أوسطهما بارز وبه فتحة بالداخل. (الصورتين 79 و80)



الصورة رقم 79: الرواق الشرقي من الصحن ويفتح عليه غرف الطلبة



الصورة رقم 80: الرواق الغربي من الصحن ويفتح عليه مسجد المدرسة

ت3. بيوت الطلبة:

تنظم غرف المدرسة بكل من الأروقة الشرقية والشمالية والجنوبية وعددها 20 غرفة، وهي مخصصة لسكنى الطلبة القادمين من مناطق بعيدة خارج المدينة غير أننا لا نستبعد أنها آوت طلبة من المدينة، حسب ما أمدتنا به وثائق الأرشيف المؤرخة ببداية القرن 20م، ولا شك أن وجود هذا العدد من الغرف يؤكد تلازم كل من وظيفتي التدريس والسكن بالمدرسة، وهو ما ينفي الاعتقاد بأن التدريس هو الوظيفة الأساسية لها إذ نعلم جيدا أن المساجد

الجامعة اضطلعت بهذا الدور منذ القدم، فالهدف المباشر إذن من تأسيس المدارس هو توفير سكن للشيخ والطلبة، أما الهدف الأساسي فهو مراقبة النظام المركزي لهذه المؤسسة، وسيطرته على التعليم، بإعطائه صبغة رسمية بغية نشر وتركيز المذهب الرسمي للدولة¹، ولا نجد تحديدا لعدد الغرف ولا لعدد الطلبة القاطنين بها في نص الحبس الوارد في الدفتر المرادي، وبذلك لا يمكن الجزم بأن غرف المدرسة راجعة كلها إلى فترة التأسيس، خاصة وأنها نعلم أن المدرسة رمت في مناسبات عديدة، أهمها العهد الحسيني غير ان نص الوثيلايني أجاب عن تساؤلنا إذ أكد أثناء زيارته للمدرسة في القرن 12هـ/18م، أن محمد باي عند تشييده للمدرسة رتب عشرين طالبا يعطي كل واحد منهم رايالا على رأس كل شهر²، وهذا يعني أن عدد غرف المدرسة المحدد اليوم ب 21 غرفة كان مخصصا لنفس عدد الطلبة، بمعدل طالب بكل غرفة.



أما عن توزيع الغرف بالمدرسة فإننا نجد غرفتان على يسار السقيفة التي تلي المدخل، الأولى غرفة مربعة سقفت بقبو متقاطع أما الثانية فجنوب الغرفة الأولى وهي أكثر اتساعا عن بقية الغرف واتجاههما طولي بين الشرق والغرب.

الصورة رقم 81: فضاء مكشوف تفتح عليه غرف للطلبة بالواجهة الغربية للصحن

وبالجهة الشرقية للصحن على يمين الداخل غرفتان أخريتان امتدادهما طولي من الشرق إلى لغرب يفتحان على الرواق ومنه إلى الصحن، وبالجناح الجنوبي نجد خمس غرف أوسعها الغرفة الموجودة بالركن الجنوبي الشرقي ومدخلها مؤطر كبقية المداخل، وهو قريب من مدخل الغرفة الأخيرة ناحية الجنوب بالجناح الشرقي، أي أننا نجد إطاري المداخل متلاصقة، وهذا نجده بكل أركان المجنبت بالصحن إذ يتعرج مدخلها نحو اليسار لتمتد طوليا بين الشرق والغرب بينما تمتد بقية الغرف وعددها أربع بين الشمال والجنوب وسقفت بأقبية طولية شمال جنوب، كما نجد

1. ليلي جابر، مرجع سابق، ص 90.

2. الحسن الوثيلايني، مصدر سابق، ج1، ص 163.

بجميع غرف هذا الجناح وبقية الأجنحة، كوى للإضاءة موجودة إما بآخر الجدار وتفتح إلى خارج المعلم أو نجدها فوق الباب، وهي مستطيلة الشكل ومؤطرة بنفس الحجارة التي أطرت بها النوافذ والأبواب، كما نجد بكل الغرف دكات مصايح بأعلى الجدار على اليسار وقرب المداخل.



الصورة رقم 82: الركن الشمالي الغربي من الصحن والتي تفتح عليه غرفة المؤدب

وبالواجهة الغربية إضافة لوجود المسجد نجد مدخلين الأول على اليمين أي ناحية الجنوب يفضي إلى صحن صغير مستطيل الشكل توجد بقسمه الغربي غرفة امتدادها طولي بين الشمال والجنوب ويقسمه الجنوبي غرفة ثانية بها مدخلان: الأول يفضي لهذا الصحن والثاني لخارج المعلم، بآخرها مقصورة صغيرة مربعة الشكل وسقفها قيو طولي شرق غرب والثاني على اليسار أي بآخر الجناح الغربي من ناحية الشمال وهو مدخل مؤطر يفضي إلى فضاء مكشوف آخر ممتد طوليا بين الشرق والغرب بجداره الجنوبي مدخل آخر لبيت الصلاة وبجداره الغربي مدخل يفضي لخارج المعلم ويقسمه الجوفي غرفتان مستطيلتا الشكل وامتدادهما طولي بين الشمال والجنوب سقفتا بأقبية طولية تعلو مدخل كل واحدة منهما كوة مستطيلة الشكل (الصورة رقم 81).

ونجد ناحية الغرب سقيفة شرقية المفتوح لكنها تمتد طوليا نحو الشمال وبجدارها الشمالي مدخل صغير تتقدمه ثماني درجات، يفتح هذا الباب على فضاء مكشوف ممتد بين الشمال والجنوب وبه حديقة صغيرة ومنه يصعد للسطح بأربع درجات، وبالرواق الشمالي للصحن نجد أربع غرف لهم نفس الأبعاد وامتدادهم بين الشمال

والجنوب، سقفت هذه الغرف بأقبية طولية بين الشمال والجنوب وتفتح كلها على الصحن ومداخلها مؤطرة وبآخر هذا الرواق مدخل معقود لسقيفة ممتدة نحو الجوف سقفيها قبو طولي وبجدارها الشرقي مدخل ثاني مؤطر يفتح على فضاء آخر مكشوف ممتد طوليا بين الشرق والغرب، وهو فضاء ضيق بآخره نجد غرفة ممتدة بين الشمال والجنوب.

وتفتح بالركن الشمالي الغربي للمعلم غرفة المؤدب أو الشيخ المدرس، وهي تمتد على فضاء مستطيل بين الشرق والغرب، ويفضي إليها بواسطة مدخل بالجدار الشمالي للمعلم يصعد إليه بأربع درجات، والمدخل مؤطر يعلوه ساكف وتتوسطه نقيشة متأكلة مقامة على لوح من حجارة الحرش كتبت بخط نسخي لم تتمكن من قراءتها كاملة لعدم وضوحها وتحيط بها طبقتان بهما زخارف (مربع بداخله زهرة).

المدخل يؤدي إلى سقيفة مربعة الشكل تتعرج نحو اليمين إلى سقيفة ثانية تفتح على الصحن وسقفت السقيفتان بقبو طولي شمال جنوب تعلوه كوة مصايح بالجدار الجنوبي مربعة الشكل أرضيتها مبلطة بالحجارة المهذبة، وتفضي إلى حن مربع الشكل يحيط بقسمه الشرقي مطبخ سقفي قبو طولي شمال جنوب تعلوه فتحة تضيق باتجاه الخرج، وبجدار المطبخ الجنوبي كوة مربعة الشكل ومدخل صغير لبيت الخزين التي تفتح على الصحن بواسطة نافذة صغيرة.

أما الجدار الشمالي للصحن فنجد غرفة امتدادها طولي بين الشرق والغرب، وبالجدار الغربي للصحن نجد غرفة امتدادها طولي بين الشمال والجنوب، وبأقصى طرفيها سدتان بهما تجويفان لوضع الأحذية، وبالركن الجنوبي الغربي للصحن نجد فتحة بالجدار على هيئة نصف دائرة (تشبه فتحة بئر لكنها في الوضع الحالي مغلقة).

ت4. مسجد المدرسة:

يحتل وسط القسم الغربي من المعلم ويفضي إليه بواسطة مدخل كبير مؤطر بالرواق الغربي للصحن وتحيط به من الجانبين نافذتان مربعتي الشكل أبعاده 16.5 X 16.5م، وهو عبارة عن قاعة مربعة الشكل سقفيها أقبية متقاطعة مرتفعة محمولة على أعمدة (الصورة رقم 84).

تتكون بيت الصلاة من ثلاث بلاطات أوسطها أكثر اتساعا تتعامد جميعها مع جدار القبلة وبه ثلاث بئكات موازية لجدار القبلة، تنتظم أقواس بيت الصلاة في بئكتين وسطيتين اتجاهاهما شمال جنوب، أوسطها أكثر اتساعا، وهي التي تقابل المدخل فقراهما من الحجارة المهندمة وهذه الأقواس محمولة على أعمدة مرتفعة متكونة من قاعدة مربعة تعلوها قاعدة دائرية (دائرتان متراكبتان) أما بدن العمود فهو من الرخام الأبيض الأملس ويعلوه شريطان

املسان يتوسطهما شريط غائر ثم نجد التاج الكاسي تعلوه الوسادة المكونة من جزأين من الحجر المصقول يعلوهما مسقط العقد.



الصورة رقم 84: مسجد المدرسة وهو الآن قاعة لعرض اللباس التقليدي التونسي

الصورة رقم 83: حنية المحراب

بمحور الجدار الجنوبي للمسجد محراب يتكون من حنية نصف دائرية، تعلوها مشكاة نصف كروية ابعاده 3م عرض و2م عمق، كما يعلوه قوس تتكون فقراته من الحجارة المهذبة وافرير معقود بمفتاح العقد، يلي ذلك اطار ثاني مستطيل ويحمل العقد عمودان من الرخام الوردي عمادها تاجان كأسيان وقاعدة تعلوها قاعدة دائرية يشبهان بقية الأعمدة الموجودة ببيت الصلاة (الصورة رقم 83)، ويعلو المحراب قبة مرتفعة قاعدتها مربعة يتم الانتقال منها الى الطاقية بواسطة حنايا ركنية على شكل صدفيات عددها أربعة تتوسطها أربع كوى مؤطرة بحجارة مهذبة، والقبة خالية من الزخارف وكذلك المحراب (الصورة رقم 86).

نجد بالركن الشمالي الغربي لبيت الصلاة مدخلا صغيرا، به ساكف وعضادتان ويفضي الى سلم المئذنة (الصورة رقم 85)، وهو بدرجات مستطيلة الشكل عددها 26 درجة (الصورة رقم 85)، يتم الانتقال في كل تعرج لها بواسطة بسطة عريضة، وفي مستوى السطح نجد مدخلا بالمئذنة يفتح على السطح ثم تتواصل الدرجات إلى الأعلى لنجد فتحة تفضي إلى أعلى المئذنة بطابقها الثالث، وتحتوي المئذنة على كوى للإضاءة بالجدران من كل جهة، كما نلاحظ أن المداخل على هيئتها الأصلية قدت من الحجارة الضخمة المصقولة أحيانا وغير متقنة الصقل أحيانا أخرى.



الصورة رقم 86: قبة المحراب من الداخل



الصورة رقم 85: سلم المئذنة بـ 26 درجة

أما بالنسبة لمئذنة المسجد: تقع بالركن الشمالي الغربي لبيت الصلاة وهي مربعة الشكل من المآذن ذات الطراز الحفصي، وتشبه هذه الصومعة صومعة جامع سيدي إدريس التي بنيت في الفترة المرادية وتتكون من طابقين متراكبين، قاعدتها مربعة بنيت بحجارة غير متقنة النحت وكبيرة الحجم، جلبت من العمائر القديمة ويعلوها طابق أول من نفس نوع الحجارة، يضيق في اتجاه الأعلى ويفصله عن الطابق الثاني الذي به الجامور إفريز مثني من الحجارة المصقولة، ويتوسط كل ضلع من الجامور نافذة متوائمة على شكل محرابين يتوسطهما عمود ويعلو كل منهما قوس نصف دائري فقراته من الحجارة المهذبة، ويؤطر النافذة إطار كبير من الحجارة المصقولة والمحاطة بملاط من الجبس الأحمر، يعلو الجامور عمود من الحديد به هلال ونجم خماسي وهذا النمط من الجوامير انتشر كثيرا في المآذن الموحدية (الصورة رقم 87).



الصورة رقم 88: التسقيف بالأقبية المتقاطعة

الصورة رقم 87: المنذنة وتظهر قبة الخراب من الخارج

ث. التغييرات والتجديدات التي طرأت على المدرسة ومسجدها:

مثلت مدرسة محمد باي إذن إحدى أهم معالم المدينة الراجعة للفترة المرادية، لا من حيث انتمائها للعمارة الرسمية فحسب وإنما لخصائصها المعمارية والإنشائية، وقد تزامن انشائها مع ترميم معالم أخرى بالمدينة، أهمها جامع سيدي ادريس وهو من مآثر الباي المرادي مراد الثاني (1077-1086هـ / 1666-1675م)، فطبيعي أن نلاحظ تشابه بعض العناصر المعمارية بالمدرسة بعناصر معمارية أخرى موجودة بهذا الجامع، كالمئذنة وأطر المداخل والسجل الزخرفي المستعمل بأطر الأبواب والنوافذ، وقد أدخلت عليها بعض التحسينات في عصور مختلفة خاصة في العهد الحسيني مع محمد الصادق باي 1299هـ / 1881م. وتواصلت الإصلاحات والترميمات حتى أواخر القرن العشرين.

أما عن الوظيفة التعليمية في تعليم القرآن الكريم والفقهاء فقد استمر في هذه المدرسة لطلاب الفرع الزيتوني إلى حدود سنة 1359هـ / 1940م، كما مثلت المدرسة ملجأ لسكان مدينة قابس في الأوقات الصعبة مثل الحرب العالمي الثانية وكذا فيضانات وادي قابس الذي أغرق المدينة وتسبب في إتلاف عدد من معالمها في منتصف القرن العشرين، كما استعملت غرف المدرسة كمساكن لزوار مقام سيدي أبي لبابة المجاور، وحاليا تمثل المدرسة مقرا لمتحف العادات والتقاليد الشعبية بقابس.

2. مدرسة النخلة (مدينة تونس):

1.2. الموقع الجغرافي للمدرسة:

تقع مدرسة النخلة وسط مدينة تونس العتيقة (القصبة) ضمن مجمع تعليمي مشكل من مدارس ثلاث وهي النخلة، الباشية، السليمانية، يفتح مدخلها الرئيسي على نّهج الكتبيين في الجهة الشمالية الشرقية وهي لا تبعد إلا ببضع أمتار عن جامع الزيتونة الكبير حيث يربط بينهما سوق الكتبية، ويلتصق معها من الجهة الجنوبية المدرسة الباشية التي أسسها علي باشا سنة 1166هـ/ 1752م (الصورة رقم 89) وهو موقع تاريخي يوجد به الكثير من المعالم التاريخية القديمة كالحمامات والأسواق والمساجد والمدارس والزوايا والتراب، نذكر منها بالإضافة إلى المعالم السالفة الذكر، مسجد الميزاب ومسجد سوق البلاط وتربة علي باشا وحمام القشاشين الذي يعود للعهد الحفصي ومسجد الخمسة الفاطمي، وغيرها من المعالم الأخرى.



الصورة رقم 89: موقع مدرسة النخلة وواجهتها الرئيسية وسط مدينة تونس القديمة

2.2 أصل التسمية:

يرى محمد بن الخوجة أن المدرسة في بداية الأمر كان يطلق عليها اسم المدرسة الحسينية الكبرى، وعند بناء علي باي الثاني المدرسة الكائنة بنهج تربة الباي بحي باب الجديد سنة 1191هـ-1777م، أطلق عليها اسم الحسينية



الكبرى، فسميت مدرسة والده حسين بن علي ب"مدرسة النخلة" ليقع التمييز بينهما، كما كان ينعته البعض بالمدرسة الجديدة، وفيما بعد عرفت باسم مدرسة الطيبين نتيجة لوجودها في شارع كانت يباع فيه الطيب والزهور¹، أما سبب تسميتها بمدرسة النخلة فهو بسبب وجود نخلة كبيرة في وسط الصحن لا تزال تغطي معظم أرجائه إلى اليوم (الصورة رقم 90).

الصورة رقم 90: النخلة التي تتوسط صحن المدرسة

3.2 التأسيس والمؤسس:

هي ثاني مدرسة أسسها حسين بن علي أول البايات الحسينيين، وكان ذلك سنة 1124هـ-1713م حسب الوزير السراج، بينما يذكر حسين خوجة أن الانتهاء منها كان سنة 1126هـ-1714م²، وهو التاريخ المدون على اللوحة التأسيسية الموجودة اعلى الجدار عند مدخل المدرسة. وقد أسس حسين بن علي قبل هذه المدرسة، المدرسة الحسينية الصغرى سنة 1123هـ-1711م، وبعدها مدرسة الجامع الجديد سنة 1139هـ-1727م، أي قبل سنة فقط من اندلاع الحرب الأهلية التي انقسمت فيها البلاد بين حسينية وباشية³.

1. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد، مرجع سابق، ص 209.

2. حسين خوجة، مصدر سابق، ص 115.

3. محمد الباجي بن مامي، جوامع مدينة تونس في العهد العثماني : دراسة تاريخية وفنية ومعمارية، مجلة التاريخ العربي، العدد 19، مطبعة النجاح، الرباط، المغرب، 1422هـ-2001م، ص 115.

أما بالنسبة لمؤسس المدرسة حسين بن علي أو حسين باي الأول باي تونس من 12 جويلية 1705م إلى 8 سبتمبر 1735م وهو أول البايات الحسينيين، ومؤسس الدولة الحسينية بتونس، التي استمر وجودها من سنة 1705م إلى سنة 1957م وأول من تلقب بلقب باي تونس¹.

قدم مع والده علي تركي من جزيرة كريت اليونانية بعد ضمّها إلى الدولة العثمانية سنة 1080هـ-1669م وتطوّع في الجيش الإنكشاري في العهد المرادي، وقد عمل بالكاف وفيها تزوّج من امرأة لم تنجب أولاد وأنجب من جارية له ابنه الأول محمد، ثم الثاني منها سماه عليا، ثم الثالث فسماه محمودا، ثم الرابع مصطفى، وقد اقتفى الأولاد خطى والدهم في الخدمة العسكرية².

دعي حسين بن علي إلى العاصمة تونس ليكون في خدمة السلطة المركزية هناك، وتدرّج في مختلف الوظائف الادارية والسياسية والعسكرية منذ سنّ مبكرة، حتى وصل في مسيرته السياسية إلى أعلى المراتب في الدولة. يعود أول تعيين له إلى عهد محمد باي المرادي إذ عينه خازندار³ ولم يبلغ سنّ العشرين، وكان ذلك قبيل سنة 1075هـ-1664م ثم أصبح كاهية، وعندما تولّى رمضان باي عينه آغا صبايحية الترك، واستمرّ في هذا المنصب مكلفا بصرف رواتب الإنكشارية⁴.

1. حول حياة هذا الباي وتأسيسه لعدد هام من المعالم وترميمه لعدد آخر، راجع: الصغير بن يوسف، المشرع الملكي، مصدر سابق، ص 18، حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان مصدر سابق، ص 115، 153، السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج 3، مصدر سابق، ص 55، 76، محمد سعادة، قرّة العين.... مصدر سابق، ورقة 92، أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان... ج 2، مصدر سابق، ص 100 وما بعدها.

2. الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج 1، ص 43.

3. خزندار أو خازندار وخزنة دار، كلمة عربية فارسية مركبة من الخزنة أو الخزينة العربية، وكلمة دار الفارسية التي يقصد بها الصاحب أو السيد، أي صاحب الخزنة، بمعنى أمين صندوق الدولة، استخدمت كرتبة ووظيفة حسابية في العصر العثماني وكذا المملوكي في مصر والشام، وفي بلدان المغرب والهند، وفي تونس استخدمت في أوائل القرن 12هـ/18م، كوظيفة خاصة، يكلف صاحبها بضبط مصاريف ما يرد له من مال مخدومه، ثم أصبحت تدل على وظيفة حكومية بما يساوي تقريبا وزير المال حاليا، حيث كان للخزندار إدارة خاصة به وكتاب وملحقون به، حول هذه الوظيفة وتاريخها أنظر:

Arnold,(T.W) et Autres, **Encyclopedie de l'Islam**, dictionnaire géographique, ethnographique et biographique des peuples musulmans, T4, Leyde Brill et Paris Klincksieck, 1934, p1219.

4. حول هذه الوظائف أنظر: مصطفى بركات، مرجع سابق، ص 183، 186.

رغم التقلّبات السياسية التي عصفت بهرم السلطة في أواخر العهد المرادي، تمكّن حسين بن علي من الحفاظ على موقعه بل ودعمه، متنقلاً في خدمة المراديين والمنقلبين عليهم معا.

إنّ استمرار حسين بن علي في السلطة طيلة فترة اتسمت بالكثير من التقلّبات السياسية يكشف عن قدرته على التكيف مع الأوضاع الأشدّ توتّراً، وهو ما جعله يكتسب تجربة سياسية وإدارية فريدة من نوعها، وعندما حدث فراغ سياسي غداة أسر إبراهيم الشريف من قبل إنكشارية الجزائر في ربيع الأول 1118هـ، جويلية 1705م قرّر الجند تعيين حسين بن علي بايا على تونس، ويذكر ابن أبي الضياف ثلاث بيعات له في تواريخ مختلفة، كانت أولاها في 12 جويلية 1705 بالقصبة "وشهد بيعته الملاء من العلماء والعسكر وأعيان البلاد"، وهو ما اعتبر فيما بعد مصدرا للشرعية الدينية والتاريخية للعائلة الحسينية¹.

لقد أصبحت البلاد في صائفة 1118هـ - 1705م في حاجة إلى من يتصدّى للخطر الذي يشكّله الجيش الإنكشاري لإيالة الجزائر، فما كان من حسين بن علي إلا أن عمل على واجهتين: الأولى دبلوماسية بمحاولة عقد صلح مع الجزائريين والأخرى عسكرية بتحسين تونس العاصمة وذلك بحفر خندق وإتمام الأبراج حولها وتحريض الناس على القتال، ولما فشلت المساعي الدبلوماسية لم تسقط العاصمة أمام الهجوم العسكري لـ 40 ألف جندي من الجزائر وانتهى الأمر في الأخير إلى انسحاب المهاجمين، وهو ما أسهم في دعم شرعية حسين بن علي وأهليته للقيادة، وقد نجح في ذلك ليدخل أخيرا إلى القصبة يوم 3 جانفي 1706م².

يلخّص ابن أبي الضياف عهد حسين بن علي بقوله "كانت أيامه كالخصب بعد الجذب والأمن بعد الرعب والسلم بعد الحرب كثير المآثر والخيرات"، ومن الثابت أنّ للرجل بعض المآثر إذ اهتمّ بالمنشآت التعليمية، فبنى مدارس بالحاضرة تونس (منها الحسينية الصغرى والنّحلة ومدرسة الجامع الجديد) ومدارس أخرى في **سوسة والقيروان وصفاقس ونفطة**، كما اهتمّ بالمنشآت المائية ومنها فسقية الملاسين "مورد الحاضرة"، كما أقام عددا من القناطر بضواحي العاصمة وفي داخل البلاد، لكنّ عهده تخلّته من جهة أخرى حرب أهلية مدمّرة³.

1. أحمد بن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص 112.

2. نور الدين بوثوري، **الكتاب الباشي، دولة حسين بن علي**، دراسة لنيل شهادة الكفاءة في البحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة التونسية، تونس، 1980-1981م، ص 48.

3. أحمد بن أبي الضياف، مصدر سابق، ص 77، أنظر كذلك: الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ص 18 وما بعدها.

عندما تولى حسين بن علي السلطة لم يكن لديه أبناء، فما كان منه إلا أن تبنى ابن أخيه علي بن محمد وسهر على تربيته وتكوينه، ولما بلغ السابعة عشرة من عمره فسح له المجال لممارسة السلطة بتعيينه للخروج بالأعمال، ولكّنه رزق في الأثناء ثلاثة أولاد من جارية جنويّة الأصل، هم علي التوالي محمد الرشيد (1122هـ/1710م) وعلي (1124هـ/1712م) ومحمود، وما أن اشتدّ عود ابنه البكر محمد حتى بدأ يفكر في تقديمه على حساب ابن أخيه "ومحبّة الولد طبيعية في البشر، وله أسوة بمن تقدمه من الملوك" كما يقول ابن أبي الضياف، وحتى يعوض ابن أخيه ما خسر استجلب له لقب الباشا من الإستانة وكلف ابنه محمد باي بالسفر للأعمال، غير أنّ علي باشا ما لبث أن خرج في فيفري 1728م من العاصمة باتجاه جبل وسلات نائراً على عمّه¹، وكان ذلك بداية حرب أهلية دامت طويلاً، انقسمت البلاد طيلتها بين شقين: **حسيني نسبة إلى حسين بن علي وباشي نسبة إلى علي باشا.**

كان من أنصار الحسينيين مدن القيروان وسوسة والمنستير والمهدية وشفابس وقبائل جلا والهمامة وأولاد عون وأولاد سعيد... دامت الجولة الأولى من تلك الحرب قرابة السنة والتصف (فيفري 1728 إلى أوت 1729م) وقد أسفرت عن هزيمة علي باشا وفراره إلى الصحراء ثمّ إلى الجزائر حيث أسر هناك ثمّ أطلق سراحه، وأرسل معه سنة 1148هـ - 1735م جيشاً للاستحواذ على عرش تونس، لتبدأ بعدها الجولة الثانية من الحرب، انهزم فيها حسين بن علي في سبتمبر من تلك السنة، فانسحب إلى القيروان ولم يبق له نفوذ إلا في بعض المدن في وسط البلاد وخاصة في الساحل على حين دخل علي باشا العاصمة واستولى على السلطة فيها بمساعدة الجيش الجزائري².

استمرّ وجود حسين بن علي وأبنائه بالقيروان بضع سنوات دارت في أثنائها عدة معارك بين الجانبين، كانت آخرها تلك التي حاصر فيها يونس ابن علي باشا مدينة القيروان وتمكّن من دخولها في ماي 1740م، في حين تسلّل حسين بن علي إلى خارجها، فلاحق به يونس وقتله، وأرسل برأسه إلى والده علي باشا، ودفن بترية الباي³. رغم النهاية المأسوية لحسين بن علي، فإنّ مصير أبنائه كان أسعد حالاً إذ عادوا بعد سنوات إلى السلطة التي استمرّت بأيدي سلالتهم لمدة قرنين ونصف القرن من الزمن.

1. ابن عبد العزيز حمودة، مصدر سابق، ص 63.

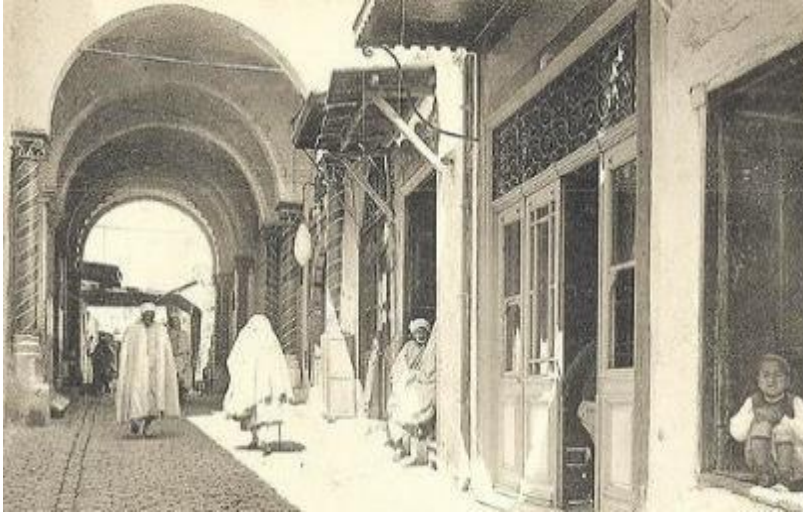
2. محمود مقيدش، مصدر سابق، ص 160.

3. محمد الباجي بن مامي، **توب مدينة تونس**، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، تونس، 2004م، ص 20.

4.2 مكانة المدرسة التاريخية وأهميتها العلمية:

أسس حسين بن علي مدرسة النخلة لتدريس القرآن الكريم، واللغة العربية وحبسها على طلبة المذهب المالكي الواردين إليها من مختلف البقاع، وحصر عددهم في 14 طالبا، ورتب مرتبات للشيخ والطلبة، كما عين بها إماما¹.

يعدد الباحث أحمد السعداوي العقارات التي أقيمت عليها المدرسة النخلة وأوقافها، فيذكر ثمانية أوقاف أغلبها دكاكين بالإضافة إلى مخازن وسجن، وقد بني مكانها فندقان وسوق به 19 دكانا وأضيفت إلى تلك العقارات أوقافا أخرى سنة 1143هـ - 1730م²، وكان يستفيد من تلك الأوقاف شيخ المدرسة الذي كان يتقاضى ناصريين³ يوميا، وإمام الخمس، وقيم المدرسة ووكيلها ويتقاضى كل واحد منهم أربعة نواصر، في حين



كان يتقاضى الطلبة وإمام الكتاب نصف ذلك المبلغ أي ناصريين اثنين⁴.

أول من تولى مشيخة المدرسة هو أبو عبد الله محمد بن محمد الحضراوي 1714م⁵، الذي درس قبل ذلك بجامع محمد باي ثم بجامع الزيتونة، وكان متضلعا في

الصورة رقم 91: صورة قديمة لنهج الكتبية التي تفتح عليه مدرسة النخلة وأوقافها (دكاكين ومخازن)

1. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد، مرجع سابق، ص 171.

2. Ahmed Saadaoui, Op. Cit, p 144.

3. الناصري التونسي: وهو تقسيم نقدي قديم استخدمته تونس، كان يساوي 24 من الناصري التونسي واحد ريال تونسي، يعود تاريخه للخليفة الموحد الرابع محمد الناصر الذي حكم ما بين 1199 و1213م، وفي الفترة العثمانية تم سكه في فترتين مختلفتين، الفترة الأولى تم سكه في عام 1761م، والفترة الثانية تم سكه في عام 1872م، للمزيد حول هذه العملة ينظر:

Paul Sebag, **Les monnaies tunisiennes au XVIIe siècle**, Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, n°55-56, semestriel, numéro accessible en ligne: <http://remmm.revues.org>, Aix-en-Provence, Année 1990, p258 .

4. Ahmed Saadaoui, Op. Cit, p 145.

5. الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج1، ص 31.

الرياضيات، وبعده درس الشيخ أحمد بن علي بن عبد الصادق الطرابلسي سنة 1159هـ-1764م، كما تولى التدريس بها الشيخ العلامة المفتي محمد البنا الذي قال عنه ابن خوجة أنه كان شديد الحياء لا ينظر لأحد وجها بوجه حتى أن تلاميذه لا يعرفون لون عينيه ومن بعده تولى المشيخة قاضي الجماعة في عصره العلامة الشيخ محمد النيفر رحم الله الجميع¹.

ومن بين اوائل الطلبة الذين تخرجوا من هذه المدرسة وأخذوا عن الشيخ الخضراوي نذكر أحمد بن محمد الشريف وأبو العباس أحمد زروق وحسن الهدة السوسي ومحمد بالعابدين القفصي².

مع مرور الوقت تحولت وظيفة مدرسة النخلة التي كانت لتعليم وإقامة الطلبة حيث اقتضت على طلبة جامع الزيتونية، وفي حين كانت طاقة إيوائها 14 طالبا طبقا لعدد الغرف أصبح يقطن بها سنة 1349هـ-1930م أكثر من 33 طالبا³، ومن بين الذين أقاموا بها في هذه الفترة، **الحضر حسين** الذي تولى إمامة الجامع الأزهر والعلامة الجزائري **عبد الحميد بن باديس**، كما أقام بها الرئيس **هواري بومدين** وعدة علما بارزين من المغرب والجزائر وليبيا وعدة بلدان أخرى⁴.

كان الطلبة المتميزون في الدراسة بجامع الزيتونة لهم حق الإقامة في مدرسة النخلة ولهم فيها مسجد يرتلون فيه القرآن ويدرسون العلوم الأخرى بجامع الزيتونة، وبعد إلغاء التعليم الزيتوني وقع الاهتمام بها في السبعينات مثل عدد آخر من المدارس المماثلة وتم ترميمها عام 1400هـ-1979م كما تم تصنيفها ضمن قائمة التراث الثقافي التونسي المحمي⁵، ثم وخصصت لتحتضن مقر الجمعية القرآنية الجهوية بتونس التابعة لرابطة الجمعيات القرآنية، لتعليم أحكام التجويد والقراءات والفقهاء واللغة العربية بإدارة الشيخ محمد الهادي بالحاج ثم الشيخ عثمان العياري ثم الشيخ عثمان الأنداري رحمهم الله جميعا.

1. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد، مرجع سابق، ص 197.

2. حسين خوجة، مصدر سابق، ص 125، 135.

3. محمد ضيف الله، الحركة الطلابية التونسية (1927-1939)، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس 1999م، ص 82.

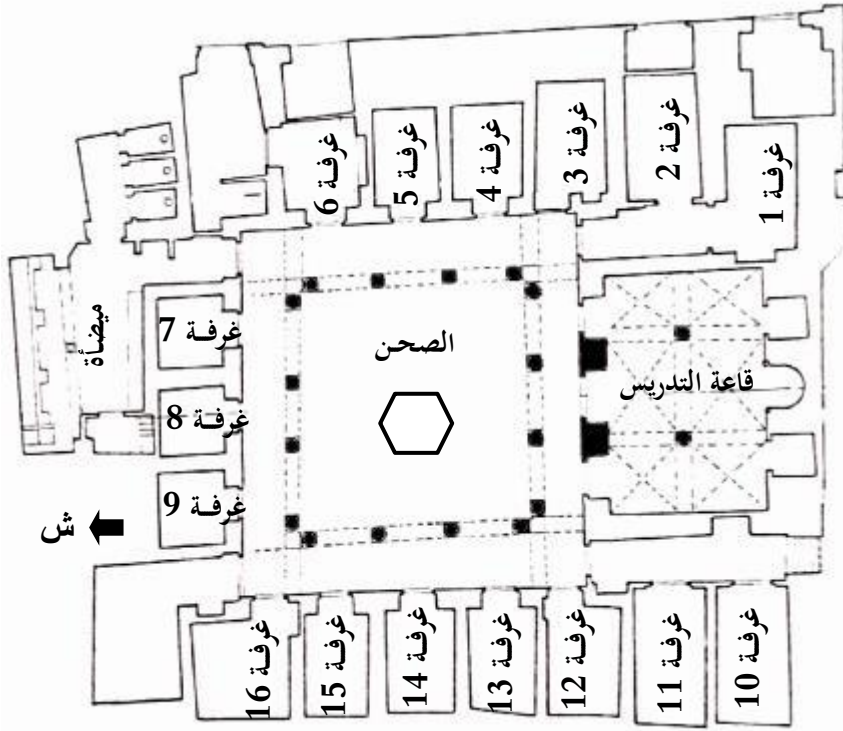
4. حسب ما افادتنا به مديرة مدرسة النخلة القرآنية حاليا السيدة سلمى الشريف التي كان لنا معها لقاء في صحن المدرسة بتاريخ الأحد 22 ديسمبر 2019م.

5. المعهد الوطني للتراث، المعالم التاريخية والأثرية المرتبة والمحمية للبلاد التونسية، وزارة الثقافة، تونس، ماي 2012، ص 14.

5.2. الدراسة الوصفية للمدرسة:

أ. المخطط العام:

بنيت مدرسة النخلة على شكل مربع، تقدر مساحتها الإجمالية حوالي 530م²، طول كل ضلع فيها 13.30م²، تشمل كتلة المخطط العام، الصحن الذي يحيط به الأروقة من جهاته الأربعة والتي تفتح عليها غرف الطلبة من الجهات الشمالية والغربية والشرقية فيما تفتح في الجهة الجنوبية قاعة التدريس والصلاة (المخطط رقم 22)، وما يلاحظ على هذا المخطط أنه اقتصر على الطابق الأرضي فقط على خلاف بعض المدارس الأخرى في نفس الفترة سواء في الجزائر أو في تونس، ونفس الشيء بالنسبة لبعض المرافق التي لها عادة ارتباط بمثل هذه المباني مثل الأضرحة والمسجد.



المخطط رقم 22: مخطط مدرسة النخلة

(عن بن مامي بتصريف)

ب. الوصف الخارجي:

تطل المدرسة بواجهتها الرئيسية على نهج الكتبية في الجهة الشمالية الشرقية وهي الواجهة الوحيدة المفتوحة على الخارج بمدخلها الرئيسي، في حين جاءت الواجهات الأخرى متلاصقة لبعض المساكن والمحلات من الجهتين الجنوبية والغربية، وتلتحم مع المدرسة الباشية بواجهتها الشرقية.

الواجهة الرئيسية يتخللها محلات كانت ضمن الأوقاف التي أوقفها حسين بن علي على المدرسة، وهي الآن مستأجرة لبعض الحرفيين والتجار، أما المدخل فهو يتمركز في أقصى الجهة الغربية للواجهة الشمالية، يكتنفه باب خشبي ضخم بدفتين مزين بسبع صفوف من المسامير المدببة ومقبض في كل دفة بمثابة مطارق للباب، أما الإطار



الخارجي للمدخل فهو مكون من ثلاث أطر، الأول حجري بنفس تقنية بناء جدار الواجهة، والثاني إطار داخلي عرضه 15 سم، أما الثالث فهو الإطار الداخلي الذي يحف الباب عرضه 45 سم، وهو رمادي اللون موشح بجملة من الزخارف النباتية والرمزية نفذت بتقنية الحفر البارز شبيهة إلى أبعد الحدود بزخارف أطر الأبواب التي تزين مداخل المدرسة الناصرية بحنقة سيدي ناجي بالجزائر (الصورة رقم 92).

الصورة رقم 92: مدخل المدرسة في الواجهة الرئيسية

ت. لوصف الداخلي:

يتم الدخول إلى المدرسة من المدخل الرئيسي الذي يفضي مباشرة إلى سقيفة أولية مستطيلة الشكل طولها 5م وعرضها 2.50م، ومنها إلى سقيفة ثانية على الجهة اليسرى، هي أصغر حجما من الأولى وتأخذ الشكل المربع طول أضلاعها 2.60م، مغطاة بقبو متقاطع به زخارف جصية هندسية ورمزية، وتفتح في جهتها الجنوبية مباشرة على الرواق الشمالي للصحن. (الصورة رقم 92).

الصحن جاء شكله شبه مربع تقريبا يبلغ طول جداريه الشرقي والغربي 10.50م أما جداريه الشمالي والجنوبي فيبلغا 11.20م، تحيط به أروقة من جهاته الأربع وتفتح عليه بواسطة بوائك تتكون من ثلاث عقود حدوية في كل بائكة تحملها أعمدة حجرية أسطوانية الشكل تقوم على قاعدة مربعة وتحمل تيجان من الطراز العثماني ذو

الزوايا الحلزونية المعروف في الكثير من المباني الدينية والمدنية في كل من الجزائر وتونس، كما تستند الزوايا الأربعة للصحن على عمودين اثنين تدعمهما دعائم حجرية من الحجر الكلسي القاسي التي بنيت به معظم أجزاء المبنى، مما أضفى عليه مسحة جمالية ناهيك عن الدور المعماري الذي يقوم به والمتمثل في تخفيف الثقل عن العقود والأعمدة (الصورة رقم 94).

يفتح على الأروقة المحيطة بالصحن من جميع جهاته غرفا، باستثناء الجهة الجنوبية التي تفتح عليه بيت الصلاة، وأما الغرف فمنها ما هو مخصص للدراسة ومنها غرفا لمبيت الطلبة، ومنها ما خصص للمدرسين ولأئمة الذين تداولوا على التدريس في هذه المدرسة (الصورة رقم 93).



الصورة رقم 93: السقيفة المشرفة على الصحن

ت1. قاعة الدروس (بيت الصلاة):

تفتح على الرواق بالواجهة الجنوبية الشرقية للصحن قاعة التدريس الكبرى التي هي في نفس الوقت بيت الصلاة لاحتوائها على محراب مجوف يتوسط الجدار الجنوبي من القاعة، يتم الدخول إلى إليها من الرواق المطل على الصحن من خلال الباب الرئيسي الذي يتوسط بابان ثانويان، حلي الباب الأوسط بمسامير مدببة يحيط به إطار



الصورة رقم 94: الصحن تحيط به الأروقة (الأعمدة، التيجان، العقود)



ينقسم إلى قسمين، القسم الأعلى يتوسطه عقد متكون من 21 صنجة من حجارة الكذال الكلسية متناوبة بين البيضاء والسوداء، بنفس نمط العقود الموجودة في المدارس الباشية والسليمانية، وهذا العقد يقوم على قسم أسفل مكون من عضادتان حجريتان حليت قاعدتهما بزخارف نباتية انتشر استعمالها في المدينة العتيقة انطلاقاً من بداية العهد العثماني في تونس (الصورة رقم 95).

يفضي المدخل إلى قاعة مستطيلة اتخذت كمصلى وقاعة للدرس

تبلغ مساحتها 34.78م²، طول جداريها الجنوبي

والشمالي 7.40م فيما قدر طول جداريها الشرقي

الصورة رقم 95: مدخل قاعة الدروس (بيت الصلاة)

والغربي ب 4.70م، بها ثلاث بلاطات عمودية على جدار القبلة وأسكوبين موازيين له، البلاطات والأسايب

تشكلها بائكتين بكل بائكة عمودين حجريين ارتفاعهما 1.75م بتيجانها ذات الطراز الحفصي وبعقودها

الحدوية المترابطة فيما بينها بواسطة العوارض الخشبية.



يتوسط جدار القبلة في الجهة الجنوبية

حنية المحراب بواجهتها التي تشبه إلى حد

كبير واجهة المدخل الرئيسي للقاعة

وتتميز عنها بجنيتها النصف كروية

المزخرفة بزخارف جصية مخرمة متمثلة في

أشكال هندسية ونباتية متنوعة أما

تسقيف القاعة فهو عبارة عن أقبية

مقاطعة تغطي جميع أرجاءها وترتكز

على الأعمدة الحجرية يكتنفها زخارف

الصورة رقم 96: قاعة الدروس (بيت الصلاة)

جصية شبيهة بتلك الزخارف التي توشح جدران

السقيفة والتي تقوم على نجمة مثمثة مخرمة بأشكال هندسية، ويجدها يمينا وشمالا زخرفة نباتية على شكل شجرة

السرو، وتكرر هذه الزخارف على طول الجدار. (الصورة رقم 96).

ت2. بيوت الطلبة:

تضم مدرسة النخلة 16 غرفة تفتح منها 12 غرفة على الأروقة المطلة على الصحن من جهاته الأربعة، بينما تفتح الأربعة الباقية على أروقة صغيرة تحيط بقاعة التدريس والصلاة يتم الولوج إليه من خلال الصحن طوله حوالي 6.5م، اثنان منها على يمين القاعة والاثنان الباقيتان على يسارها، مقاسات هذه الغرف بالنسبة للتي على يمين القاعة متقاربة تبلغ كل منهما 4.30مX2.30م، أما بالنسبة للتي على اليسار فتبلغ الأولى 2.70مX2.10م والأخرى مقاساتها 3.80مX2.25م (الغرف 1 و2 و10 و11 في المخطط رقم 22).

بالنسبة للغرف 12 المطلة على الصحن، نجد 04 منها تفتح على الرواق الغربي، أكبرها حجما الواقعة في الزاوية الشمالية الغربية (الغرفة رقم 3 في المخطط رقم 22، الصورة رقم 97)، أما الثلاث الأخرى فلها نفس الأبعاد 2.50مX2.25م، (الغرف 4 و5 و6 في المخطط رقم 22).

أما بالنسبة للغرف التي تفتح على الرواق الشرقي من الصحن فعددها 05 مقاساتها متقاربة تقريبا ما بين 3مX2م (الغرف 12 و13 و14 و15 في المخطط رقم 22)، بينما تختلف الغرفة الأخيرة عنها فهي مربعة الشكل طول كل من أضلاعها 3.20م (الغرفة رقم 16 في المخطط رقم 22).



أما بالنسبة للغرف الثلاث المتبقية فهي تفتح على الرواق الشمالي المقابل لقاعة التدريس والصلاة، غرفتين لهما تقريبا نفس المقاسات 3مX2.15م (الغرفتين رقم 8 و9 في المخطط رقم 22) بينما الغرفة الثالثة أكبر حجما يبلغ مقاساتها 4.10مX3.50م (الغرفة رقم 07 في المخطط رقم 22).

الصورة رقم 97: الغرفة الكبرى بالزاوية الشمالية الغربية لايزال

يدرس بها القرآن الكريم إلى اليوم

تحيط بكل أبواب الغرف أطر حجرية بسيطة يبلغ عرضها حوالي 40سم خالية من أي زخارف، وتضيئ كل الغرف المطلة على الصحن بنوافذ تعلو الأبواب طولها 1.20م وعرضها 0.80م، (الصورة رقم 98) بينما

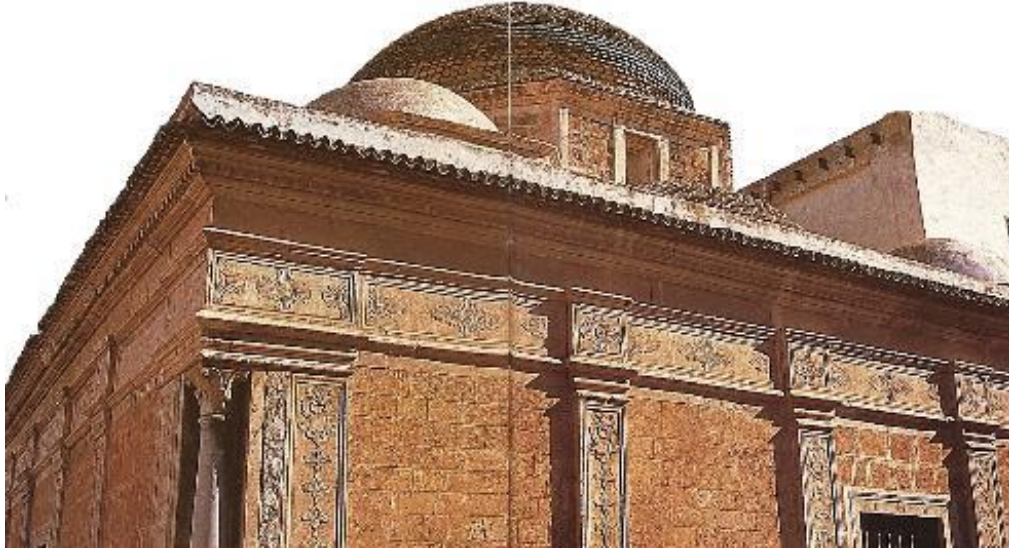


الصورة رقم 98: أبواب غرف الطلبة التي تفتح على الأروقة وتعلوها النوافذ للتهوية والإضاءة

أضيئت الغرف الأربعة الأخرى التي لا تطل على الصحن بفتحة في سقف كل واحدة منها، وقد سقفت كل هذه الغرف بأقبية نصف برميلية. بالنسبة للمراحيض والميضاة بنيت في آخر الواجهة الشمالية خلف الغرف الثلاث وهي مكشوفة باستثناء قسم صغير منها يقع في شمالها مسقف بأقبية متقاطعة.

ت3. الأضرحة:

ان ما تتميز به مدرسة النخلة عن غيرها من مدارس مؤسس الدولة الحسينية أنها تخلو من الأضرحة والقبور العائلية أو حتى أضرحة الأولياء والمشايخ الذين تعاقبوا على التدريس بهذه المدرسة، خلاف المدرسة الأولى التي أسسها حسين بن علي وهي المدرسة الحسينية الصغرى التي الحق بها التربة الصغرى أو الفرعية خاصة بالبايات الحسينيين والتي تعرف بتربة الفلاري (الصورة رقم 99)، وكذا المدرسة الثالثة وهي مدرسة الجامع الجديد التي الحق بها هي الأخرى مقبرة بها أضرحة وقبور لأفراد من العائلة الحسينية وبعض العلماء الذين درسوا بها.



الصورة رقم 99: أضرحة البايات الحسينيين بمدينة تونس

(عن بن مامي بتصريف)

ث. التجديدات التي طرأت على المدرسة:

بعد إلغاء التعليم في جامع الزيتونة في مطلع السبعينيات، وقع الاهتمام بمدرسة النخلة كمعلم تاريخي مهم مثلها مثل العديد من المدارس المماثلة وتم ترميمها سنة 1979م بإدخال بعض التعديلات على الميضأة وتجديد بعض أجزاء السقف وكذا ملئ التشققات التي أصابت الواجهات الرئيسية المطلّة على الصحن والناجحة عن تسرب مياه

الأمطار والحرارة (الصورة رقم 100)،

وبعدها خصصت المدرسة لتحتضن

مقر الجمعية القرآنية الجهوية بتونس

التابعة لرابطة الجمعيات القرآنية بعد

تصنيفها كمعلم أثري محمي من قبل

وزارة الشؤون الثقافية التونسية سنة

1992م، وفيها يتم حاليا تحفيظ

القرآن الكريم وبعض الدروس في الفقه



الصورة رقم 100: ترميمات على الواجهة الجنوبية المطلّة على الصحن

المالكي.

3. المدرسة الجديدة (مدينة تونس):

1.3. الموقع الجغرافي للمدرسة:

تقع مدرسة الجامع الجديد أو المدرسة الجديدة وسط بمدينة تونس العتيقة، تفتح بواجهتها الرئيسية على زقة سيدي قاسم الصبابطي والمفتوح في جهته الشمالية على نّحج الصباغين، وتشكل جزءا من المركب المعماري الذي يتكون من الجامع والتربة والسبيل والمدرسة والكتاب، وهي الوحيدة التي تحتل صحن الجامع في تونس في الفترة العثمانية حيث أن هذين العنصرين مستقلان عن بعضهما بالنسبة لبقية الجوامع والمدارس المحاذية لها. ما يمكن ملاحظته عموما على موقع المدرسة أنّها تقع في أحد أقدم الأحياء الموجودة داخل المدينة العتيقة وبالتحديد بالقرب من باب الجزيرة بسوق الصباغين لذا فهي محاطة بالعديد من المعالم الدينية التاريخية الأخرى خاصة الأضرحة والزوايا منها زاوية سيدي المسدوري التي تقع في الجهة المقابلة لمدخل المدرسة (الصورة رقم 101).



الصورة رقم 101: موقع مدرسة جامع الجديد وواجهتها الرئيسية على زقة بلقاسم الصبابطي

2.3. التأسيس والمؤسس:

بالنسبة للتأسيس تعتبر مدرسة جامع الجديد آخر المدارس الثلاث التي أسسها حسين بن علي داخل مدينة تونس، بعد المدرسة الحسينية الصغرى ومدرسة النخلة، ورغم أن تاريخ التأسيس مدون على النقيشة الرخامية الحديثة المثبتة على واجهة المدخل الرئيسي والتي تشير إلى سنة 1130هـ-1717م (الصورة رقم 101)، ولكن حسب ما جاء في بعض المصادر التاريخية أن حسين بن علي شرع في بناء المسجد والمدرسة سنة 1136هـ-1723م حيث يذكر ذلك حسين خوجة في كتابه **بشائر أهل الإيمان**¹، إضافة إلى أحمد بن أبي الضياف في كتابه **تحاف أهل الزمان** وقال أن أول صلاة بجامعها كانت صلاة ظهر يوم الأحد 14 شعبان 1139هـ/16 أبريل 1727م، وقد أطلق عليها اسم الجامع الجديد لمجاورتها له واشتراكها معه في نفس البهو، أقيمت على أرض كان بها ثلاث خمارات هدمها، وبنى مكانها دورا للسكن، بالإضافة إلى الجامع والصومعة والمدرسة والترية التي أعدها لنفسه².

ويفيدنا الصغير بن يوسف في **المشروع الملكي** أن الباي حسين بن علي بنى مدرسة عظيمة الشأن في غاية الإتقان وجعل شيخها وطلبتها للمالكية... أنفق أموالاً طائلة في بناء الجامع والمدرسة، وأنه جلب أعمدة الرخام من إيطاليا، بينما أتى بالزليج من إسطنبول³.

وبما أن صحن الجامع قد احتوى على المدرسة فمن المنطقي أن تكون بداية تشييد الجامع قبل تشييد المدرسة إلا أن الصغير بن يوسف يرى عكس ذلك فهو يذكر أن حسين بن علي ابتداءً في البناء أول الأمر بالمدرسة ثم بنى بعد ذلك التربة العظيمة في غاية ما يكون من الزخرفة... ثم أمر بجد واجتهاد في بناء الجامع بإزاء التربة والمدرسة⁴.

1. حسين خوجة، مصدر سابق، ص 57، 58.

2. أحمد بن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 2، ص 125، 126، أنظر كذلك محمد سعادة، مصدر سابق، ورقة 44.

3. الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ص 31.

4. نفسه، ص 32.

أما بالنسبة لمؤسس هذه المدرسة فهو **حسين بن علي** مؤسس الدولة الحسينية وأول باباتها، والذي سبق أن قدمنا له ترجمة عن حياته وأهم منجزاته المعمارية في بداية هذا الفصل¹.

3.3. مكانة المدرسة التاريخية وأهميتها العلمية:

لعبت مدرسة جامع الجديد دورا كبيرا في نشر التعليم وتلقين مختلف المعارف والعلوم النافعة من تفسير القرآن الكريم ونشر الأحاديث وتلقين مختلف الفروع الفقهية وعقائد التوحيد والكتب الأدبية في سائر العلوم العقلية والمنطق²، وخصها **حسين بن علي** بأوقاف واسعة مؤرخة في سنة 1142هـ/1730م منها المطاحن والأفران والفنادق والدكاكين والمتاجر والمنازل المتفرقة وللخلاص أجور الموظفين القائمين على صيانة الجامع بكل عناصره بالإضافة إلى دفع أجور المدرسين والأئمة والوكلاء وغيرهم من العاملين بالمدرسة، أضاف إليها ابنه **الباي محمد الرشيد** ثالث بابات الفترة الحسينية تحاييس أخرى لفائدة المدرسة والجامع سنة 1171هـ/1757م³.

وقد تولى مشيخته أبرز العلماء والمشايخ، يذكر المؤرخ الشيخ أحمد بن أبي الضياف أن أول خطب بجامع المدرسة الفقيه **أبو العباس أحمد بن مصطفى النميشي** الحنفي واشترط أن يكون الطلبة فيه من الحنفية، ورتب بمدرسة الجامع مدرسا مالكيًا واشترط أن يكون طلبتها من المالكية⁴.

يذكر الشيخ محمد سعادة أن **الباي حسين** عندما شرع في بناء المدرسة عزم على أن يرتب فيها أربعة من المشايخ فشيخ فيها فيما شاع عنه في سائر العلوم والتفسير **أبا عبد الله محمد زيتونة** وفي علوم الحديث **أبا العباس أحمد بورناز** صاحب كتاب الشهب المحرقة، وهو عازم عند تمام ذلك على تعيين الشيخين الباقيين وإداره عليهم وعلى الكلية من المرتبات وافر العين⁵.

واختيار **حسين بن علي** لهذين الشيخين ناتج عن شهرتهما بالعلم فهما من أهم علماء تلك الفترة لكن من الواضح أنهما لم يستطيعا التدريس بالمدرسة الجديدة فقد كانت وفاة كيليهما سنة 1139هـ/1726م، ولم يتم

1. أنظر الصفحة 163.

2. محمد بن الخوجة، مرجع سابق، ص 199.

3. نفس المرجع، ص 133.

4. أحمد بن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 2، ص 125.

5. محمد سعادة، مصدر سابق، الورقة 41.

بعد الانتهاء بعد من بناء المدرسة، وهذا التأكيد من قبل سعادة على اختيار حسين بن علي لهذين الشيخين أدى إلى غلط بعض المؤرخين الذين ظنوا أن زيتونة وبرناز قد توليا التدريس فعلا في هذه المدرسة¹.

أما أول من درس في هذه المدرسة فهم أربعة مشايخ وهم أحمد بن محمد بن أحمد الشريف وأبو عبد الله محمد الحركافي الحنفي وأبو العباس محمد بن مصطفى خوجه الشهير بقاره بطاق صاحب كتاب تحفة البررة بقراءة الثلاثة المتممين للعشرة وأبو الفلاح صالح بن سليمان الجري، ثم أصبح يعين أستاذ واحد بهذه المدرسة، منهم محمد بن أحمد البارودي الحنفي صاحب كتاب تعليم القاري في أحكام التجويد²، كما درس بها الشيخ أحمد الكيلاني ثم أحمد عاشور وتولاها بعده محمد النيفر³.



ومع نهاية القرن التاسع عشر تحولت وظيفة مدرسة جامع الجديد - مثلها مثل العديد من المدارس الأخرى- ليقصر دورها في إيواء طلبة الزيتونة حيث كان يقطن بها سنة 1925م، أكثر من 44 طالبا وهي التي لا تتجاوز طاقة استيعابها 20 طالبا فقط⁴.

وفي فترة الاحتلال الفرنسي لتونس أصبحت مدرسة جامع الجديد من أهم المعامل الطلابية التي وقع فيها نضال الطلبة الزيتونيين من أجل قضيتهم، لعل أبرزها مظاهرات 15 مارس 1910م، حيث انطلقت منها عشية ذلك اليوم جموع الطلبة متجهين نحو جامع

الصورة رقم 102: مدرسة جامع الجديد -فترة الاحتلال الفرنسي-

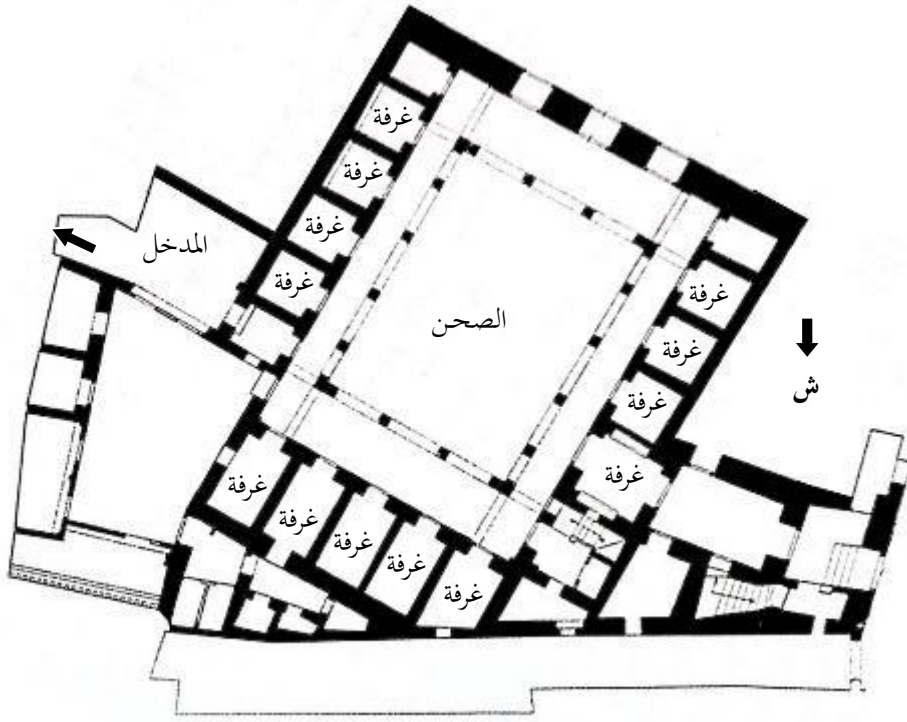
1. محمد الباجي بن مامي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني (7/13م)، مرجع سابق، ص 282.
2. محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982، ص 96.
3. محمد بن صالح الكناني، تكميل الصلحاء والأعيان لمعلم الإيمان في أولياء القبروان، مراجعة عبد المجيد الخيالي، ج5، ط1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005م، ص 203.
4. محمد ضيف الله، مرجع سابق، ص 83.

الريتونة ليلتقوا مع غيرهم من المتظاهرين الذين واجهتهم القوات الفرنسية بإطلاق الرصاص، وقد أفضت أحداث ذلك اليوم إلى استشهاد طالبين من المدرسة وجرح العشرات وإلقاء القبض على عدد آخر، وقد استقبلت مدرسة جامع الجديد الجرحى بما يؤشر على دور قاطنيها من الطلبة في أحداث ذلك اليوم¹.

4.3 الدراسة الوصفية للمدرسة:

أ. المخطط العام:

بنيت مدرسة جامع الجديد على شكل شبه مستطيل عرضها أكبر من طولها، 20.7م عرض و 17.5م طول وتشمل كتلة المخطط العام، الصحن الذي يحيط به الأروقة من جهاته الأربعة والتي تفتح عليها غرف الطلبة من الجهات الشمالية والغربية والشرقية فيما تفتح في الجهة الجنوبية على قاعة بيت الصلاة (المخطط رقم 23)، وما يلاحظ على هذا المخطط أنه يضم طابقين أرضي وطابق علوي، كما يضم في جهته الجنوبية جامع المدرسة الذي يدرس فيه الطلبة ويصلون به والمتميز بكبر حجمه وبثرائه المعماري والفني.



المخطط رقم 23: مخطط مدرسة جامع الجديد (عن بن مامي بتصريف)

1. الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية (رؤية شعبية قومية جديدة 1830-1956م)، ط2، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، (د.ت)، ص219.

ب. الوصف الخارجي:

تفتح مدرسة جامع الجديد وجميع مرافقها المعمارية (الجامع والتربة والسقاية) على واجهة واحدة بزنقة سيدي قاسم الصبابطي، الواجهة الغنية بتفاصيلها المعمارية والفنية خاصة وأن مداخلها مفتوحة على سباط مقبب بقبوين متقاطعين يحملهما صفيين من الأعمدة الحجرية المتقابلة والمتوجة بتيجان ذات طراز عثماني محلي مركب.



الصورة رقم 103: الواجهة الرئيسية على زنقة سيدي قاسم الصبابطي

أما عن التفاصيل المعمارية والفنية لهذه الواجهة فستتطرق لمدخل المدرسة وكذا السقاية في حين سنعود لاحقا للحديث عن مدخل المسجد لما نتطرق إلى هذا الأخير. جاء مدخل المدرسة بين العمودين اللذين يحملان القبو المتقاطع الأول وهو مدخل ضخم مبني بحجارة الكذال المصقولة الرمادية والتي تحيط بها ثلاث أطر حجرية أخرى بحجارة صغيرة يعلوها افريز بارز نوعا ما وينتهي المدخل في الأعلى بعقد منفرج تتخلله إطار زخرفي مربع (الصورة 103).



الصورة رقم 104: مدخل المدرسة وبابه الخشبي الخلي بالمسامير الحديدية

وما يجذب الانتباه في هذا المدخل هو غناه باللوحات الزخرفية المنقوشة بتقنية الحفر ذات المواضيع البارزة على مختلف الأطر التي تشكله أو حتى في الزوايا الأربعة لواجهة المدخل، هذه الزخارف معروفة على كل حال في العديد من المنشآت الدينية والمدنية التي تعود لهذه الفترة في مدينة تونس وغيرها من المدن.

مواضيع الزخارف متشابهة، تجمع في مجملها بين الزخارف الهندسية من خطوط ومربعات متشابكة ومعينات وزخارف رمزية كالنجوم والأهلة ناهيك عن الزخارف النباتية كالوريدات ذات الفصوص المتعددة والمتساوية والأغصان المنبتقة من المزهريات في وضعيات وأشكال مختلفة.

أما باب المدخل فهو باب خشبي ضخم مدعم وسميك يبلغ عرضه 1.45م وارتفاعه حوالي 03 أمتار وهو بدفتين حليت مختلف أجزائه دبابيس معدنية صغيرة وكبيرة على شكل خطوط عرضية داخل إطار عام، كما تعلو كل دفة فيه مطرقة أبواب بها مقابض دائرية الشكل (الصورة 104).

أما فيما يخص السقاية¹ الملحق بالمدرسة والموجود بين العمودين اللذين يحملان القبو المتقاطع الثاني بينها وبين المسجد، وهو من إنجازات ابن مؤسس المدرسة علي باي الثاني حسب نص النقيشة المثبتة أعلى السبيل.

1. السقاية وهي السبيل: مكان مخصص لتوفير المياه، يوجد في الطريق لسقاية المارة، والبعض منها يكون ملحق بالمسجد أو المدارس، كان الغرض من هذه الأسبلة هو غرض روحي، وهو كسب الأجر والثواب، وكانت هذه العادة عند المسلمين عبر العصور وذلك دليل على كرمهم ومروءتهم...لمزيد حول الموضوع أنظر: فداء محمد أحمد، الأسبلة المائية في العمارة الإسلامية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الهندسة المعمارية، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2010م.



يتمثل هذا السبيل في حوض داخلي من الرخام الأبيض موصول بطريقة مستمرة بالماء الصالح للشرب عن طريق ماجل المدرسة ويوضع في الحوض إناء معدني يمكن للمرء أن يتناوله من خلال الشباك المعدني الموجود في الواجهة الرئيسية لهذا السبيل، هذا الشباك المعدني الغائر قليلا على مستوى الجدار الخارجي يحف به إطار رخامي ومعقود بعقد حدوي منكسر تكونه صنجات مزرة عددها 25 صنجة تتناوب بين الرخامية البيضاء والحجرية السوداء وفق نظام الأبلق، وكان الغرض منها على ما يبدو معماري من خلال تخفيف الضغط على العمودين وزخرفي عن طريق تبادل ألوان هذه الصنجات، ويحمل العقد عمودان رخاميان رشيقتان بهما وسادتان ويقومان على قاعدتان مربعتان.

كما يحتضن العقد أعلى الشباك نقيشة رخامية بيضاء تؤرخ لتأسيس السبيل كتبت بخط مغربي فحواها ثمانية أبيات شعرية منقوشة بتقنية الحفر الغائر وملونة بالأسود تمدح السقاية ومؤسسها ختمت بتاريخ التأسيس سنة 1181هـ/1774م (الصورة رقم 105).



الصورة رقم 105: السقاية بمدرسة جامع جديد ولوحتها الرخامية التأسيسية

ت. لوصف الداخلي:

ت.1 السقيفة: يفضي الباب الخارجي للمدرسة إلى السقيفة التي تربط بين الفضاء الخارجي والصحن يتم الصعود إليها بثلاث درجات متكونة من ثلاث أقسام كل قسم به مدخل، القسم الأول يفضي مدخله إلى غرفة صغيرة خاصة بالحارس، أم القسم الثاني فيفضي مدخله إلى غرفة السقاية وفي أقصى يسار السقيفة في قسمها الثالث باب يفتح على صحن المدرسة (الصورة رقم 106).



الصورة رقم 106: السقيفة التي تلي المدخل الرئيسي والباب الذي يربط بينها وبين الصحن

ت.2 الصحن وملحقاته: يتم الدخول إلى صحن المدرسة إما عن طريق السقائف التي تتقدم المدخل الرئيسي أو عن طريق ثلاث مداخل تفتح عليه من بيت الصلاة في الجهة الجنوبية. يأخذ الصحن شكل المستطيل طوله من الشمال إلى الجنوب حوالي 17م ومن الشرق إلى الغرب حوالي 13.20م، تحيط بيه من الجهات الأربع أروقة، كل رواق يطل على الصحن ببائكة من الأعمدة التي تحمل عقود مترابطة بروابط خشبية، الأعمدة رخامية بيضاء عددها أربعة في كل رواق قطر كل واحد منها 35سم، وهي محصورة ما بين أربع دعائم في الزوايا الأربعة، تتصل مع الجدران بواسطة عقود داخلية متعارضة، وأعمدة بائكتي الرواقين الشمالي والجنوبي تحمل ثلاث عقود حدوية منكسرة في كل جهة بينما عددها في البائكتين الشرقية والغربية خمسة عقود من نفس نمط العقود الأخرى (الصورة رقم 107).

أما التيجان التي تركز عليها هذه العقود فهي على نمطين، النمط الأول ذو طراز حفصي بسيط مصنوع من حجر الكذال، أما النمط الثاني -وهو الغالب- مصنوع من الرخام مركب الشكل به زخارف نباتية ورمزية وينتهي بجزونيات أصاب التلف أجزاء منها خاصة في بائكة الرواق الغربي.

أما بالنسبة للأروقة التي تفصل الغرف عن الصحن فيبلغ عرضها في الجهتين الشرقية والغربية 2.10م أما عرضها في الجهتين الجنوبية والشمالية فهي حوالي 3 أمتار كسيت جدرانها بزليج حديث، وبلطت أرضيتها في الأروقة الشمالية والشرقية والغربية بحجارة الكذال المستوية بينما بلطت أرضية الرواق الجنوبي الذي يفتح على المسجد ببلاطات رخامية بيضاء (الصورة رقم 108).

وما تجدر الإشارة إليه أن صحن المدرسة هو نفسه يستخدم كصحن للمسجد الملاصق لها، من الجهة الجنوبية عكس بقية المدارس الأخرى التي تعود لنفس الفترة في مدينة تونس والتي إما أنها تحتوي على مصلى خاص بها يفتح على الصحن مباشرة كالمدرسة الباشية والنخلة والسليمانية وإما أن المسجد منفصل تماما عن المدرسة لكل منها مدخلها الخاص، مثلما هو الحال بالنسبة للمدرسة التوفيقية أو اليوسفية¹.

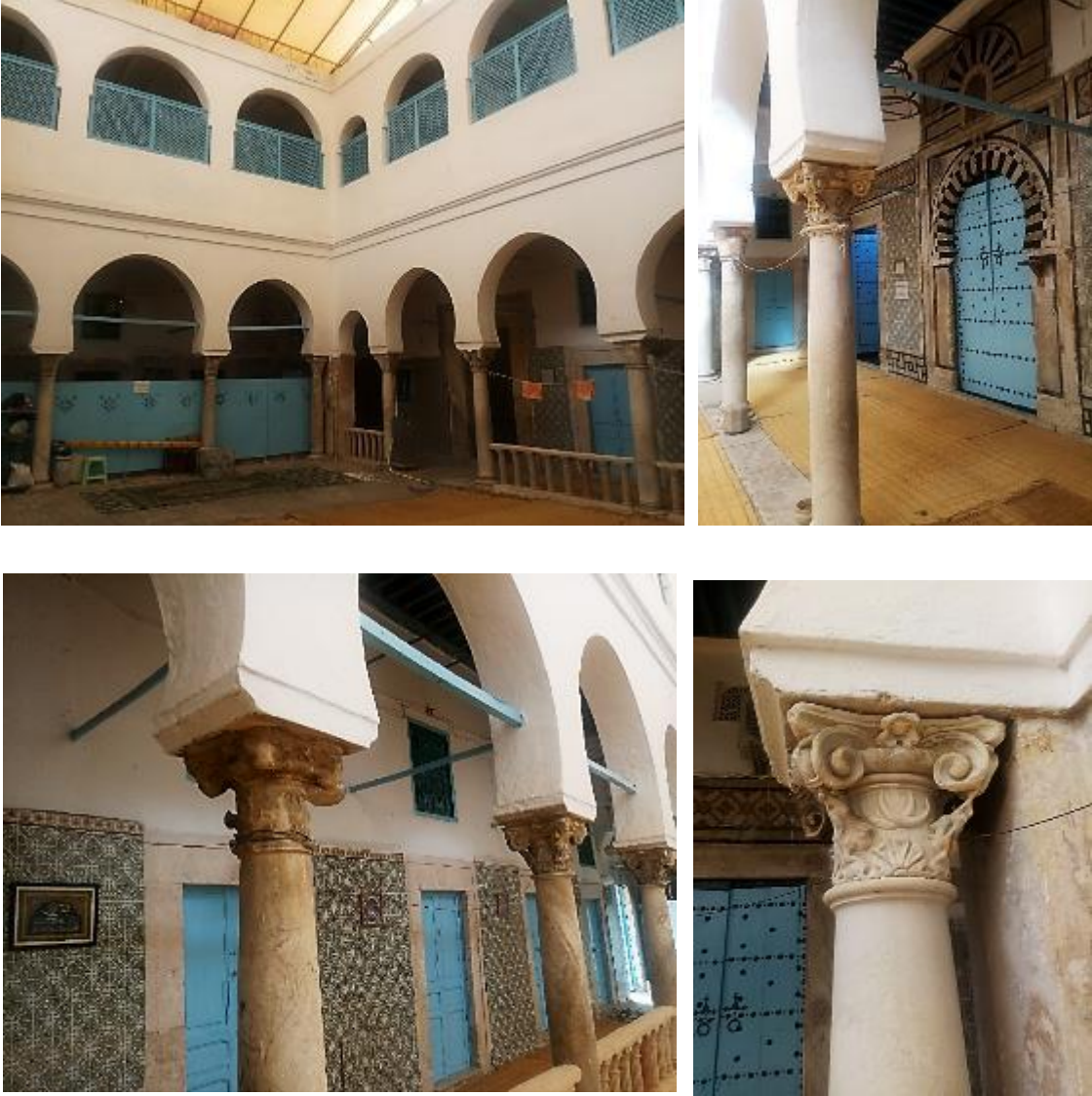


كما نشير إلى أن مدرسة جامع الجديد أضيف لها طابق علوي في فترات لاحقة استخدم كملحقة تابعة للمدرسة اليوسيفية التي بناها يوسف داي سنة 1613م، وبقيت تقوم بوظيفة إسكان طلبة جامع الزيتونة إلى آخر عهد التعليم به².

الصورة رقم 107: صحن المدرسة

1. تم تقديم فكرة عن هذه المدارس وظروف تأسيسها في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

2. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 289.



الصورة رقم 108: الأروقة التي تشرف على الصحن بأعمدتها الرخامية وتيجانها المركبة

الرواق الجنوبي من الصحن يختلف عن الأروقة الثلاثة الأخرى بحكم أنه يؤدي إلى بيت صلاة الجامع الجديد، ويتوسط واجهة الرواق ثلاث مداخل أكبرها وأجملها أوسطها بفتحة عرضها 1.47م وارتفاعها 2.93م وهو يشبه المحراب في تصميمه الذي يقوم على عقد حدوي تشكله صنجات مزررة عددها 33 صنجة تتناوب فيها البيضاء الرخامية مع السوداء الحجرية، ويحمل هذا العقد عضادتين رخاميتين موضوعتين على حواف الإطار الرخامي الخارجي، وعلى حواف العقد صففت فقرات حجرية ورخامية بالتناوب عكس فقرات العقد السالفة

الذكر بالنسبة لصدر العقد مصنوع من الرخام الأبيض ويحفه شريط من الحجارة السوداء ويزين زوايا مربعات زخرفية هندسية ذات لون اسود تتخللها معينات متفرعة عن نجمة مثمانية تنطلق من الوسط (الصورة رقم 108).



الصورة رقم 109: المداخل التي تربط المدرسة بالمسجد

نلاحظ في أعلى إطار المدخل شمسية مخزومة تتوسط عقد نصف دائري متكون هو الآخر من فقرات بيضاء وسوداء ويحيط به افريز هو نفسه الذي يحيط ببقية الإطار.

أما المدخلين الثانويين اللذين هما على يمين ويسار المدخل الرئيسي فقد أطرا بإطار رخامي عرضه 35سم من الجهات الثلاث في كلا المدخلين دون وجود العقد كما هو في المدخل الرئيسي، ولكن زينت بزخارف تتوسط كل إطار منهما قوامها زخارف نباتية وأغصان متشابكة تتخللها أشكال أهلة مختلفة الأحجام، ناهيك عن وجود تكسيات خزفية تملأ الفراغات ما بين الأبواب من جهة وما بين الأبواب والجدران من جهة أخرى.

ت3. بيوت الطلبة:

تضم مدرسة جامع الجديد 16 غرفة مخصصة لمبيت الطلبة تحيط جميعها بالصحن تفتح على الأروقة من جهاته الثلاث، الشمالية والشرقية والغربية في حين الجهة الجنوبية تفتح على المسجد، وفي الرواق الغربي تفتح ست غرف ذات شكل مربع بمقاييس متقاربة ما بين 2.20م و2.35م باستثناء الغرفتين الأولى والأخيرة أصغر حجما عرضهما 1.90م.

أما في الرواق الشرقي فتفتح خمس غرف منها أربعة على الرواق المحيط بالصحن والخامسة تفتح على دهليز به



سلام ومنه إلى الرواق، كما يفتح منه مدخل يؤدي إلى مصلى ودورة مياه بها مراحيض وميضأة مكشوفة (الصورة رقم 110).

وأكبر الغرف هي تلك التي تفتح على الرواق الشمالي وعددها خمسة شكلها مستطيل تتراوح مقاساتها 3.50م طولاً و2.30م عرضاً.

الصورة رقم 110: جانب من مصلى المدرسة وميضأته

ت. 4 المسجد:

وهو أول مسجد شيد في الفترة الحسينية، وباستثناء هذا المسجد لا يوجد مثلاً آخر لمسجد استعمل صحنه كمدرسة للتعليم، وهو ملاصقاً للمدرسة في جهته الشمالية، ويفتح بمدخله الرئيسي على زنقة سيدي قاسم الصبابي التي يفتح عليها المدرسة والسقاية والتربة، كما يمكن الدخول إلى بيت الصلاة انطلاقاً من مدخل المدرسة عبر الصحن.

من المدخل الرئيسي ندخل مباشرة إلى بيت الصلاة وهي قاعة مستطيلة الشكل تخترقها ستة أبواب خشبية، ثلاثة منها تربط بيت الصلاة بالمدرسة ومدخلان يفضيان إلى الصحن والأخير يؤدي إلى الأضرحة في الجهة الغربية، أحيطت هذه المداخل بكسوة من الألواح الرخامية الملساء المحيطة بجزام من الحجارة السوداء (الصورتين رقم 111 و112).



الصورة رقم 111: مدخل المسجد الذي يفتح على المدرسة

الصورة رقم 112: المدخل الرئيسي للمسجد

تضم قاعة الصلاة التي تشد اهتمام المصلين والزائرين نتيجة لثرائها الفني والمعماري الكبير خمس بلاطات عمودية على جدار القبلة تشكلها أربعة بوائك وأربعة أسايب موازية له تشكلها ثلاث بوائك، ويرتكز سقفها على أعمدة رخامية معقودة بعقود حدوية صماء، وسقفت بأقبية طولية على مستوى الجانبين وأقبية متقاطعة عند مستوى البلاطة الوسطى.

ويحمل المجاز القاطع قبة المحراب الوحيدة في هذا المعلم وهي محمولة على حنايا ركنية في شكل الصدفة ومدعومة بأربعة أعمدة، وقد زين باطنها بشتى أنواع الزخارف الجصية بأشكالها الهندسية المثلثة والمسدسة والأطباق النجمية، أما الجدران فقد كسيت بالقاشاني إلى ارتفاع قدره 3 أمتار، تحلت بعدة ألوان زاهية ورسوم زخرفية ولوحات شرائطية وعناصر نباتية وزهرية كأغصان الأشجار المتفرعة والأوراق وزهر القرنفل والياسمين والرمان والأكانتس¹، في حين خصّ الجزء العلوي من الحائط بلوحات من الجص المنقوش تتخللها عدة نوافذ زجاجية معشقة في الجص (الصورة رقم 113).

1. يذكر المؤرخ ابن الخوجة أن حسين بن علي جلب لبناء المسجد الزليج البديع الصنع واللون من بلاد الترك لكسو جدرانه أنظر محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، مرجع سابق، ص 133.



الصورة رقم 113: بيت الصلاة وتظهر فيه السدة

ويتوسط المحراب جدار القبلة في شكل حنية نصف دائرية متجاوزة تتوجها نصف قبة ويرتكز مسقط العقد على ساريتين قصيرتين من المرمر الأسود ذي تيجان كأسية ذهبية اللون، وحظي تجويف المحراب بكسوة من الجص المزخرف بأشكال هندسية متشابكة، أما المستوى السفلي فاحتوى طاقات من المرمر المتناوب الألوان بين الرمادي والأحمر القاني والأسود المجزع (الصورة رقم 113)، ومن أروع العناصر المعمارية التي يتميز بها هذا المسجد المنبر الرخامي الضخم الذي انتصب في الجهة الغربية من المحراب وكسي بلوحات رخامية ملونة مأخوذة عن فن الباروك، والذي يشبه في حجمه ونمطه بعض مناير الجوامع الأخرى كيوستف داي وحمودة باشا ومحمد باي المرادي (الصورة رقم 114)، كما تتميز بيت الصلاة بإضافة طابق من الخشب بمثابة سدة تسمح باستيعاب عدد أكبر من المصلين والتي تم إضافتها أواخر القرن 13هـ/19م¹.

أما المئذنة المثلثة الشكل فهي تحتل الزاوية الشرقية من الواجهة التي تطل على الصحن، وعلى سوق الصباغين من الخارج، بلغ ارتفاعها 16.70م شيدت على قاعدة مربعة أما الجزء العلوي فقد جاءت شرفه لتحلي المئذنة

1. محمد الباجي بن مامي، مرجع سابق، ص 291

بزخارفها الهندسية ولونها اللازوردي وقد أحيطت بـخشب مزخرف وغطيت بسقف هرمي الشكل يخرج من قمته قضيب حديدي يحمل ثلاث كريات من الرصاص (الصورة رقم 116).



الصورة رقم 114: المنبر الرخامي للمسجد



الصورة رقم 116: مئذنة المسجد

الصورة رقم 115: المحراب يتوسط جدار القبلة

ت5. أضرحة المدرسة:

تحتل مباني الأضرحة الجانب الغربي من الجامع والمدرسة، ويسبق هذه القاعة الجنائزية المربعة صحن مكشوف أضيفت إليه قبة في فترات لاحقة وتحيط به أروقة ذات عقود حدوية متجاوزة مسنودة إلى أعمدة رخامية، ونلج إلى الداخل عبر مدخل في شكل محراب أطر بلوحات من المرمر الأبيض والأسود، فنجد الجدران خالية من كل زخرف عند المستويات السفلى على نقيض الأجزاء العليا المتكونة من القبة المرتكزة على حنايا ركنية والعقود الصماء التي كسيت كلها بلوحات جصية منقوشة ذات أنماط زخرفية متنوعة من فصوص ومقرنصات إلى جانبت الشرائط المكتوبة بالخط الكوفي، وتتخللها أطر بلورية ذات ألوان زاهية، كما وضعت في أركان التربة أربعة أعمدة رخامية ذات تيجان مماثلة لتيجان بيت الصلاة، ومن الخارج كسيت القبة البصلية بالقرميد الأخضر تعلوها كريات نحاسية. (الصورة 117).

تحتوى هذه المقبرة على أضرحة لعدد من البايات الحسينيين منها ضريح حسين بن علي باي وأخيه محمد بن علي وابن أخيه محمد باي إلى جانب تابوتين للولين الصالحين سيدي قاسم السبابطي وسيدي قاسم الزواوي¹.



الصورة رقم 117: الأضرحة الملحقة بالمدرسة والجامع الجديد

1. تعذر علينا للأسف الشديد أخذ بعض الصور التي تبين التفاصيل المعمارية والفنية للأضرحة وكذا قبور وتوابيت البايات لأسباب خارجة عن إرادتنا أثناء الزيارة الميدانية للمزيد حول هذا المبنى أنظر محمد الباجي بن مامي، *ترب مدينة تونس*، مرجع سابق، ص 41.

4. المدرسة السليمانية (مدينة تونس):

1.4. الموقع الجغرافي للمدرسة:

تقع المدرسة في المدينة القديمة بتونس في سوق الكشاشين بالقرب من جامع الزيتونة تفتح بمدخلها الرئيسي على النهج الذي يحمل اسمها نهج السليمانية، وهي ثالث المدارس المكونة للمركب التعليمي المتكون من مدرسة النخلة والمدرسة الباشية والسليمانية، وملاصقة لتربة المؤسس علي باشا من الجهة الجنوبية الشرقية الذي يفتح على نهج الكتبية المفضي إلى جامع الزيتونة والذي تفتح عليه كذلك كل من المدرسة الباشية ومدرسة النخلة (الصورة رقم 118).

يستفاد من بعض رسوم جمعية الأوقاف أن موقع هذه المدرسة والتربة المجاورة لها والمدرسة السليمانية الملاصقة لهذه التربة كان به فنادق قديمة فأخذها الباي علي باشا الأول بالمعاوضة بما هو أعود منها نفعا لجانب الوقف وبنى مكانها المدرستين - الباشية والسليمانية - والتربة وبها قبره¹.



الصورة رقم 118: موقع المدرسة السليمانية وواجهتها الرئيسية على نهج السليمانية

1. محمد بن الخوجة، مرجع سابق، ص 203

2.4. التأسيس والمؤسس:

هي واحدة من أربع مدارس أسسها ثاني حكام الأسرة الحسينية الباي علي باشا بن محمد بن علي في مدينة تونس ثلاثة منها مالكية وواحدة حنفية، المدرسة العاشورية المالكية سنة 1159هـ/ 1746م، ثم الباشية الحنفية سنة 1166هـ/ 1752م ثم السليمانية المالكية سنة 1168هـ/ 1754م، ثم مدرسة بئر الأحجار المالكية سنة 1171هـ/ 1757م¹.

خصّ بها علي باشا الأول ابنه سليمان باي الذي توفي إثر مرضه، وتحدثت المصادر التاريخية عن موت سليمان مسموماً بسم دسه له أخوه محمد في فنجان قهوة سنة 1169هـ/ 1755م، وقد تمّ إصدار أمر التأسيس يوم دفن سليمان باي في تربة الباشية التي أسسها أبوه، علي باشا بالقرب من المدرسة².

الباي علي باشا بن محمد بن علي تركي، وهو ثاني البايات الحسينيين ولد سنة 1700م وتبناه عمه حسين بن علي لأنه لم ينجب أولادا ذكورا في شبابه، وقد تمكن من الاستلاء على السلطة في سنة 1148هـ/ 1735م وظل يحكم البلاد إلى غاية قتله على يد الجيش الجزائري سنة 1756م، وبهذا تكون مدة حكمه لتونس حوالي 21 سنة³.

اعتنى عمه الباي حسين بن علي بتربيته وتعليمه، وأحضر لتعليمه الشيخ محمد الخضراوي للإقراء والمجالسة، ونشأ على تلك الحال حتى بلغ مبلغ الرجال، وتتفق المصادر التاريخية على أن الباي علي باشا يعد من العلماء، فيذكر الشيخ محمد السنوسي بأنه كان مع سفكه للدماء... واضراره للملكة بمظالمه معدودا في العلماء⁴.

كما يذكر الشيخ محمود مقديش بأنه كان فاضلا عالما مطلعاً على الأحكام الشرعية والعادية، ولا يقدر أحد من أولي الأحكام أن يتساهل في جزئية... وله توغل في العلوم العربية، فشرح كتاب تسهيل الفوائد وتكميل

1. حول هذه المدارس أنظر الفصل الثاني من هذه الدراسة.

2. ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص 144، وكذا الصغير بت يوسف، مصدر سابق، ج1، ص 441.

3. فوزية لزغم، بايات الأسرة الحسينية بتونس، تكوينهم العلمي وأثرهم في الحركة العلمية (1117-1229هـ/ 1705-1814م)، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، ع2، مج3، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، سبتمبر 2020م، ص218.

4. محمد بن عثمان السنوسي، مسامرة الظريف بحسن التعريف، ط1، ج1، تحقيق الشادلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994م، ص 88.

المقاصد لابن مالك بشرح عظيم الشأن، فقبله علماء المشرق والمغرب وأقروا له الفضل، وقد كان هذا الكتاب يقرأ بجامع الزيتونة في فترة ولايته¹.

أول ما بدأ به علي باشا عند أخذه للحكم هو التخلص من كل من ساند عمه، كما عاقب كل من لم يؤيده من بين العلماء خلال الحرب الأهلية، وعندما لا يأمر بقتل أحدهم فإنه يفتك منه ومن أبنائه وأقاربه مبالغ مالية معتبرة²، حيث يذكر ابن أبي الضياف أنه نتيجة لتأييد سكان القيروان لحسين بن علي انتقم علي باشا من العديد من سكانها ووجهاءها، كما حطم أسوارها ونفس الشيء فعله مع أهل المنستير والقلعة الكبرى بسوسة، حيث طلب سكانها من علي باشا الأمان فارسل إليهم ابنه يونس الذي قام بقتل العديد من أعيانها إضافة لتسليطه عليهم غرامات كبيرة، فكان جريئاً على سفك الدماء، لا سيما فيما يتعلق بالولاء والطاعة يأخذ في ذلك بالظن، حتى أفرط في ذلك وخرج عن نطاق العقل، وهذه التصرفات جلبت له كراهية معظم السكان، لكنه رغم شدته كان يعظم العلماء ويتجاوز لهم مالا يتجاوز لغيرهم³، حيث سار على نهج عمه حسين باي في الاهتمام بالحياة العلمية حيث يذكر محمود مقديش أنه أقام الدين بالسيف والقلم، فالسيف للبغاة والقلم للعلماء⁴، وقد مكنته ثقافته وتكوينه العلمي الرفيع من اختيار الفقهاء المراد تعيينهم في مختلف الوظائف فلم يكن يول أحداً ولو مقام التوثيق إلا بعد الإختبار الزائد، كما مكنته مكانته العلمية من تقديم توجيهات للعلماء المدرسين، وكان يسوس العلماء في تعليمهم ويحثهم على تعليم العلوم النافعة والكتب المتداولة وترقية المبتدئين، ويحذر من علوم الأوائل وأهل الأهواء ويحذر من الخوض في علومهم ويشدد النكير على الخائض فيها وربما نفاه من عمالته⁵.

وقد كان علي باشا ولوعاً بالكتب واكتسابها لهذا جعل بكل مدرسة من المدارس التي بناها خزانة للكتب وعمل تزويدها بالكتب النفيسة من كامل أنحاء العالم الإسلامي، خاصة من مصر والمغرب وإسطنبول، التي كان يبعث إليها النساخ والعلماء لاقتناء المجلدات النادرة⁶.

1. محمود مقديش، مصدر سابق، ج2، ص 162.

2. محمد الباجي بن مامي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني (7/13م)، مرجع سابق، ص 303.

3. ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص 119، 120.

4. محمود مقديش، مصدر سابق، ج2، ص 164.

5. محمود مقديش، مصدر سابق، ج2، ص 162.

6. الصغير بت يوسف، مصدر سابق، ج1، ص 447.

اتسمت آخر أيام علي باشا بثورة ابنه الأكبر يونس عليه والتي دامت حوالي شهرين كاملين، انتهت بهروب يونس إلى قسنطينة ومكوثه بها إلى غاية وفاته في سبتمبر 1768م¹، وكذا موت ابنه الأصغر سليمان باي على يد أخيه محمد سنة 1754م، ولم تنته مصائبه عند هذا الحد، فإثر حصول عداوة بينه وبين باي قسنطينة حسن زرق عينو، هاجم الجيش الجزائري البلاد التونسية لمؤازرة إبنه حسين بن علي، محمد الرشيد وعلي باي الثاني المطالبين بالعرش التونسي، ولما تمت لهما الغلبة وقبض على الباي علي باشا، أمر باي قسنطينة بقتله في 25 نوفمبر 1756م، ودفن بالتربة التي أسسها لنفسه بمركب المدارس الثلاث، والتي كان قد دفن بها ابنه الأصغر سليمان كما دفن بها معه ابنه محمد واخوه مراد وحفيده نعمان الذين قتلوا جميعا في المعركة²

3.4. مكانة المدرسة التاريخية وأهميتها العلمية:

أسس الباشا علي باي الأول المدرسة السليمانية ووقفها على طلبة المذهب المالكي وأول مدرس بها الشيخ محمد



الغرياني أقرأ بها تفسير القاضي البيضاوي وغيره من الكتب العالية³، ومن جاور بها من أهل العلم الشيخ محمد الطاهر بن مسعود الذي تولى مشيختها بعد وفاة شيخها محمد الغرياني، وهو الذي كان يدرس بجامع الزيتونة التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والبيان، والأصول، والمنطق⁴ وكبير أهل الشورى الشيخ أحمد بن حسين القمار والشيخ الطيب النيفر⁵.

تحول بعد ذلك دور المدرسة من مهمة التعليم ليقصر على إيواء طلبة الزيتونة مثلها مثل العديد من المدارس الأخرى، وبعد الاستقلال تولى ترميمها كل من المعهد الوطني للتراث وجمعية

الصورة رقم 119: مدرسة السليمانية -

فترة الاحتلال الفرنسي -

1. محمود مقديش، مصدر سابق، ج2، ص 165.

2. ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص 154.

3. محمد بن الخوجة، مرجع سابق، ص 206.

4. محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ط2، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994م، ص 327.

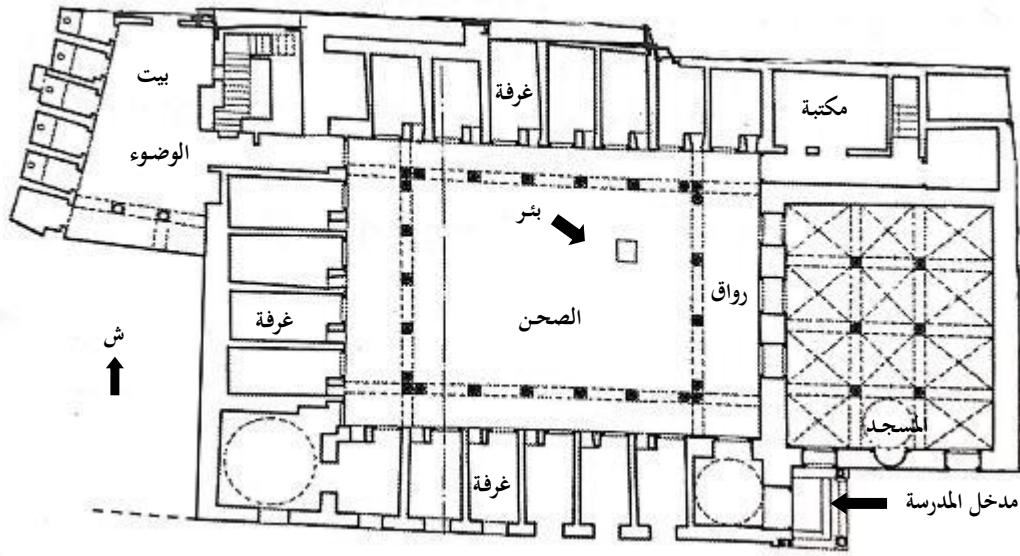
5. محمد الباجي بن مامي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني (7/13م)، مرجع سابق، ص 339.

صيانة مدينة تونس وذلك فيما بين سنتي 1983 و 1985م¹، وقد سميت بدار الجمعيات الطبية بالسليمانية، حيث أصبحت تأوي مقرات عدد من الجمعيات الطبية وشبه الطبية، وتنظم فيها الندوات والملتقيات الدورية في مجال العلوم الطبية وحفظ الصحة.

5.4. الدراسة الوصفية للمدرسة:

أ. المخطط العام:

مخطط المدرسة السليمانية هو المخطط التقليدي الذي اعتمد في بناء جل المدارس الأخرى، يأخذ الشكل المستطيل شبه المنحرف، يتشكل من طابق واحد يتوسطه صحن تتوزع عليه الغرف من ثلاث جهات ويفتح عليه المسجد من الجهة الرابعة، مساحتها الإجمالية حوالي 464م²، وهي بذلك تعد واحدة من بين أكبر المدارس العثمانية في تونس، يمتد ضلعها من الشرق إلى الغرب بمسافة 25.65م ومن الشمال إلى الجنوب بمسافة 18.20م تقريبا، وهي مساحة تشمل الصحن والغرف والمسجد وبيت الوضوء دون الأضرحة التي لها واجهة ومدخل خاص بها (المخطط رقم 24).



المخطط رقم 24: مخطط المدرسة السليمانية بتونس

(عن ابن مامي بتصريف)

1. حسب البطاقة التعريفية المعلقة في السقيفة التي تلي مدخل المدرسة.

ب. الوصف الخارجي:

تشرف المدرسة بواجهتها الرئيسية على نّج السليمانية في الجهة الجنوبية وهي الواجهة الوحيدة المفتوحة على الخارج بمدخلها الرئيسي، في حين جاءت الواجهات الأخرى متلاصقة لبعض المساكن في الجهة الغربية، وتلتحم مع المدرسة الأضرحة الباشية بواجهتها الشرقية (الصورة رقم 120).

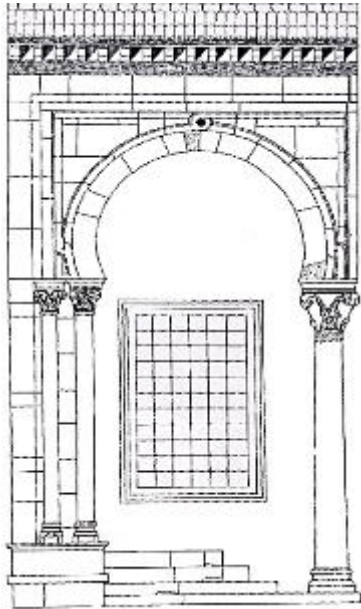
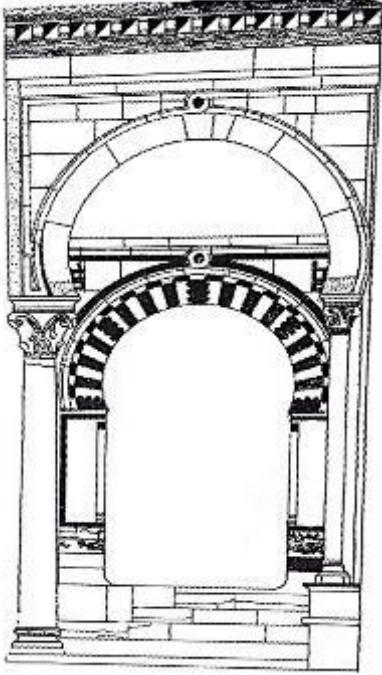


الصورة رقم 120: الواجهة الرئيسية للمدرسة وبها المدخل والنوافذ

الواجهة الرئيسية للمدرسة يتخللها بالإضافة إلى المدخل نافذتين كبيرتين متشابهتان معماريا وفنيا، إحداهما تفتح على السقيفة التي تتقدم المدخل، والأخرى تفتح على المسجد، يبلغ عرضهما حوالي 1.20م وارتفاعهما 2.10م، يسدهما شبك معدني ويؤطرهما إطارين أحدهما من حجارة الكذال الوردية والذي يليه بالمربعات الخزفية المتعدد الألوان، كما يتخلل الواجهة نوافذا أكثر ارتفاعا عن الأرض وقل حجما، يفتح بعضها على المسجد والبعض الآخر أعلى الغرف التي تلي المدخل الرئيسي.

المدخل الرئيسي بالمدرسة السليمانية يعد مثالا فريدا للمداخل في مدارس مدينة تونس وحتى في عمائرها الأخرى، إذا يأخذ شكل الظلة بواجهتين معقودتين بعقدتين حديويتين متعامدين مشكلين بصنجات حجرية من حجارة الكذال الوردية يتركزان على أعمدة رخامية رشيقة بتيجانها ذات الطراز الكورنثي المحور، ويعلو صدر العقد في الجهتين سقف خشبي بارز مغطى بقرميد لونه أخضر، ويتم الصعود إلى عتبة الباب الذي جاء مرتفع على مستوى الشارع بخمس درجات رخامية تحيط بالبوابة من الجهتين الشرقية والجنوبية.

يتوسط المدخل باب خشبي ضخيم مكسو برفائق النحاس وتخلله مسامير لها وظيفة معمارية وفنية، يحيط به إطار رخامي يتوجه عقد ذو صنجات متناوبة بيضاء وسوداء تدعمها أعمدة رخامية دقيقة مدمجة مع العضادتين الحجريتين اللتين يرتكز عليها العقد (الصورة رقم 121).



الصورة رقم 121: واجهتي ظلّة المدخل الرئيسي للمدرسة (عمل الطالب)

ت. الوصف الداخلي:

يؤدي الباب الذي عرض فتحته 1.55م وارتفاعها 2.80م إلى سقيفة صغيرة تحتوي على دكانة حجرية ارتفاعها



60سم، تتخللها تجويفات صغيرة معقودة، كسيت جدرانها في قسمها الأسفل بحجارة الكذال وتعلوه لوحات من الزليج المختلفة الألوان، تحتوي على صورة تمثل مزهريات وأغصان وتعلو السقيفة قبة حليت بزخارف متعددة الألوان والأشكال (الصورة رقم 122).

تعلو السقيفة قبة نصف كروية قامت على رقبة مربعة بكل ضلع عقد أصم من الجص يتوسطه طبق نجمي مخرم، حولت قاعدة المربع فيه إلى مثنى عن طريق حنايا ركنية مثلثة تتخللها زخارف جصية مخزومة (الصورة رقم 123).

الصورة رقم 122: مدخل المدرسة المفضي إلى السقيفة



الصورة رقم 123: السقيفة بما دكانة يكسوها الزليج ويعلوها قبة بما زخارف جصية مخزومة وبها مدخلان

أحدهما يفتح على ظلة المدخل الخارجي والآخر على الصحن

تفضي السقيفة إلى تقاطع الرواقين الجنوبي والشرقي المشرفين على الصحن ومنهما نلج إلى هذا الأخير، وهو مستطيل بشكل عرضي على الواجهة الرئيسية للمدرسة، يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب 16.20م وعرضه من الشمال إلى الجنوب 11.50م، تحيط به أروقة من جهاته الأربعة على غرار بقية المدارس الأخرى، وإن كانت في هذه الأخيرة أفصح عرضاً وأعلى ارتفاعاً، تفتح عليه بواسطة بوائك من الأعمدة الحجرية الدقيقة الصنع، يبلغ سمكها 30سم وارتفاعها 2.20م، يبلغ عددها في كل الجهات 25 عمود منها ثلاث أعمدة متلاحمة مع بعضها في كل زاوية من الزوايا الأربعة للصحن، تحمل تيجاناً ذات طراز عثماني محلي فوقها وسائد مربعة، تحمل بدورها عقوداً نصف دائرية ثلاثة في بائكة الرواق الشرقي وأربعة في بائكة الرواق الغربي وخمسة في بائكتي الرواقين الشمالي والجنوبي (الصورة رقم 124).

وكشأن أغلب المدارس الأخرى فإن أرضية الصحن المبلطة ببلاطات رخامية أقل مستوى ب 10سم عن أرضية الأروقة وذلك لتفادي وصول المياه إلى داخل الأروقة، خاصة مياه الأمطار والمياه المستعملة من البئر التي تتوسط الصحن والتي لا تزال تستعمل إلى اليوم.



الصورة رقم 124: صحن المدرسة السلিমانية



الصورة رقم 125: جوانب مختلفة من الصحن

يفتح على الأروقة المحيطة بالصحن من جهاته الثلاثة، الغربية والشمالية والجنوبية غرف الطلبة، باستثناء الجهة الشرقية التي تطل عليه بواجهة مسجد المدرسة، وهي أهم واجهة باعتبارها واجهة للمسجد ومكان اجتماع الطلبة

للتعليم من جهة وكذا لغناها المعماري والفني من جهة أخرى.

تضم هذه الواجهة مداخل المسجد وهي ثلاثة أكبرها أوسطها، لا تختلف كثيرا عن مداخل واجهة مسجد مدرسة الجامع الجديد إلا في بعض التفاصيل المعمارية (الصورة رقم 126).



الصورة رقم 126: واجهة المسجد بمداخله الثلاث المشرفة على الصحن

المدخل الأوسط معقود بعقد حدوي تشكله صنجات حجرية ورخامية بيضاء وسوداء عددها 24 صنجة يربطها مفتاح العقد ويحمله عضادتين حجريتين رخاميتين عرضهما 30سم وارتفاعهما من عتبة المدخل إلى وسادة العقد 1.20م، ويحيط بالعضادتين وبصدر العقد شريط حجري أسود ويؤطرها إطار آخر بارز من الرخام ثم كسيت المساحات ما بين المداخل الثلاث بالزليج وفي أعلاها أشربة جصية منقوشة بزخارف نباتية وهندسية متنوعة (الصورة رقم 127).



الصورة رقم 127: المدخل الرئيسي لمسجد المدرسة

أما البابين الجانبيين فهما أقل أهمية من الباب لأول يبلغ ارتفاعهما 2.20م وعرضهما 1.15م ويحيط بهما إطاران من حجر الكذال الوردي يبلغ عرض الإطار الأول 40سم وهو غائر مقارنة بالإطار الحجري الذي يليه، تتخلله زخارف نباتية سيقان ووردات ذات فصوص وكذا رموز على شكل أهلة.

ت.2. بيوت الطلبة:

تضم المدرسة السليمانية 20 غرفة تفتح على ثلاث أروقة ومنها إلى الصحن، 07 غرف تفتح على الرواق الشمالي، أكبرها حجما الواقعة في الزاوية الشمالية الغربية فهي مختلفة عن بقية الغرف من حيث المساحة والقبة التي تعلوها، والمزخرفة بمختلف النقوش الجصية الكتابية والهندسية والنباتية، يذكر أحد القائمين على الجمعيات الثقافية بالمدرسة أنها كانت مخصصة لشيخو المدرسة، لها مدخلان أحدهما يفتح على النقاء الرواقين الشمالي والغربي والآخر على الغرفة التي تليها.

وعن مقاسات هذه الغرف فهي تختلف من غرفة إلى أخرى، ولكنها متقاربة جدا ما بين 1.80 و1.93 حتى 2م عرضا و3.45م و3.55م و3.67م طولا.

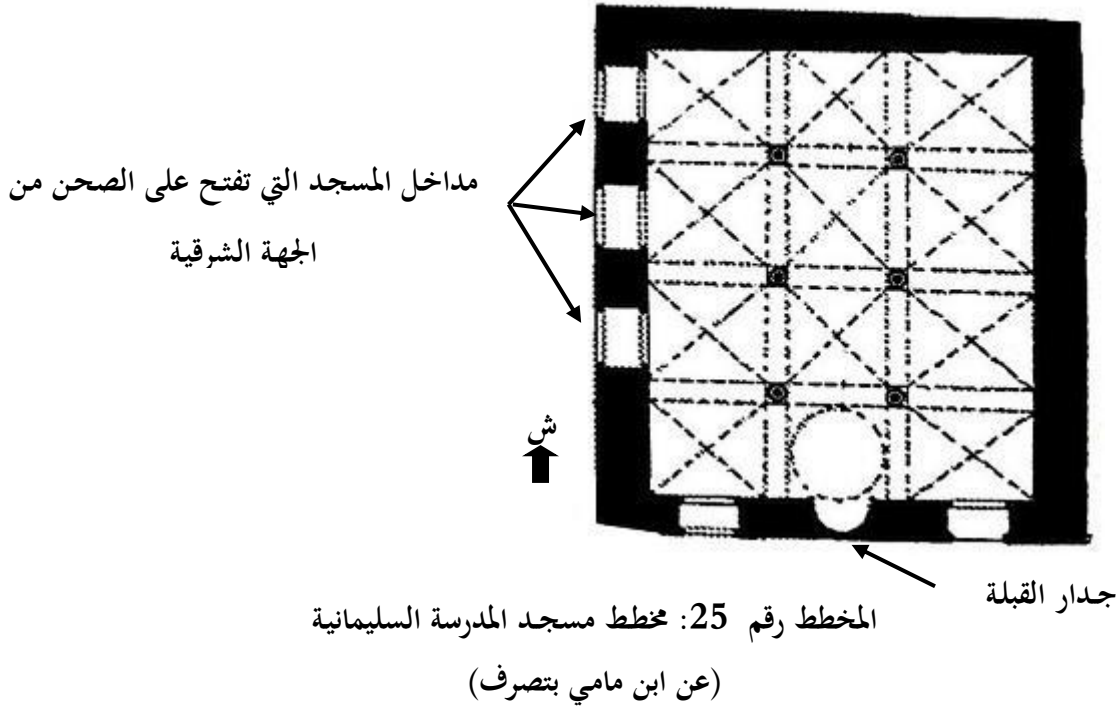
وفيما يخص الرواق الجنوبي فتطل عليه 07 غرف أكبرها الثلاث الوسطى وهي في نفس الحجم، في حين تبدو الأربعة الباقية منها اثنان على اليمين واثنان على اليسار أقل حجما منها، وأكبر الغرف في المدرسة هي التي تفتح على الرواق الغربي المقابل لواجهة المسجد وعددها 4 غرف لها نفس الطول 4.30م والعرض 2.05م. أما الغرفتان الباقيتان فهما لا تفتحان على الأروقة، بل على ممر يفصلهما عن المسجد في الرواق الشرقي، الأولى مقاساتها 4.50 طولا و3.20 عرضا، بينما الثانية فطولها 2.95م وعرضها 2.40م، ويفصل بينهما درج يتم من خلاله الصعود إلى سطح المدرسة وأجزاء من الطابق العلوي الذي اضيف في فترات لاحقة.

أبواب الغرف جميعها متشابهة فهي مؤطرة بإطار حجري مزخرف عرضه 25سم، وتفصل بين كل باب وباب نافذة متوسطة الحجم (50سم x 40سم) بها شبابيك معدنية كما أن الغرف جميعها مسقفة بأقبية متقاطعة.

ت.3. مسجد المدرسة:

المسجد مستطيل الشكل عمقه أكبر من طوله يمتد من الشمال للجنوب قرابة 10 أمتار ومن الشرق للغرب ب 8 أمتار (المخطط رقم 25)، سقف بأقبية متقاطعة تتركز على بائكتين من الأعمدة الحجرية تعلوها تيجان من النمط العثماني، مشكلة أربعة أساكيب موازية لجدار القبلة وثلاث بلاطات عمودية عليه، أما جدران المسجد فهي غنية جدا بمختلف أنواع الزخارف المنفذة بمختلف أنواع التقنيات الزخرفية المعروفة في العمارة

الإسلامية، فقد كسيت بلوحات من الزليج الملون يعلوها شريطان احتوى أولهما على أسماء الله الحسنى والثاني على كتابة متكررة تتمثل في عبارة العافية الباقية يتوسطهما نقش على الجص، ويكتمل كسو الجدران بنقش الحديدية المحتوي على أقواس تتوسط كل منها شمسية تحيط بها شجرة السرو (الصورتين رقم 128 و 129).



الصورة رقم 128: قاعة الصلاة بأعمدتها الحجرية



الصورة رقم 129: جانب من التفاصيل المعمارية والفنية لقاعة الصلاة

يتوسط جدار القبلة المحراب الذي أطر بالرخام الأبيض أما العمودين الحاملين للعقد فهما من الرخام الأسود يعلوهما تاجين ذوا نمط مغربي أندلسي من الرخام الأبيض، يحملان عقدا شبيها بعقد المدخل الرئيسي للمسجد بصنجاته المزرة بالأبيض والأسود وبعضادتيه الجانبية، كما كسيت تجويفة المحراب بلوحات متناوبة من الرخام الأسود والبني الفاتح، وتأخذ الطاقية شكل محارة ذات 29 ضلع تتفرع عن مثلث ناتئ (الصورة رقم 129).



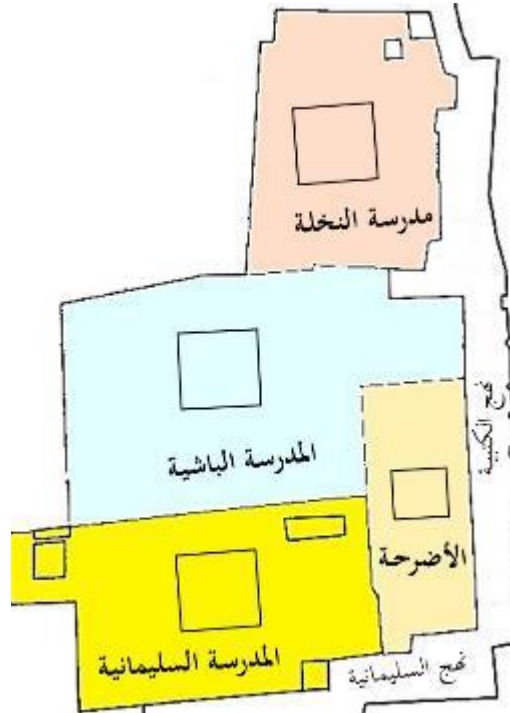
الصورة رقم 130: المحراب والقبلة المضلعة التي تعلوه

تحيط بالمحراب نافذتين تم تأطيرها بحجارة الكذال، وتعلو المحراب قبة ذات رقبة مثمثة الأضلاع تحملها عقود نصف دائرية زخرفت بالأبيض والأسود، في كل ضلع من الأضلاع نافذة معقودة على شكل شمسيات مخزومة، حولت القاعدة المربعة إلى مثنى عن طريق حنايا ركنية على شكل الصدفة.

ت3. الأضرحة:

تقع أضرحة علي باشا بن محمد بن علي بين المدرستين اللتين أسسهما وهما الباشية من الجهة الشمالية والغربية والسليمانية من الجهة الغربية، وتفتح بمدخلها الخاص في الجهة الشرقية على نهج الكتبية (الصورة رقم 131)، وتعرف عند التونسيين بالتربة الباشية والتي تعد إلى يومنا هذا - رغم صغر مساحتها - واحدة من أجمل وأبهى المباني التي أسست خلال الفترة العثمانية بأكملها.

ورغم صغر مساحة صحن التربة فقد أثري خاصة بمربعات الخزف المصنوعة في القلايين بتونس والتي تغطي الجوانب السفلى للجدران وبلوحات من مرمر كراة المجلوبة من إيطاليا بالإضافة إلى أعمدة الرخام الدقيقة وطبقات بدیعة.



الصورة رقم 131: موقع الأضرحة الباشية بين مدرستي علي باشا ومدخلها الرئيسي

الذي يفتح على نهج الكتبية

من زخارف الجص المخرمة بمختلف الأشكال الفنية التي كسيت بها الطبقات العليا من جدران الصحن وواجهات الأروقة والعقود (الصورة 132).

الصحن مربع الشكل يحيط به أروقة من الجهات الأربع تفتح عليه بواسطة بوائك من الأعمدة الرخامية الدقيقة الصنع، يبلغ سمكها 22 سم وارتفاعها 2.13 م، يبلغ عددها في كل الجهات 12 عمود منها أربعة أعمدة في زوايا الصحن، تحمل تيجانا ذات طراز عثماني محلي فوقها وسائد حجرية صغيرة، تحمل بدورها عقودا نصف دائرية متجاوزة، ثلاثة في كل بائكة مع تباين في احجام هذه العقود، فالعقد الأوسط من كل بائكة هو الأكبر حجما بين العقدين الجانبيين (الصورة 133).



الصورة رقم 132: الصحن بالأضرحة
الباشية



الصورة رقم 133: واجهة الرواق
الشرقي للصحن

واجهة الرواق الجنوبي يفتح عليها مدخل السقيفة المؤدية إلى الباب الخارجي أما الواجهتين الشرقية والغربية تفتح فيهما غرفة في كل جهة، في حين الواجهة الشمالية تفتح على الغرفة الجنائزية التي بها قبور العائلة الباشية. الغرفة الجنائزية تعد اية في الجمال نتيجة لكساء جدرانها بالمرمر الإيطالي متعدد الألوان وكذلك لجمال القبة المتأثرة في تصميمها وفي هندستها وشكلها على ما يبدو بقباب بعض الجوامع العثمانية في إسطنبول، كقبة جامع



السليمانية وقبة جامع رستم باشا، فهي لا تتركز مثل أغلب قباب المدينة على أربع أعمدة أو دعائم تحملها عقود تنتقل من القاعدة المربع إلى المثلث ومنه إلى القبة عن طريق حنايا ركنية، بل يتم الانتقال من جدران الغرفة مباشرة إلى رقبة القبة عن طرق مثلثات كروية تتخللها اقواس نصف دائرية صماء (الصورة رقم 134).

الصورة رقم 134: الغرفة الجنائزية



أما الزخارف الجصية التي تكسوا جميع أجزاء القبة فهي من أدق وأجمل ما يوجد من وخارف في جميع مباني تونس القديمة، تتمثل هذه الزخارف أساسا في العديد من المزهريات التي تتفرع عنها أغصان وأوراق وزهور متداخلة ومتكررة بكل دقة أشبه ما تكون بالأرابيسك، تجمع بينها في وسط القبة قبة مثمثة (الصورة رقم 135).

الصورة رقم 135: الزخارف الجصية بقبة الغرفة الجنائزية

أما القبور الخاصة بأضرحة عائلة علي باشا فقد اندثرت جميع شواهدها ولم يتبق إلا بعض مخلفات أماكنها داخل القاعة وذلك بعد الترميمات التي أجريت عليها أواخر الثمانينيات، أدى إلى معرفة مكان ثمانية قبور من أسماء أصحابها وهم:

1. الباي علي باشا الأول مؤسس المدرسة والأضرحة.
2. ابنه سليمان أول من دفن بها سنة 1168هـ-1754م.
3. إسماعيل بن يونس بن علي باشا.
4. حسن بن إسماعيل.
5. مصطفى بن يونس.
6. مراد بن محمد شقيق الباي علي الذي قتل معه في نفس اليوم على يد الجيش الجزائري.
7. النعمان بن سليمان حفيد الباي الذي قتل كذلك مع جده في نفس اليوم.
8. آخر قبر يعود لآخر حفيد من ذرية علي باشا دفن بها وهو يوسف بن محمد بن علي باشا¹.

4. التجديدات التي طرأت على المدرسة:

صنفت معالم المدرسة السلিমانيّة كمعالم أثرية محفوظة في عهد الاحتلال الفرنسي سنة 1331هـ/ 1912م بالنسبة للمدرسة ومسجدها ثم صنفت الأضرحة بعد ذلك سنة 1922م، وبعد الاستقلال تولى ترميمها كل من المعهد الوطني للتراث وجمعية صيانة مدينة تونس سنة 1406هـ- 1985م، حيث جددت بعض العناصر المعمارية والفنية وإصلاح الأجزاء التالفة منها في عقود الأروقة المطلة على الصحن وإضافة بعض المداخل وتحديد أبوابها ولكن دون المساس بتصميمها وأصالتها، ثم سلمت المدرسة لاتحاد الجمعيات الطبية التونسية حيث أصبحت تأوي مقرات عدد من الجمعيات الطبية وشبه الطبية، تنظم فيها الندوات والملتقيات الدورية في مجال العلوم الطبية وحفظ الصحة إلى غاية يومنا هذا.

1. محمد الباجي بن مامي، توب مدينة تونس، مرجع سابق، ص 73.

رابعا. اهم المدارس العثمانية المندثرة بتونس

1. مدرسة القائد مراد بمدينة تونس:

يطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى مؤسسها القائد مراد بن عبد الله، ويطلق عليها كذلك مدرسة السواري لوجودها بنهج السواري في حومة حوانيت عاشوراء، وهي من المدارس التي اندثرت منذ فترة وجيزة وذلك سنة 1382هـ/1962م وكان محمد بن الخوجة يتوقع زوالها منذ تأليفه معالم التوحيد أي سنة 1355هـ/1936م¹، إلا أنه يبدو أن المدرسة كانت خربة منذ زمن طويل².

1.1 موقع المدرسة:

كانت توجد هذه المدرسة بنهج حوانيت عاشوراء رقم 35 قريبا من الحي الحفصي وفي الشمال الغربي لحارة اليهود وقد اهتم العثمانيون بهذا الحي، إلا أن موقعها قضى بزوالها في الأجل القريب لأنها شملتها خريطة الأبنية الكثيرة التي وقع انتزاعها بالبراء والمعاوضة سنة 1355هـ/1935م، بقصد توسيع الطرقات وتشبيد دور بلدية فسيحة ذات طوابق ومنافذ واسعة لإيواء سكان حارة اليهود³.

2.1 المؤسس وفترة التأسيس:

والمدرسة كانت من المدارس الخاصة بسكنى الطلبة الحنفية أحدثها سنة 1086هـ/1675م القائد مراد بن عبد الله الأصغر الذي كان من ممالك الباي مراد الثاني وبعد وفاة سيده سنة 1086هـ/1675م، واصل خدمة ابنه محمد باي، فتولى قيادة جيوشه إلا أنه بعد فترة من الزمن انضم إلى صفوف علي باي، فقد كان له وزن سياسي هام طوال مدة حكم علي باي المرادي⁴ يصفه ابن أبي دينار بأنه متدين ويحب الفقراء واهل الصلاح، كما يعلمنا ان القائد مراد من موالي علي باي وهو من يعتمد عليه في الحضرة بأسراره والمطلع على مكاتيبه الواردة بأخباره والواقف عند باب الرؤساء وباب داره⁵.

1. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، مرجع سابق، ص 193.

2. محمد الباجي بن مامي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني (7هـ/13م)، مرجع سابق، ص 416.

3. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، مرجع سابق، ص 194.

4. محمد الباجي بن مامي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني (7هـ/13م)، مرجع سابق، ص 416.

5. ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 262.

كانت فترة اضطرابات ومن أسوء الأيام التي عرفتھا البلاد إذ اندلعت حرب أهلية بين الأخوين محمد وعلي باي اتسمت بطول أمدها ودامت هذه الحرب سنوات عديدة فكانت الوقائع سجلا فمرة لفائدة علي باي ومرة لفائدة أخيه محمد، ولم تنته إلا عند مقتل علي باي سنة 1097هـ/1685م وهكذا استطاع محمد باي الاستيلاء على الحكم مدة طويلة من الزمن¹.

أتم القائد مراد بناء مدرسته سنة 1093هـ/1682م أي انه قد شرع فيها حوالي سنة 1091هـ/1680م، عند استلاء سيده على الحكم وهروب علي باي واعتضاده بأخيه ضد الداوي المذكور ولهذا فان الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي أسست خلالها المدرسة لم تكن مناسبة² وهكذا كانت مدرسة السواري المدرسة الوحيدة في تونس التي شذت عن القاعدة ولم تؤسس في فترة سلم ورخاء³

وييدي برنشفيك بعض التحفظات فيما يخص مؤسس المدرسة وتاريخ بناءها، فهو يرى أن هذه المدرسة قد أسست سنة 1077هـ/1667م، على يد القائد التركي جعفر وقد استنتج ذلك من معلومات استقاها من أرشيف الإدارة العامة للداخلية، بينما يذكر نفس المؤلف أيضا أن إدارة الأحباس تنسب هذه المدرسة إلى القائد مراد الذي أسسها سنة 1093هـ/1682م⁴

لكن المؤكد أن القائد مراد هو من أنشأها من خلال الكتابة التأسيسية التي كانت منقوشة على حجر أعلى المدخل قوامها ابيات شعرية تثبت انتسابها لمؤسسها القائد مراد المذكور وهذه الابيات التي نقلها ابن الخوجة وهي⁵:

بنى لله مدرسة مراد.....لمن طلب العلوم هي المراد
ففاقت كل مدرسة جمالا.....ورونق حسنها ابا ياز
وفي الإتقان الإحكام طود.....وساكنها بعلم يستفاد
تقبل سعيه يارب فيها.....واوردها لجنان فلا يذا
فتمت بعد ألف مع ثلاث.... وتسعين فقد حصل المراد

1. ابو عبد الله محمد السراج، مصدر سابق، ص 159.

2. حسين خوجة، مصدر سابق، ص 100.

3. نفسه، ص 252.

4. Brunschvig, R. « Quelques remarques historiques sur les madrasas de Tunis », Revue Tunisienne, n° 5, 1er trimestre, 1931, p 281.

5. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، مرجع سابق، ص 193.

3.1 أهم مشايخ المدرسة:

أول اسم أمدتنا به المصادر هو الشيخ حسين الحنفي الذي درس بالمدرسة الشماعية سنة 1093هـ/1682م، أي السنة نفسها التي أسست خلالها مدرسة القائد مراد¹، وحسب ما يستنتج من كتاب حسين خوجة لم يتولاها إلا في أيام الباي حسين بن علي²، ودرس بها أيضا الشيخ أبو عبد الله محمد بن مصطفى الأندلسي، وكذلك أحمد الطرودي الحنفي³.

ومن تولى مشيختها في القرن الماضي قاضي الجماعة الشيخ عمر المحجوب والمفتي الشيخ احمد القبائلي ثم المفتي الشيخ صالح النيفر ثم أسندت مشيختها بعد وفاته الى الشيخ الشاذلي بن صالح⁴.

2. مدرسة الزاوية الباهية بمدينة تونس:

يصفها ابن أبي الضياف بالزاوية فهي لعبت دور الزاوية والمدرسة في آن واحد، فيقول لما شرع الشيخ في بناء الزاوية وتوابعها راوده الباشا علي باي الأول بن محمد باي أن يعينه بمال فأبي فراوده أن يجبس عليها هنشيرين فأبي أيضا وانجز بناها كلها بما اشتملت عليه من المرافق من حر ماله⁵.

1.2 تأسيس المدرسة:

انجزها الشيخ أبو العباس أحمد الباهي سنة 1160هـ/1747م من ماله الخاص ولم يقبل إعانة أحد فقد حاول علي باشا مده بالمال اللازم وحاول كذلك أن يجبس عليها أحباس إلا أن الشيخ أبي ذلك وذفن عند مماته بزاويته⁶

اشترط المحبس في وقفية المدرسة أن تكون مشيخة الزاوية والمدرسة للأكبر في ذريته، وكانت لها أوقاف جارية على إطعام الطلبة وهي حسب ابن أبي الضياف مأوى للمغتربين⁷.

1. محمد الباجي بن مامي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني (7هـ/13م)، مرجع سابق، ص 140.

2. محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، مرجع سابق، ص 252.

3. ابو عبد الله محمد السراج، مصدر سابق، ص 430.

4. نفسه، ص 192.

5. أحمد بن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 7، ص 120.

6. نفسه.

7. محمد الباجي بن مامي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني (7هـ/13م)، مرجع سابق، ص 418.

2.2 أهم مشايخ المدرسة:

لم يتولى التدريس بهذه المدرسة إلا أفراد من ذرية أحمد الباهي دليل على أنها كانت زاوية أيضا، وأولهم ابن الشيخ نفسه أبو الفداء إسماعيل وبعد وفاته تولى منصبه ابنه أبو الحسن علي، وتصدر بعده التدريس بنفس المدرسة أخوه أبو عبد الله محمد بن أبي الفداء إسماعيل، ثم اتى دور حفيده أبي الفداء إسماعيل بن علي بن إسماعيل، أما آخر أفراد هذه الأسرة الذين تولوا مشيختها فهو أبو عبد الله حسين بن علي¹.

وقد أدخلت تحويرات وتعديلات على هذه المدرسة الزاوية منذ مدة وجيزة تقدر بحوالي نصف قرن وعوضت بمبنى احتضن مكتبة عمومية، ثم أصبحت بعد ذلك مركزا ثقافيا متميزا يديره بعض أفراد العائلة لتختفي معها ملامح المدرسة والزاوية معا².

1. أحمد بن أبي الضياف، مصدر سابق، ج7، ص 144.

2. محمد الباجي بن مامي، ما قبله، ص 418.

الفصل الخامس

دراسة تحليلية مقارنة بين النماذج المدروسة في تونس والجزائر

أولاً: من حيث الانتشار (التقييم الكمي)

ثانياً: التصورات المعمارية للنماذج المدروسة

1. من حيث النظام التخطيطي

2. من حيث الكتلة المعمارية

ثالثاً. توزيع المرافق المعمارية

1. فضاءات الاستقبال

أ. السقائف

ب. الصحون

ت. الأروقة

2. فضاءات التبعد والدراسة

أ. قاعات الصلاة والتدريس

ب. المساجد

ت. الأضرحة والمقابر

3. فضاءات الإقامة

أ. بيوت الطلبة

ب. الأسبلة

ت. الميضات

أولاً. من حيث الانتشار (التقييم الكمي):

ان الملاحظ لعدد المدارس المنتشرة في مختلف المدن الجزائرية والتونسية التي يرجع تاريخها إلى العهد العثماني يرى الاختلاف الكبير في أعدادها وطريقة انتشارها في المراكز العمرانية، وهو العدد الذي لا تعكسه طبيعة النماذج المدروسة، حيث نجد أن عدد المدارس القائمة الذات في الجزائر لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة منتشرة بين مختلف مدن البايلكات المشكلة لإيالة الجزائر آنذاك، ثلاثة منها في بايلك الشرق (بسكرة، وقسنطينة) واثنان في بايلك الغرب (مازونة ووهران)، وهو عدد قليل جدا مقارنة بالفترة التاريخية الطويلة للحكم العثماني بالجزائر من جهة، ومقارنة بما تم تشييده في مدن الإيالة التونسية خلال نفس الفترة، حيث نحصى في مدينة تونس عاصمة الإيالة لوحدها حوالي 17 مدرسة قائمة الذات تعود لمختلف الفترات التي تمثل الحكم العثماني في تونس (فترة الدايات وفتري حكم الأسترتين المرادية والحسينية)، ناهيك عن عشرات المدارس القائمة في القيروان وقابس وباجة وصفاقس وجربة وغيرها من المدن.

هذا التباين الكبير في عدد المدارس القائمة في كل من تونس والجزائر يعود في نظرنا إلى سببين أساسيين وهما:

السبب الأول يرجع إلى السياسة التعليمية التي انتهجها الحكام العثمانيين في كل من الجزائر وتونس، فالمتتبع لمسار التعليم في الجزائر خلال هذه الفترة¹، يلاحظ أنه كان مقتصرًا على تعليم المبادئ الأولية للقراءة والكتابة، وهذا ما يفسر الانتشار الواسع للتعليم الابتدائي هذا ما جعل الكثير من الباحثين والتربويين خاصة يصفونه بالتعليم الأولي، ما عرف انتشارًا واسعًا للمدارس القرآنية والكتاتيب على حساب المدارس الرسمية مما أعطى للتعليم الصيغة الدينية، لذلك لم تكن للجزائر العثمانية مدارس مستقلة للتعليم المحض²، فقد كانت هموم الحكام وقتئذٍ منحصرة في المحافظة على الاستقرار السياسي والدفاع عن الحدود وجمع الضرائب لبيت المال، ولم تكن هذه الأموال وغيرها تستعمل في نشر التعليم وترقيته وتنمية الثقافة وتنشيطها أو تطوير المجتمع اقتصاديًا أو إلى بناء المدارس والمعاهد الكبرى، وإذا فعلت شيئًا من ذلك عن طريق الدين³.

1. تم تناول هذا الموضوع في الفصل الثالث من هذه الدراسة.

2. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 280.

3. زهية دباب، وردة برويس، السياسة التعليمية في الجزائر خلال العهد العثماني، قراءة سوسيو تاريخية، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد 21، العدد 01، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2021، ص 181.

ويمكن أن نقر مع أبو القاسم سعد الله أن مسألة الاهتمام ببناء المدارس والمعاهد التعليمية من قبل العثمانيين بالجزائر كانت غائبة كون اغلب العثمانيين خاصة جنود الإنكشارية وبعض رجال الدولة كانوا عزابا، وفي جملتهم من دون أطفال فلم يتحمسوا لقضية التعليم ولا البناء، كما أن اغلبهم حديثي العهد بالإسلام ناهيك عن سوء الأوضاع السياسية والمواجهات العسكرية ضد المسيحيين الاسبان¹.

وهذا لا ينطبق على جميع الحكام طبعا، إذ نجد بعض الإسهامات الجليلة التي قام بها صالح باي في قسنطينة ومحمد الكبير بمعسكر ووهران، من خلال تشجيعهما للعلماء وبناء المساجد والزوايا والمدارس ووقف الأوقاف عليها، لكن هذه المحاولات فردية ولا تقوم على خطة مدروسة ولا تخرج عن تبعية التعليم للدين، وهو تلبية الشعور الديني لا الشعور العلمي لديهما، ومهما ذكرنا من إهمال العثمانيين للتعليم وسوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية، إلا أن الأسر الجزائرية لم تفرط في التعليم وتحملت أعباءه، فرغم الفقر كانوا حريصين على تعليم وتحفيظ أبنائهم للقرآن، الذي كان أساس التعليم والدين².

أما السبب الثاني فيعود للسياسة الإستدمارية الفرنسية الممنهجة، فمنذ أن غزا الفرنسيون الجزائر، عملوا على طمس معالم سيادتها العامة ومظاهرها العمرانية، وتفكيك بنيتها الاجتماعية وتغيير نمطها العربي الإسلامي، فطمست الكثير من معالمها، وشوهت عمرانها فهجرها سكانها وتغيرت إدارتها وهدمت شوارعها وحطمت منازلها وقصورها وأسواقها ومساجدها ومدارسها وزواياها ولم يسلم منها حتى قبورها ومقابرها، وحلت محلها أنماط ومعالم فرنسية جديدة وظهور معالم أخرى بديلة، ولعل المؤسسات التعليمية والدينية كانت أول من وجه الإستدمار الفرنسي سهامه نحوها، لأنها كانت تنظم وتقود المجتمع في عمليات المقاومة والثورات المتتالية خلال القرن 13هـ/19م، مما جعل إدارة الاحتلال تهدم اغلبها أو تغيرها عن وظيفتها أو تضرب حصارا عليها حتى لا تؤدي الوظيفة المعهودة إليها³.

أما السياسة التعليمية التي انتهجها الحكام التونسيين في تونس خاصة ابتداء من النصف الثاني من القرن الحادي عشر هجري السابع عشر ميلادي، والتي عرفت حركة علمية نشيطة بفضل جهود البايات المراديين

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 280.

2. محمد الطاهر الفيلاي، مرجع سابق، ص 29.

3. رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 86.

الذين أنشأوا وجددوا عددا كبيرا من المنشآت التعليمية والدينية من مدارس ومساجد وزوايا، ولما انتقلت السلطة إلى البايات الحسينيين منذ سنة 1705م استمروا على نهج المرادين في الاهتمام بالحياة العلمية، ورغم أن الوضع السياسي في عهدهم عرف الاضطرابات في بعض الأحيان، إلا أن سياستهم الثقافية اتصفت بالاستقرار، إذ أنشأوا الكثير من المباني ورموها لإقامة الشعائر الدينية والتعليم أيضا، وقد أدى اهتمام الحسينيين المتواصل بالمجالين العلمي والديني إلى ظهور حركة علمية نشيطة بتونس خلال الفترة الحديثة، فكثر بها المؤسسات التعليمية خاصة المدارس منها وكثر بها العلماء وطلبة العلم وتعددت مراكز العلم بها¹، وهناك عدة دوافع لاهتمام البايات الحسينيين بالثقافة والتعليم منها أنهم هم أنفسهم كانوا من النخبة المثقفة ومن رجال العلم والأدب، ولذلك كانوا حريصين على نشر العلم وعلى الاعتناء بالعلماء، وللدافع الديني أيضا أثر قوي في اهتمام هؤلاء البايات بالحياة العلمية، لأن الثقافة في ذلك العصر كانت ثقافة دينية، وبالتالي فإن التعليم كان يخدم الدين بالدرجة الأولى².

وبالإضافة إلى الحركة المعمارية الكبيرة التي صاحبت النشاط العلمي في تونس خلال هذه الفترة، لم تعرف البلاد خلال فترة الحماية الفرنسية (1881م، 1956م) تلك الهجمة الشرسة المنظمة على المنشآت الدينية والمراكز العمرانية عموما مثلما عرفته الجزائر، رغم وجود بعض التجاوزات فيما يخص تغيير مهامها وإدخال بعض التعديلات عليها لم تمس بجوهرها العام.

ثانيا. التصورات المعمارية للنماذج المدروسة:

إن المنهج المتبع في هذه الدراسة والقائم أساسا على الملاحظة والوصف من خلال المعاينة الميدانية التي سبق وذكرنا نتائجها لا تمكن سوى من تبويب قائم على ثنائية التشابه والتفرد، والمنهج المتبع في التبويب يعتمد على ما تفرضه طبيعة الواقع المعماري والأثري المتعلق بمدارس تونس والجزائر في المنحنى العام، وذلك برصد أوجه التشابه والاختلاف.

وانطلاقا من التخطيط العام يمكن أن نجمع بعض نقاط التشابه والاختلاف بين المعالم المدروسة لكن لا يمكن أن نعتمدها كمنهج عام للتبويب لأسباب متعددة لا يقل فيها الواحد أهمية عن الآخر، ومنها أن العدد القليل في النماذج المدروسة مقارنة بالعدد الإجمالي لها، خاصة لما هو موجود في تونس الأمر الذي لا يساعدنا على

1. فوزية لزغم، مرجع سابق، ص 209.

2. الحسين الورثياني، مصدر سابق، ج2، ص 763.

إعطاء الأحكام النهائية وبالتالي النتائج المرتقبة، ومنها كذلك التشابه الكبير في العديد من النماذج المدروسة، ناهيك عن وجود فوارق واختلافات من حيث الفخامة المعمارية والفنية بالنسبة للمدارس المؤسسة من طرف الحكام ورجال الدولة وبين البساطة التي تميزت بها المدارس المؤسسة بمبادرات فردية من عامة الناس.

1. من حيث النظام التخطيطي:

تشارك مدارس تونس مع مدارس الجزائر والكثير من المدارس المنتشرة في العالم الإسلامي في ذات الفترة سواء في المغرب أو المشرق في الشكل العام المتمثل في مبنى يضم سقيفة أو أكثر تتقدم صحن أو وسط مكشوف تتوسطه نافورة قد يكون مستطيلا أو مربعا تحيطه به الأروقة من جهات ثلاثة تعلوها قبيبات أو أقبية متقاطعة تفتح عليها حجرات الطلبة، وتبقى الجهة الرابعة لقاعة التدريس التي غالبا ما تعلوها قبة كبيرة، وتستخدم كبيت للصلاة في حال المدارس المستقلة التي لا يكون لها مسجدا متصلا، وفي الطابق العلوي نجد مزيدا من حجرات الطلبة، كما تضم المدرسة إلى جانب ذلك الميضاة وعدد آخر من الملاحق التي عادة ما نجدتها في المدارس عموما.

والأكيد أن هذا الطراز من المدارس تأثرت به تركيا ببعض أنماط المدارس السلجوقية في الأناضول ذات الصحن المكشوف مع اختلاف في بعض التفاصيل المعمارية¹، وعقب فتح القسطنطينية عام 857هـ/1453م، ظهرت المجمعات المعمارية التي ضمت من بين ما ضمت المدارس ولعل أهمها مجمع السليمانية الذي بناه المهندس سنان باشا للسلطان سليمان القانوني سنة 957هـ/1550م، وعموما فقد تميزت مدارس هذه المرحلة بوجود قاعة كبيرة تتقدم البناء مسقوفة بقبة، يليها صحن محاط بأروقة تتوزع حولها الكثير من الحجرات الخاصة بالطلبة وكلها تتموضع على طابق واحد².

والأكيد أن نظام المدارس سواء في المشرق أو المغرب وسواء في تركيا أو الجزائر لم يختلف في تخطيطه كثيرا، وانحصر الاختلاف في بعض التفاصيل المعمارية غير المؤثرة على النمط العام للمدرسة، وهو الأمر الذي يجعلنا نستنتج أن المدارس التي بنيت خلال الفترة العثمانية لم تتأثر بمدارس تركيا من حيث التخطيط، إنما حافظت في بنائها على التقاليد المحلية المتوارثة عن الحفصيين والزيبانيين والمرينيين³.

1. محمد حمزة إسماعيل الحداد، مرجع سابق، ص 224.

2. لمياء الجاسر، مدارس حلب الأثرية، تاريخها وعمارتها، ط1، دار الرضوان، حلب، سوريا، 2000م، ص 50.

3. علي بوتشيشة، مرجع سابق، ص 269.

ومن جهة أخرى يبدو أن هذه المدارس لا تختلف في الكثير من عناصرها عن تلك التي تتشكل منها المساجد عموما ولا تتميز عنها إلا بوجود بعض المرافق التي تستغني عنها المساجد في العادة، ومع التطور الذي عرفه نظام المدارس منذ القرن السابع هجري الثالث عشر ميلادي أصبح من الصعب الفصل بين عمارة المسجد والمدرسة، فهما يشتركان في عناصر رئيسية ثلاث وهي جدار القبلة والصحن المكشوف وبيت الصلاة، وقد نضيف إليها عنصرا رابعا مشتركا وهو المئذنة والمؤخر التي تحيط بالصحن¹.

ففي تركيا العثمانية أقام المعماري سنان باشا ما قد نسميه الجامع المدرسة حيث استغل الأضلاع الخلفية لمجنتي ومؤخر الصحن في بناء حجرات الطلبة وقاعة التدريس، بينما صار الصحن عنصرا مشتركا ما بين المسجد والمدرسة، وهو المخطط الذي لا يختلف كثيرا عن مخططات بعض المدارس بالجزائر وتونس ومنها مدرسة الباي ومدرسة جامع الجديد بتونس².

وحسب الشكل العام للنماذج التي تم تناولها بالدراسة نلاحظ من خلال مخططاتها أن كلها تقريبا تأخذ شكل المستطيل غير المنتظم باستثناء مدرستي قابس والنخلة بتونس التي اتخذتا شكل المربع المنتظم وربما يعود السبب في ذلك إلى طبيعة المواقع التي بنيت عليها.

فبالنسبة للمدارس ذات التخطيط المستطيل غير المنتظم فهي جميعا مدمجة إما داخل النسيج الحضري للمدينة، وإما ضمن المعالم المشكلة للمركب المعماري ككل، خاصة بالنسبة لمدارس الجزائر، التي اتخذت جميعها الشكل المستطيل غير المنتظم اثنان منها من الشرق إلى الغرب واثنان من الشمال للجنوب، وربما هذه الاستطالة فرضتها طبيعة تكوين أجزاء المعلم في حد ذاته الذي يتطلب تدرجا لأسباب اجتماعية، إذ يمكن أن يفسر عمق المعلم بالنسبة لمدارس الجزائر وتونس على العموم بالرغبة بتجنب الضجيج الخارجي وازعاج الطلبة أثناء التدريس، وقد عبر المهندس عن هذا التخطيط بسقيفة منكسرة ثم صحن محاط بأروقة تتوزع خلفها بقية مكونات المعلم، وإذا ما قارنا بين تخطيط مدارس تونس والجزائر في هذه الفترة مع نظيراتها في نفس الفترة في المشرق الإسلامي نلاحظ أنها تتشابه مع مدارس بغداد وسورية من حيث اعتبارية التخطيط في الاتجاهات في حين تختلف مع المدارس في مصر التي جاءت جلها متشابهة واتخذت في أغلبها اتجاه القبلة³.

1. أحمد فكري، مرجع سابق، ص 158.

2. علي بوتشيشة، مرجع سابق، ص 270.

3. Golvin. L, la madrssa médiévale, op.cit, P 139.

كما أنه يمكن أن نرجع هذا الشكل غير المنتظم الذي نتجت عنه الاستطالة إلى شكل المساحة المتاحة باعتبار أن هذه المعالم مقامة جملها داخل النسيج الحضري، بالتالي فإنه لابد من الالتزام واحترام المعالم المجاورة، سيما وأن بعضها قد تم بناءه مكان معالم قديمة تم شراؤها وتهديمها وإعادة استغلال مكانها مثل ما حدث مع مدرسة جامع الجديد بمدينة تونس أو التجديدات الكبيرة التي خضعت لها جل هذه المدارس مثلما حصل مع مدرسة سيدي الكتاني بقسنطينة أو مدرسة خنق النطاح بوهران.

يصنف الأستاذ **لوسيان غولفان** المدارس إلى صنفين، صنف أول لعامة الناس داخل أحياء المدينة العتيقة وعلى المهندس أن يراعي في مخططه توزيع الشوارع والمباني المجاورة للمعلم، وبالتالي تغطي هذه المعالم مساحات صغيرة وتظهر بمخططات غير متوازنة أحيانا، أما الصنف الثاني فهو من بنيان الحاكم وهو يرمي من تشييد مثل هذه المعالم إلى تدعيم حكمه ويخصصها لأتباعه وأعيان البلاد وتعتبر مؤسسة رسمية إدارية، وهو لا يتأخر عن إقامتها حتى لو تطلب ذلك إزالة حي بأكمله مثلما حدث مع المدرسة المستنصرية ببغداد والنورية بدمشق والحسينية بمصر والمستنصرية بتونس والتاشفينية بتلمسان والبوعنانية بفاس¹.

ونلاحظ أن هذه المدارس لم تشهد تطورا على مستوى الشكل ولا على مستوى الامتداد والانتظام خلال العهود المتلاحقة، كما يمكن الإشارة إلى أنه في الفترات المتأخرة خلال عمليات الترميم شهدت بعض التغييرات المتمثلة في دمج الغرف لإعادة توظيفها مثلما حدث في مدرسة النخلة بتونس أو في تغطية الصحن مثلما حدث في مدرسة خنق النطاح بوهران.

من خلال الشكل العام للمدارس في تونس خلال العهد العثماني يمكن أن نستنتج أنها تحاكي شكل نظيراتها في الجزائر في نفس الفترة على الأقل من حيث الشكل المستطيل غير المنتظم وهو نفس الشيء نلاحظه في مدارس المغرب الإسلامي قبل دخول العثمانيين في الجزائر وتونس وليبيا أو في المغرب الأقصى كمثل على ذلك مدرسة الصفارين ومدرستي الصهريج والصباغين في مدينة فاس والتاشفينية بتلمسان، ونفس الشيء بمدارس المشرق الإسلامي مثل المدرسة النظامية والمستنصرية ومدرسة الصالح نجم الدين أيوب ومدرسة السلطان حسن وغيرها.

1 . Golvin(L), « Madrasa et architecture domestique », L'habitation traditionnelle dans les pays musulmans autour de la méditerranée, T2, Paris, 1990, P 451.

ويبدو أن الشكل المنتظم لمدرسة قابس فرضه موقعها فهي تقع خارج المدينة القديمة هذا من ناحية ومن ناحية أخرى وجودها في مكان خال من المباني أو على الأقل في مسافات متباعدة من ناحية ثانية، حيث نجد على يسارها ضريح الصحابي أبي لبابة الأنصاري، وباتجاه الشمال مقبرة الحوامد، وبالتالي كان لبانيها الحرية في اتخاذ الشكل والمساحة دون أي اعتبارات أخرى.

كما انضاف للمدرسة خلال الفترة العثمانية عنصران هامان من تأثيرات مدارس المشرق وهما: **الأسبلة** التي نجدها في أغلب مدارس المشرق والتي لا نعتز عليها إلا في القليل النادر من مدارس تونس منها ثلاثة في الفترة الحسينية وهي مدرسة جامع الجديد والباشية وبئر الأحجار، في حين لا نجدها في مدارس الجزائر العثمانية رغم أن بعضها عبارة عن مركبات معمارية على غرار مدارس تونس تشمل الضريح والمدرسة والمسجد معا، مثل سيدي الكتاني بقسنطينة والناصرية بخنقة سيدي ناجي، ولعل السبب في ذلك يعود إلى وجود العديد من العيون العامة القريبة جدا من هاته المنشآت، **وعنصر الضريح** أو المدفن الخاص بمؤسس المدرسة وافراد عائلته وبعض المشايخ والعلماء الذين مروا بها.

وإذا كانت مدارس المشرق على العموم وأغلب مدارس المغرب الأقصى تشمل على طابقين، كذلك الشأن خلال الفترة العثمانية بالنسبة لمدارس تونس في المدرسة المرادية والحسينية الكبرى التي احتوت كل منهما على طابقين، في حين أن النخلة والسليمانية جاءتا بطابق واحد، بينما أضيف إلى مدرسة جامع الجديد طابق علوي في فترات لاحقة¹، ونفس الشيء بالنسبة لمدارس الجزائر في مدرسة سيدي لخضر بقسنطينة والناصرية بخنقة سيدي ناجي بطابقين، أما مدرستي مازونة وخنق النطاح بوهران بطابق واحد في حين أضيف لمدرسة سيدي الكتاني طابق ثاني خلال الفترة الاستعمارية² وهذا يشكل أحد الفوارق بين مدارس المشرق والمغرب من جهة ومدارس الجزائر وتونس من جهة أخرى³.

ويتمثل ثاني الفوارق الأساسية في احتواء أغلب مدارس المشرق خاصة مدارس مصر خلال العهد العثماني على **عنصر الإيوان** وهي في أغلب الأحيان بإيوان واحد مخصص للمذهب الحنفي عكس الأواوين الأربعة التي

1. بن مامي محمد الباجي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، مرجع سابق، ص 124.

2. حول هذا الموضوع أنظر عبد القادر دحدوح، مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، دراسة أثرية عمرانية، ج 1، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 02، 2009، 2010م، ص 323.

3. بن مامي محمد الباجي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، مرجع سابق، ص 123.

امتازت بها مدارس سوريا والعراق ومصر في العهد المملوكي¹، ولا نجد هذه الظاهرة إلا في مدرستين في مدينة تونس في حين لا نجدها في مدارس الجزائر.

وإن كان يوجد ببعض مدارس المشرق حجرة للطعام وحمام كما هو الشأن بالنسبة إلى المدرسة المستنصرية ببغداد فإن هذا لا يوجد بمدارس الجزائر وتونس البتة.

كما تمتاز مدارس المشرق في الفترة العثمانية وخاصة في القاهرة بكثرة بناء القباب التي تغطي معظم مرافقها، وهذه الظاهرة نجدها كذلك في مدارس تركيا العثمانية مع أولى المدارس الباقية وهي مدرسة سليمان باشا في أزينيك (736هـ، 1336م) ونفس الشيء نراه جليا في **الجمع المعماري السلিমانيّة** بإستانبول (876هـ، 1471م) وكذا في **مدرسة بايزيد الثاني** في أدرنه (895هـ، 1488م)²، ولا نجدها كثيرا في مدارس الجزائر وتونس إلا في بعض الأماكن من الأضرحة أو قاعة التدريس، أما بقية المرافق فغطيت كلها إما بالأقبية المتقاطعة المدججة أو الأقبية نصف البرميلية، وهذا ما يؤكد فعلا أن المدارس في بلاد المغرب خلال هذه الفترة لم تتأثر كليا بمدارس تركيا حيث حافظت في بنائها على الكثير من التقاليد المعمارية المحلية الموروثة عن الفترات السابقة.

2. من حيث الكتلة:

فيما يخص حجم المعالم أو المساحة الإجمالية للكتلة، نلاحظ من خلال الجدول المرفق أن جل المدارس المنتشرة في بلاد المغرب خاصة في تونس والجزائر، سواء في الفترة العثمانية أو في مدارس الحفصيين والزيانيين هي مساحات متقاربة تتراوح ما بين 210م² و 874م²، وهي متقاربة كذلك مع معدل جل المدارس المرينية المنتشرة في المغرب الأقصى وتلمسان، في حين امتدت مدارس العراق ومصر وسوريا على مساحات متسعة نسبيا وصلت إلى 10200م² في مدرسة السلطان حسن بمصر، ومع ذلك فقد فقدت المدارس العثمانية في القاهرة هي الأخرى الكثير من ضخامتها وهيبتها وفخامتها، ولا نجد ذلك الشراء الزخرفي والمعماري الكبير الذي نراه جليا في المدارس المملوكية في مصر والشام³.

1. ميساء فتحي توفيق صقر، طرز عمائر الولاية في القاهرة في العصر العثماني، دراسة أثرية معمارية، مج 1، رسالة لنيل

درجة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، قسم الآثار، كلية الآداب، جامعة طنطا، مصر، 1427هـ، 2006م، ص 371.

2. مرفت عيسى، الطراز العثماني في منشآت التعليم بالقاهرة، دراسة آثاره معمارية، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية،

كلية الآثار، جامعة القاهرة، 1987م، ص 364.

3. لمياء فتحي توفيق صقر، المرجع السابق، ص 372.

وعلى الرغم من أن المدارس التونسية في العهد العثماني تمتاز بنوع من البساطة ونقص في الأبهة والفخامة التي عرفت بها جل المدارس في المشرق قبل الفترة العثمانية وكذا مدارس المرينيين في فاس ومكناس وسلا وتلمسان على حد السواء، إذا مثلت هذه المدارس تحفا فنية نادرة استعمل فيها الرخام والزليج والمرمر ومختلف النقوش على الجص والخشب بكثرة، وهي بذلك تتفوق في غالب الأحيان من الناحية الزخرفية عن مدارس تونس، ولكن رغم ذلك نجد أن هذه الأخيرة أحسن حالا في هذا الجانب من مدارس الجزائر خلال هذه الفترة التي كانت الأكثر بساطة والأقل ثراء.

| المساحة (م ²) | التاريخ بالهجري والميلادي | المكان | | المدرسة |
|---------------------------|---------------------------|----------|---------|-------------|
| 2م ¹³⁵³ | 568هـ/1172م | دمشق | سورية | النورية |
| 2م ¹²⁴² | 629هـ/1231م | حلب | | السلطانية |
| 2م ⁴⁷⁷⁰ | 693هـ/1293م | بغداد | العراق | المستنصرية |
| 2م ^{778.60} | 640هـ/1242م | القاهرة | مصر | الصاحية |
| 2م ¹⁰²⁰⁰ | 765هـ/1356م | القاهرة | | السلطان حسن |
| 2م ¹⁷⁵⁰ | 788هـ/1386م | القاهرة | | البرقوقية |
| 2م ⁷²¹ | 758هـ/1356م | القبروان | تونس | العوانية |
| 342 | 636هـ/1238م | تونس | | الشماعية |
| 2م ⁸⁷⁴ | 838هـ/1434م | تونس | | المنتصرية |
| 2م ³⁶⁹ | 1086هـ/1675م | قابس | | المرادية |
| 2م ⁵³⁰ | 1124هـ/1713م | تونس | | النخلة |
| 2م ³²⁸ | 670هـ/1271م | فاس | المغرب | الصفارين |
| 2م ^{132.5} | 723هـ/1323م | فاس | | الصباغين |
| 2م ⁶⁸⁰ | 723هـ/1323م | فاس | | العطارين |
| 2م ²¹⁰ | 718هـ/1318م | تلمسان | الجزائر | التاشفينية |
| 2م ⁵⁰⁴ | 747هـ/1347م | تلمسان | | العباد |
| 2م ⁴⁹⁵ | 1190هـ/1776م | قسنطينة | | الكتانية |
| 2م ²⁶⁵ | 1245هـ/1779م | وهران | | خنق النطاح |

الجدول رقم 5: مقارنة بين مساحة بعض المدارس في مختلف بلدان العالم الإسلامي

ثالثا. توزيع المرافق المعمارية:

1. فضاءات الاستقبال:

1.1 السقائف:

تشمل جل المدارس تقريبا على عنصر السقيفة وهي في الغالب على شكل منعرج لدواعي اجتماعية من ناحية، وانعدام وصول الضجيج إلى الداخل من ناحية ثانية، كما تمثل في آن واحد مكان انتظار وجلس حارس المدرسة أيضا، وربما كان يجلس فيها الطلبة قبل وبعد الدخول للاحتماء من برد الشتاء وحر الصيف، أو لاستقبال اقربائهم وأصدقائهم خصوصا وأن البعض من هذه المدارس تحتوي على مصطبات حجرية، وهو ما يقتضي حتما وجود سقيفة والتي يمكن اعتبارها كذلك عنصرا موجها للداخل حيث يؤدي المدخل الرئيسي عادة إلى سقيفة أو أكثر حسب المساحة المتاحة، والتي يمكن تصنيفها في النماذج المدروسة إلى ثلاثة أصناف:

- مدارس ليس بها سقائف

- مدارس بها سقيفة تتقدم الصحن

- مدارس بها أكثر من سقيفة تتوزع داخل كتلة المعلم

وتعتبر مدرسة خنق النطاح بوهران النموذج الوحيد من بين مدارس الجزائر وتونس المدروسة التي لا نجد لها سقيفة تتقدم الصحن، وإنما يتم الدخول من المدخل الرئيسي مباشرة إلى الرواق الأيمن ومنه إلى الصحن، وربما ذلك بسبب ان هذه المدرسة لم تحافظ على كامل نظامها التخطيطي بسبب ما طالها من التجديد والتغيير سواء خلال فترة حكم الباي محمد الكبير الذي حولها إلى مسجد، أو خلال فترة الاحتلال الفرنسي الذي اتخذها حماما لجنوده، كما سبق وأن أشرنا.

أما بالنسبة للمدارس الأخرى في الجزائر (مازونة، الناصرية، وخنق النطاح) فكلها يلي مداخلها الرئيسية سقائف تختلف أحجامها ووضعياتها من مدرسة إلى أخرى، حيث نجد لها بشكل طولي في مدرستي مازونة والناصرية وهي صغيرة الحجم، تفتح في طرفها الآخر على الصحن مباشرة في حين تأخذ في مدرسة سيدي الكتاني وضعية أفقية أو عرضية بموازاة الصحن وتفتح على الرواقين المشرفين عليه من الجهتين الشرقية والغربية.

أما بالنسبة للنماذج المدروسة من مدارس تونس فتحتوي جميعها على سقائف تختلف أشكالها ووضعياتها هي الأخرى، حيث نجد لها في كل من مدرستي النخلة وجامع الجديد بشكل طولي تربطان ما بين المدخل والصحن

مباشرة على شاكلة سقائف الناصرية ومازونة في الجزائر ولكنهما أطول منها، تشتركان في طريقة التسقيف بالأقبية المتقاطعة وتختلفان عنها في احتواء مدارس تونس على دكات حجرية على جانبي السقيفة وهي خاصة تمتاز بها جل مدارس تونس ولا نجدها في مدارس الجزائر.

أما بالنسبة للمدرسة المرادية بقابس والسليمانية بمدينة تونس فهما تضمان سقيفتان، الأولى تلي المداخل الرئيسية مباشرة بها مداخل داخلية تفضي إلى سقيفة ثانية تتعرج نحو يسار السقيفة الأولى وتمتد بشكل طولي بين الشرق والغرب، وتفتحان بعدها على الصحن وهي خاصة كذلك نجدها في العديد من المدارس التونسية الأخرى ونفس الاختلاف في وجود سقيفة واحدة أو سقيفتين وكذا الاختلاف في احجامها ووضعياتها بمكانة المعلم وأهميته، وكذا بصغر أو كبر مساحته، والدليل هو إذا ما قارنا هذا العنصر المعماري في مدارس الجزائر مقارنة بمدارس تونس نرى بأن السقائف في مدارس الجزائر التي تم بناءها من شخصيات عامة ونقصد بها مازونة والناصرية هي أصغر بكثير طولاً وعرضاً من سقائف المدارس التي تم بناءها من طرف الحكام كمدرسة صالح باي ومدارس تونس عموماً.

2.1 الصحنون:

هو ذلك الفضاء المكشوف الذي عادة ما يتوسط المعلم لكي يؤمن الإضاءة والتهوية للعناصر المطللة عليه من غرف وملاحق أخرى ويكون دائماً مكشوفاً حتى تصله أشعة الشمس بكل سهولة، إذ لا توجد مبان عالية تحيط به فيضئ المدرسة ويدفئها في الشتاء، أما في الصيف فيقوم بدور عازل للهواء البارد الذي يظل فيه من الليل، فانكشف الصحن إذا، ضرورة إقتضاها خلو غالب بيوت الصلاة والغرف من نوافذ خارجية، ولا يربط المدرسة بالشارع إلا الباب، وبالتالي نرى أن دور الصحن هام جداً يستعمل بالإضافة إلى مهامه في إضاءة كامل المدرسة وتزويدها بالهواء يستعمل في فصل الصيف للجلوس والسهر فيه.

يتخذ الصحن في بعض المدارس المدرسية شكلاً مربعاً (خندق النطاح وسيدي الكتاني بالجزائر، والمرادية والنخلة بتونس)، وفي بعضها الآخر شكلاً مستطيلاً بين القبلة والجوف (مازونة والناصرية بالجزائر، والجديدة والسليمانية بتونس)، وتختلف مساحته حسب مساحة المعلم في حد ذاته، وهي تمثل في بعض الأحيان ربع مساحتها الكاملة، ويمكن أن تقدر بعض المدارس بثلاثها، ويكون الصحن في غالب الأحيان غير منتظم الأضلاع ولا يكون للحائطين المتواجهين نفس الطول.

وما يمكن ملاحظته على مقاسات الصحن اجمالا أن صحن مدارس الجزائر متقاربة فيما بينها ونفس الشيء بالنسبة لمدارس تونس رغم أن مساحة صحن هذه الأخيرة أفسح وأكبر من مدارس الجزائر حيث تتجاوز في أغلبها الضعفين مثل ما هو في المدرسة السليمانية والمدرسة الجديدة التي تعتبر أكبر المدارس بين جميع النماذج.

ويمكن أن نستخلص أن هناك عاملان أساسيان يساهمان في تحديد مساحة الصحن وشكله وهما مساحة المعلم من جهة وطريقة توزيع بقية المرافق المعمارية عليه من جهة أخرى، فكلما كانت مساحة المدرسة أكبر وطبيعة الملاحق والغرف أقل كانت مساحة الصحن أكبر والعكس صحيح.

وهناك ظاهرة وجدت في بعض مدارس تونس دون مدارس الجزائر وهي ظاهرة تعدد الصحن في المدرسة الواحدة نجدها في العديد من المدارس في تونس والقيروان ومنها مدرسة قابس وفي اعتقادنا كذلك أن تعدد الصحن في المدرسة الواحدة مرتبط كذلك بمساحة المدرسة ووظيفتها.

| المقاسات | شكل الصحن | المكان | | المدرسة |
|-------------|-----------|---------|---------|--------------------|
| 6.13/12.50م | مستطيل | بسكرة | الجزائر | المدرسة الناصرية |
| 6.23/16.5م | مستطيل | غليزان | | مدرسة مازونة |
| 5.40/5.65م | مربع | وهران | | مدرسة خنق النطاح |
| 6.27/6.75م | مربع | قسنطينة | | مدرسة سيدي الكتاني |
| 11/10.5م | مربع | قابس | تونس | المدرسة المرادية |
| 11.5/10.50م | مربع | تونس | | مدرسة النخلة |
| 13/17م | مستطيل | تونس | | المدرسة الجديدة |
| 12/16.20م | مستطيل | تونس | | المدرسة السليمانية |

الجدول رقم 6: شكل الصحن ومقاساتها في النماذج المدرسية من المدارس

كما نشير إلى أن مدرسة خنق النطاح بوهران فقدت الكثير من هذا النظام، حيث تبدو وكأنها لا تحتوي على صحن، لان هذا الأخير سقف وأصبح عبارة عن بيت للصلاة مضافة إليه الأروقة الأربعة لدرجة أنها لا تتميز عن بعضها، ولكن من خلال طريقة اصطفاف العقود هي التي تحدد لنا مساحة الصحن الأصلي.

3.1 الأروقة:

تعد مكانا انتقاليا من السقيفة إلى الصحن، وتقي الأروقة أو المجنبتات الطلبة من المطر وحر الشمس، كما تحمي الغرف من تقلبات الطقس، فالظل الناتج عن وجود هذه الأروقة يخفف من الحرارة داخل الغرف.

وقد استعملت الأروقة ليس في المدارس فحسب، وانما على نطاق واسع في العمارة الإسلامية في المساجد والمنازل وغيرها، وعادة ما تحيط الأروقة بالصحن من جهاته الأربعة وهو ما نجده في كل النماذج التي تناولناها في تونس حيث تشترك جميعها في طريقة توزيع البوائك المشرفة على الصحن والمرفوعة على الأعمدة الرخامية أو الحجرية تعلوها تيجان وعقود على نفس النمط تقريبا، ونفس الشيء بالنسبة لطريقة التسقيف القائمة على الاقبية المتقاطعة المدجة.

أما بالنسبة لأروقة مدارس الجزائر فالأمر يختلف تماما، إذ جلها لم تلتزم بهذه القاعدة التخطيطية، حيث نجد اختلاف في توزيع الأروقة حول الصحن من مدرسة إلى أخرى، ففي المدرسة الناصرية التي تضم طابقين نجد رواق واحد يشرف على الصحن في الطابق الأرضي في حين أن الجهات الثلاث الأخرى تفتح عليه مباشرة أبواب عديد الملاحق، كما تشرف عليه في الطابق الثاني ثلاث أروقة تفتح عليها غرف الطلبة.

ونفس الشيء بالنسبة لمدرسة مازونة التي لا نجد لها أروقة اللهم في الجهة الشمالية من الصحن التي تشرف عليه بائكة اشبه ما تكون بظلة تتقدم الأضرحة وبعض الغرف وهي لا تقوم على أعمدة تحمل عقود وانما دعائم مختلفة المقاسات والمسافات بما تجويفات كبيرة معقودة، في حين أن بقية الجهات الأخرى تفتح على الصحن مختلف المرافق بصورة مباشرة.

أما المدرسة الكتانية بقسنطينة فنجد أروقة ثلاثة تفتح في الطابق الأول ومثلها في الطابق الثاني في حين أن الجهة الرابعة تخلو من هذا العنصر كونها متصلة بمقبرة صالح باي وأفراد عائلته، أما مدرسة خنق النطاح بوهران ممكن تصنع الاستثناء بالنسبة للمدارس الأخرى كون الصحن -الذي حول إلى بيت الصلاة- كان يحيط به أربعة أروقة قبل أن تدمج معه بعد تغطيته في فترات لاحقة.

2. فضاءات التعبّد والدراسة:

1.2 قاعات الصلاة والتدريس:

تمثل قاعة الصلاة والتدريس عنصرا رئيسيا مشتركا بين جميع المدارس، فهي أكثر الغرف أهمية واتساعا وذلك نظرا لوظائفها الهامة، من صلاة وتدريس ومذاكرة وغيرها.

وتبدو أهمية هذه القاعة أو المصلى واضحة بالنسبة إلى أجزاء المدرسة الأخرى من حيث مساحتها وزخرفتها ومن حيث اتساع مدخلها، فالواقف في صحن المدرسة يلاحظ بسهولة أهمية واجهة القاعة إلا أنها تكون في بعض الأحيان في شكل غرفة كبيرة، لا تختلف عن الغرف العادية إلا باحتوائها على المحراب وذلك حسب طبيعة المدرسة المعمارية.

لا تأخذ بيت الصلاة في بعض الأحيان مساحة كبيرة خاصة في المدارس الملحقة بمساجد أو المركبات المعمارية أو القرية من مساجد المدينة عموما لهذا لم تكن هناك حاجة لاتساعها، نلاحظ ذلك جليا في قاعة مدرستي الناصرية وسيدي الكتاني بالجزائر التي لا تتجاوز مقاساتها 6.5م/6.5م، ونفس الشيء بالنسبة لقاعة مسجد الجامع الجديد التي بلغت مقاساتها 7.5/4.5م، على عكس من ذلك بالنسبة للمدارس المستقلة كالمراية بقابس وخنق النطاح بوهران، ورغم هذا فإن القاعة لا تتسع للقاطنين بالمدرسة فقط بل تستطيع ان تستوعب أكثر من عددهم، خصوصا الطلبة الآتين للدراسة من خارجها وروعي في تصميم هذه القاعات أن يكون طولها أكثر من عمقها في اغلب الحالات، إلا أنه توجد قاعات شكلها مربع وأخرى عمقها أكبر من طولها، ولربما نفس هذا الاختلاف باضطرار المهندس إلى استعمال هذه الطريقة نتيجة لضيق مساحة المدرسة، أو لوجود بعض الأبنية الأخرى المحيطة بالمساحة المخصصة لبنائها والتي تمنعه من التصرف فيها حسب مشيئته.

واللافت للانتباه أن جميع حجرات المدارس التي أتينا على ذكرها لها محراب في حائطها الجنوبي بما في ذلك حجرة التدريس بمدرسة سيدي الكتاني الملحقة بالمسجد، أمال مدرسة خنق النطاح فغير موجود في الجدار الجنوبي للحجرة، حيث يغلب الظن أن معالمة طمست في بداية الاحتلال الفرنسي حين حول - كما ذكرنا - إلى حمام للجنود وركبت تجهيزاته أسفل القبة تماما، فليس من المعقول عدم وجود المحراب في مسجد أو مدرسة وفي فترة متأخرة من العهد الإسلامي¹.

1. علي بوتشيشة، مرجع سابق، ص 267.

والملاحظ كذلك على قاعات الدراسة في المدارس المصرية في القاهرة خلال نفس الفترة أنها لم تعد تؤدي وظيفة الدراسة والصلاة معا لذلك لم تشتمل على منبر ولا على مئذنة ولا نجد فيها سوى محراب صغيرا على شكل حنية بسيطة تتوسط أحد أضلاع قاعة الدراسة وذلك لأداء الصلاة إذا حان وقتها وقت تلقي الدروس¹.

2.2 المساجد:

إن الملاحظ للمدارس في الجزائر خلال الفترة العثمانية رغم بساطتها، إلا أنها تشكل وحدة معمارية متكاملة بين العديد من المرافق التي لها أدوار مختلفة ضمن هذا النظام المعماري الذي يمثل الطراز العثماني الوافد، بكل ما يحمله من تفاصيل معمارية وفنية، ولعل أبرز ما يمثله من سمات أن المدارس كلها تقريبا مدارس ملحقة بالمساجد أو ملحقة بها المساجد، حيث نجد كل من مدرسة مازونة والناصرية وسيدي الكتاني وسيدي لخضر مدارس ملحقة أو متصلة بمساجد كبيرة بكل مرافقها وعناصرها المعمارية، من منبر ومحراب ومئذنة ومكتبة وميضأة وغيرها، وهو نظام لا نجده في مدارس تونس إلا في نموذج واحد يعتبر فريد من نوعه في هذه البلاد، وهي مدرسة جامع الجديد التي تعتبر أول وآخر مدرسة ملحقة بمسجد خلال الفترة العثمانية في تونس، أما بقية المدارس الأخرى فكلها مدارس مستقلة بذاتها، وهذا النموذج لا نجده في الجزائر إلا في مدرسة خنق النطاح بوهران، كما نجد نظام المدارس الملحقة بطرابلس الليبية خلال الفترة العثمانية خاصة في عصر الأسرة القره مانلية (1123، 1251هـ / 1711، 1835م) حيث أنشئت عدة مدارس منها الثلاثة الباقية الذات إلى اليوم وهي مدرسة أحمد باشا القره مانلي الملحقة بجامعة الكبير رفقة الضريح، ومقبرة أفراد الأسرة القره مانلية وبعض الملحقات الأخرى، ومدرسة الكاتب التي ألحق بها مسجد ومكتبة، ومدرسة مصطفى قرجي التي ألحقها كذلك بجامعة²، وهو يدل على كل تطور لمفهوم المدرسة وتخطيطها في بلاد المغرب خلال هذه الفترة، وبالتالي فالمدارس المستقلة كانت تتخذ المصلى قاعة للتدريس والصلاة معا بالنسبة للطلبة والشيخ في حين أن المدارس الملحقة أو المتصلة بمختلف المرافق كانت تتخذ إحدى قاعاتها للتدريس، أما الصلوات فبالمسجد المجاور مثلما كان عليه الحال في كل من مدراس الناصرية ومازونة وسيدي الكتاني وسيدي لخضر.

1. لمياء فتحي توفيق صقر، المرجع السابق، ص 371.

2. أحمد النائب الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ج1، نظارة المعارف الجليلة، مطبعة جمال أفندي، إستانبول، تركيا، 1317هـ، ص 298.

3.2 الأضرحة والمقابر:

عرفت الأضرحة والمقابر الملحقة بالعمائر الدينية منذ أواخر القرن 1هـ/7م، وزاد الاهتمام أكثر بها في النصف الثاني من القرن 5هـ/11م، وانتشرت أكثر خلال القرن 6هـ/12م، وأصبحت في القرون التالية سنة وجبت الإلتباع بحيث لا تخلو أي منشأة من وجود مدفن ملحق بها إلا في حالات قليلة¹ أما بالنسبة للمدارس فأول من قام ببناء ضريح في المدرسة هو نور الدين محمود زنكي سنة 563هـ/1167م في المدرسة النورية الكبرى بدمشق، وأصبح منذ ذلك الحين نموذجاً يحتذى به في مدارس العالم الإسلامي، يذكر أحمد فكري أن معظم المدارس تضم ضريحاً أو أكثر، وأصبحت هذه الظاهرة متبعة فيما بعد وفي جميع البلاد الإسلامية².

أما الضريح في المدرسة المغربية قبل الفترة العثمانية خاصة في الجزائر وتونس فلم تنتشر كما انتشرت في المشرق الإسلامي، حيث نحصى نموذجين منها فقط في الجزائر ممثلان في المدرسة التاشفينية الزيانية ومدرسة سيدي بومدين المرينية بالعباد بتلمسان، ونموذجين آخرين بتونس الحفصية في مدرسة ابن تافراكين ومدرسة القايد نبيل بمدينة تونس³.

وخلال الفترة العثمانية زاد الاهتمام أكثر ببناء الأضرحة في كل من الجزائر وتونس بسبب تشجيع الباشوات والبايات وغيرهم من القادة الأتراك لبنائها، خاصة تلك المرتبطة بالأولياء الصالحين⁴، وقد جرت العادة بإقامة أضرحة ضمن المركبات المعمارية التي أسسها السلاطين العثمانيين في تركيا بوجه عام ولها صلة كبيرة بالمبنى الديني الملحقة به⁵، كمثال على ذلك الضريح الملحق بالجامع الأخضر ببورصة (825هـ/1421م)، المعروفة بالتربة الخضراء، وكذلك المقبرة التي شيدت للسلطان سليمان بجوار مجمعه المعماري⁶.

1. محمد حمزة، دراسات في عصر سلاطين المماليك، السلطان المنصور قلاوون وآثاره الباقية، مكتبة مدبولي، القاهرة 1998م، ص 310.

2. أحمد فكري، مرجع سابق، ج2، ص 121.

3. بن مامي محمد الباجي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، مرجع سابق، ص 124.

4. عبد القادر دحدوح، مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص 366.

5. ارنست كونل، الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، دار صادر، بيروت، لبنان، 1966م، ص 167.

6. علام نعمت إسماعيل، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1982م ص 349.

ونفس الشيء بالنسبة للنماذج الموجودة ببلاد المغرب الإسلامي خلال هذه الفترة، فهي في الغالب تتكون من قاعة مربعة تقوم عليها قبة نصف كروية، وقد تكون القاعدة مفتوحة من ناحية الجنوب بواسطة عقود حدوية¹، وبالتالي فقد سارت وفق التقاليد العثمانية في بناء ضريح لمنشئ المسجد أو المدرسة أو لمن أنشئ على زمانه ذلك المبنى، حيث أدخلت الأضرحة في المخطط الأصلي لتلك المركبات المعمارية، واختلف موقع وشكل الضريح بالنسبة للمدرسة باختلاف موقع المدرسة نفسها من الشارع ومخططها العام².

نلاحظ ان جل المدارس التي تناولناها بالدراسة متواجد فيها هذا العنصر وهي تمثل مدفن المؤسس كما تحتوي أحيانا على رفاة بعض أفراد عائلته أو بعض الشخصيات المهمة في الدولة، ففي المدارس التونسية خاصة في الفترة الحسينية صار دفن المؤسس بمدرسته من الأشياء المعمول بها، حيث أعد حسين بن علي مقبرة لنفسه حين أسس المدرسة الجديدة، وكذلك مقبرة أخرى لعائلته بجانب المدرسة الحسينية الصغرى المسماة تربة الفلاري والتي دفن فيها، كما دفن علي باشا في أفراد من عائلته في ضريح بالمدرسة السليمانية ومن بعده يوسف صاحب الطابع بالمدرسة الطابعية³.

أما في المدارس الجزائرية فهي تضم جميعا أضرحة ومقابر لمؤسسي هذه المدارس وافراد عائلاتهم وبعض العلماء والمشايخ الذين مروا بها، وان كانت الأضرحة التونسية تتشابه فيما بينها من حيث موقعها وحجمها ونمطها المعماري والفني لربما بسبب أن جل مؤسسي هذه المدارس من الطبقة الحاكمة ووجهاء البلد، فهي تختلف معماريا وحتى فنيا في مدارس الجزائر حيث نجد ثلاث مدارس فقط على هذا النمط وهي مدارس مازونة والناصرية ومدرسة حنق النطاح، إذ لا تختلف كثيرا في تخطيطها عن تصاميم الأضرحة التي وجدت في مدارس تونس أو تلك التي عرفت ببلاد المغرب في عهوده السابقة⁴، والتي عادة ما تحتل فيها هذه القاعة أحد الأركان من المعلم وتكون مساحتها صغيرة مقارنة بالمساحة الإجمالية له، أما مقبرة مدرسة سيدي الكتاني فتعتبر نموذجا مغايرا لما هو مألوف حيث نجد قاعة رئيسية مفتوحة على الصحن تعلوها قبة وقاعة ثانوية صغيرة حوالي 4.5م² يوجد بها

1. علي بوتشيشة، مرجع سابق، ص 272.

2. لمياء فتحي توفيق صقر، المرجع السابق، ص 374.

3. بن مامي محمد الباجي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، مرجع سابق، ص 124.

4. Marçais. (G), L'art musulman, Op.cit., p284.

قبرين بمعزل عن المقبرة وهي ظاهرة نجدها كذلك في نموذج واحد من المدارس التونسية في مدينة القيروان وهي المدرسة العوانية¹.

والظاهر أن هذا النمط هو أكثر تأثرا بالطراز العثماني الوافد في بناء الأضرحة عكس النمط السابق الذي حافظ على بعض الخصائص والتقاليد المعمارية السابقة، ولعل قول الباحث الفرنسي غابرييل (Gabriel Alber) الكبير يؤكد هذا الكلام حين قال بأن العمارة العثمانية في المدن التركية لم تعرف إنشاء الأضرحة المربعة داخل المساجد وإنما كانوا يبنون مقابرهم في جبانات مفتوحة خلف المساجد أو ملحقة بالمدارس أو المنشآت الخيرية في مباني مستقلة².

3. فضاءات الإقامة:

1.3 بيوت الطلبة:

تعتبر الغرف أو بيوت الطلبة من المقومات الأساسية داخل المدرسة وظيفتها لا تتعدى إيواء الطلبة، لكننا نجد استثناء في مدارس المغرب حيث يمكن أن يلتقي فيها الطلبة الدروس، وقد انفردت تقريبا المدرسة المصباحية بالمغرب الأقصى بهذه الخاصية³، جرت العادة أن تحيط الغرف بالصحن من جهاته الثلاثة وتبق الجهة الرابعة لبيت الصلاة وقاعة الضريح إن وجدت مثل غالبية المدارس التي تناولناها في هذه الدراسة وغيرها من المدارس التي تعود لنفس الفترة.

يتفاوت عدد الغرف من مدرسة إلى أخرى حسب حجم المدرسة وأهميتها العلمية، ولعل أهم ما يمكن ملاحظته على هذه الأخيرة في كل من مدارس الجزائر وتونس هو الاختلاف في عدد الغرف وحجمها، رغم أنها تتفق في شكلها ومواقعها بالنسبة للمدرسة وطريقة بنائها وتغطيتها، فعددها في مدارس الجزائر أقل مما هو موجود في مدارس تونس وأقل منها حجما، فأقلها عددا في مدارس الجزائر مدرسة مازونة بخمس غرف وأكثرها المدرسة الكتانية ب 14 غرفة أما الناصرية ف 11 غرفة، في حين أن مدارس تونس نجد أقل عدد منها في مدرستي النخلة والجديدة ب 16 غرفة وأكبرها المرادية ب 21 غرفة ثم السليمانية ب 20 غرفة، كما نجد مدرسة أخرى في تونس تعود لنفس الفترة وهي المدرسة الحسينية الكبرى ب 43 غرفة، كما يصل عددها إلى أكثر من ذلك بكثير

1. Ahmed Saadaoui, **Tunis, ville ottomane...** op cit, p 204

2. Gabriel(A), **Monuments turc D'Anatolie**, Tom2, Kayseri-Nigde, Paris, 1931, p 54

3. Golvin. L, **la madrasa médiévale**, Op.cit, P 136

في العديد من المدارس في بلاد المغرب عموماً، مثلما نجده في المدرسة المصباحية في المغرب الأقصى حيث وصل عدد غرفها إلى 117 غرفة موزعة على ثلاث طوابق كاملة¹.

ويقترن عدد الغرف وشكلها بالمساحة الإجمالية للمدرسة وعدد الطلبة الذين تستقبلهم، حيث تميزت أغلب غرف مدارس الجزائر وتونس بالاستطالة رغم أن بعضها جاءت مربعة الشكل إذا أخذنا بالاعتبار التغيرات الحاصلة أثناء الاحتلال الفرنسي بالنسبة لمدارس الجزائر، بينما عمقها لا يتعدى غالباً الثلاثة أمتار، ذلك أن العمق يتحدد بمدى احتمال السقف الخشبي أو الأقبية المتقاطعة للثقل الموزع عليه من جهة، وبغية مجارات النمط العام للمساكن من جهة أخرى واستغلال المساحة المتاحة حول الصحن استغلالاً عقلاً لانياً من جهة ثالثة، كما أن هذا التصميم يتلائم وأحوال المناخ السائدة من جهة رابعة².

لعل أهم ما نلاحظه على مدرسة خنق النطاح معمارياً هو الغياب التام لبيوت الطلبة، التي وجدت في جميع النماذج الأخرى التي قمنا بدراستها، والتي لا يمكن بأي حال من الأحوال الاستغناء عنها باعتبارها عنصر أساسي في عملية التعليم، والتي تطرح الكثير من التساؤلات حول غيابها، ولربما يرجع ذلك إلى أسباب منها أنها تكون قد هدمت بعد تغيير وظيفة المدرسة إلى مسجد، أو بعد التجديدات والتعديلات المتكررة لها أثناء وبعد الاحتلال الفرنسي لوهران، أو حتى إمكانية عدم وجود هذه البيوت أصلاً، لأن التعليم في المدرسة كان يتركز على النظام الخارجي فقط وبالتالي لا يحتاج إلى مبيت الطلبة.

| المقاسات | عدد الغرف | المكان | | المدرسة |
|----------------------|-----------|---------|---------|--------------------|
| ما بين 1.70م و 3.90م | 11 غرفة | بسكرة | الجزائر | المدرسة الناصرية |
| ما بين 1.90م و 3.20م | 05 غرف | غليزان | | مدرسة مازونة |
| // | لا توجد | وهران | | مدرسة خنق النطاح |
| ما بين 2.20م و 4.10م | 14 غرفة | قسنطينة | | مدرسة سيدي الكتاني |
| ما بين 2.30م و 4م | 21 غرفة | قابس | تونس | المدرسة المرادية |

1. Ibid, p 232.

2. شارل وليام، مصدر سابق، ص 95.

| | | | |
|---------------------|---------|------|--------------------|
| ما بين 2.30 و 4.30م | 16 غرفة | تونس | مدرسة النخلة |
| ما بين 2.20 و 3.50م | 16 غرفة | تونس | المدرسة الجديدة |
| ما بين 1.95 و 3.65م | 20 غرفة | تونس | المدرسة السليمانية |

الجدول رقم 7: عدد الغرف في النماذج المدروسة من المدارس ومقاساتها

2.3 الأسبلة:

أما عن السبيل أو السقاية فقد عرف انتشارا واسعا في المشرق الإسلامي في مصر وسوريا وتركيا، خاصة في العهد المملوكي، ويطلق على المنشآت المائية التي تعني بشرب الماء والتي كانت تبني فوقها كتاب لتعليم الأطفال اليتامى والمبنى كله كان ملحقا بمنشآت مختلفة بمدرسة أو ضريح في كثير من الأحيان¹.

لم يقتصر الأمر على توزيع الماء على المارة، وإنما كانت توزع على الناس بعض المشروبات الأخرى في المناسبات²، ولم تأخذ عمارة الأسبلة العثمانية مظهرها الكامل حتى النصف الثاني من القرن 16م وبلغ تطورها مع نهاية القرن 17م، وقد أخذت أشكالا متعددة تبعا لموقعها حيث بنيت إما كملحقة على واجهات بعض المباني المدنية والدينية أو على أركان الشوارع أو كمنشآت مستقلة³.

ويعتبر هذا العنصر المعماري من المرافق الهامة التي اقترنت بالمدرسة العثمانية بتونس والتي ميزتها عن المدارس الجزائرية التي تفتقر إلى مثل هذه الملاحق، وهو على كل حال من التأثيرات المصرية الوافدة على العمارة التونسية خلال العهد الحفصي، ثم ما لبثت أن انتشرت أكثر خلال العهد العثماني خاصة في مدينة تونس، إذ نجدها بالمدرسة السيجومية (815هـ/1412م) ومدرسة سيدي محرز بن خلف (839هـ/1434م)، الذي بناها عمرو عثمان بن محمد المنصور وقد أضاف إليها هي الأخرى سبيلا سنة 1480م⁴ وهذا دليل على ان التأثيرات

1. حسن الباشا، مدخل إلى الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ص 207.

2. أوقطاي أصلان أبا، مرجع سابق، ص 236.

3. المرجع السابق، ص 237.

4. ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 159، كذا محمد الزركشي، مصدر سابق، ص 136.

المصرية كانت هامة فالعلاقات بين المماليك والحفصيين كانت جيدة في عهد ابي عمرو عثمان بن محمد المنصور الذي بعث بمدايا كثيرة لسلطان مصر سنة 1446م ثم 1454م¹.

ثم أعاد استعماله الحسينيون، حيث نلاحظه بالمدرسة الجديدة وكذلك المدرسة الباشية ومدرسة بئر الأحجار، كما نجد في بعض المعالم الدينية الأخرى في مدينة تونس كجامع الزيتونة وغيره²، وعادة ما نجد السبيل في هذه المدارس بسيط ذو شبك واحد بواجهة واحدة على الشارع وذات مدخل مستقل بنفس الواجهة.

ولعل ما يبرر غياب مثل هذه المنشآت ضمن المجمعات المعمارية الدينية والمدنية في الجزائر خلال العهد العثماني خاصة عمارة المدارس، هو أن الجزائريين عمدوا منذ القرن السادس عشر إلى استحداث شبكة مائية تتكون من الآبار، العيون، الأحواض، السواقي، ذات الاستعمال العام في أزقة المدن والشوارع، وملحقة بالهيكل معمارية عبر القنوات المائية مثل المدارس والزوايا والمساجد والحمامات والأفران، كما وجدت بالأسواق والسويقات، تتزود بمياه الينابيع والوديان القريبة، بواسطة سواقي، فلم تكن هناك حاجة ماسة لبناء مثل هذه المنشآت، خاصة وأن الصهاريج والخزانات العمومية التي تستلزمها مثل هذه البنايات كانت قليلة جدا³.

وإلى جانب ذلك وجدت عيون طينية وآبار، داخل المنازل وفي الشكنات والحمامات والفنادق ودور الحكومة، وقدرت الإحصائيات الفرنسية سنة 1840 عدد الأحواض المنزلية بألف ومائة حوض أو صهريج، تتوزع على أفني منزل، وهي في مجملها ذات حمولة متوسطة، سبعون لتر مكعب للصهريج الواحد⁴.

3.3 الميضات

من أهم ما اهتم به المهندس في عمارة المدارس هو تخصيص مكان المراحيض والميضاة، وكذلك حفر بئر وماجل، إذ هي من الأشياء الضرورية كون النظافة من الإيمان والوسخ من الشيطان هو شعار كل مسلم، فوجب إذا على

1. روبر بارنشفيك، مرجع سابق، ج1، ص 272.

2. بن مامي محمد الباجي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، مرجع سابق، ص 286.

3. بلبروات بن عتو، المدينة والريف في الجزائر في أواخر العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ والآثار، جامعة وهران، الجزائر، 2007/2008م، ص 74.

4. ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 414.

كل طالب أن يتوضأ وأن يكون طاهرا في كل أوقات الصلاة، ولهذا كان يخصص مكان معين لهذه الميضية في كل مدرسة ويجفر البئر بقربها.

بالنسبة لميضآت المدارس محل الدراسة سواء في تونس أو في الجزائر فإننا نجد فيها نموذجين مختلفين، النموذج الأول والمنتشر في نماذج كثيرة من مدارس تونس على وجه الخصوص والذي نجد فيه الميضية داخل صحن المدرسة وتحتل أحد زواياه وبها حوضا مائي تفتح فيه عيون، وتمتد على مساحة صغيرة في المدرسة المرادية في حين نجدها أكثر اتساعا في مدرسة جامع الجديد، ولكنها رغم ذلك تبقى صغيرة مقارنة بميضآت مدارس المغرب عموما التي تحتل فيها مساحات متسعة نسبيا مثل ما نجده في ميضية مدرسة الصفارين بفاس التي تنتظم في حول صحن أوسط مستطيل 4.80م/1.50م يتوسطه حوض مائي وتفتح عليه 15 عينا¹.

بينما نجد نموذجا آخر للميضآت المنتشر خصوصا في المدارس الجزائرية وفي بعض مدارس تونس، والذي يكون فيه مبنى الميضية مستقلا بذاته إما خلف الغرف وإما يحاذي الصحن، وتتواصل معه عبر رواق ولها مدخل خاص مفتوح عليها من خارج المدرسة، إلا أن جلها عرفت تغييرات عديدة حيث كسيت بالبلاط العصري وجددت الأحواض ومقاعد المراحيض فيها.

وعلى العموم نجدها في جل المدارس وحتى المساجد والزوايا تتشكل من قسمين، الأول خاص بالمراحيض والثاني خاص بأحواض الوضوء يكون بشكل طولي تتقدمه مقاعد حجرية ونلمس في تخطيط هذه الميضآت على غرار ما كان سائدا في مختلف أنحاء العالم الإسلامي تأثير العامل الديني في تحديد مواضع المراحيض ضمن المنشآت الدينية، حيث منع الدين الإسلامي من توجيهها إلى القبلة²، كما فرض العامل المناخي نفسه فلم يكن من غير اللائق أن تكون في موضع يسهل معه انتقال الروائح الكريهة إلى عمق المبنى مثل ما نلاحظه في ميضية مدرسة خنق النطاح بوهران حيث فتحت فيها الميضية خلف الصحن باتجاه الشارع ولم تفتح عليه مباشرة، ونفس الشيء بالنسبة لميضأتي مدرستي مازونة وسيدي الكتاني حيث جاءت كلها منفصلة على الصحن وبيت الصلاة، وهو الأمر الذي ينطبق تقريبا على أغلب العمائر الدينية الأخرى في الجزائر كالمدارس والزوايا³.

1. Golvin. L, la Madrasa médiévale, op.cit, P 216.

2. خيرة بن بلة، مرجع سابق، ص 596.

3. نفسه.

وهكذا نرى في نهاية هذه الدراسة المتواضعة أن المدرسة في مختلف إيالات بلاد المغرب على العهد العثماني قد تكونت من كل هذه الأقسام المتكاملة، والذي كان لكل منها أهميته الخاصة ودوره في سيرها ونظامها، والتي لعبت من خلالها أدوارا هامة في بث العلوم بين الطبقات الفقيرة في المجتمع خاصة، وفتحت لهم أبواب الوظائف السامية، نتيجة توفر السكن للغرباء منهم وهو ما لم يكن للمسجد أن يقوم به، فأهمية هذه المدارس إذن كانت كبيرة جدا في المجتمعين الجزائري والتونسي، رغم أن جلها أسست من قبل الطبقة الحاكمة لخدمة مصالح الدولة إلا أنها استطاعت أن تخرج إلى الوجود علماء كبار، ولولاها لما عرفوا طريق التعليم بعد الكتاب وبقوا محدودي المعرفة.

خاتمة

لقد خالصنا في بحثنا هذا إلى أن المدارس العثمانية عموما على الرغم من قلتها في الجزائر وبساطتها المعمارية والفنية إلا أنها تشهد على تنوع كبير في التخطيط المعماري على وجه الخصوص، فمنها ما جاء مجاورا للمسجد ومنها المستقلة عنه، ومنها ما استخدمت كمدرسة ومسجد في نفس الوقت ومنها ما كانت مخصصة للتدريس فقط، ومنها ما هو مشكل من طابق واحد ومنها ذات طابقين، ومنها ما بنيت في طابق ارضي ومنها ما جاءت معلقة، ومنها ما الحقت بها اضرحة ومدافن ومنها ما جاءت فيها مئذنة ومنها ما يخلو من هذا العنصر، ومنها الخالية من قاعة الدرس ومنها ما تفتقد لعنصر المحراب ومنها الخالية من غرف المبيت للطلبة، وعلى الرغم من اختلاف المدارس في تفاصيلها الفنية والوحدات المشكلة منها الا انها تتفق في تخطيطها العام مع النمط التخطيطي الذي عهدته المدارس ببلاد المغرب منذ العصر الوسيط وبقي مستمرا خلال العصر العثماني، والمشكل من طابق أو طابقين يتوسطها صحن يلتف حوله رواق تفتح عليه غرف مبيت الطلبة وقاعة الدرس من دون وجود إيوان.

كما يتضح لنا أن الجزائر وتونس شهدتا خلال الفترة العثمانية تشييد العديد من المدارس التي كانت أقل شأنًا من مثيلاتها في المغرب والمشرق من حيث فخامة بنائها وأهمية زخارفها وإن كان لجلها أهمية فنية ومعمارية لا يشك فيها.

ورغم أن **التخطيط الهندسي** متقارب بين مدرسة وأخرى، فإنه توجد فوارق شاسعة بين المدارس المؤسسة خلال العهدين الزياني والحفصي والتي أسست في الفترة العثمانية، وأول هذه الفوارق يتمثل في أن المدارس التي أسست زمن العثمانيين أكبر مساحة من التي سبقتها، كما أن مداخل المدارس وواجهاتها الرئيسية التي بنيت في الفترة العثمانية تختلف اختلافا تاما عن مدارس الفترة الزيانية والحفصية، فالمدارس الحفصية والزيانية لم تعرف المدخل المحلي في أعلاه بعقد، وتمثلت كل الأطر في مستطيلات بسيطة من الحجارة بينما عرفت هذه المداخل مع قدوم العثمانيين تطورا ملحوظا من الناحية المعمارية والزخرفية، فقد حليت العضادات والأسكفات من الحجارة أو من رخام بنقوش مختلفة الأشكال والتأثيرات.

كما تختلف هذه المدارس أيضا عن مثيلاتها الأولى في القسم الفاصل بين المدخل والصحن إذ أن سقائف المدارس الحفصية والزيانية صغيرة الحجم واغلبها متعرج بينما جل المدارس العثمانية خاصة في مدارس تونس سقائف طويلة، ولا تنتهي هذه الفوارق هنا إذ تحيط بصحن أغلب مدارس الفترة العثمانية أربعة أروقة بينما اختفت في بعض مدارس الفترة الحفصية والزيانية، كما اختفت أيضا المساجد عن بعضها فقد لاحظنا بساطتها وصغر حجم أغلبها في أيام

الحفصيين والزيايين بينما تم الاهتمام بها في الفترة العثمانية فأصبحت ذات أسايب وبلاطات وكسيت جدرانها بمربعات الخزف والنقوش الجصية، كما أثريت المحارِب بأطر رخامية تعلوها عقود ذات فقرات متناوبة سوداء وبيضاء وكسي جوف البعض منها بلوحات رخامية.

أما القباب التي تعلو محارِب جل مدارس التعليم العثمانية في كل من الجزائر وتونس فيبدو واضحا أنها لم تتواجد قبل ذلك في أي مدرسة أخرى.

كما نلاحظ اختلاف مصادر التأثيرات فمنها الأندلسية المغربية، ومنها المصرية والعثمانية، ولكن الطابع المحلي لم يفقد دوره، فأهم ما لاحظناه هو أن الفنانين التونسيين والجزائريين عرفوا كيف يهضمون هذه التأثيرات الأجنبية وكيفوها حسب حاجاتهم، غير أنه مع بداية النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي عمد المؤسسون للمعلم الدينية والمدنية بما فيها عمارة المدارس إلى جلب العديد من المواد الجاهزة كالزليج والأعمدة الرخامية وتيجانها من إيطاليا خاصة مما أدى إلى إضعاف بعض الصناعات المحلية المتصلة بتلك المواد.

وتنقسم المدارس إلى قسمين: قسم أول له صبغة رسمية وهي المدارس التي شيدها الدايات والبايات، وقسم ثاني يتمثل في المدارس التي أسسها بعض الخواص، وهي أقل أهمية من الأولى ويتضح لنا أن الشيوخ الذين تولوا التدريس في المدارس الرسمية كان لهم صيت علمي لا يشك فيه ووصل البعض منهم إلى أعلى المناصب الدينية من قضاء وافتاء وامامة في كبرى الجوامع، إلى جانب ذلك نشير إلى فرق آخر يتعلق بالناحية الفنية والمعمارية، فقد اهتم المؤسسون اهتماما خاصا بالمدارس الأولى، حيث تأنقوا في زخارفها وفي تزويقها وتجميلها في حين أن المدارس الثانية كانت على قدر كبير من البساطة فهي تكاد تخلو تماما من الزخارف ومما اتضح لنا أيضا أن التأثيرات المحلية ثم الأندلسية المغربية وكذلك المصرية والتركية وفي آخر الأمر الإيطالية مثلت أهم العناصر المعمارية والفنية التي كيفت بناء المدارس.

ومن كل ما سبق يمكن تلخيص أهم النتائج المتوصل إليها في النقاط التالية:

- تشترك مدارس الجزائر مع مدارس تونس والكثير من المدارس المنتشرة في العالم الإسلامي في ذات الفترة سواء في المغرب أو المشرق في الشكل العام المتمثل في مبنى يضم سقيفة أو أكثر تتقدم صحن أوسط مكشوف تتوسطه نافورة قد يكون مستطيلا أو مربعا تحيط به الأروقة من جهات ثلاثة تعلوها قبيبات أو أقبية متقاطعة تفتح عليها حجرات الطلبة، وتبقى الجهة الرابعة لقاعة التدريس التي غالبا ما تعلوها قبة كبيرة، وتستخدم كبيت للصلاة في حال المدارس

المستقلة التي لا يكون لها مسجدا متصلا، وفي الطابق العلوي نجد مزيدا من حجرات الطلبة، كما تضم المدرسة إلى جانب ذلك الميضية وعدد آخر من الملاحق التي عادة ما نجدها في المدارس عموما.

- من خلال الوصف العام للنماذج المدروسة في الجزائر خلال الفترة العثمانية يمكن أن نستنتج أنها تحاكي شكل نظيراتها في تونس في نفس الفترة على الأقل من حيث الشكل العام المستطيل غير المنتظم وهو نفس الشيء نلاحظه في أغلب مدارس المغرب الإسلامي قبل دخول العثمانيين في الجزائر وتونس وليبيا أو في المغرب الأقصى.

- اضيف لعمارة المدرسة خلال الفترة العثمانية في تونس والجزائر عنصران هامان من تأثيرات مدارس المشرق وهما: **عنصر الضريح** أو المدفن الخاص بمؤسس المدرسة وافراد عائلته وبعض المشايخ والعلماء الذين مروا بها وكذا **عنصر السبيل** الذي نجده خاصة في مدارس تونس وانعدامه في مدارس الجزائر رغم أن بعضها عبارة عن مركبات معمارية على غرار مدارس تونس تشمل الضريح والمدرسة والمسجد معا.

- في الجانب المعماري استعمل في **تغطية مختلف المرافق** المشكلة لجملة المدارس سواء في الجزائر أو تونس إما الأقبية المتقاطعة المدججة أو الأقبية نصف البرميلية، وهو الأسلوب المنتشر بكثرة في جل العمائر الإسلامية في بلاد المغرب الإسلامية وهذا ما يؤكد فعلا أن المدارس خلال هذه الفترة لم تتأثر كليا بمدارس تركيا حيث حافظت في بناءها على الكثير من التقاليد المعمارية المحلية الموروثة عن الفترات السابقة، على خلاف مدارس المشرق في الفترة العثمانية وخاصة في القاهرة التي امتازت بكثرة بناء القباب بمختلف أحجامها والتي تغطي معظم مرافقها، وهي الظاهرة التي ميزت كذلك جل مدارس تركيا العثمانية.

وفي الختام فإن موضوع المدارس والتعليم في الفترة العثمانية في البلدان المغاربية يحتاج إلى مزيد من التمهيد من طرف الباحثين في مجال التاريخ والآثار، فلا عجب أن يكون جل افراد المجتمعين الجزائري والتونسي مثقفين في هذه الفترة عكس ما روجت له سلطات الاحتلال الفرنسي، وما المراكز والقوانين التي نظمت التعلم في هذه الفترة إلا خير دليل على ذلك.



قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

قائمة المصادر والمراجع بالعربية:

أولاً: المصادر المخطوطة:

- سعادة محمد، قرّة العين بنشر فضائل الملك حسين، مخطوط غير منشور بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم 7129، الورقة 75.
- الناصري أبوراس، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1632.

ثانياً: المصادر المطبوعة:

- ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان في أخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ط2، ج2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1977.
- ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط3، دار المسيرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1993م.
- ابن أبي زرع، الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية، تحقيق محمد بن أبي شنب، مطبعة جول كربونل، الجزائر، 1920.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980.
- ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، مراجعة وتقديم وتعليق، بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر د.ت.
- ابن الخطيب لسان الدين، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، ج2 مؤسسة شباب الجامعة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، 1983.
- ابن الشماع، الأدلة البيئية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر العموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984.
- ابن العنتري محمد الصالح، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، مراجعة وتقديم وتعليق يحي بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991م.
- ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، مج1، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط، 1973.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، دراسة وتحقيق فارس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر، 2009م.
- ابن المفتي حسين، تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، ط1، جمع وتحقيق فارس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر، 2009م.
- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، مج1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1997.
- ابن بكار بلهاسمي، مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، الجزائر، 1381هـ / 1961م.
- ابن جبير، تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الإسفار المعروفة بـ "رحلة ابن جبير"، دار صادر، بيروت، 1785م.
- ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تحقيق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج6، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1976.
- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، (د. د. ت).
- ابن خلدون يحيى، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، مطبعة بيبير فوتنانا، الجزائر، 1903.
- ابن خلدون، المقدمة، دار ومكتبة الحكمة، بيروت، لبنان، 1991.
- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، مج2، دار الثقافة، بيروت، 1971م.
- ابن دقماق، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، دراسة وتحقيق، سمير طباره، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، 1999.
- ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة، الجزائر، 2013.
- ابن سحنون محمد بن السلام، آداب المتعلمين، تحقيق محمود عبد المولى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- ابن شكوال، الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989م.
- ابن عبد العزيز العلوي، الأنوار الحسينية في نسبة من بسجلماسة من الأشراف المحمدية، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، لجنة إحياء التراث القومي، وزارة الأبناء المغربية، الرباط، 1966م.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن عبد العزيز حمودة، الكتاب الباشي، تحقيق محمد ماضور، تونس، 1970.
- ابن غازي المكناسي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط 1964م.
- ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق وتعليق، محمد الأحمد أبو النور، ج1، دار التراث، القاهرة، د.ت.
- ابن قنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد الترك، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م.
- ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحوم وآخرون، ط1، ج11، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1985.
- ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريّا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م.
- ابن ميمون محمد الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، ط2، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- ابن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب للنشر، القاهرة، 1969م.
- ابن وردان، تاريخ مملكة الأغالبة، تحقيق وتعليق محمد زينهم، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988م.
- ابن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، ج6، أخرجه جماعة من الفقهاء، بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.
- أبو الحسن القابسي، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، تحقيق وتعليق أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، 1986م.
- أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2006م.
- أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ط2، مؤسسة الرسالة، تونس، 1982.
- أبو جعفر البلوي، ثبت البلوي، دراسة وتحقيق عبد الله العمراني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م.

قائمة المصادر والمراجع

- أبو راس الناصري، الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية في علم الصيد، دراسة وتحقيق حمدادو بن عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (د. ت).
- أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1996.
- أبو عبد الله محمد التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعباد، الجزائر، 1985.
- أبو عبد الله محمد السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج1، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، تونس، 1970.
- أبو عبيد الله البكري، المسالك والممالك، تحقيق أدريات وأندري فيري، ج2، مؤسسة بيت الحكمة، تونس، 1992، ص32.
- أبو محمد عبد الله التجاني، رحلة التجاني، المطبعة الرسمية، تونس، 1754م.
- أبي العباس السبتي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد توفيق، ط2، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1997.
- أبي حفص الصقلي، تنقيف اللسان وتلقيح الجنان، ضبطه مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمي، بيروت، 1990.
- أبي راس الناصري، إسماع الأصبم وشفاء السقم في الأمثال والحكم، دراسة وتحقيق حمدادو بن عمر وفايزة بوسلاح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2 018م.
- أبي عبد الله الزركشي، تاريخ الدولتين (الموحدية والحفصية)، تحقيق وتعليق، محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966.
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، المغرب، 1999.
- الباجي المسعودي البكري، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تحقيق وتقديم محمد زينهم عزب، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، 2012م.
- بربوس خير الدين، المذكرات، ط1، ترجمة محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م.

قائمة المصادر والمراجع

- البلوي خالد بن عيسى، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ج2، تقديم وتحقيق الحسن السائح، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، (د.ت).
- بن سودة عبد القادر، اتحاف المطالع بوفيات اعلام القرن الثالث عشر والرابع 1171-1400هـ/ 1756-1980م، ج7، تنسيق وتحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.
- بن علي شغيب محمد المهدي، أم الحواضر في الماضي والحاضر تاريخ مدينة قسنطينة، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1980.
- التلمساني ابن رقية، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، ط1، تحقيق خير الدين سعيد الجزائري، مؤسسة أوراق ثقافية للنشر والتوزيع، جيجل، الجزائر، 2017م.
- التنبكي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق، علي عمر، مج ح، مكتبة الثقافة الدينية، 2004، بيروت، لبنان.
- الجبرتي عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ضبط وتصحيح إبراهيم شمس الدين، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.
- الجزائلي علي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1991م.
- جوهان ارنت هابنسترايت، رحلة هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1145هـ-1732م، ترجمة وتحقيق وتقديم ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، (د.ت).
- الخرشبي محمد أبو عبد الله، مختصر سيدي خليل وبهامشه حاشية العدوي، ط2، المطبعة الأميرية الكبرى، القاهرة، مصر، 1317هـ/ 1900م .
- خوجة حسن، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق وتقديم محمد الطاهر العموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1975م.
- الدحاوي ابن زرفة، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، ضمن كتاب تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني خلال القرن 18م من خلال محططين، تحقيق مختار حساني، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر 2، 2003م.
- الذهب محمد ابن عثمان، سير اعلام النبلاء، ج22، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1822 هـ/ 2001م.
- الزرقاني عبد الباقي بن يوسف بن أحمد، شرح الزُّرقاني على مختصر خليل المصري، ضبط وتصحيح عبد السلام محمد أمين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002م.

قائمة المصادر والمراجع

- الزركشي محمد، أعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي، ط3، القاهرة، 1992.
- الزركشي محمد، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تعليق وتحقيق محمد ماضور، تونس 1966م.
- الزهار أحمد شريف، المذكرات، ط2، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.
- الزياني محمد بن يوسف، دليل الخيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة، الجزائر، 2013.
- السلاوي الناصري، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج3، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954م.
- السنوسي محمد بن عثمان، مسامرة الظريف بحسن التعريف، ط1، ج1، تحقيق الشادلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994م.
- السيوطي جلال الدين، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج2، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1998.
- الصغير بن يوسف، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، ج1، تقديم وتحقيق أحمد الطويلي، منشورات دار بوسلامة، تونس، 1998م.
- الصفدي صلاح الدين، الوافي بالوفيات، تحقيق أبو عبد الله جلال الأسيوطي، ج19، دار الكتاب العلمية، بيروت، (د.ت).
- العبدري محمد، الرحلة المغربية، تقديم سعد بوفلاحة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007.
- الغبريني أحمد، عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الجزائر 1970.
- الفلاني صالح بن محمد، قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر، تحقيق عامر حسن صيري، دار الشروق للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، 1984م.
- القزويني، أثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، لبنان (د.ت).
- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق وتعليق، محمد حسين شمس الدين، ط1، ج3، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1987.
- الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيوخات والمسلسلات، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1402هـ 1982.

قائمة المصادر والمراجع

- الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، المطبعة الحجرية الفاسية، (د.ت).
- الكتاني محمد بن صالح، تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء القيروان، مراجعة عبد المجيد الخيالي، ج5، ط1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005م.
- مخلوف محمد بن قاسم، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ط1، ج2، تعليق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003م.
- المراكشي محمد الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، مطبعة أنجي، فرنسا، 1888م.
- المزابي، طلوع سعد السعود، ج1 تحقيق يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009.
- مسلم بن عبد القادر الوهراني، ذخائر المغرب العربي أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت.
- المغراوي ابن أبي جمعة أحمد، جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان، تحقيق أحمد جلولي البداوي ورايح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت).
- المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ج5، دار صادر، بيروت، 1388هـ/1968م.
- المقرئ تقي الدين، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار في مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من الأخبار، ج3، دار التحرير للطبع والنشر، 1967-1968م.
- مقيدش محمود، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، ج2، تحقيق علي الزواوي، ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م.
- المهداوي عبد العزيز بن علي، قطف الزهرات من أخبار علماء توات، الجزائر، 1985م.
- المهدي شعيب محمد، قسنطينة أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث، الجزائر، 1985م.
- النميري إبراهيم ابن الحاج، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق محمد ابن شقرون، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1990.
- الورثياني الحسن، نزهته الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار تحقيق محمد بن شنب، فونتانا، الجزائر، 1907.
- الوزان الحسن، وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

ثالثا: المراجع باللغة العربية:

1. الكتب العربية:

- ابن الخوجة محمد، صفحات من تاريخ تونس، تحقيق الجيلاني بلحاج يحيى، وحمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، 1986.
- ابن السبع عبد الرزاق، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 2000م.
- ابن عاشور الطاهر، أليس الصبح بقريب، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1967م.
- ابن عاشور محمد الطاهر، أليس الصبح بقريب، التعليم العربي الإسلامي، دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، ط1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، تونس، 1427هـ، 2006.
- ابن قرية صالح، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007.
- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1991.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج1، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- أبو مصطفى كمال السيد، دراسات مغربية وأندلسية في التاريخ والحضارة، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، 2007.
- أبو يحاب محمد السيد، العمائر الدينية والجنائزية بالمغرب في عصر الأشراف السعديين، دراسة أثرية معمارية، دار القاهرة، 2008م.
- أبو يحاب محمد السيد، المدارس المغربية في العصر المريني، دراسة آثاره معمارية، تقديم محمد عبد الستار عثمان، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية 2011م.

- الأخصر محمد، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، (1075، 1311هـ / 1664، 1894م)، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1977.
- الأرقش دلندة، جدلية التجديد والتواصل في الحياة الفكرية بإيالة تونس، جمع وتقديم عبد الجليل التميمي، ج1، وج2، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، تونس، 1990م.
- إسماعيل سامي، معالم الحضارة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.
- إسماعيل عثمان عثمان، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج4، (عصر الدولة المرينية ودولة بني وطاس)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1993.
- الأعظمي خالد خليل، المدرسة المستنصرية في بغداد، المؤسسة العامة للآثار والتراث، بغداد، 1981م.
- أتر عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، ط1، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1989م.
- الإمام رشاد، سياسة حمودة باشا في تونس (1782-1814م)، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1980م.
- الباشا حسن، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج3، دار النهضة العربية، القاهرة، 1966م.
- الباشا حسن، مدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1990.
- البستاني بطرس، دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت).
- البشروش توفيق، جمهورية الدايات في تونس 1591-1675م، شركة أوربيس، تونس، 1992م.
- بك محمد الحضري، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، بيروت، 2003.
- بلحميسي مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.
- بن الخوجة محمد، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، ط2، تحقيق وتقديم الجيلاني بن الحاج يحيى، وحمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1985م.
- بن الخوجة محمد، صفحات من تاريخ تونس، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي والجيلالي بن الحاج، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

قائمة المصادر والمراجع

- بن بلة خيرة وآخرين، زوايا ومدارس الجزائر، دراسة أثرية معمارية وفنية، البرنامج الوطني للبحث كراسك، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 20014م.
- بن مامي محمد الباجي، ترب مدينة تونس، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، تونس، 2004م.
- بن مامي محمد الباجي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني (7/هـ/13م)، المعهد الوطني للتراث، تونس، 2000.
- بوحوش عمار، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997م.
- بوفلجة غياث، التربية والتكوين في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992م.
- بيضون جميل وآخرين، تاريخ العرب الحديث، ط1، دار الأمل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن 1992م.
- التازي عبد الهادي، جامع القرويين، المسجد والجامعة بمدينة فاس، مج2، دار نشر المعرفة الرباط، 2000.
- تركي رابح، التعليم القومي للشخصية الجزائرية، ط2، الجزائر، 1981.
- التليسي بشير رمضان، الاتجاهات الفكرية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن 4هـ / 14م، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م.
- التوازي ابراهيم العبيدي، تاريخ التربية بتونس، الشركة الوطنية للنشر، تونس، (د.ت).
- توفيق المدني أحمد، محمد بن عثمان باشا داي الجزائر ((1766-1791)، م.و.ك، الجزائر، 1986.
- جمعي عبد المنعم، موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية، الدولة العثمانية والمغرب العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 2004م.
- جوهر حسن محمد، شعوب العالم تونس، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1961م.
- الجيلالي عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1965م.
- الجيلالي عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام، ط7، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994م.
- حاجيات عبد الحميد، أبو حمو موسى الزباني، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1947.
- حامد سعيد على، المعالم الإسلامية بالمتحف الإسلامي بمدينة طرابلس، مصلحة الآثار، الإدارة العامة للبحوث الأثرية والمحفوظات التاريخية، طرابلس، 1978.
- الحداد محمد حمزة إسماعيل، الجمل في الآثار والحضارة الإسلامية، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2006.

قائمة المصادر والمراجع

- الحداد محمد حمزة إسماعيل، المدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية، ط3، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2008.
- حركات إبراهيم، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية ط1، مكتبة الدار البيضاء، المغرب، 1985.
- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي الديني والثقافي والاجتماعي، ط1، ج4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1967.
- حسن عبد الوهاب، بين الآثار الإسلامية، مكتبة الإسكندرية، (د.ت).
- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994م.
- حسين أمين، المدارس الإسلامية في العصر العباسي وأثرها في تطوير التعليم، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1983.
- حسين أمين، المدرسة المستنصرية، مطبعة شفيق، بغداد، 1960م.
- الحشايشي محمد بن عثمان، العادات والتقاليد التونسية، دراسة وتحقيق، الجيلالي بن الحاج يحيى، سراس للنشر، تونس، 1994.
- الحشايشي محمد بن عثمان، رحلة الحشايشي إلى ليبيا، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، تقديم وتحقيق علي مصطفى المصراقي، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1965.
- حصيد محمد، مدرسة ابن يوسف بمراكش، إصدارات المتحف العربي، الكويت، مارس 1989.
- حليمي عبد القادر، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830م، ط1، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972م.
- الحواس مي أحمد محمد، تأثير المذاهب على العمارة الإسلامية للمساجد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2018.
- حيدر كامل، العمارة العربية الإسلامية، نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسي، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1995.
- دحدوح عبد القادر، المعالم الأثرية بمدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2015م.

قائمة المصادر والمراجع

- دراج محمد، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس، 1512-1543م، ط1، تصدير ناصر الدين سعيدوني، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
- دودو أبو العيد، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، 1830-1855م، الشركة الوطنية لنش والتوزيع، الجزائر، 1975م.
- الدولاتلي عبد العزيز، مدينة تونس في العهد الحفصي، تعريب محمد الشابي وعبد العزيز الدولاتلي، دار سراس للنشر، تونس، 1981م.
- الركيبي عبد الله، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- الزاوي الطاهر أحمد، أعلام ليبيا، مؤسسة الفرجاني، طرابلس، 1971م.
- الزاوي الطاهر أحمد، معجم البلدان - الليبية، مكتبة النور، طرابلس، ليبيا، 1388هـ/1968.
- الزيري محمد العربي، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985م.
- الساحلي مادي، فصول في التاريخ والحضارة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م.
- سامح كمال الدين، العمارة الإسلامية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983م.
- الساهري مزاحم علاوي، الحضارة العربية الإسلامية في المغرب (العصر المريني)، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، الأردن (د.ت).
- سجل الجرد العام للمواقع والمعالم الأثرية المصنفة في الجزائر، الديوان الوطني لتسيير واستغلال الممتلكات الثقافية المحمية.
- السعداوي أحمد، تونس في القرن السابع عشر، من وثائق الأوقاف في عهد الدايات والبايات المراديين، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، تونس، 2011م.
- سعيدوني ناصر الدين والبوعبدلي المهدي، الجزائر في التاريخ، ج4 وزارة الثقافة والسياحة والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، الفترة الحديثة والمعاصرة، م.و.ك، الجزائر، 1988.
- سعيدوني ناصر الدين، في الهوية والانتماء الحضاري، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م.
- سعيدوني ناصر الدين، موظفو الدولة الجزائرية في القرن التاسع عشر (19م)، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر.
- السليماني أحمد، النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، مطبعة دحلب، حسين داي، الجزائر، 1993م.

قائمة المصادر والمراجع

- شاکر محمود، التاريخ الإسلامي العهد العثماني، ط4، ج8، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م.
- شاکر محمود، التاريخ الإسلامي، (الدولة العباسية)، ط8، ج6، المكتب الإسلامي، بيروت، 2000،
- شترة خير الدين، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900-1956م، ج1، دار البصائر، الجزائر، 2009.
- الشريف عبد الله محمد، الطوير محمد محمد، دراسات في تاريخ المكتبات والوثائق والمخطوطات اللببية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، ليبيا، 1987م.
- الشريف محمد عبد الهادي، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، ط3، تعريب محمد الشاوش، ومحمد عجيلة، دار سراس للنشر، تونس 1980 م.
- الشلق أحمد زكرياء، العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة، 1516-1916م، ط1، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2002.
- شهبي عبد العزيز، الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي بالجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2007.
- الصديق محمد الصالح، أعلام من المغرب العربي، ج1، مؤسسة موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2000.
- الصلابي علي محمد، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ط1، دار التوزيع والنشر الإسلامية، بورسعيد، مصر، 2001م.
- الصلابي علي محمد، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الأمير عبد القادر تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، موسوعة كفاح الشعوب، ط1، دار المعرفة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2017م.
- ضيف الله محمد، الحركة الطالبية التونسية (1927-1939)، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس 1999م.
- الطاهر حنان، مازونة عاصمة الظهرة، ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري، مكتبة رشاد، الجزائر، 2005.
- الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية (رؤية شعبية قومية جديدة 1830-1956م)، ط2، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، د.ت.
- طقوش محمد سهيل، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة العثمانية إلى الانقلاب على الخلافة، ط3، دار النفائس، بيروت، لبنان، 2012.
- طلس محمد أسعد، التربية والتعليم في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1957.

قائمة المصادر والمراجع

- الطمار محمد، الروابط الثقافية بين الجزائر والخراج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.
- عامر محمود علي، تاريخ المغرب العربي الحديث الجزائر وتونس، منشورات جامعة دمشق، سوريا، 1994م.
- عباد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830م)، دار هومة، الجزائر، 2005.
- عبد السلام أحمد، المؤرخون التونسيون في القرون 17، 18، 19، ترجمة أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الخليوي، ط1، بيت الحكمة، تونس، 1993م.
- عبد الوهاب حسن حسيني، خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب العربية الشرقية، تونس.
- عبد الوهاب حسن حسيني، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، مكتبة المنار، تونس، 1964م.
- العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري قبل الاحتلال 1830/1972م، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- عزب خالد، التراث العمراني للمدينة الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، 2013م.
- عزوق عبد الكريم، تطور المآذن في الجزائر، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، 2006م.
- العسلي بسام، الجزائر والحملات الصليبية، ط3، دار النفائس، بيروت، لبنان.
- العسلي بسام، خير الدين بربروس والجهاد في البحر 1470-1547م، ط1، دار النفائس، بيروت، 1980م.
- عفيفي محمود، الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب، دار الفكر العربي، القاهرة، 2002.
- عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر (1862-1830)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
- عمارة تركي رابح، التعليم القومي العربي الإسلامي والشخصية الجزائرية من عام 1930م حتى عام 1962م، ط3، وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر، 2008م.
- عمورة عمار، الجزائر، بوابة التاريخ من ما قبل التاريخ إلى 1962م، ج2، دار المعرفة، الجزائر، 2009م.
- عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، ط1، دار ربحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م.
- العناقرة محمد، المدارس في مصر في عصر دولة المماليك، دراسة تاريخية من خلال الوثائق والوقفات والحجج، (648هـ، 923هـ/1250م - 1517م)، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2015.
- عنان محمد عبد الله، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، دراسة تاريخية أثرية، ط2، دار الخانجي للنشر، القاهرة، 1997م.

قائمة المصادر والمراجع

- عيد عاطف، قصة وتاريخ الحضارات العربية بين الأمس واليوم، تونس والجزائر، مؤسسة علي وشركائه، بيروت لبنان، 1998م.
- العيدروس محمد حسن، تاريخ العرب الحديث، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، 2001م.
- غازي رجب محمد، وظيفة العمارة العربية الإسلامية: استجابة الشكل إلى المضمون، الفن العربي الإسلامي ج1، المداخل، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1994م.
- غنيمي الشيخ رأفت، التاريخ المعاصر للأمة العربية الإسلامية 1412هـ/1992م، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1992م.
- فارس محمد خير الدين، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى بداية الاحتلال الفرنسي، ط1، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 1969م.
- فركوس صالح، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال (المراحل الكبرى)، ط1، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م.
- فكري أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها، ج2 دار المعارف، مصر، 1961.
- فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، ج2 المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 2002.
- الفيلاي محمد الطاهر، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني، ط1، دار الفن الجغرافي، الجزائر، 1976.
- القاضي وداد، نبذة عن المدرسة في المغرب حتى أواخر القرن التاسع الهجري في ضوء كتاب المعيار للونشريسي مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، ماي 1981.
- القبلي محمد، قضية المدارس المرينية، ملاحظات وتأملات ضمن كتاب في النهضة والتراكم، دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 1987.
- القبلي محمد، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987.
- قشي فاطمة الزهراء، قراءة في حياة صالح باي بن مصطفى باي قسنطينة، المغرب في العهد العثماني، تنسيق عبد الرحمان المودن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 41، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1995م.

قائمة المصادر والمراجع

- القفصي عبد الكريم، نظرة حول بعض الحرفيين والمهنيين الأندلسيين والأترك، الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، مطبعة الشركة الوطنية لفنون الرسم، تونس، 1988م.
- قنان جمال، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830م، المؤسسة الوطنية للنشر والاشهار، الجزائر، 2007م.
- قنان جمال، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830م، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1989م.
- الكعك عثمان، العلاقات بين تونس وإيران عبر التاريخ، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1972م.
- الكعك عثمان، مراكز الثقافة في المغرب من ق 16 إلى ق 19، معهد الدراسات العربية العالمية، جامعة الدول العربية (د.ت)
- مجموعة أساتذة، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.
- محفوظ محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، ج 1، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982.
- محفوظ محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، ط 2، ج 4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994م.
- محمد حجي وآخرون، قاموس معلمة المغرب، ج 20، اصدارات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة سلا، الرباط، المغرب 1989/1410م.
- محمد عثمان باشا، داي الجزائر (1766-1791م)، سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
- محمود علي عامر ومحمود خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث المغرب الأقصى وليبيا، الجمعية التعاونية للطباعة، دمشق، سوريا.
- مختار عمر أحمد، النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي، 1971.
- المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492 - 1792م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 1965م.
- المدني أحمد توفيق، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1984م.

قائمة المصادر والمراجع

- مريوش أحمد، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، مركز الدراسات والبحث، الجزائر، 2007.
- مصطفى نادية محمود وآخرون، خبرة العصر العثماني، من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، ج1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996م.
- مطبقاني مازن صلاح، عبد الحميد بن باديس، العالم الرباني والزعيم السياسي، ط2، دار القلم، دمشق، 1999م.
- معزوز عبد الحق ودرياس لخضر، جامع الكتابات الأثرية العربية بالجزائر، كتابات الشرق الجزائري، ج1، منشورات المتحف الوطني للآثار القديمة، مطبعة سومر، بئر الخادم الجزائر، 2000م.
- المعهد الوطني للتراث، المعالم التاريخية والأثرية المرتبة والحماية للبلاد التونسية، وزارة الثقافة، تونس، ماي 2012.
- مفتاح عبد الباقي، أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقتة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2014م.
- مقدسي جورج، نشأة الكليات، معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب، ترجمة محمود سيد محمود، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، 2015.
- مهيبرس مبروك، المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009م.
- المودن عبد الرحمن وبنحادة عبد الرحيم، العثمانيون في المغرب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية، ط2، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2005م.
- مؤنس حسين، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، لجنة الجامعيين لنشر العلم، القاهرة، مصر، 1935م.
- مؤنس حسين، المساجد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978م.
- الميللي مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة، الجزائر، 1964م.
- الميللي محمد، عبد الله الشريط، الجزائر في مرآة التاريخ، ط1، مطبعة دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1965م.
- ناقل عائشة، فرق الصبايحية واستغلالها داخل الاستراتيجية الاستعمارية في الجزائر 1830-1845م، نسيب محمد، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، ط1، دار الفكر، الجزائر، (د.ت).
- النعيمي عبد القادر بن محمد، المدارس في تاريخ المدارس، مراجعة ابراهيم شمس الدين، ط1، ج1، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.

قائمة المصادر والمراجع

- نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، دار الحضارة، الجزائر، 2006م.
- هلايلي حنفي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2010م.
- هلايلي حنفي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2008م.
- الهمامي مفتاح، الوقف في ولاية طرابلس، منشورات جامعة 7 أكتوبر، ليبيا، 2010.
- الهندي محمد إحسان، الحوليات الجزائرية، تاريخ المؤسسات في الجزائر من العهد العثماني إلى عهد الثورة فلالستقلال، العربي للإعلان والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 1977م.
- الهواري ملاح، الشيخ الطيب المهاجي الجزائري، مراجعة عبد المجيد بن نعيمة، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011م.
- الولي طه، المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1988.
- ياغي إسماعيل أحمد وشاكر محمود، العالم الإسلامي الحديث والمعاصر قارة إفريقيا، ج2، دار المريخ للنشر، الرياض، العربية السعودية، 1993م.
- ياغي إسماعيل أحمد، العالم العربي في التاريخ الحديث، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، 1997م.
- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في بلاد الجزائر المحروسة، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1995م.
- يحي بوعزيز، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، ط1، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2002م.
- يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، الجزائر الحديثة، ط2، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009م.
- يحي بوعزيز، مدينة وهران عبر التاريخ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
- يحي جلال، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 1999 م.
- يوسف محمد، أمير أمراء الجزائر عالج علي باشا، دار الأمل للطباعة والنشر، تيزي وزو، الجزائر، 2009م.

2. الكتب المعربة:

- أوقطاي أصلان أبا، فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد محمد عيسى، ط1، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول، 1987.
- ايفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، المدارس والممارسات الطبية والدين، 1830-1880م، ترجمة محمد عبد الكريم اوزغلة، مراجعة مصطفى ماضي، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007م.
- بروكلمان كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية ترجمة نبيلة أمين فارس، منير البعلبكي، ط1، دار الملايين، بيروت، 1948.
- برونو إيتين، عبد القادر الجزائري، ط3، ترجمة ميشيل خوري، دار عطية للنشر، بيروت، لبنان، 1995م.
- بوجين روجان، العرب من الفتوحات العثمانية إلى الوقت الحاضر، ط1، ترجمة محمد إبراهيم الجندي، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 2011م.
- جون بابتيست وولف، الجزائر وأوروبا، 1500-1830م، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الرائد عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- روبر بارنشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ج1، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988م.
- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة، ط2، ج2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978.
- شارل وليام، مذكرات قنصل أمريكا (1816/1824)، ترجمة وتعليق العربي إسماعيل، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
- فالونسي لوست، المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر، ترجمة إلياس مرقص، ط1، دار الحقيقة، بيروت، 1980.
- الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمان بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987.
- كريز كلوس وآخرون، معجم العالم الإسلامي، ترجمة ج. كتورة، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1998.

قائمة المصادر والمراجع

- كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510 - 1541، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1991.
 - كوستينان برنيا، طرابلس 1850 - 1510، ترجمة خليفة محمد التليسي، دار الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1969.
 - لوسيت فالنسي، المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر، ترجمة إلياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، 1980م.
 - مرمول كرنخال، إفريقيا، ج2، ترجمة محمد حجي وآخرون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، 1988م.
 - نيقولاي ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م، ترجمة يوسف عطا الله، مراجعة مسعود ضاهر، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1988م.
 - هانبسيثرايت، رحلة إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1732م، ترجمة ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د. ت).
 - هاينريش فون مالستان، ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.
 - وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب عبد القادر زيادية، دار القصية للنشر، الجزائر، 2007م.
- 3. الرسائل والأطروحات:**
- أبو ريجاب محمد السيد محمد، مدارس المغرب الأقصى في عصر بني مرين، (668 - 869هـ / 1269 - 1464م)، رسالة الماجستير في الآثار الإسلامية، كلية الآداب بسوهاج، جامعة جنوب الوادي، 1999.
 - بحري أحمد، حاضرة مازونة، دراسة تاريخية حضارية خلال العصر الحديث، 1900/1500م، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإنسانية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2012/2013.
 - بلجوزي بوعبد الله، آثار عمران حواضر بايلك الغرب في العهد العثماني، مازونة ومعسكر ووهران ومستغانم أمموزجا، أطروحة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2012، 2013م.
 - بليله نزار عبد الرزاق، القيم الجمالية للعناصر الأساسية في عمارة المساجد، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التربية الفنية، كلية التربية جامعة أم القرى، السعودية، 1415هـ/1994م.
 - بن بلة خيرة، المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، الجزائر 2، 2007 - 2008.

قائمة المصادر والمراجع

- بوتشيشة علي، العمارة الدينية والمدنية بمدينة وهران خلال العهد العثماني، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر2، 2016/2015م.
- بوثرید عائشة، التعليم العربي الحر في الجزائر ومؤسساته من سنة 1947م الى 1962م، رسالة التخرج لنيل شهادة الماجستير، قسم التاريخ والآثار، جامعة قسنطينة 2004/2003م.
- بوثوري نور الدين، دولة حسين بن علي، دراسة لنيل شهادة الكفاءة في البحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة التونسية، تونس، 1980-1981م.
- بودريعة ياسين، أوقاف الأضرحة والزوايا بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني، من خلال المحاكم الشرعية وسجلات بيت المال والبايلك، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، بوزريعة، 2007/2006م.
- بوكفة يوسف، مدرسة مازونة الفقهية، النهضة والسقوط، رسالة التخرج لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع جامعة وهران، 2003/2002م.
- بن بابا علي توفيق، بناء الدولة والمجتمع في الجزائر، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، قسم التنظيم السياسي والإداري، جامعة الجزائر 03، الجزائر، 2013/2012م.
- الجميعي غادة عبد المنعم إبراهيم، مساجد أصفهان في العصر الصفوي، ج1، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، كلية الآثار، قسم الآثار الإسلامية، جامعة القاهرة، 1423هـ/2002م.
- جميل عائشة، الجزائر والباب العالي من خلال الأرشيف العثماني 1520-1830م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2017-2018.
- الحامد نورة بنت معجب بن سعيد، الصلات الحضارية بين تونس والحجاز (دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية 1256-1362م/1840-1908م)، سلسلة الرسائل الجامعية، ادارة الملك عبد العزيز، السعودية، الرياض 1424هـ/2003م.
- حماش خليفة إبراهيم، العلاقات بين ايلة الجزائر والباب العالي من سنة 1798م إلى 1830م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1988م.
- دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في الآداب واللغة العربية، قسم الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 1996/1995م.

قائمة المصادر والمراجع

- ديب صفية، التربية والتعليم في تونس الحفصية، (القرن 7، 10هـ / 13، 16م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر2، 2011، 2012.
- رقاد سعدية، المؤسسات العلمية في بايلك الغرب خلال العهد العثماني 1700-1830م، أطروحة التخرج لنيل درجة الدكتوراه في الطور الثالث، تخصص العلم ومؤسساته في بلاد المغرب في العصور الوسطى والحديثة، قسم التاريخ والآثار، جامعة وهران01، الجزائر، 2018-2019م.
- رموم محفوظ، الثقافة والمثاقفة في المجتمع الحضري الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830م، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2003/2002.
- صادقي سمية، مراكز المخطوطات ودورها في كتابة تاريخ الجزائر 1830، 1962، منطقة الزيبان أمودجا، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة بسكرة، 2012/2013.
- طويلب عبد الله، الروابط الثقافية بين الدولة المرينية ودولة بني نصر في الأندلس القرن 7، 10هـ / 13، 16م، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة تلمسان، 2009، 2010.
- الطيب كريم، المعالم الأثرية الإسلامية في منطقة الزاب الشرقي، رسالة الماجستير في الآثار الصحراوية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، 2008، 2009م.
- فداء محمد أحمد، الأسبلة المائتية في العمارة الإسلامية، رسالة الماجستير في الهندسة المعمارية، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2010م.
- القصاص حسن سيد جوده، المدرسة الصرغتمشية دراسة أثرية معمارية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1971م.
- الكحلوي محمد محمد، العمارة الإسلامية في الغرب الإسلامي، عمائر الموحدين الدينية في المغرب، دراسة أثرية معمارية، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، كلية الآثار، جامعة القاهرة، 1986م.
- كشرود حسان، رواتب الجند وعامة الموظفين وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية بالجزائر العثمانية (1659-1830م)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2007-2008م.
- لعرج عبد العزيز، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيبانية، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر2، معهد الآثار، 1999.

قائمة المصادر والمراجع

- لقرنيزي العربي، مدارس السلطان أبي الحسن على، مدرسة سيدي أبي مدين نموذجاً، دراسة أثرية وفنية، رسالة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2001/2000.
- لواليش فتيحة، الحياة العلمية ببايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 1994م.
- 4. المجلات والدوريات:
 - أبو القاسم سعد الله " عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ورحلته لسان المقال " مجلة الأصالة، العدد 38، 1976.
 - أبو القاسم سعد الله، " بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني (1518،1830)" ، مجلة البصائر، العدد 83، الجزائر، فيفري 2002.
 - أبو القاسم سعد الله، " بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني (1518،1830)" ، مجلة البصائر، العدد 81، الجزائر، 28 جانفي / 04 فيفري 2002م.
 - الإمام رشاد، "سياسة حمودة باشا الحسيني في تونس (1782-1814م)" ، المجلة التاريخية المغربية، العهد الحديث والمعاصر، العدد 6، تونس، جويلية، 1976م.
 - بختاوي قاسمي، "التعليم بالكتاب في المغرب الأوسط أيام حكم بني عبد الواد 633، 681هـ/1235، 1554م"، دورية كان التاريخية، العدد 12، دار ناشري للنشر الإلكتروني، الإسكندرية، 2011.
 - بخوش صبيحة، "وضعية التعليم في الجزائر في العهد العثماني"، حوليات التاريخ والجغرافيا، العدد 2، مج 1، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2008م.
 - بلجوزي بوعبدالله، "مدرسة مازونة ومسجدها العتيق دراسة أثرية"، مجلة منبر التراث الأثري، العدد 5، جامعة تلمسان، الجزائر، 2016م.
 - بلحميسي مولاي، "دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية والثقافية من القرن 15م إلى منتصف القرن 20م" مجلة العصر، العدد 11، الجزائر أكتوبر 1997م.
 - بلغيث محمد الأمين، "مدرسة مازونة الفقهية وآثارها خلال القرن 9هـ / 15م"، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد الأول، مخبر الشريعة بجامعة الجزائر 1 (بن يوسف بن خدة)، الجزائر، 2004.
 - بليل حسني، "الشيخ المهدي البوعبدلي (1907م، 1992)" ، مجلة عصور الجديدة، العدد 3، مخبر تاريخ الجزائر، جامعة وهران 1، الجزائر، 2011م.

قائمة المصادر والمراجع

- بن حسين كريمة، "خنقة سيدي ناجي إبان العهد العثماني"، المجلة المغاربية التاريخية، العددان 90/89، منشورات زغوان، تونس ماي 1998.
- بن مامي محمد الباجي، "جوامع مدينة تونس في العهد العثماني"، دراسة تاريخية وفنية ومعمارية، مجلة التاريخ العربي، العدد 19، مطبعة النجاح، الرباط، المغرب، 1422هـ / 2001م.
- بوبة مجاني، "المدارس الحفصية نظامها ومواردها"، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 12، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 1999.
- البوجديدي محمد سعيد، "لمحات عن الحياة الثقافية بالجلب الغربي"، مجلة البحوث التاريخية، السنة، العدد 02، طرابلس جوان 1998م.
- بوشقيف محمد، "المدرسة ونظام التعليم بالمغرب الأوسط، خلال القرنين 8، 9هـ/14، 15م"، دورية كان التاريخية، العدد 11، دار ناشري للنشر الإلكتروني، الإسكندرية، 2011.
- بوعزيز يحيى، "ماضي مدينة وهران وأمجادها التاريخية"، مجلة الثقافة، العدد 52، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1979م.
- بوعزيز يحيى، "أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين"، مجلة الثقافة، العدد 63، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1981م.
- بونار رابح، "مدينة الجزائر تاريخها وحياتها الثقافية"، مجلة الأصالة، العدد 08 منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، 2011.
- بونقاب مختار، "انتفاضة درقاوة في بايلك الغرب الجزائري 1802م، 1816م"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد 03، قسم التاريخ، جامعة معسكر، 2008.
- تملكشت هجيرة، "مدرسة السلطان أبي عنان فارس المتوكل"، مجلة آثار، عدد 13، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2015م.
- التميمي عبد الجليل، "رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1915م"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 5، مطبعة الاتحاد العام للشغل، تونس، 1976م.
- جلول دواجي عبد القادر، "مدرسة مازونة ودورها التعليمي في العهد العثماني"، مجلة مفاهيم، العدد 4، جامعة الجلفة، ديسمبر 2018م.
- جميل دعاء، الباشا حسن، "وجوه مشرقة"، مجلة آثارنا اليوم، العدد 7، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة 2001.

قائمة المصادر والمراجع

- حامد سعيد علي، "مدارس طرابلس من الفتح العربي حتى 1911م"، مجلة تراث الشعب، العدد 14، طرابلس، 1394هـ/1984م.
- حميد عبد العزيز، عمارة الأربعين في تكريت، مجلة سومر، المجلد 21، الجزء الأول، بغداد، 1965م.
- زكريا مفدي، "النشاط العقلي والتقدم الحضاري للجزائر"، مجلة الأصالة، العدد 26، السنة 1975م.
- زكية زهرة، "الأهمية التاريخية لأوقاف الأحناف بمدينة الجزائر من خلال ثلاثة نماذج من الوثائق"، مجلة دراسات إنسانية، دورية تصدرها كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، عدد خاص بأعمال ندوة الجزائر حول الوقف في الجزائر أثناء القرنين 18م و 19م، ماي 2001م.
- السعداوي أحمد، "التواصل بين إيالتي تونس والجزائر" مجلة السبيل للتاريخ والآثار والعمارة المغاربية، العدد 01، مخبر العمارة والآثار، جامعة تونس، 2016.
- سعيدوني ناصر الدين، "صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر"، المجلة العربية للثقافة، العدد 27، عدد خاص بالتاريخ العربي في الأندلس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1994م.
- شرف عبد الحق، "تراجم لبعض علماء مدرسة الباي بوهران من خلال بعض الآثار المخطوطة"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مج 3، العدد 4، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران 1، 2007م.
- شرف عبد الحق، "تراجم لبعض علماء مدرسة الباي في وهران من خلال بعض الآثار المخطوطة"، مجلة كان التاريخية، دورية إلكترونية محكمة، العدد 12، السنة 7، مارس 2014 م.
- عامر محمود، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، العددان 117، 118، قسم التاريخ، جامعة دمشق، حزيران 2012م.
- عبد الرحيم عبد الرحمن، "دور المغاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 10، تونس، 1978.
- عساسي عبد الحليم ومروان سمير قدوح، "خنقة سيدي ناجي أو تونس الصغيرة، حاضرة عمم وفن وجمال"، مجلة جماليات، العدد 01، مج 05، مخبر الجماليات البصرية في الممارسة الفنية الجزائرية، جامعة مستغانم، ديسمبر 2019م.
- العيد مسعود، "حركة التعليم في الجزائر في العهد العثماني"، مجلة سيرتا، العدد 03، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، ماي 1980م.

قائمة المصادر والمراجع

- فركوس صالح، "الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية ببايلك الغرب"، مجلة الثقافة، العدد 71، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1982م.
- فكاير عبد القادر، "علاقة الجزائر مع هولندا خلال العهد العثماني"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد الأول، جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر، الجزائر، ديسمبر 2009.
- القابسي نجاح، "المعاهد والمؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي"، مجلة المؤرخ العربي، العدد 19، بغداد، 1981م.
- قاصري محمد السعيد، "المدرسة الكتانية بقسنطينة صرح ثقافي يصارع النسيان"، مجلة عصور الجديدة، العدد 18 - عدد خاص بقسنطينة - مخبر التاريخ، جامعة وهران 1، الجزائر، أوت 1436هـ / 2015م.
- الكحلوي محمد محمد، "المدارس المغربية"، دراسة أثرية معمارية، مجلة العصور، مج 6، ج 1، دار المريخ للنشر، لندن، إنجلترا، جانفي، 1991،
- لزغم فوزية، بايات الأسرة الحسينية بتونس، تكوينهم العلمي وأثرهم في الحركة العلمية (1117-1229هـ/1705-1814م)، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، ع 2، مج 3، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، سبتمبر 2020م.
- لعرج عبد العزيز، "المدارس الإسلامية، دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها"، مجلة دراسات إنسانية، العدد الأول، دار الحكمة، الجزائر، 1421هـ / 2001م.
- لعرج عبد العزيز، "النظام المعماري لمدارس المغرب، دراسة أثرية تحليلية"، مجلة آثار، ع 8، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2009م.
- مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد 01، المجلد 12، مجلة دولية محكمة تصدرها جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، 2019م.
- محفوظ قداش، "الجزائر في العهد التركي" مجلة الأصالة، العدد 52، 1977.
- مزيان عبد الحميد، "المؤسسات الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار"، مجلة الثقافة، العدد 22، 1986م.
- مسعود العيد، "حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني" مجلة سيرتا، العدد 03، قسنطينة، 1980.
- المشهداني مؤيد محمود حمد ومحمد سلوان رشيد رمضان، "أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني"، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 16، مجلد 05، كلية الآداب، جامعة تكريت، العراق، أفريل 2013م.

قائمة المصادر والمراجع

- المنوني محمد "مدخل إلى تاريخ الفكر الإسلامي في العصر المريني الأول"، مجلة دار الحديث الحسنية العدد الأول، الرباط، 1979.
- ميسوم ميلود، "مدرسة مازونة"، مسيرة علمية تزيد عن أربعة قرون، المجلة المغاربية التاريخية والاجتماعية، العدد السادس، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2013م.
- 5. المؤتمرات والندوات:**
- بوعبدلي المهدي، الثقافة والتوجيه بالجزائر، في أشغال مؤتمر الفكر الإسلامي، الجزائر، 1970.
- جابر ليلي، المدرسة المرادية بقابس، ضمن أعمال المؤتمر الثامن لمدينة الآثار العثمانية حول العمارة المدنية في العهد العثماني، الدور والمدارس والقناطر والحمامات، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس 2009م.
- سعادنة جمال، "المنجز الثقافي وسياقه التاريخي في الجزائر على العهد العثماني"، أعمال الملتقى الدولي الأول التاريخي حول العلاقات الجزائرية التركية بجامعة بسكرة، مطبعة جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2014م.
- ملاح الهواري، الشاذلي المكي ونشاطه السياسي، محاضرات الملتقى الوطني الثامن بسكرة عبر التاريخ، تحت عنوان من أعلام بسكرة المعاصرين، إصدار الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية بدعم من وزارة الثقافة، الجزائر، 2009.
- نسبية عبد العزيز، "دور آل كوبرولو في إصلاح أوضاع الدولة العثمانية (1656، 1702م)"، ضمن أشغال المؤتمر العلمي السنوي الأول لكلية التربية الأساسية 23 ماي 2007، كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، العراق، 2007م.
- 6. المعاجم والموسوعات:**
- الباشا حسن، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، ط1، مج1، دار أوراق شرقية للطباعة والنشر، بيروت، 1999.
- بدوي عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1993.
- بركات مصطفى، الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب، القاهرة، 2000م.
- البعلبكي منير، معجم أعلام المورد، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1952م.
- الخطيب مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1996م.

قائمة المصادر والمراجع

- الخوند مسعود، الموسوعة التاريخية الجغرافية (معالم، وثائق، موضوعات، زعماء)، ألمانيا-أوروبا، ج7، مؤسسة هانباد، بيروت، لبنان، (د.ت).
- رزق عاصم محمد، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000م.
- رزق محمد عاصم، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مطبعة مدبولي، القاهرة، مصر، 2000م.
- الزبيدي مفيد، المبسط في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2004م.
- الزبيدي مفيد، موسوعة التاريخ العربي المعاصر والحديث، ط1، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2004م.
- شقلوف مسعود رمضان وآخرون، موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا، ج1، تحقيق علي مسعود البلوش، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1980.
- الشيخ بوعمران وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، منشورات دحلب، الجزائر، 2007.
- صابان سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة عبد الرزاق محمد حسن بركات، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، السعودية، 2000 م.
- غالب عبد الرحيم، موسوعة العمارة الإسلامية، مطبعة جروس برس، بيروت، 1993.
- الموسوعة العربية العالمية، ج3، ط2، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، 1999.
- نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، منشورات المكتب التجاري بيروت، لبنان، 1971.

رابعا المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

1. المصادر:

- Dr. SHAW, Voyage dans la régence d'Alger, traduit de l'Anglais par J. Mac, Carthy 2ème ed, Bouslama, Tunis, 1980.
- Ibn Abi Dhiaf, Présent des hommes de notre temps Chroniques des rois de Tunis et du pacte fondamental, vol II, Maison tunisienne de l'édition, Tunis, 1990.
- Venture (De. Paradis), Alger au 18 eme siècle, topographie Adolphe Jourdan Imprimeur - Libraire -Editeur, Alger, 1898.

المراجع:

أ. الكتب:

- Ahmed Saadaoui, **Tunis, ville ottomane, trois siècles d'urbanisme et d'architecture**, Centre de Publication Universitaire, Tunis 2001.
- Albert Devoulx, **Les Archives du consulat général de France à Alger**, Recueil de documents inédits concernant soit les relations politiques de la France, soit les rapports commerciaux de Marseille avec l'ancienne régence d'Alger, Marseille, 1863.
- Bel Alfred, **Inscription arabes de Fès**, extrait du journal asiatique, 1917-18 Imprimerie national, paris, 1919.
- Bellhamissi Moulay, **Mazouna, une Petite ville, une longue histoire, Alger**, S,N ,E,D, 1982.
- Bodin (M.), " **Traditions indigènes sur Mostaganem et Tadjedit** " in B.S.G.A.O, 1925.
- Bouabba (y.), **Les Turcs au Maghreb Central du 16 ème au 19 ème Siècle**, S.N.E.D, Alger, 1972.
- Chalem (M), "**Histoire de l'Algérie des origines à 1830**" in **Algérie**, Casbah, 2000.
- Charles Robert, **Histoire de l'Algérie contemporaine de l'insurrection de 1871 au déclenchement de la guerre de libération 1954**, T2, P.U.F. Paris, 1979.
- Destre. H : **Les conquérants de l'Algérie (1830- 1857)**, éditions Berger levrault, Paris, 1930.
- Deverdum(G), **Inscription Arabes de Marrakech Rabat**, Edition, Techniques Nord-Africain, Paris, 1956.
- Diego de Haëdo, **Topographie et histoire générale d'Alger**, traduction de dr monnerau et A.berbrugger, présentation de Jocelyne dakhli, éditions bouchene, 1998.
- Edmond Grosclaude, **Mostaganem et son arrondissement**, Imprimerie de l'indépendant, Mostaganem, 1892.
- Emerit (M.), **l'Algérie à l'époque d'Abd-El Kader la Rose**, Paris, 1951.

-
- Gaffarel (P), **L'Algérie, Histoire, conquête et colonisation**, Imp.de l'institut, Paris, 1883.
 - Golvin (L): **La madrasa médiéval**, Edsud, 1995.
 - Gustave Mercier, " **Khanguet sidi nadji, quelques inscriptions arabes inédites**" In Recueil des Notices et mémoires de la société archéologique Constantine, 1915.
 - Haedo Diego, **Topographie et histoire générale d'Alger**, tra, A, Berbergger et monmerau, 3ed Alger Grand Algerlivers, 2004.
 - Henri Delmas de Grammont, **Histoire d'Alger sous la domination turque**, Edition Leroux, Paris, 1887.
 - Jarray(fathi) **inscriptions de la régence de Tunis à l'époque ottoman** étude épigraphique et Historique sous la direction de Madame Solange Ory et de Madame Mounira Rimadi Chapoutot Tome1 vol 2.
 - Kaddache (M.), **L'Algérie durant la période Ottomane**, O.P.U, Alger, 1991.
 - Lucien, Golvin, la madarsa médiévale, Paris.
 - Marçais (G), **L'architecture, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne**, Sicile, Volume2, Manuel d'art musulman, métier graphiques, A. Picard, Nouv.éd, 1, paris, 1926-1927.
 - Marçais (G.), **l'architecture musulmane d'occident (Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Socile)**, arts et métiers graphiques, paris, 1954.
 - Marçais. (G), **L'art musulman**, presses, Universitaire de France, paris, 1962.
 - Marcel Emerit, **L'Etat intellectuel et moral de l'Algérie en 1830**, in Revue d'histoire moderne et contemporaine, T1, 3eme trimestre, 1954.
 - Marthe.et Edmond Gouvion, **kitab Aàyane el maghariba**, Imprimerie oriental Fontana frères, 1920.
 - Mouloud Gaid, **Chronique des beys de Constantine**, Office des publications universitaires, Alger, 1978.
 - Poulard Maurice, **l'enseignement pour les indigènes en Algérie**, imprimerie administrative, Alger. 1910.
 - Terrasse (Charles), **Madrasa du Maroc**, Paris, Morance , S.D.
 - Terrasse(h), **Madrasa du Maroc**, Moranée, Paris (S.D), 1927.

-
- Turin Yvonne, **Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale (1830-1880)**, F. Maspero, Paris, 1971.
 - Victor Piquet, **Autour des monuments musulmans du Maghreb, Algérie. - Maroc**, Volume 1 de Autour des monuments musulmans du Maghreb, esquisses historiques, G.-P. Maisonneuve, 1948.
 - W. Devoux (A), **Notes historiques sur les mosquées et autres édifices religieux d'Alger** in, R, 5/1861.
 - William et Georges (Marçais), **les monuments Arabes de Tlemcen**, librairie Thorin, Paris 1903.
- Vayssttes, **l'histoire de Constantine de puis l'invaison turque jusqu'à l'occupation de 1835-1837**, l'arndet Paris, 1900.

ب. الرسائل الجامعية:

- Hassar ben Slimane et Abdelaziz Touri, **les madrasas Marinides de Fès**, thèse de Doctorat Nouveau Art et Archéologie islamique, institut D'art et d'archéologie, Université de paris, Sorbonne, Année Universitaire 1995.1996
- Makhloufi Soumaya, **La sauvegarde du patrimoine entre interventions ponctuelles et stratégie globale cas de la dachra de khanguet sidi nadji**, Mémoire Présenté pour obtenir le diplôme de Magistère Nouveau Régime en Architecture, Département d'Architecture, Université de Biskra, 2010.
- Nasser Rabbat: **The formation of the Neo-Mamluk style in modern Egypt**. In: The education of the architect. Historiography, urbanism, and the growth of architectural knowledge. Essays presented to Stanford Anderson. Ed. Martha Pollak. MIT Press, Cambridge, Massachusetts, 1997
- Yassir Benhima, **La madrasa Asshrig de Fès**, mémoire de fin D'études de cycle, institut national des sciences d'archéologie et du patrimoine, Université de Mohamed _V, de Rabat, Année Universitaire 1995_1996

ج. المجلات والدوريات:

- Aumerat A, **la Propriété urbaine A Alger**, in revue africaine, V42, Alger 1898.
- Bousquet **promenade sociologique une médersa déchue Mazouna**, in Revue Africaine, V91. 1947.
- -Brosslard (Charles), « **les inscriptions Arabes de Tlemcen** » revue Africaine ,1859 ou 1862)

- Devoulx Alber, **Les Edifices Religieux de l'Ancien Alger, zaouïa de la grande mosquée** in Revue Africaine, V11, Alger 1867.
- Devoulx Alber, **Not historique sur les mosquées et autre édifice religieux d'Alger**, in revue africaine, V5, Alger, 1861.
- Féraud, **La Note sur Bougie**, Lège des Tradition, Domination turque, in R.A, T3, 1859.
- Feure Biguet (G.), " **Notice sur le cheik –Abou –Ras-en –Nasiri**" in J.A, 9ème série, 1899.
- Gorguos, « **notice sur le bey d’Oran Mohammed el kebir** », revue africaine, vole n°1, 1856.
- Leclerc, **Inscriptions arabes de Mascara : Mosquée d’Ain Beidha** in Revue Africaine, V4, Alger, 1859,1960.
- Marial, (W), « **La Mosquée de Sidi Mohamed-el-Kebir à Oran** », In Bulletin de la société de géographie d’Oran, T.XIII, 1893.
- Mouloud Gaid, **Chronique des beys de Constantine**, office des publications universitaires, Alger, (s.d), p38, et Charles Féraud ,Les Ben Jalab sultans de Touggourt, in Revue Africaine, V24, 1880.
- Paul Sebag, **Les monnaies tunisiennes au XVIIe siècle**, Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, n°55-56, semestriel, numéro accessible en ligne: <http://remmm.revues.org>, Aix-en-Provence, Année 1990.
- Solagne (ory), et **Brown (k.d) article**, « **MAKBARATT** » in en Encyclopédie de l’Islam, T6, E.J Brille, Gp, mais en oeuvre et larose, Leiden, Parie, 1991.

د. القواميس والموسوعات:

- Arnold, (T.W) et **Autres**, **Encyclopedie de l’Islam**, dictionnaire géographique, ethnographique et biographique des peuples musulmans, T4, Leyde Brill et Paris Klincksieck, 1934.
- OGEBC, **Registre général des Inventaires des Biens Culturels Classées**, Alger, 2014.

الفهارس



فهرس الأعلام:

- إبراهيم الرياحي 74, 73 ,
 إبراهيم الشريف 247, 275 ,
 ابن أبي الضياف 68, 250, 275, 276, 305, 306, 330
 ابن ابي زرع 17 ,
 ابن الخطيب 25, 86, 87, 90, 326 ,
 ابن الفكون 83 ,
 ابن باديس 201 ,
 ابن بطوطة 16, 30, 49, 59, 92, 330 ,
 ابن تافراكين 62 ,
 ابن جبير 14, 15, 29, 30, 49, 330 ,
 ابن حمادوش هر, 82, 330
 ابن خلكان 13, 14, 21, 330 ,
 ابن زرفة 227, 333 ,
 ابن شكوال 24, 331 ,
 ابن عمار 133 ,
 ابن مامي 61 ,
 ابن مرزوق 18, 47, 48, 49, 78, 79, 89, 90, 331
 ابن مريم 22, 45, 79, 80, 331 ,
 ابن ميمون 106, 128, 136, 138, 143, 331
 ابن هطال التلمساني 165, 166, 331 ,
 أبو القاسم سعد الله 81, 82, 83, 84, 85 ,
 113, 126, 127, 129, 130, 131,
 132, 133, 134, 136, 137, 138,
 139, 140, 141, 142, 143, 144,
 145, 147, 148, 182, 183, 186,
 187, 191, 192, 199, 207, 226,
 232, 233, 234, 335, 348, 352
 أبو تاشفين 77 ,
 أبو راس الناصري 127, 225, 226, 227, 228, 236, 327
 أبو سعيد عثمان 22 ,
 أبو فارس عبد العزيز 63 ,
 أبو يوسف يعقوب 18, 20, 86 ,
 أبي حنيفة 66, 254 ,
 أبي راس المازوني 153, 155, 156, 157, 158
 أبي عنان فارس المتوكل 37, 79, 89, 91, 354
 أبي لبابة الأنصاري 258, 263 ,
 أبي لبابة 258, 259, 260, 263, 271 ,
 أبي يعقوب يوسف 77 ,
 أحمد السعداوي 180, 183, 185, 189, 255, 277
 أحمد بن سحنون 84, 150 ,

| | |
|---------------------------------------|--|
| أحمد بن ناصر, 180, 182, 183, 184, | حسن باشا, 44, 104, 108, 111, 116, |
| 185, 187, 196, 200 | 123, 124, 204 |
| أحمد خوجة, 61, 125, | حسين بن علي, ج, و, 69, 70, 71, 125, |
| أحمد فكري, 12, 30, 40, 41, 43, 51, | 188, 189, 251, 273, 274, 275, |
| 52, 53, 261 | 276, 277, 280, 285, 288, 289, |
| إدريس الأول, 76, | 300, 303, 305, 307, 350, |
| أسطا مراد, 69, | حمودة باشا, و, 68, 74, 200, 245, 246, |
| ألب أرسلان, 14, 28, | 251, 254, 255, 256, 257, 259, |
| الإمام مالك, 16, 39, 75, | 336, 260 |
| الأمير عبد القادر, 85, 107, 137, 168, | خير الدين بربروس, 103, 104, 106, 111, |
| 230, 236, 237, 238, 334, 338, | 338 |
| 351 | دحدوح, ز, 202, 342, |
| بابا عروج, 106, 111, | دوفو, 142, |
| الباي بوشلاغم, 132, | الزركشي, 13, 59, 60, 62, 63, 64, |
| البخاري, 131, 161, 186, 237, | 327, 332 |
| بروسلار, 76, | الزياني, 5, ج, هـ, 19, 21, 22, 37, 75, |
| بن بلة, ز, 12, 20, 25, 26, 33, 42, | 76, 77, 84, 102, 164, 323, 328, |
| 51, 53, 54, 164, 202, 226, 231, | 344, 341 |
| 232, 340, 350, | سليم الأول, 103, 352, |
| البوعبدلي, ز, 81, 84, 145, 147, 149, | سنان باشا, 66, 240, 242, |
| 150, 236, 328, 330, 353, | السيوطي, 14, 328, |
| الجزنائي, 89, | شارل اندري جوليان, 22, |
| جورج مارسي, ح, 48, 86, | شاو, 127, 128, |
| الحسن الوزان, 78, 92, 95, | صالح راييس, 107, 108, 111, |

- الصغير بن يوسف , 71, 72, 73, 247 ,
 249, 274, 275, 278, 288, 328
 صلاح الدين الأيوبي 15, 16 ,
 الطاهر المشرفي 167 ,
 الظاهر برقوق 17 ,
 الظاهر بيبرس 17 ,
 العاضد بالله 15 ,
 عبد الحميد بن باديس 73, 278, 345 ,
 عبد الرحمن بن خلدون , 20, 26, 46, 61,
 75, 86, 135, 139
 عبد العزيز حمودة , 59, 184, 247, 276,
 331
 عبد العزيز لعرج , 14, 18, 20, 21, 26,
 27, 36, 37, 38, 39, 63, 76, 77,
 78, 79
 عبد القادر الجيلاني 237, 346 ,
 عبد القادر بن محمد الراشدي 131 ,
 العبدري 24, 328 ,
 عثمان الكردي 165 ,
 عثمان باشا الساقرلي 96 ,
 عثمان باشا 96, 124, 165, 345 ,
 عثمان داي 66, 243, 254 ,
 العربي التبسي 186 ,
 علي أغا 120 ,
- علي باشا ,ج, و, 71, 72, 73, 74, 98,
 111, 184, 241, 242, 249, 250,
 272, 276, 304, 305, 306, 307,
 318, 321, 347
 علي باي المرادي 64 ,
 علي بن حسين 69, 72, 251, 256 ,
 علي بوتشيشة ,ز, 167
 علي شاوش 122, 125 ,
 علي علج 242 ,
 العياشي ,هـ, 142
 الغبريني 60, 140, 328 ,
 فاطمة الزهراء قشي 202 ,
 القزويني 14, 328 ,
 قوس ماركوس 24, 95 ,
 مبارك بن ناجي 181, 183, 195 ,
 محمد الأخضر 94, 184, 185 ,
 محمد البنا 278 ,
 محمد السنوسي 305 ,
 محمد الصادق باي 252, 271 ,
 محمد الفاسي 74 ,
 محمد المكّي بن عزوز 73 ,
 محمد النيفر 278, 290 ,
 محمد بقطاش 123 ,

| | |
|--------------------------------------|---------------------------------------|
| مولاي إسماعيل 165, 130, 95, 94 , | محمد بن الخوجة 58, 59, 61, 63, 64 , |
| مولاي الرشيد 94 , | 67, 68, 69, 71, 72, 73, 273, |
| نبيل بوقطاية 64 , | 277, 278, 300, 304, 307 |
| نظام الملك 42, 29, 17, 14, 13 , | محمد بن الشارف 147, 158 , |
| النميري 333, 79 , | محمد بن عثمان باشا 129, 341 , |
| نور الدين محمود زنكي 54, 33, 14 , | محمد خوجة 82, 234, 235 , |
| هايدو 225, 142 , | مراد الثاني 112, 245, 246, 254, 255 , |
| هوارى بومدين 278 , | 271 |
| الورثيلاى هـ, 128, 129, 131, 138 , | مسلم 75, 161, 167, 329 , |
| 181, 186, 187, 257, 266, 333 | مصطفى بن مختار الراشدي 236 , |
| يحيى بوعزيز 143, 137, 114, 104, 84 , | مصطفى خوجة 98 , |
| 168, 169, 170, 326, 329, 334, | المقري 76, 77, 329 , |
| 346, 347 | المقريزي 11, 13, 16, 48, 130, 333 , |
| يوسف خوجة 74 , | المنصور قلاوون 17 , |
| يوسف داي و, 66, 244, 254, 296 | المهدي بن تومرت 20 , |

فهرس الأماكن والبلدان:

| | |
|--------------------------------------|---|
| 187, 199, 202, 203, 204, 205, | , 4, 23, 24, 28, 51, 76, 88, الأندلس |
| 206, 207, 216, 217, 222, 225, | 89, 102, 107, 141, 183, 233, |
| 226, 227, 229, 230, 231, 232, | 234, 329, 351, 355 |
| 233, 234, 235, 236, 237, 238, | اسبانيا, هر, 110, 103 |
| 241, 244, 245, 246, 247, 249, | أصفهان, 13, 35, 349 |
| 251, 275, 276, 279, 281, 305, | الإسكندرية, 13, 15, 21, 34, 51, 62, |
| 323, 324, 326, 327, 328, 329, | 86, 109, 138, 139, 326, 335, |
| 330, 331, 332, 333, 334, 335, | 341, 347, 351, 353, 354 |
| 336, 337, 338, 339, 340, 341, | أغادير, 47, 76 |
| 342, 343, 344, 345, 346, 347, | الجزائر, 6, أ, ب, ج, د, هـ, و, ز, ح, ط, 12, |
| 348, 349, 350, 351, 352, 353, | , 27, 25, 24, 23, 22, 21, 18, 14 |
| 354, 355, 356, 357, 358 | , 65, 60, 53, 51, 50, 48, 47, 36 |
| البلدية 206, | , 81, 80, 78, 77, 76, 75, 71, 67 |
| الحجاز 92, 43, | , 101, 100, 89, 85, 84, 83, 82 |
| الزاب, 85, 180, 181, 183, 185, | , 108, 107, 106, 104, 103, 102 |
| 194, 349 | , 114, 113, 112, 111, 110, 109 |
| بيت المقدس 240, 28, | , 120, 119, 118, 117, 116, 115 |
| القالة 110, | 121, 122, 123, 124, 125, 126, |
| القاهرة, 12, 13, 14, 15, 16, 19, 24, | 127, 128, 129, 130, 131, 132, |
| 29, 32, 34, 35, 40, 43, 44, 47, | 133, 134, 135, 136, 137, 138, |
| 49, 51, 54, 67, 93, 102, 115, | 139, 140, 141, 142, 143, 144, |
| 130, 131, 138, 222, 226, 228, | 145, 146, 147, 148, 149, 150, |
| 241, 243, 244, 246, 250, 252, | 162, 164, 165, 166, 167, 168, |
| 253, 261, 327, 328, 331, 332, | 169, 170, 182, 183, 184, 186, |

| | |
|--|-------------------------------------|
| 248, 249, 250, 251, 252, 253, | 334, 335, 336, 337, 338, 339, |
| 255, 256, 257, 258, 259, 260, | 341, 342, 343, 344, 345, 346, |
| 272, 273, 274, 275, 276, 277, | 348, 349, 354, 358 |
| 278, 279, 283, 287, 288, 290, | الشام, ب, 14, 15, 25, 28, 92 |
| 291, 293, 296, 303, 304, 305, | الشلف 130, |
| 306, 307, 308, 309, 320, 321, | جيجل 103, 333, |
| 323, 327, 328, 330, 331, 332, | حلب 15, 43, |
| 333, 334, 335, 336, 337, 338, | القسطنطينية 115, 104, 106, 113, 28, |
| 339, 340, 341, 343, 344, 347, | القصبه 207, 201, 153, 57, 34, |
| 348, 349, 350, 351, 352, 353, | 235, 260, 272, 275, 347 |
| 354, 355, 356 | القل 104, 185, |
| , 16, 17, 19, 21, 45, 48, 49, الرباط | القيروان, ط, 70, 74, 259, 276, 290, |
| 50, 51, 86, 87, 88, 89, 94, 102, | 326, 306 |
| 161, 205, 229, 241, 254, 273, | تنس 102, 76, |
| 327, 330, 331, 332, 335, 336, | توات 329, 142, 85, |
| 339, 345, 347, 348, 353, 354 | تونس 7, 6, 5, 4, ج, و, ز, ح, ط, 13, |
| , الساوره 85, | , 18, 19, 20, 22, 25, 27, 36, 37, |
| , صفاقس 74, | , 47, 48, 49, 51, 54, 57, 58, 59, |
| , صقلية 28, | , 60, 61, 62, 63, 64, 65, 66, 67, |
| , المغرب 5, 4, أ, ب, ج, د, و, ح, 10, 13, | , 68, 69, 70, 71, 72, 73, 74, 102, |
| , 17, 18, 19, 20, 21, 23, 25, 27, | , 103, 104, 107, 109, 111, 112, |
| , 36, 37, 38, 39, 41, 48, 49, 50, | , 130, 131, 139, 180, 183, 184, |
| , 53, 56, 57, 59, 60, 62, 63, 75, | , 185, 186, 188, 189, 196, |
| , 76, 77, 78, 79, 80, 86, 87, 89, | , 200, 239, 234, 230, 204, |
| , 90, 91, 94, 102, 130, 131, 138, | , 247, 246, 245, 244, 243, 242, |

فهرس الأماكن والبلدان

| | |
|--------------------------------------|---------------------------------------|
| سوسة 338, 291, 275, 50, 49, | 139, 146, 148, 150, 167, 185, |
| ششار 180, | 205, 226, 240, 241, 245, 247, |
| صالح باي 202, 185, 182, 124, 83, | 249, 252, 273, 274, 278, 323, |
| 203, 205, 206, 214, 215, 216, | 326, 328, 329, 332, 333, 334, |
| 222, 344 | 336, 337, 338, 339, 343, 345, |
| طرابلس, ط, 19, 23, 24, 95, 96, 97, | 347, 348, 349, 353, 354, 356 |
| 98, 112, 163, 171, 240, 246, | المغرب الأدنى 19, |
| 252, 337, 340, 341, 349, 352, | المغرب الأقصى 5, 4, ج, 19, 20, 86, |
| 354 | 87, 90, 94, 146, 148, 150, 226, |
| طليطلة 28, | 240, 252, 328, 334, 349, |
| طنجة 90, | المغرب الأوسط 5, 4, ج, 21, 36, 75, |
| طهران 35, | 77, 80, 138, 185, 353, |
| طولقة 186, | ليبيا 5, 4, ج, ط, 23, 95, 96, 97, 98, |
| خنقة سيدي ناجي 6, ج, و, ط, 145, 179, | 255, 333, 337, 340, 345, 349, |
| 180, 181, 184, 185, 186, 280, | 358 |
| 353, 355 | مازونة 6, ج, ز, ط, 83, 108, 145, |
| باريس 237, 48, | 146, 147, 148, 149, 150, 151, |
| مراكش 131, 93, 91, 51, 21, 19, | 155, 157, 160, 164, 166, 350, |
| بجاية 140, 137, 119, 107, 60, | 353, 354, 356 |
| بسكرة, ج, ط, 83, 136, 144, 179, | إنجلترا 353, 18, |
| 181, 183, 186, 349, 351, 357, | العراق 14, 17, 18, 26, 27, 29, 42, |
| بغداد 57, 47, 30, 29, 28, 26, 13, | 357, 353, 118, 102, |
| 236, 336, 341, 352, 355 | الموصل 357, 118, |
| بنزرت 260, | المدية 227, 207, 108, 84, |
| | سوريا 334, 117, 54, 53, 32, 31, |

فهرس الأماكن والبلدان

| | |
|-------------------------------------|-------------------------------------|
| قسنطينة, هر, ز, 19, 27, 50, 64, 71, | عنابة, 20, 83, 104, 107, 110, 204, |
| ,72, 79, 83, 84, 101, 107, 108, | 206 |
| ,114, 117, 118, 124, 132, 134, | غرناطة, 24, 25, 183, 233, 326, |
| ,137, 142, 145, 182, 184, 185, | غليزان, 146, 165, |
| ,201, 202, 203, 205, 206, 207, | فاس, 17, 18, 20, 21, 36, 37, 47, |
| ,216, 207, 206, 205, 203, 202, | 53, 77, 78, 86, 87, 88, 89, 90, |
| ,340, 342, 344, 350, 351, 352, | 91, 92, 93, 94, 232, 238, 257, |
| 354, 356, | 327, 330, 332, 336 |
| رباط المنستير, 50, | أوروبا, 109, 113, 114, 140, 233, |
| رباط سيدي عقبة, 51, | 241, 253, 357 |
| زاوية سيدي شيكر, 51, | إيران, 13, 17, 26, 28, 35, |
| سالا, 18, | تكريت, 30, 102, 353, 355, |
| ندرومة, 84, | تلمسان, 18, 21, 22, 23, 26, 27, 36, |
| معسكر, 84, 108, 120, 123, 145, | 37, 38, 47, 48, 51, 75, 76, 77, |
| ,230, 229, 228, 166, 165, 160, | 78, 80, 85, 90, 101, 102, 107, |
| 355, 354, 238, 231, | 132, 136, 137, 141, 142, 145, |
| مكناس, 86, 20, | 146, 148, 207, 238, 326, 332, |
| مكناسة, 86, 87, 90, | 344, 351, 352, 354 |
| مليانة, 165, | فرنسا, 94, 104, 109, 110, 114, |
| مصر, ب, ط, 11, 12, 14, 15, 16, 25, | 119, 120, 124, 230, 251, 252, |
| ,27, 28, 33, 34, 38, 39, 40, 42, | 329, 344 |
| ,43, 44, 45, 49, 62, 63, 67, 86, | فيينا, 109, |
| ,103, 111, 115, 130, 138, 222, | قابس, ج, 19, 50, 260, 261, 264, |
| ,226, 228, 241, 243, 244, 246, | 271 |
| ,248, 250, 252, 253, 274, 306, | |

فهرس الأماكن والبلدان

| | |
|-------------------------------|------------------------------------|
| ,206 ,202 ,169 ,167 ,166 ,165 | ,334 ,333 ,332 ,328 ,327 ,326 |
| ,343 ,334 ,333 ,328 ,229 ,227 | ,344 ,343 ,342 ,341 ,338 ,335 |
| 356 ,355 ,354 ,350 ,349 | , 347, 348, 358346 |
| , 120, 355 هولندا | , المهديّة 17 |
| , 186 وادي سوف | ,108 ,101 ,84 ,83 ,80 ,هران ,هر ,ز |
| , 13, 14 نيسابور | ,137 ,133 ,132 ,130 ,124 ,123 |
| | ,164 ,161 ,147 ,146 ,145 ,143 |

| فهرس الشعوب والقباثل: | |
|--|--------------------------------------|
| العرب, 20, 45, 67, 127, 166, 167, | الأغالبة, 49, 51, 331, |
| 179, 184, 200, 242, 243, 246, | الأيوبيين, 16, |
| 251, 252, 326, 338, 341, 348, | بني الأحمر, 24, 25, 233, |
| 357 | بني نصر, 24, 51, 351, |
| العلويون, 94, | البويهيين, 27, |
| الفاطميين, 15, | الحفصيين ب, 65, 68, 323, |
| الفرس, 26, | الروم, 50, 95, |
| المرابطين, 18, 47, 49, 129, 339, | الزيانيين, 22, 75, |
| المرينيين, 19, 22, | السعديون, 92, 93, |
| المماليك, 16, 17, 33, 34, 63, 338, | السلاجقة, 26, 28, |
| الموحدين, 18, 19, 20, 23, 27, 57, 86, 349, | العباسيين, 50, |
| النورماند, 28, | العثمانيين, 33, 65, 67, 75, 97, 102, |
| | 104, 119, 129, 150, 166, 240, |
| | 246, 259, 323 |

فهرس المخططات:

- المخطط رقم 1: مخطط المدرسة المرجانية ببغداد 35
- المخطط رقم 2: مخطط المدرسة المستنصرية ببغداد (عن إسماعيل الحداد)..... 36
- المخطط رقم 3: مخطط مدرسة كمشتكين ببصرى الشام 36
- المخطط رقم 4: مخطط المدرسة النورية بدمشق 37
- المخطط رقم 5: مخطط مدرسة ضمن المجمع المعماري للسلطان قلاوون بالقاهرة (عن إسماعيل الحداد بتصريف) 39
- المخطط رقم 6: مخطط المدرسة الصالحية للسلطان نجم الدين أيوب بالقاهرة (عن إسماعيل الحداد بتصريف) 39
- المخطط رقم 7: تصميم مدرسة مادر شاه (جهار باغ 1118هـ / 1706) بأصفهان 41
- المخطط رقم 8: مخطط المدرسة المصباحية المرينية بفاس (عن لعرج) 43
- المخطط رقم 9: مخطط المدرسة التاشفينية الزيانية بتلمسان (عن لعرج) 43
- المخطط رقم 10: مخطط المدرسة المنتصرية الحفصية بتونس (عن ابن مامي)..... 44
- المخطط رقم 11: مخطط المدرسة البوعنانية المرينية بفاس (عن أبو رحاب) 44
- المخطط رقم 12: مخطط مدرسة مازونة 153
- المخطط رقم 13: توزيع القباب على مباني المدرسة 154
- المخطط رقم 14: مخطط مدرسة خنق النطاح (عن علي بوتشيشة بتصريف) 172
- المخطط رقم 15: مخطط المدرسة الناصرية ضمن المجمع الديني الذي يشمل المسجد والصحن 189
- المخطط رقم 16: توزيع الأضرحة حول صحن المسجد 198
- المخطط رقم 17: الطابق الأرضي للمدرسة الكتانية (عن أرشيف ogebc بتصريف)..... 209
- المخطط رقم 18: الطابقين الأرضي والأول 209
- المخطط رقم 19: مخطط بيت الصلاة (عن خيرة بن بلة) 218
- المخطط رقم 20: مخطط مسجد البيعة (مسجد مدرسة الحمديّة) 232
- المخطط رقم 21: مخطط المدرسة المرادية (عن ليلي جابر بتصريف) 261
- المخطط رقم 22: مخطط مدرسة النخلة 279

فهرس المخططات

- المخطط رقم 23: مخطط مدرسة جامع الجديد (عن بن مامي بتصرف) 291
- المخطط رقم 24: مخطط المدرسة السللمانية بتونس..... 308
- المخطط رقم 25: مخطط مسجد المدرسة السللمانية..... 316

فهرس الصور:

- الصورة رقم 1 : الرسالة الأصلية التي ترجمت إلى اللغة العثمانية وهي ما زالت موجودة بالأرشيف العثماني.
عن التميمي 107
- الصورة رقم 2 : ترجمة إلى العربية للرسالة قام بها ونشرها الباحث التونسي عبد الجليل التميمي..... 107
- الصورة رقم 3 : موقع المدرسة بمدينة مازونة القديمة 148
- الصورة رقم 4 : مدرسة مازونة في فترة الاحتلال الفرنسي 150
- الصورة رقم 5 : مدرسة مازونة لا تزال إلى اليوم تلقن القرآن الكريم ومبادئ اللغة العربية للأجيال 151
- الصورة رقم 6 : مدخل المدرسة 154
- الصورة رقم 7 : مدخل مسجد المدرسة 155
- الصورة رقم 8 : فتحات التهوية أعلى واجهة المسجد 155
- الصورة رقم 9 : قاعة التدريس 156
- الصورة رقم 10 : بيوت الطلبة **Erreur ! Signet non défini.**
- الصورة رقم 11 : ضريح الشيخ ابي راس المازوني 158
- الصورة رقم 12 : ضريح الشيخ محمد بن الشارف 159
- الصورة رقم 13 : ضريح الشيخ محمد أبي طالب 159
- الصورة رقم 14 : قاعة الصلاة بمسجد المدرسة 160
- الصورة رقم 15 : كرسي الإمام يعود تاريخه لسنة 1700م 161
- الصورة رقم 16 : المنذنة بالواجهة الرئيسية 162
- الصورة رقم 17 : خزانة الكتب والمخطوطات 163
- الصورة رقم 18 : موقع مدرسة خنق النطاح 164
- الصورة رقم 19 : مدرسة خنق النطاح مع بداية الاحتلال الفرنسي 170
- الصورة رقم 20 : مدرسة خنق النطاح سنة 1920 171
- الصورة رقم 21 : الواجهة الغربية للمدرسة 173
- الصورة رقم 22 : الواجهة الشمالية 173
- الصورة رقم 23 : أعمدة بأكفة الواجهة الغربية 173

- 173 الصورة رقم 24 : الواجهة الرئيسية في الجهة الجنوبية.....
- 174 الصورة رقم 25 : صحن المدرسة
- 175 الصورة رقم 26 : جوسق المئذنة
- 176 الصورة رقم 27 : بدن المئذنة (الشكل عن الأستاذة بن بلة).....
- 177 الصورة رقم 28 : قبة قاعة الدروس (الضريح).....
- 178 الصورة رقم 29 : بيت الوضوء المستحدث في الجهة الغربية من المدرسة
- 179 الصورة رقم 30 : التسقيف المستحدث على الصحن
- 180 الصورة رقم 31 : موقع خنقة سيدي ناجي ضمن مقاطعة بايلك الشرق
- 180 الصورة رقم 32 : بلدي خنقة سيدي ناجي، النواتين الأولى والثانية لتأسيس المدينة.....
- 182 الصورة رقم 33 : موقع المدرسة بين معالم المدينة
- 183 الصورة رقم 34 : الكتابة التأسيسية المثبتة أعلى المدخل الجنوبي للمدرسة الناصرية.....
- 190 الصورة رقم 35 : الواجهة الرئيسية للمدرسة التي تفتح على الزقاق في الجهة الغربية
- 191 الصورة رقم 36 : مدخل المسجد
- 191 الصورة رقم 37 : مدخل المدرسة الناصرية
- 192 الصورة رقم 38 : واجهتي الصحن الشرقية والشمالية
- 192 الصورة رقم 39 : شكل الصحن من أعلى المدرسة.....
- 192 الصورة رقم 40 : الواجهة الغربية للصحن ويظهر فيها مدخل السقيفة
- 192 الصورة رقم 41 : رواق الصحن الجنوبي المعقود والمفتوح على بيت الصلاة في المسجد
- 194 الصورة رقم 42 : الرواق الشمالي بالطابق العلوي.....
- 194 الصورة رقم 43 : إحدى غرفة الطلبة بالطابق العلوي
- 195 الصورة رقم 44 : مئذنة مسجد سيدي مبارك
- 195 الصورة رقم 45 : بيت الصلاة بمسجد سيدي مبارك
- 196 الصورة رقم 46 : الأضرحة المشرفة على الصحن
- 197 الصورة رقم 47 : الكتابة التأسيسية أعلى مدخل ضريح الشيخ سيدي مبارك

- 197 الصورة رقم 48: ضريح محمد بن الحسين
- 199 الصورة رقم 49: مقبرة عائلة سيدي مبارك بالحنقة
- 202 الصورة رقم 50: موقع المدرسة ضمن المدينة العتيقة لقسنطينة ((ogebc
- 203 الصورة رقم 51: المنافذ المؤدية لمدرسة سيدي الكتاني
- 204 الصورة رقم 52: أبيات شعرية تمجد صالح باي وهي معلقة على الجدار الداخلي لمقبرة
- 207 الصورة رقم 53: المدرسة الكتانية في العهد الاستعماري
- 210 الصورة رقم 54: كتلة المدرسة والمسجد بواجهتهما الرئيسية المشرفة على ساحة سوق العصر
- 211 الصورة رقم 55: الأروقة المشرفة على الصحن
- 211 الصورة رقم 56: واجهة المدرسة الأمامية
- الصورة رقم 57: واجهة قاعة التدريس (المصلى) مع مدخلها المفتوح على الرواق الشمالي من الصحن
- 213 الصورة رقم 58: قاعة التدريس (المصلى) وبها المحراب والنوافذ المفتوحة على السقيفة التي تلي المدخل الخارجي
- 213 الصورة رقم 59: أحد أروقة الطابق الأول التي تفتح عليه غرف الطلبة
- 215 الصورة رقم 60: واجهة المقبرة المطللة على الصحن من الجهة الشمالية
- 216 الصورة رقم 61: قبة المقبرة ترتكز على قاعدة مربعة محمولة على أربعة دعائم تحمل عقودا حدوية
- 217 الصورة رقم 62: قبور رخامية وخشبية لصالح باي وأفراد من عائلته
- 218 الصورة رقم 63: التسقيف الخارجي للمدرسة ويظهر الشكل اللهمي لسقف المقبرة العائلية
- 219 الصورة رقم 64: الواجهة الرئيسية المطللة على سوق العصر في الجهة الجنوبية للمسجد
- 219 الصورة رقم 65: المدخل الرئيسي للمسجد
- 220 الصورة رقم 66: صحن المسجد قبل اغلاقه سنة 2015م
- 220 الصورة رقم 67: صحن المسجد حاليا وهو مغلق 2022م
- الصورة رقم 68: السلام المؤدية من الصحن إلى بيت الصلاة في الطابق الأول قبل اغلاقه سنة 2015م
- 221 ووضعها الحالي

- 221 الصورة رقم 69: بيت الصلاة في الطابق الأول
- 222 الصورة رقم 70: جانب من المنبر الرخامي للجامع
- 222 الصورة رقم 71: المحراب
- 223 الصورة رقم 72: مئذنة جامع سيدي الكتاني
- 224 الصورة رقم 73: الواجهة الجنوبية للمسجد من تجديدات الفترة الاستعمارية
- 225 الصورة رقم 74: اشغال الترميم بالمسجد والمتوقفة منذ سنوات
- 231 الصورة رقم 75: موقع المدرسة المحمدية قبل تدميرها ويظهر مسجد المبايعه والضريح
- 258 الصورة رقم 76: موقع المدرسة المرادية وسط مدينة قابس الجديدة
- 262 الصورة رقم 77: الواجهة الرئيسية للمدرسة في الجهة الشرقية
- 263 الصورة رقم 79: مدخل المدرسة الرئيسي
- 265 الصورة رقم 79: الرواق الشرقي من الصحن ويفتح عليه غرف الطلبة
- 265 الصورة رقم 80: الرواق الغربي من الصحن ويفتح عليه مسجد المدرسة
- 266 الصورة رقم 81: فضاء مكشوف تفتح عليه غرف للطلبة بالواجهة الغربية للصحن
- 267 الصورة رقم 82: الركن الشمالي الغربي من الصحن والتي تفتح عليه غرفة المؤدب
- 269 الصورة رقم 83: حنية المحراب
- 269 الصورة رقم 84: مسجد المدرسة وهو الآن قاعة لعرض اللباس التقليدي التونسي
- 270 الصورة رقم 85: سلم المئذنة ب 26 درجة
- 270 الصورة رقم 86: قبة المحراب من الداخل
- 271 الصورة رقم 87: المئذنة وتظهر قبة المحراب من الخارج
- 271 الصورة رقم 88: التسقيف بالأقبية المتقاطعة
- 272 الصورة رقم 89: موقع مدرسة النخلة وواجهتها الرئيسية وسط مدينة تونس القديمة
- 273 الصورة رقم 90: النخلة التي تتوسط صحن المدرسة
- 277 الصورة رقم 92: صورة قديمة لنهج الكتبية التي تفتح عليه مدرسة النخلة وأوقافها (دكاكين ومخازن)
- 280 الصورة رقم 92: مدخل المدرسة في الواجهة الرئيسية

- 281 الصورة رقم 93: السقيفة المشرفة على الصحن
- 282 الصورة رقم 94: الصحن تحيط به الأروقة (الأعمدة، التيجان، العقود)
- 283 الصورة رقم 95: مدخل قاعة الدروس (بيت الصلاة)
- 283 الصورة رقم 96: قاعة الدرس (بيت الصلاة)
- 284 الصورة رقم 97: الغرفة الكبرى بالزاوية الشمالية الغربية لايزال يدرس بها القرآن الكريم إلى اليوم
- 285 الصورة رقم 98: أبواب غرف الطلبة التي تفتح على الأروقة وتعلوها النوافذ للتهوية والإضاءة
- 286 الصورة رقم 99: أضرحة البايات الحسينيين بمدينة تونس
- 286 الصورة رقم 100: ترميمات على الواجهة الجنوبية المطلة على الصحن
- 287 الصورة رقم 101: موقع مدرسة جامع الجديد وواجهتها الرئيسية على زنقة بلقاسم الصبابطي
- 290 الصورة رقم 102: مدرسة جامع الجديد -فترة الاحتلال الفرنسي-
- 292 الصورة رقم 104: الواجهة الرئيسية على زنقة سيدي قاسم الصبابطي
- 293 الصورة رقم 104: مدخل المدرسة وبابه الخشبي المحلى بالمسامير الحديدية
- 294 الصورة رقم 105: السقاية بمدرسة جامع جديد ولوحتها الرخامية التأسيسية
- 295 الصورة رقم 106: السقيفة التي تلي المدخل الرئيسي والباب الذي يربط بينها وبين الصحن
- 296 الصورة رقم 107: صحن المدرسة
- 297 الصورة رقم 108: الأروقة التي تشرف على الصحن بأعمدتها الرخامية وتيجانها المركبة
- 298 الصورة رقم 109: المداخل التي تربط المدرسة بالمسجد
- 299 الصورة رقم 110: جانب من مصلى المدرسة وميضأته
- 300 الصورة رقم 111: مدخل المسجد الذي يفتح على المدرسة
- 300 الصورة رقم 112: المدخل الرئيسي للمسجد
- 301 الصورة رقم 113: بيت الصلاة وتظهر فيه السدة
- 302 الصورة رقم 114: المنبر الرخامي للمسجد
- 302 الصورة رقم 115: المحراب يتوسط جدار القبلة
- 302 الصورة رقم 116: مئذنة المسجد

- 303 الصورة رقم 117: الأضرحة الملحقة بالمدرسة والجامع الجديد
- 304 الصورة رقم 118: موقع المدرسة السليمانية وواجهتها الرئيسية على نّح السليمانية
- 307 الصورة رقم 119: مدرسة السليمانية -فترة الاحتلال الفرنسي-
- 309 الصورة رقم 120: الواجهة الرئيسية للمدرسة وبها المدخل والنوافذ
- 310 الصورة رقم 121: واجهتي ظلة المدخل الرئيسي للمدرسة (عمل الطالب)
- 311 الصورة رقم 122: مدخل المدرسة المفضي إلى السقيفة
- 311 الصورة رقم 123: السقيفة بما دكانة يكسوها الزليج ويعلوها قبة بما زخارف جصية مخرمة وبها مدخلان أحدهما يفتح على ظلة المدخل الخارجي والآخر على الصحن
- 312 الصورة رقم 124: صحن المدرسة السليمانية
- 313 الصورة رقم 125: جوانب مختلفة من الصحن
- 314 الصورة رقم 126: واجهة المسجد بمداخله الثلاث المشرفة على الصحن
- 314 الصورة رقم 127: المدخل الرئيسي لمسجد المدرسة
- 316 الصورة رقم 128: قاعة الصلاة بأعمدتها الحجرية
- 317 الصورة رقم 129: جانب من التفاصيل المعمارية والفنية لقاعة الصلاة
- 317 الصورة رقم 130: المحراب والقبة المضلعة التي تعلوه
- 318 الصورة رقم 131: موقع الأضرحة الباشية بين مدرستي علي باشا ومدخلها الرئيسي الذي يفتح على نّح الكتبية
- 319 الصورة رقم 132: الصحن بالأضرحة الباشية
- 319 الصورة رقم 133: واجهة الرواق الشرقي للصحن
- 320 الصورة رقم 134: الغرفة الجنائزية
- 320 الصورة رقم 135: الزخارف الجصية بقبة الغرفة الجنائزية

فهرس الجدول:

- الجدول رقم 1: البائلربايات الالين حكموال الجزائر 113
- الجدول رقم 2: الباشاوات الالين حكموال الجزائر 119
- الجدول رقم 3: الآغاوات الالين حكموال الجزائر 123
- الجدول رقم 4: الاليات الالين حكموال الجزائر 127
- الجدول رقم 5: مقارنة بين مساحة بعض المدارس في مختلف بلدان العالم الإسلامي 336
- الجدول رقم 6: شكل الصلحون ومقاساتها في النمازل المدرسة من المدارس 339
- الجدول رقم 7: عدد العرف في النمازل المدرسة من المدارس ومقاساتها 347

فهرس المحتويات:

شكر وتقدير

الإهداء

مقدمة: أ

15 الفصل الأول: المدرسة ونشأتها في بلاد المغرب الإسلامي

16 أولا .تعريف المدرسة ونشأتها في الإسلام

16 1. تعريف المدرسة:

17 2. نشأة المدرسة وانتشارها في المشرق الإسلامي:

22 ثانيا .نشأة المدرسة في بلاد المغرب الإسلامي:

24 1. نشأة المدرسة في تونس:

25 2. نشأة المدرسة في المغرب الأقصى:

26 3. نشأة المدرسة في المغرب الأوسط:

28 4. نشأة المدرسة في ليبيا:

29 5. نشأة المدرسة في الأندلس:

30 ثالثا .ظروف وعوامل نشأة المدارس

34 رابعا .الطرز المعمارية في تخطيط المدارس الإسلامية:

45 خامسا .النظريات المتعددة حول أصل تخطيط المدرسة:

50 سادسا .الفرق بين المدرسة والزاوية والمسجد والرباط:

60 الفصل الثاني: تطور المدرسة ببلاد المغرب الإسلامي حتى نهاية القرن 19

| | |
|-------|--|
| 61 | أولا .تطور المدرسة في تونس حتى نهاية العهد العثماني: |
| 61 | 1. تطور المدرسة في العهد الحفصي: |
| 69 | 2. تطور المدرسة في العهد العثماني: |
| 79 | ثانيا .تطور المدرسة في المغرب الأوسط حتى نهاية العهد العثماني: |
| 79 | 1. تطور المدرسة في العهد الزياني: |
| 85 | 2. تطور المدرسة في العهد العثماني: |
| 90 | ثالثا .تطور المدرسة في المغرب الأقصى حتى نهاية العهد العلوي: |
| 90 | 1. تطور المدرسة في العهد المريني: |
| 96 | 2. تطور المدرسة في العهد السعدي: |
| 98 | 3. تطور المدرسة في العهد العلوي: |
| 99 | رابعا .تطور المدرسة في ليبيا حتى نهاية العهد العثماني: |
| 99 | 1. تطور المدرسة في العهد الحفصي: |
| 100 | 2. تطور المدرسة في العهد العثماني: |
| <hr/> | |
| 103 | الفصل الثالث: مدارس التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني |
| <hr/> | |
| 104 | أولا .الجزائر في ظل الحكم العثماني (1518-1830م): |
| 128 | ثانيا .التعليم والمؤسسات التعليمية في الجزائر خلال العهد العثماني: |
| 147 | ثالثا .مدارس التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني |
| 147 | 1. مدرسة مازونة الفقهية (غليزان): |
| 164 | 2. مدرسة خنق النطاح (وهران): |
| 180 | 3. المدرسة الناصرية بخنقة سيدي ناجي (بسكرة): |
| 202 | 4. المدرسة الكتانية (قسنطينة): |

| | |
|-------|--|
| 226 | رابعاً. أهم المدارس العثمانية المندثرة بالجزائر |
| 226 | 1. المدرسة القشاشية بمدينة الجزائر: |
| 228 | 2. المدرسة المحمدية بمعسكر: |
| 233 | 3. مدرسة جامع الكبير بمدينة الجزائر: |
| 234 | 4. مدرسة الأندلسيين بمدينة الجزائر: |
| 235 | 5. مدرسة شيخ البلاد بمدينة الجزائر: |
| 237 | 6. مدرسة القيطنة بمعسكر: |
| <hr/> | |
| 240 | الفصل الرابع: مدارس التعليم في تونس خلال العهد العثماني |
| <hr/> | |
| 241 | أولاً. تونس في العهد العثماني (982 - 1298هـ / 1574 - 1881م): |
| 243 | 1. تحرير تونس نهائياً (981هـ/1574م): |
| 243 | 2. عهد الباشاوات (982-998هـ/1574-1590م) |
| 244 | 3. عهد الدايات (999-1040هـ/1591-1631م) |
| 245 | 4. عهد البايات (1020-1229هـ/1612-1814م) |
| 254 | ثانياً. التعليم في تونس خلال العهد العثماني: |
| 258 | ثالثاً. أهم مدارس التعليم في تونس خلال العهد العثماني |
| 258 | 1. المدرسة المرادية (قابس): |
| 272 | 2. مدرسة النخلة (مدينة تونس): |
| 287 | 3. المدرسة الجديدة (مدينة تونس): |
| 304 | 4. المدرسة السليمانية (مدينة تونس): |
| 322 | رابعاً. أهم المدارس العثمانية المندثرة بتونس |
| 322 | 1. مدرسة القائد مراد بمدينة تونس: |

| | |
|-----|--|
| 322 | 1.1 موقع المدرسة: |
| 322 | 2.1 المؤسس وفترة التأسيس: |
| 324 | 3.1 أهم مشايخ المدرسة: |
| 324 | 2. مدرسة الزاوية الباهية بمدينة تونس: |
| 324 | 1.2 تأسيس المدرسة: |
| 325 | 2.2 أهم مشايخ المدرسة: |
| 326 | الفصل الخامس: دراسة تحليلية مقارنة بين النماذج المدروسة في تونس والجزائر |
| 327 | أولا .من حيث الانتشار (التقييم الكمي): |
| 329 | ثانيا .التصورات المعمارية للنماذج المدروسة: |
| 330 | 1.من حيث النظام التخطيطي: |
| 334 | 2. من حيث الكتلة: |
| 337 | ثالثا .توزيع المرافق المعمارية: |
| 337 | 1. فضاءات الاستقبال: |
| 341 | 2. فضاءات التعبد والدراسة: |
| 345 | 3. فضاءات الإقامة: |
| 352 | خاتمة: |
| 356 | قائمة المصادر والمراجع: |
| 389 | فهرس الأعلام: |
| 393 | فهرس الأماكن والبلدان: |
| 398 | فهرس الشعوب والقبائل: |
| 399 | فهرس المخططات: |

فهرس المحتويات

401 فهرس الصور:

407 فهرس الجداول:

فهرس المحتويات